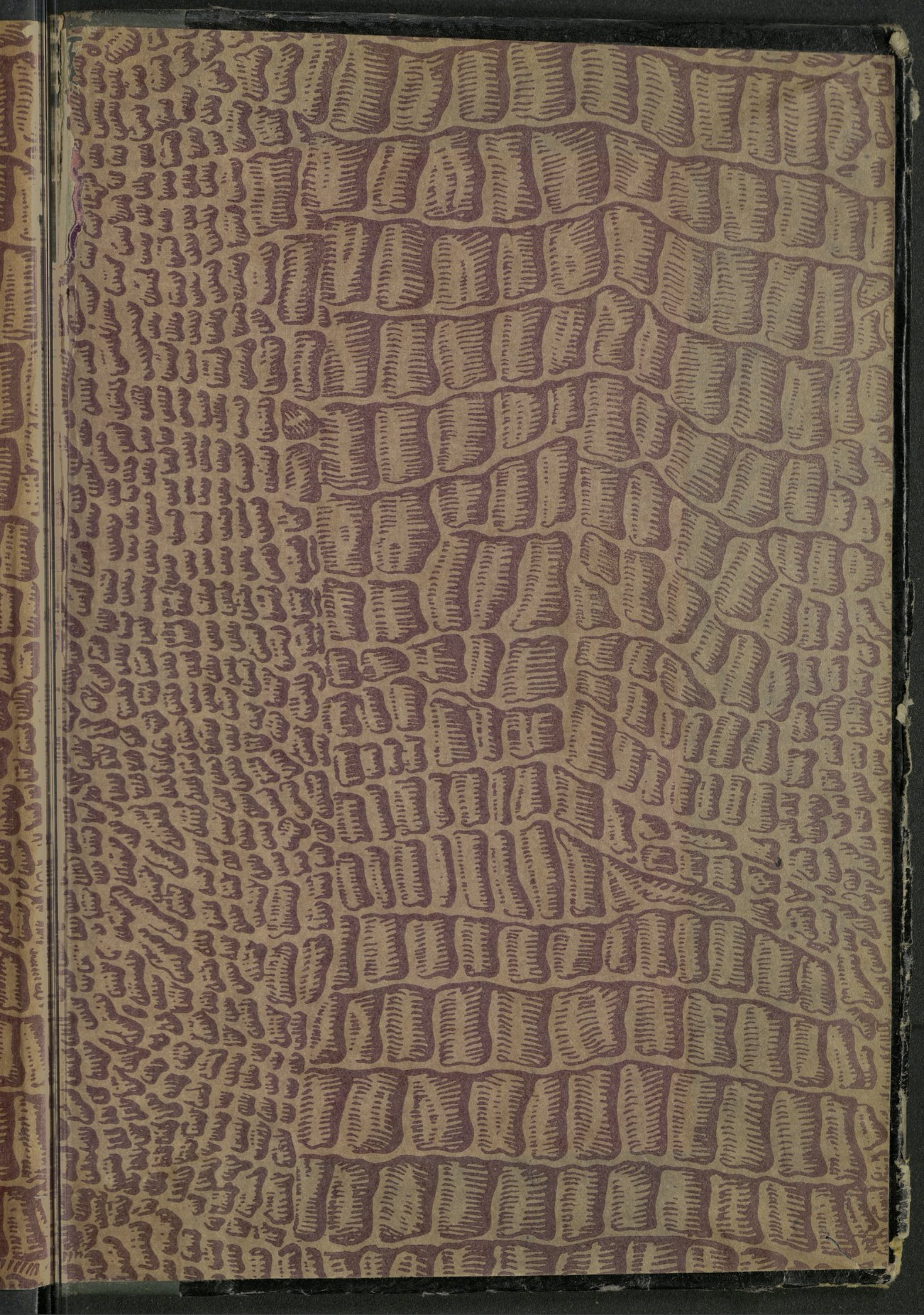
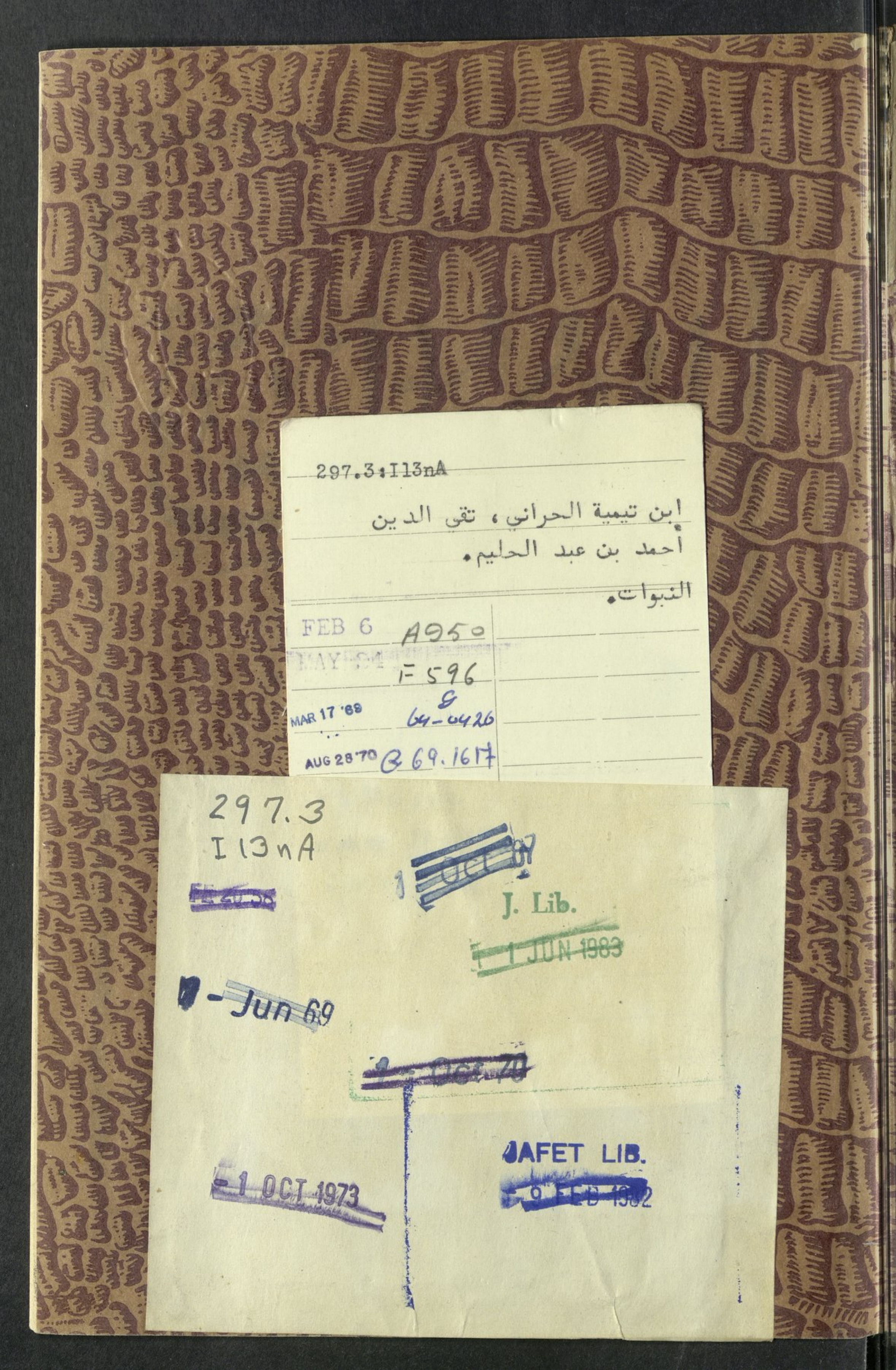
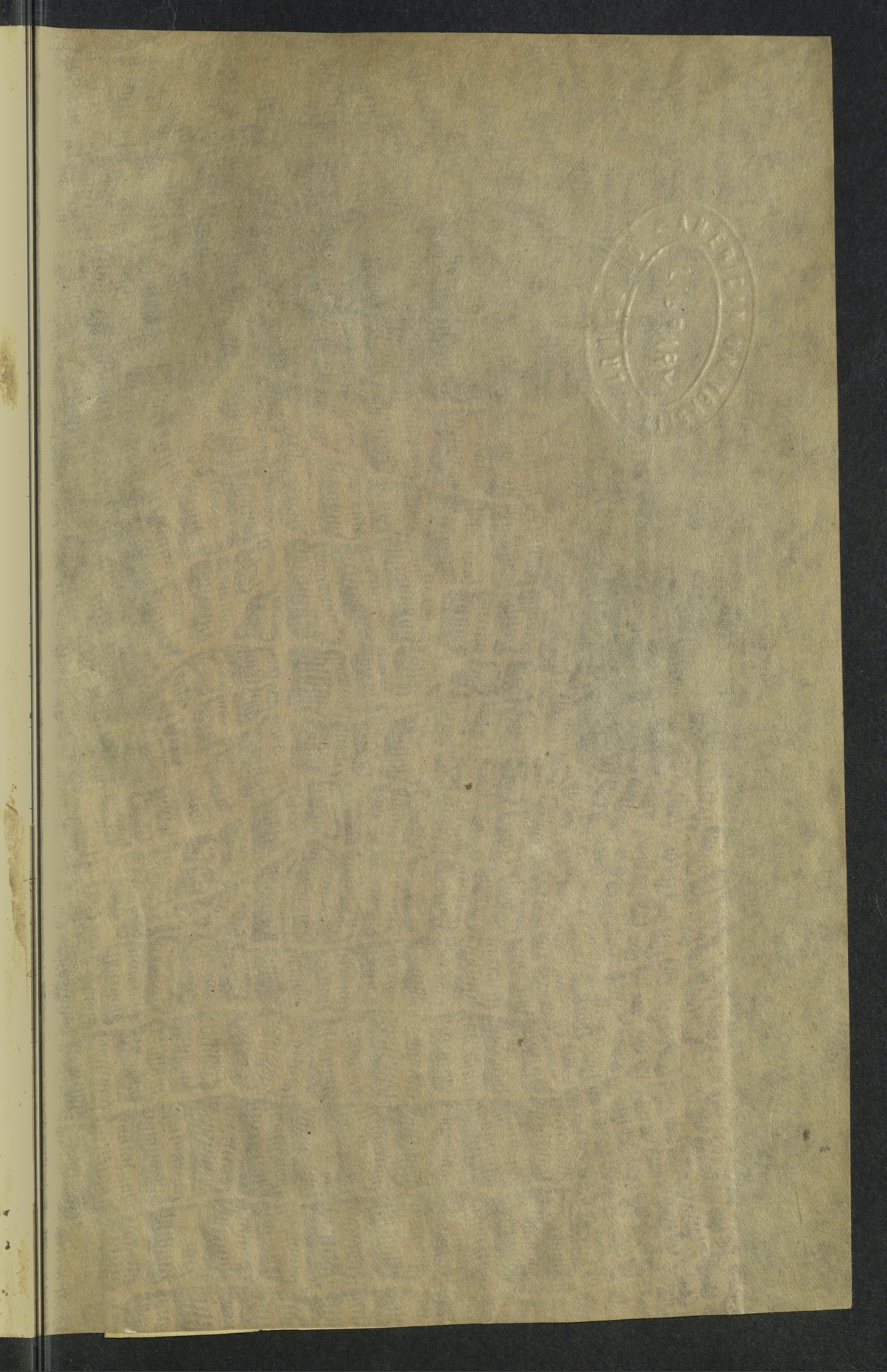
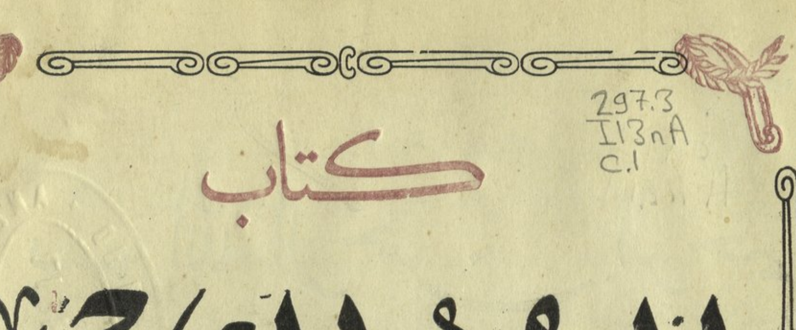










كتاب النبوات

للامام العلامة شيخ الاسلام علم الاعلام

تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية

المتوفي سنة ٧٢٨ هجرية

عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه للمرة الأولى سنة ١٣٤٦ هـ

إدارة الطباعة المنيرية

لصاحبها ومديرها محمد منير عبده أغا الدمشقي

ادارة الطباعة المنيرية بمصر بشارع الكحكيين نمرة ١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . قال شيخ الاسلام تقى الدين ابن تيمية رحمه الله ☆

فصل

في معجزات الانبياء التى هي آياتهم وبراهينهم كما سماها الله آيات وبراهين

وللنظار طرق في التميز بينها وبين غيرها وفي وجه دلالتها ☆ أما الاول فان منهم من رأى أن كل ما يخرج عن الامر المعتاد فانه معجزة وهو الخارق للعادة اذا اقترن بدعوى النبوة . وقد علموا أن الدليل مستلزم للمدلول ، فيلزم أن يكون كل من خرقت له العادة نبياً ☆

فقالت طائفة لا تخرق العادة الا لنبى ، وكذبوا بما يذكر من خوارق السحرة والكهان ، وبكرامات الصالحين . وهذه طريقة أكثر المعتزلة وغيرهم كأبى محمد بن حزم وغيره . بل يحكى هذا القول عن أبى اسحق الاسفرايينى وأبى محمد بن أبى زيد . ولكن كأن في الحكاية عنهما غلطاً وانما أرادوا الفرق بين الجنسين . وهؤلاء يقولون ان ما جرى لمريم وعند مولد الرسول فهو ارهاص أى توطئة واعلام بمجئ الرسول فما خرقت في الحقيقة الا لنبي ، فيقال لهم وهكذا الاولياء انما خرقت لهم لمتابعتهم الرسول ، فكما أن ما تقدمه فهو من معجزاته ؛ فكذلك ما تأخر عنه ، وهؤلاء يستثنون ما يكون أمام الساعة . لكن هؤلاء كذبوا بما تواتر من الخوارق لغير الانبياء والمنازع لهم يقول هي موجودة مشهودة لمن شهدها متواترة عند كثير من الناس أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الانبياء وقد شهدها خلق كثير لم يشهدوا معجزات الانبياء ، فكيف يكذبون بما شهدوه ، ويصدقون بما غاب عنهم ؛ ويكذبون بما تواتر عندهم أعظم مما تواتر غيره ؟ ☆

وقالت طائفة بل كل هـذا حق وخرق العادة جائز مطلقاً ، وكل ما خرق لنبي من العادات يجوز أن يخرق لغيره من الصالحين ؛ بل ومن السحرة والكهان ، لكن الفرق أن هذه تقترن بها دعوى النبوة وهو التحدى . وقد يقولون انه لا يمكن أحداً أن يعارضها بخلاف تلك ، وهذا قول من اتبع جهماً على أصله في أفعال الرب من الجهمية وغيرهم حيث جوزوا أن يفعل كل ممكن فلزمهم جواز خرق العادات مطلقاً على يد كل أحد واحتاجوا مع ذلك الى الفرق بين النبي وغيره ، فلم يأتوا بفرق معقول ، بل قالوا هذا يقترن به التحدى ، فمن ادعى النبوة وهو كاذب لم يجز أن يخرق الله له العادة أو يخرقها له ولا يكون دليلا على صدقه لما يقترن بها مما يناقض ذلك فان هذين قولان لهم ☆

فقيل لهم لم أوجبتم هذا في هـذا الموضع دون غيره وأنتم لا توجبون على الله شيئاً ؟ فقالوا لان المعجزة علم الصدق فيمتنع أن يكون لغير صادق : فالمجموع هو الممتنع وهو خارق العادة ودعوى النبوة ، أو هذان مع السلامة عن المعارض ☆ فقيل لهم ولم قلتم انه علم الصدق على قولكم ؟ فقالوا اما لانه يفضى منع ذلك الى عجزه ؛ واما لانه علم دلالته على الصدق بالضرورة ☆فقيل لهم انما يلزم العجز لو كان التصديق على قولكم ممكناً ؛ وكون دلالتها معلومة بالضرورة هو مسلم لكنه يناقض أصولكم ويوجب أن يكون أحد الشيئين معلوماً بالضرورة دون نظيره وهـذا ممتنع فانكم تقولون يجوز أن يخلق على يد مدعى النبوة والساحر والصالح ، لكن ان ادعى النبوة دلت على صدقه وان لم يدع النبوة لم يدل على شئ مع أنه لا فرق عند الله بين أن يخلقها على يد مدعى النبوة وغير مدعى النبوة بل كلاهما جائز فيه . فاذا كان هذا مثل هذا فلم كان أحدهما دليلا دون الآخر ؟ ولم اقترن العلم بأحد المتماثلين دون الآخر؟ ومن أين علمتم أن الرب لا يخرقها مع دعوى النبوة الا على يد صادق وأنتم تجوزون على أصلكم كل فعل مقدور وخلقها على يد الكذاب مقدور ؟ ☆

ثم هؤلاء جوزوا كرامات الصالحين ولم يذكروا بين جنسها وجنس كرامات الانبياء فرقا بل صرح أئمتهم أن كل ما خرق لنبي يجوز أن يخرق للاولياء حتى معراج محمد . وفرق البحر لموسى. وناقة صالح وغير ذلك ولم يذكروا بين المعجزة والسحر

فرقا معقولا بل قد يجوزون أن يأتى الساحر بمثل ذلك لكن بينهما فرق دعوى النبوة وبين الصالح والساحر البر والفجور وحذاق الفلاسفة الذين تكلموا في هذا الباب مثل ابن سينا وهو أفضل طائفتهم ولكنه أجهل من تكلم في هذا الباب . فانهم جعلوا ذلك كله من قوى النفس لكن الفرق أن النبى والصالح نفسه طاهرة يقصد الخير ، والساحر نفسه خبيثة . وأما الفرق بين النبى والصالح فتعذر على قول هؤلاء ☆

ومن الناس من فرق بين معجزات الانبياء ، وكرامات الاولياء بفروق ضعيفة ، مثل قولهم الكرامة يخفيها صاحبها ؛ أو الكرامة لا يتحدى بها ، ومن الكرامات ما أظهرها أصحابها كاظهار العلاء بن الحضرمى المشى على الماء ، واظهار عمر مخاطبة سارية على المنبر ، واظهار أبى مسلم لما ألقى في النار أنها صارت عليه برداً وسلاماً : وهذا بخلاف من يدخلها بالشياطين فانه قد يطفئها الا أنها لا تصير عليه برداً وسلاماً واطفاء النار مقدور للانس والجن : ومنها ما يتحدى بها صاحبها أن دين الاسلام حق كما فعل خالد بن الوليد لما شرب السم ، وكالغلام الذى أتى الراهب وترك الساحر وأمر بقتل نفسه بسهمه باسم ربه وكان قبل ذلك قد خرقت له العادة فلم يتمكنوا من قتله ، ومثل هذا كثير ☆

فيقال المراتب ثلاثة : آيات الانبياء ؛ ثم كرامات الصالحين ؛ ثم خوارق الكفار والفجار كالسحرة والكهان وما يحصل لبعض المشركين وأهل الكتاب والضلال من المسلمين . أما الصالحون الذين يدعون الى طريق الانبياء لا يخرجون عنها فتلك خوارقهم من معجزات الانبياء فانهم يقولون نحن انما حصل لنا هذا باتباع الانبياء ولو لم نتبعهم لم يحصل لنا هذا فهؤلاء اذا قدر انه جرى على يد أحدهم ما هو من جنس ما جرى للانبياء كما صارت النار برداً وسلاماً على أبى مسلم ؛ كما صارت على ابراهيم . وكما يكثر الله الطعام والشراب لكثير من الصالحين كما جرى في بعض المواطن للنبى أو إحياء الله ميتاً لبعض الصالحين كما أحياه للانبياء . فهذه الامور هي مؤكدة لآيات الانبياء وهي أيضا من معجزاتهم بمنزلة ما تقدمهم من الارهاص ؛ ومع هذا فالاولياء دون الانبياء والمرسلين فلا تبلغ كرامات أحد قط الى مثل معجزات المرسلين كما أنهم لا يبلغون في الفضيلة والثواب الى درجاتهم ، ولكن قد يشاركونهم في بعضها كما قد

يشاركونهم في بعض أعمالهم . وكرامات الصالحين تدل على صحة الدين الذى جاء به الرسول لا تدل على أن الولى معصوم ولا على أنه يجب طاعته في كل ما يقوله ☆

ومن هنا ضل كثير من الناس من النصارى وغيرهم ، فان الحواريين وغيرهم كانت لهم كرامات كما تكون الكرامات لصالحى هذه الامة فظنوا أن ذلك يستلزم عصمتهم كما يستلزم عصمة الانبياء فصاروا يوجبون موافقتهم في كل ما يقولون وهذا غلط فان النبى وجب قبول كل ما يقول لكونه نبياً ادعى النبوة ؛ ودلت المعجزة على صدقه ، والنبى معصوم وهنا المعجزة مادلت على النبوة بل على متابعة النبى وصحة دين النبى ، فلا يلزم أن يكون هذا التابع معصوماً ، ولكن الذى يحتاج الى الفرقان الفرق بين الانبياء وأتباعهم وبين من خالفهم من الكفار والفجار كالسحرة والكهان وغيرهم حتى يظهر الفرق بين الحق والباطل وبين ما يكون دليلا على صدق صاحبه كمدعى النبوة وبين ما لا يكون دليلا على صدق صاحبه ، فان الدليل لا يكون دليلا حتى يكون مستلزماً للمدلول متى وجد وجد المدلول والا فاذا وجد تارة مع وجود المدلول وتارة مع عدمه فليس بدليل . فآيات الانبياء وبراهينهم لا توجد الا مع النبوة ولا توجد مع ما يناقض النبوة ؛ ومدعى النبوة اما صادق واما كاذب ، والكذب يناقض النبوة ، فلا يجوز أن يوجد مع المناقض لها مثل ما يوجد معها وليس هنا شئ مخالف لها ولا مناقض فان الكفر والسحر والكهانة كل هذا يناقض النبوة لا يجتمع هو والنبوة ☆

والناس رجلان : رجل موافق لهم ورجل مخالف لهم . فالمخالف مناقض واذا كان كذلك فيقال جنس آيات الانبياء خارجة عن مقدور البشر بل وعن مقدور جنس الحيوان . وأما خوارق مخالفيهم كالسحرة والكهان فانها من جنس أفعال الحيوان من الانس وغيره من الحيوان والجن مثل قتل الساحر وتمريضه لغيره فهذا أمر مقدور معروف للناس بالسحر وغير السحر ؛ وكذلك ركوب المكنسة أو الخابية أو غير ذلك حتى تطير به وطيرانه في الهواء من بلد الى بلد هذا فعل مقدور للحيوان فان الطير تفعل ذلك والجن تفعل ذلك وقد أخبر الله أن العفريت قال لسليمان (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) وهذا تصرف في اعراض الحى فان الموت والمرض والحركة اعراض والحيوان يقبل في العادة مثل هذه الاعراض ليس في هذا قلب جنس الى

جنس ولا في هذا ما يختص الرب بالقدرة عليه ولا ما يختص به الملائكة . وكذلك احضار ما يحضر من طعام أو نفقة أو ثياب أو غير ذلك من الغيب وهذا انما هو نقل مال من مكان الى مكان وهذا تفعله الانس والجن لكن الجن تفعله والناس لا يبصرون ذلك وهذا بخلاف كون الماء القليل نفسه يفيض حتى يصير كثيراً بأن ينبع من بين الاصابع من غير زيادة يزادها فهذا لا يقدر عليه أنسى ولا جنى وكذلك الاخبار ببعض الامور الغائبة مع الكذب في بعض الاخبار فهذا تفعله الجن كثيراً مع الكهان وهو معتاد لهم مقدور بخلاف أخبارهم بما يأكلون وما يدخرون مع تسمية الله على ذلك فهذا لا تظهر عليه الشياطين . وبنو اسرائيل كانوا مسلمين يسمون الله . وأيضاً فخبر المسيح وغيره من الانبياء ليس فيه كذب قط والكهان لابد لهم من الكذب والرب قد أخبر في القرآن أن الشياطين تنزل على بعض الناس فتخبره ببعض الامور الغائبة لكن ذكر الفرق فقال (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) وكذلك مسرى الرسول ﷺ من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ليريه الرب من آياته فخاصة الرسول ليست مجرد قطع هذه المسافة بل قطعها ليريه الرب من الآيات الغائبة ما يخبر به فهذا لا يقدر عليه الجن وهو نفسه لم يحتج بالمسرى على نبوته بل جعله مما يؤمن به فأخبرهم به ليؤمنوا به والمقصود ايمانهم بما أخبرهم من الغيب الذى رآه تلك الليلة والا فهم كانوا يعرفون المسجد الاقصى ولهذا قال (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن). قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به وهذا كما قال في الآية (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى) وكذلك ما يخبر به الرسول من أنباء الغيب قال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً) فهذا غيب الرب الذى اختص به مثل علمه بما سيكون من تفصيل الامور الكبار على وجه الصدق فان هذا لا يقدر عليه الا الله . والجن غايتها أن تخبر ببعض الامور المستقبلة كالذى يسترقه الجن من السماء مع ما في الجن من الكذب فلا بد لهم من الكذب والذى يخبرون به هو مما يعلم بالمنامات

وغير المنامات فهو من جنس المعتاد للناس . وأما ما يخبر الرسل من الامور البعيدة الكبيرة مفصلا مثل اخباره « انكم تقاتلون الترك صغار الاعين ذلف الانف(١) ينتعلون الشعر كأن وجوههم المجان المطرقة» . وقوله « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الابل ببصرى » ونحو ذلك . فهذا لا يقدر عليه جنى ولا أنسى والمقصود أن ما يخبر به غير النبى من الغيب معتاد معروف نظيره من الجن والانس فهو من جنس المقدور لهم وما يخبر به النبى خارج عن قدرة هؤلاء وهؤلاء فهو من غيب الله الذى قال فيه (فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول)☆

﴿ والآيات الخارقة جنسان ﴾ : جنس في نوع العلم ؛ وجنس في نوع القدرة فما اختص به النبى من العلم خارج عن قدرة الانس والجن وما اختص به من المقدورات خارج عن قدرة الانس والجن وقدرة الجن في هذا الباب كقدرة الانس لان الجن هم من جملة من دعاه الانبياء الى الايمان وأرسلت الرسل اليهم قال تعالى (يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا) ومعلوم أن النبى اذا دعا الجن الى الايمان به فلا بد أن يأتى بآية خارجة عن مقدور الجن فلا بد أن تكون آيات الانبياء خارجة عن مقدور الانس والجن . وما يأتى به الكاهن من خبر الجن غايته أنه سمعه الجنى لما استرق السمع مثل الذى يستمع الى حديث قوم وهم له كارهون . وما أعطاه الله سليمان مجموعه يخرج عن قدرة الانس والجن كتسخير الرياح والطير . وأما الملائكة فالانبياء لا تدعوا الملائكة الى الايمان بهم بل الملائكة تنزل بالوحى على الانبياء وتعينهم وتؤيدهم ، فالخوارق التى تكون بأفعال الملائكة تختص بالانبياء واتباعهم ، لا تكون للكفار والسحرة والكهان . ولهذا أخبر الله تعالى أن الذى جاءه بالقرآن ملك لا شيطان فقال (انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالافق المبين وما هو على الغيب بظنين وما هو بقول شيطان رجيم) وقال (نزل به الروح الامين على

«١» قال فى النهاية الذلف بالتحريك قصر الانف وانبطاحه : وقيل ارتفاع طرفه مع صغر رنبته . والذلف بسكون اللام جمع اذلف كاحمر وحمر والانف جمع قلة للانف وضع موضع جمع الكثرة اهـ . والله اعلم

قلبك لتكون من المنذرين) وقال (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) وقال (من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله) وقال (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) فينبغى أن يتدبر هذا الموضع وتعرف الفروق الكثيرة بين آيات الانبياء وبين ما يشتبه بها كما يعرف الفرق بين النبى ، وبين المتنبى ، وبين ما يجئ به النبى ؛ وما يجئ به المتنبى . فالفرق حاصل في نفس صفات هذا ، وصفات هذا ، وأفعال هذا ، وأفعال هذا ، وأمر هذا ، وأمر هذا ، وخبر هذا ، وخبر هذا ، وآيات هذا ، وآيات هذا . اذ الناس محتاجون الى هذا الفرقان أعظم من حاجتهم الى غيره ، والله تعالى يبينه وييسره ☆ ولهذا أخبر أنه أرسل رسله بالآيات البينات وكيف يشبه خير الناس بشر الناس ولهذا لما مثلوا الرسول بالساحر وغيره قال تعالى (أنظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) وقد تنازع الناس في الخوارق هل تدل على صلاح صاحبها وعلى ولايته لله ☆

والتحقيق ان من كان مؤمناً بالانبياء لم يستدل على الصلاح بمجرد الخوارق التى قد تكون للكفار والفساق وانما يستدل بمتابعة الرجل للنبى فيميز بين أولياء الله وأعدائه بالفروق التى بينها الله ورسوله كقوله (ألا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) وقد علق السعادة بالايمان والتقوى في عدة مواضع كقوله لما ذكر السحرة (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عندالله خير لوكانوا يعلمون) وقوله عن يوسف (نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) وقوله في قصة صالح (ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) وهذه طريقة الصحابة والسلف ☆

وأما دلالتها على ولاية المعين فالناس متنازعون هل الولى والمؤمن من مات على ذلك بحيث اذا كان مؤمناً تقياً وقد علم انه يموت كافرا يكون في تلك الحال عدواً لله أو ينتقل من ايمان وولاية الى كفر وعداوة وهما قولان معروفان : فمن قال بالاول فالولى عنده كالمؤمن عند من علم أنه يموت على تلك الحال والخوارق لاتدل على ذلك : ولهذا قال هؤلاء كالقاضى أبى بكر وأبى يعلى وغيرهما انها لاتدل : وأما من قال الولاية

تتبدل فالولاية هنا كالايمان وقد يعلم أن الرجل مؤمن في الباطن تقى بدلائل كثيرة وقد يطلع الله بعض الناس على خاتمة غيره فهذا لايمتنع لكن هذا مثل الشهادة لمعين بالجنة وفيها ثلاثة أقوال : قيل لا يشهد بذلك لغير النبي وهو قول أبى حنيفة والاوزاعى وعلى بن المدينى وغيرهم : وقيل يشهد به لمن جاء به نص ان كان خبراً صحيحاً كمن شهد له النبى بالجنة فقط وهذا قول كثير من أصحابنا وغيرهم : وقيل يشهد به لمن استفاض عند الامة انه رجل صالح كعمر بن عبد العزيز والحسن البصرى وغيرهما وكان ابوثور يشهد لاحمد ابن حنبل بالجنة وقد جاء في الحديث الذى في المسند « يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار قالوا بماذا يارسول الله قال بالثناء الحسن والثناء السيء » وفي الصحيحين « أن النبي ﷺ مر عليه بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال وجبت وجبت ومر عليه بجنازة فأثنوا عليها شرا فقال وجبت وجبت فقيل يارسول الله ماقولك وجبت وجبت قال هذه الجنازة أثنيتم عليها الخير فقلت وجبت لها الجنة، وهذه الجنازة أثنيتم عليها شراً فقلت وجبت لها النار أنتم شهداء الله في الارض » وفي حديث آخر « اذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت واذا سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت » « وسئل عن الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه فقال « تلك عاجل بشرى المؤمن » ☆

والتحقيق أن هذا قد يعلم بأسباب وقد يغلب على الظن ولا يجوز للرجل أن يقول بما لايعلم : ولهذا لما قالت أم العلاء الانصارية « لما قدم المهاجرون المدينة اقترعت الانصار على سكناهم فصار لنا عثمان بن مظعون في السكنى فرض فرضناه ثم توفي فجاء رسول الله ﷺ فدخل فقلت رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتى أن قد أكرمك الله قال النبي ﷺ وما يدريك ان الله قد أكرمه قالت لا والله لا أدرى فقال النبى ﷺ اما هو فقد أتاه اليقين من ربه وانى لارجو له الخير والله ما أدرى وأنا رسول الله مايفعل بى ولا بكم قالت فوالله لا ازكى بعده أحداً أبدا قالت ثم رأيت لعثمان بعد في النوم عينا تجرى فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال ذاك عمله » ☆

وأما من لم يكن مقرا بالانبياء فهذا لايعرف الولى من غيره اذ الولى لايكون ولياً الا اذا آمن بالرسل.لكن قد تدل الخوارق على أن هؤلاء على الحق دون هؤلاء لكونهم من اتباع الانبياء كما قد يتنازع المسلمون والكفار في الدين فيؤيد الله المؤمنين بخوارق

تدل على صحة دينهم : كما صارت النار على ابى مسلم برداً وسلاما : وكما شرب خالد السم وأمثال ذلك فهذه الخوارق هي من جنس آيات الانبياء وقد يجتمع كفار ومسلمون ومبتدعة وفجار فيؤيد هؤلاء بخوارق تعينهم عليها الجن والشياطين ولكن جنهم وشياطينهم أقرب الى الاسلام فيترجحون بها على أولئك الكفار عند من لا يعرف النبوات كما يجرى لكثير من المبتدعة والفجار مع الكفار مثل ما يجرى للأحمدية وغيرهم مع عباد المشركين البخشية قدام (١) التتار كانت خوارق هؤلاء أقوى لكونهم كانوا أقرب الى الاسلام. وعند من هو أحق بالاسلام منهم لا تظهر خوارقهم بل تظهر خوارق من هو أتم ايماناً منهم وهذا يشبه رد أهل البدع على الكفار بما فيه بدعة فانهم وان ضلوا من هذا الوجه فهم خير من أولئك الكفار لكن من أراد أن يسلك الى الله على ماجاء به الرسول يضره هؤلاء ومن كان جائراً نفعه هؤلاء بل كلام ابى حامد ينفع المتفلسف ويصير أحسن فان المتفلسف يسلم به اسلام الفلاسفة والمؤمن يصير به ايمانه مثل ايمان الفلاسفة وهذا أردأ من هذا بخلاف ذاك ☆

والخوارق ثلاثة أنواع : اما أن تعين صاحبها على البر والتقوى فهذه أحوال نبينا ومن اتبعه خوارقهم لحجة في الدين أو حاجة للمسلمين والثانى ان تعينهم على مباحات كمن تعينه الجن على قضاء حوائجه المباحة فهذا متوسط وخوارقه لا ترفعه ولا تخفضه وهذا يشبه تسخير الجن لسليمان : والاول مثل ارسال نبينا الى الجن يدعوهم الى الايمان فهذا أكمل من استخدام الجن في بعض الامور المباحة كاستخدام سليمان لهم في محاريب وتماثيل وجفان كالجوابى وقدور راسيات : قال تعالى (يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابى وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور) وقال تعالى (ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) ونبينا أرسل اليهم يدعوهم الى الايمان بالله وعبادته كما أرسل الى الانس فاذا اتبعوه صاروا سعداء فهذا أكمل له ولهم من ذلك كما ان العبد الرسول أكمل من النبى الملك ويوسف وداود وسليمان أنبياء ملوك وأما محمد فهو عبد رسول كابراهيم وموسى والمسيح وهذا الصنف أفضل وأتباعهم أفضل ☆ والثالث أن تعينه على محرمات مثل الفواحش والظلم والشرك

«١» هكذا الاصل ولعلها ايام

والقول الباطل فهذا من جنس خوارق السحرة والكهان والكفار والفجار مثل أهل البدع من الرفاعية وغيرهم فانهم يستعينون بها على الشرك وقتل النفوس بغير حق والفواحش وهذه الثلاثة هي التى حرمها الله في قوله (والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما) ولهذا كانت طريقهم من جنس طريق الكهان والشعراء والمجانين وقد نزه الله نبيه عن أن يكون مجنوناً وشاعراً وكاهناً فان أخبارهم بالمغيبات عن شياطين تنزل عليهم كالكهان وأقوى أحوالهم لمؤلهيهم (١) وهم من جنس المجانين وقد قال شيخهم ان أصحاب الاحوال منهم يموتون على غير الاسلام واما سماعهم ووجدهم فهو شعر الشعراء ولهذا شبههم من رآهم بعباد المشركين من الهند الذين يعبدون الانداد ☆

فصل

وحقيقة الامر ان مايدل على النبوة هو آية على النبوة وبرهان عليها فلا بد أن يكون مختصاً بها لايكون مشتركا بين الانبياء وغيرهم فان الدليل هو مستلزم لمدلوله لايجب أن يكون أعم وجوداً منه بل اما أن يكون مساوياً له في العموم والخصوص أو يكون أخص منه وحينئذ فآية النبى لاتكون لغير الانبياء لكن اذا كانت معتادة لكل نبى أو لكثير من الانبياء لم يقدح هذا فيها فلا يضرها أن تكون معتادة للانبياء وكون الآية خارقة للعادة أو غير خارقة هو وصف لم يصفه القرآن والحديث ولا السلف وقد بينا في غير هذا الموضع ان هذا وصف لاينضبط وهو عديم التأثير فان نفس النبوة معتادة للانبياء خارقة للعادة بالنسبة الى غيرهم ☆ ان كون الشخص يخبره الله بالغيب خبراً معصوما هذا مختص بهم وليس هو موجوداً لغيرهم فضلا عن كونه معتادا ☆

فآية النبى لابد أن تكون خارقة للعادة بمعنى انها ليست معتادة للآدميين وذلك

«١» ومعنى الكلام ان الذين يؤلهون الجن والشياطين احوالهم وخوارقهم اشد من غيرهم ويقوى حال الواحد منهم كلما اشتد تأليهه لهم وهم من جنس المجانين لان لهم اخذات ونوبات وتشنجات ورطانات وهذيانات فهذه الاعراض نوع من الجنون اذ هو كما قيل فنون ويمكن صوغ العبارة باوضح منها هكذا (واقوى خوارق هؤلاء انما تظهر فيمن يؤلهون الجن والشياطين وهم من جنس المجانين) الخ

لانها حينئذ لاتكون مختصة بالنبي بل مشتركة . وبهذا احتجوا على أنه لابد أن تكون خارقة للعادة لكن ليس في هذا مايدل على ان كل خارق آية فالكهانة والسحر هو معتاد للسحرة والكهان وهو خارق بالنسبة الى غيرهم، كما ان ما يعرفه أهل الطب والنجوم والفقه والنحو هو معتاد لنظرائهم وهو خارق بالنسبة الى غيرهم ☆

ولهذا اذا أخبر الحاسب بوقت الكسوف والخسوف تعجب الناس اذ كانوا لايعرفون طريقه فليس في هذا مايختص بالنبي وكذلك قراءة القرآن بعد ان بعث محمد صلى الله عليه وسلم صارت مشتركة بين النبي وغيره : وأما نفس الابتداء به فهو المختص بالنبي وكذلك مايرويه من أنباء الغيب عن الانبياء لما صار مشتركا بين النبي وغيره لم يبق آية بخلاف الابتداء به فالكهانة مثلا وهو الاخبار ببعض الغائبات عن الجن أم معروف عند الناس وأرض العرب كانت مملوءة من الكهان وانما ذهب ذلك بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهم يكثرون في كل موضع نقص فيه أمر النبوة فهم كثيرون في أرض عباد الاصنام ويوجدون كثيراً عند النصارى ويوجدون كثيراً في بلاد المسلمين حيث نقص العلم والايمان بما جاء به الرسول لأن هؤلاء أعداء الانبياء والله تعالى قد ذكر الفرق بينهم وبين الانبياء فقال (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) فهؤلاء لابد أن يكون في أحدهم كذب وفجور وذلك يناقض النبوة فمن ادعى النبوة وأخبر بغيوب من جنس أخبار الكهان كان ما اخبر به خرقا للعادة عند أولئك القوم لكن ليس خرقا لعادة جنسه من الكهان وهم اذا جعلوا ذلك آية لنبوته كان ذلك لجهلهم بوجود هذا الجنس لغير الانبياء كالذين صدقوا مسيلمة الكذاب والأسود العنسي والحارث الدمشقي وبابا الرومي وغير هؤلاء من المتنبئين الكذابين وكان هؤلاء يأتون بأمور عجيبة خارقة لعادة أولئك القوم لكن ليست خارقة لعادة جنسهم ممن ليس بنبي فمن صدقهم ظن ان هذا مختص بالانبياء وكان من جهله بوجود هذا لغير الانبياء كما انهم كانوا يأتون بأمور تناقض النبوة ☆

ولهذا يجب في آيات الأنبياء أن لايعارضها من ليس بنبي فكل ما عارضها صادراً ممن ليس من جنس الانبياء فليس من آياتهم. ولهذا طلب فرعون أن يعارض ماجاء به موسى لما ادعى انه ساحر فجمع السحرة ليفعلوا مثل مايفعل موسى فلا تبقى حجته

مختصة بالنبوة وأمرهم موسى أن يأتوا أولا بخوارقهم فلما أتت وابتلعتها العصا التى صارت حية علم السحرة ان هذا ليس من جنس مقدورهم فآمنوا ايماناً جازما . ولما قال لهم فرعون (لاصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا) وقالوا (آمنا برب العالمين رب موسى وهارون) فكان من تمام علمهم بالسحر ان السحر معتاد لامثالهم وان هذا ليس من هذا الجنس بل هذا مختص بمثل هـذا فدل على صدق دعواه وفرعون وقومه بين معاند وجاهل استخفه فرعون كما قال تعالى (فاستخف قومه فأطاعوه) فاذا قيل لهم المعجزة هي الفعل الخارق للعادة أو قيل هي الفعل الخارق للعادة المقرون بالتحدى أو قيل مع ذلك الخارق للعادة السليم عن المعارضة فكونه خارقاً للعادة ليس أمراً مضبوطاً فانه ان أريد به انه لم يوجد له نظير في العالم فهذا باطل فان آيات الانبياء بعضها نظير بعض بل النوع الواحد منه كاحياء الموتى هو آية لغير واحد من الانبياء وان قيل ان بعض الانبياء كانت آيته لانظير لها كالقرآن والعصا والناقة لم يلزم ذلك في سائر الآيات ثم هب انه لانظير لها في نوعها لكن وجد حوارق العادات للانبياء غير هذا فنفس خوارق العادات معتاد جميعه للانبياء بل هو من لوازم نبوتهم مع كون الانبياء كثيرين وقـد روى أنهم مائة الف وأربعة وعشرون الف نبى وما يأتى به كل واحد من هؤلاء لا يكون معدوم النظير في العالم بل ربما كثر نظيره وان عنى بكون المعجزة هي الخارق للعادة انها خارقة لعادة أولئك المخاطبين بالنبوة بحيث ليس فيهم من يقدر على ذلك فهذا ليس بحجة فان أكثر الناس لايقدرون على الكهانة والسحر ونحو ذلك وقد يكون المخاطبون بالنبوة ليس فيهم هؤلاء كما كان اتباع مسيلمة والعنسى وامثالهما لايقدرون على ما يقدر عليـه هؤلاء والمبرز في فن من الفنون يقدر على مالا يقدر عليه أحد في زمنه وليس هذا دليلا على النبوة فـكتاب سيبويه مثلا مما لايقدر على مثله عامة الخلق وليس بمعجز اذ كان ليس مختصاً بالانبياء بل هو موجـود لغيرهم وكذلك طب أبقراط بل وعلم العالم الكبير من علماء المسلمين خارج عن عادة الناس وليس هو دليلا على نبوته وأيضاً فكون الشىء معتادا هو مأخوذ من العود وهذا يختلف بحسب الامور فالحائض المعتادة من الفقهاء من يقول تثبت عادتها بمرة ؛ومنهم من يقول بمرتين، ومنهم من يقول لاتثبت الا بثلاث ، وأهل كل

بلد لهم عادات في طعامهم ولباسهم وأبنيتهم لم يعتدها غيرهم فما خرج عن ذلك فهو خارق لعادتهم لا لعادة من اعتاده من غيرهم فلهذا لم يكن في كلام الله ورسوله وسلف الامة وأئمتها وصف آيات الانبياء بمجرد كونها خارقة للعادة ولا يجوز أن يجعل مجرد خرق العادة هو الدليل فان هذا لاضابط له وهو مشترك بين الانبياء وغيرهم ولكن اذا قيل من شرطها أن تكون خارقة للعادة بمعنى أنها لاتكون معتادة للناس فهذا ظاهر يعرفه كل أحد، ويعرفون أن الامر المعتاد مثل الاكل والشرب والركوب والسفر وطلوع الشمس وغروبها ونزول المطر في وقته، وظهور الثمرة في وقتها؛ ليس دليلا؛ ولا يدعى أحد أن مثل هذا دليل له؛ فان فساد هذا ظاهر لكل أحد، ولكن ليس مجرد كونه خارقا للعادة كافياً لوجهين: أحدهما ان كون الشيء معتادا وغير معتاد أمر نسبي اضافي ليس بوصف مضبوط تتميز به الآية بل يعتاد هؤلاء مالم يعتد هؤلاء مثل كونه مألوفا ومجرباً ومعروفاً ونحو ذلك من الصفات الاضافية. الثاني: ان مجرد ذلك مشترك بين الانبياء وغيرهم واذا خص ذلك بعدم المعارضة فقد يأتى الرجل بما لا يقدر الحاضرون على معارضته ويكون معتاداً لغيرهم كالكهانة والسحر وقد يأتى بما لايمكن معارضته وليس بآية لشيء لكونه لم يختص بالانبياء وقد يقال في طب أبقراط ونحو سيبويه انه لانظير له بل لا بد أن يقال انه مختص بالانبياء والطب والنحو والفقه وان أتى الواحد بما لايقدر غيره على نظيره فليس مختصاً بالانبياء بل معروف ان هذا تعلم بعضه من غيره واستخرج سائره بنظره واذا خص الله طبيباً أو نحوياً أو فقيهاً بما ميزه به على نظرائه لم يكن ذلك دليلا على نبوته وان كان خارقا للعادة؛ فان مايقوله الواحد من هؤلاء قد علمه بسماع أو تجربة أو قياس، وهي طرق معروفة لغير الانبياء. والنبى قد علمه الله من الغيب الذى عصمه فيه عن الخطأ مالم يعلمه الا نبى مثله. فان قيل فحينئذ لايعرف ان الآية مختصة بالنبى حتى تعرف النبوة قبل أما بعد وجود الانبياء في العالم فهكذا هو ولهذا يبين الله عز وجل نبوة محمد في غير موضع باعتبارها بنبوة من قبله وتارة يبين انه لم يرسل ملائكة بل رجالا من أهل القرى ليبين ان هذا معتاد معروف ليس هو أمرا لم تجر به عادة الرب كقوله تعالى (وما أرسلنا قبلك الا رجالا يوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون) كما ذكره في سورة النحل والانبياء وقال في يوسف (وما أرسلنا من قبلك

الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون) فان الكفار كانوا يقولون انما يرسل الله ملكا أو يرسل مع البشر ملكا كما قال فرعون (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلولا القى عليه أساور (١) من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) وقال قوم نوح (ماهذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لانزل ملائكة ماسمعنا بهذا في آبائنا الاولين) وقال مشركو العرب لمحمد (ماهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق لولا انزل عليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز او تكون له جنة يأكل منها) وقال تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا ابعث الله بشرا رسولا قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) وقال تعالى (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الامر ثم لاينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليه مايلبسون) بين انهم لايطيقون الاخذ عن الملائكة ان لم يأتوا في صورة البشر ولو جاءوا في صورة البشر لحصل اللبس وقال تعالى (أكان للناس عجباً ان أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس) وكانت العرب لاعهد لها بالنبوة من زمن اسماعيل فقال الله لهم (فاسألوا أهل الذكر) يعنى أهل الكتاب (ان كنتم لاتعلمون) هل أرسل اليهم رجالا أو ملائكة ولهذا قال له (قل ما كنت بدعا من الرسل) وقال (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) بين ان هذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال وهو سبحانه أمر ان يسأل أهل الكتاب وأهل الذكر عما عندهم من العلم من أمور الانبياء هل هو من جنس ما جاء به محمد أو هو مخالف له ليتبين بأخبار أهل الكتاب المتواترة جنس ما جاءت به الانبياء وحينئذ فيعرف قطعاً أن محمداً نبى بل هو أحق بالنبوة من غيره والثانى أن يسألوهم عن خصوص محمد وذكره عندهم وهذا يعرفه الخاصة منهم ليس هو معروفا كالاول يعرفه كل كتابى قال تعالى (قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله) وقوله (شهد شاهد) ليس المقصود شاهداً واحداً معيناً بل ولا يحتمل كونه واحدا وقول من قال انه عبد الله بن سلام ليس بشىء فان هذه نزلت بمكة قبل أن يعرف ابن سلام ولكن المقصود جنس

«١» قراها حفص ويعقوب اسورة وباقى القراء اساور

الشاهد كما تقول قام الدليل وهو الشاهد الذى يجب تصديقه سواء كان واحداً قد يقترن بخبره مايدل على صدقه أو كان عددا يحصل بخبرهم العلم بما تقول فان خبرك بهذا صادق وقوله (على مثله) فان الشاهد من بنى اسرائيل على مثل القرآن وهوان الله بعث بشراً وانزل عليه كتاباً أمر فيه بعبادة الله وحده لاشريك له ونهى فيه عن عبادة ماسواه وأخبر فيه انه خلق هذا العالم وحده وامثال ذلك وقد ذكر في أول هذه السورة التوحيد وبين ان المشركين ليس معهم على الشرك لادليل عقلى ولا سمعى فقال تعالى (ماخلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما انذروا معرضون قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك في السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم ان كنتم صادقين ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون واذا حشر الناس كانوا لهم أعداءا وكانوا بعبادتهم كافرين واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين أم يقولون افتراه قل ان افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى مايفعل بى ولا بكم ان اتبع الا ما يوحى الى وما أنا الا نذير مبين قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله) الى آخره ☆

ومثل ذلك قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب فمن عنده علم الكتاب شهد بما في الكتاب الاول وهو يوجب تصديق الرسول لأنه يشهد بالمثل ويشهد أيضاً بالعين وكل من الشهادتين كافية فمتى ثبت الجنس علم قطعاً أن المعين منه وقال تعالى (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فأسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) وهذا سواء كان خطابا للرسول والمراد به غيره أو خطابا له وهو لغيره بطريق الأولى والمقدر قد يكون معدوما أو ممتنعاً وهو بحرف ان كقوله (قل ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين) و (ان كنت قلته فقد علمته) والمقصود بيان الحكم على هذا التقدير ان كنت قلته فانت عالم به وبما في نفسى وان

كان له ولد فانا عابده وان كنت شاكا فاسأل ان قدر امكان ذلك فسؤال الذين يقرأون الكتاب قبله اذا أخبروا فما عندهم شاهد له ودليل وحجة، ولهذا نهى بعد ذلك عن الامتراء والتكذيب . وأما تقدير الممتنع بحرف ان فكثير . ومن ذلك قوله (فان استطعت ان تبتغي نفقاً في الارض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية فان كان لكم كيد فكيدون أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أاله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) وقد قال تعالى (أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بنى اسرائيل) وقال تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى (ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا تتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا) وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا تتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) وهذا كله فى السور المكية، والمقصود الجنس فاذا شهد جنس هؤلاء مع العلم بصدقهم حصل المطلوب لا يقف العلم على شهادة كل واحد واحد فان هذا متعذر. ومن أنكر أو قال لا أعلم لم يضر انكاره. وان قال بل اعلم عدم ما شهدوا به علم افتراؤه في الجنس وعلم في الشخص اذ كان لم يحط علما بجميع نسخ الكتب المتقدمة وما في النبوات كلها فلا سبيل لاحد من أهل الكتاب ان يعلم انتفاء ذكر محمد في كل نسخة نسخة بكل كتاب من كتب الانبياء اذ العلم بذلك متعذر ثم هذه النسخ الموجودة فيها ذكره في مواضع كثيرة قد ذكر قطعة منها في غير هذا الموضع. ومما ينبغي ان يعلم ان أعظم ما كان عليه المشركون قبل محمد وفي مبعثه هو دعوى الشريك لله والولد والقرآن مملوء من تنزيه الله عن هذين وتنزيهه عن المثل والولد يجمع كل التنزيه فهذا في سورة الاخلاص وفي سورة الانعام في مثل قوله (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون) وفي سورة سبحان (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك) وفي سورة الكهف في أولها (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً) وفي آخرها (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وفي مريم تنزيهه عن الولد في أول السورة وآخرها ظاهر وعن الشريك في مثل قصة ابراهيم وفي تنزيل وغير

ذلك وفي الانبياء تنزيهه عن الشريك والولد، وكذلك في المؤمنين (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله) وأول الفرقان (الذى له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك) وأما طه والشعراء مما بسط فيه قصة موسى. فالمقصود الاعظم بقصة موسى اثبات الصانع ورسالته اذ كان فرعون منكراً. ولهذا عظم ذكرها في القرآن بخلاف قصة غيره فان فيها الرد على المشركين المقرين بالصانع ومن جعل له ولداً من المشركين وأهل الكتاب. ومذهب الفلاسفة الملحدة دائر بين التعطيل وبين الشرك والولادة كما يقولونه في الايجاب الذاتى فانه أحد أنواع الولادة وهم ينكرون معاد الابدان وقد قرن بين هذا وهذا في الكتاب والسنة في مثل قوله (ويقول الانسان أاذا مامت لسوف أخرج حيا أولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) الى قوله (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً) وهذه في سورة مريم المتضمنة خطاب النصارى ومشركى العرب لان الفلاسفة داخلون فيهم فان اليونان اختلطوا بالروم فكان فيها خطاب هؤلاء وهؤلاء وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى «شتمنى ابن آدم وماينبغى له ذلك، وكذبنى ابن آدم وماينبغى له ذلك، فاما شتمه اياى فقوله انى اتخذت ولداً وانا الاحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفواً أحد. وأما تكذيبه اياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من اعادته» رواه البخارى عن ابن عباس ☆

ولما كان الشرك اكثر في بنى آدم من القول بأن له ولداً كان تنزيهه عنه اكثر وكلاهما يقتضى اثبات مثل وند من بعض الوجوه فان الولد من جنس الوالد ونظير له وكلاهما يستلزم الحاجة والفقر فيمتنع وجود قادر بنفسه فالذى جعل شريكا لو فرض مكافئاً لزم افتقار كل منهما وهو ممتنع، وان كان غير مكافئ فهو مقهور. والولد يتخذه المتخذ لحاجته الى معاونته له كما يتخذ المال، فان الولد اذا اشتد أعان والده. قال تعالى (قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له مافي السموات ومافي الارض) وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً اداً) الى قوله (ان كل من في السموات والارض الا آت الرحمن عبداً) وقال تعالى (وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له مافي السموات والارض كل له قانتون) فان كون المخلوق مملوكا لخالقه وهو مفتقر اليه من كل وجه والخالق غنى عنه يناقض اتخاذ الولد لانه انما يكون لحاجته اليه في حياته أو ليخلفه بعد موته والرب غنى عن كل ماسواه وكل ماسواه فقير اليه وهو الحى الذى لايموت والوالد في نفسه مفتقر الى ولد مخلوق لا حيلة له فيه بخلاف من

يشترى المملوك فانه باختياره ملكه ويمكنه ازالة ملكه فتعلقه به من جنس تعلقه بالاجانب والولادة بغير اختيار الوالد. والرب يمتنع ان يحدث شيء بغير اختياره . واتخاذ الولد هو عوض عن الولادة لمن لم يحصل له فهو أنقص في الولادة. ولهذا من قال بالايجاب الذاتى بغير مشيئته وقدرته، فقوله من جنس قول القائلين بالولادة الحاصلة بغير الاختيار. بل قولهم شر من قول النصارى ومشركى العرب من بعض الوجوه كما قد بسط الكلام على هذا في تفسير (قل هو الله أحد) وغيره ☆

والمقصود أن الله قال لمحمد (قل ما كنت بدعا من الرسل) وقال (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) فبين أن هذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال فهو معتاد في الآدميين وان كان قليلا فيهم. وأما من جاءهم رسول ما يعرفون قبله رسولا كقوم نوح فهذا بمنزلة ما يبتديه الله من الأمور وحينئذ فهو يأتى بما يختص به مما يعرفون ان الله صدقه في ارساله فهذا يدل على النوع والشخص، وان كانت آيات غيره تدل على الشخص اذ النوع قد عرف قبل هذا. فالمقصود أن آيته وبرهانه لابد أن يكون مختصا بهذا النوع لا يجب أن يختص بواحد من النوع ولا يجوز أن يوجد لغير النوع ☆

وقد قلنا ان ما يأتى به أتباع الانبياء من ذلك هو مختص بالنوع ؛ فانا نقول هذا لا يكون الا لمن اتبع الانبياء فصار مختصاً بهم . وأما ما يوجد لغير الانبياء وأتباعهم فهذا هو الذى لا يدل على النبوة كخوارق السحرة والكهان ☆

وقد عرف الناس أن السحرة لهم خوارق . ولهذا كانوا اذا طعنوا في نبوة النبى واعتقدوا علمه قالوا هو ساحر كما قال فرعون لموسى (ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) وقال للسحرة لما آمنوا (انه لكبيركم الذى علمكم السحر وان هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها) كل هذا من كذب فرعون وكانوا يقولون (يأيها الساحر ادع لنا ربك) وكذلك المسيح قال تعالى (واذ قال عيسى ابن مريم يابنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) وقال تعالى عن كفار العرب (وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) وان نسبوه الى عدم العلم قالوا مجنون كما قالوا عن نوح (مجنون وازدجر) وقالوا عن موسى (ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون) وقال عن مشركى العرب (وان يكاد

الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون) وقد قال تعالى (ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا له ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون)فالسحر أمر معتاد في بني آدم، كما أن النبوة معتادة فيهم ، كما أن العقلاء معتادون في بني آدم والمجانين معتادون فيهم . فاذا قالوا عن الشخص انه مجنون فانه يعلم هل هو من العقلاء أو من المجانين بنفس ما يقوله ويفعله ، وكذلك يعرف هل هو من جنس الانبياء أو من جنس السحرة. وكذلك لما قالوا عن محمد انه شاعر فان الشعراء جنس معروفون في الناس . وقالوا انه كاهن ؛ وشبهة الشعر أن القرآن كلام موزون والشعر موزون ؛ وشبهة الكهانة أن الكاهن يخبر ببعض الامور الغائبة . فذكر الله تعالى الفرق بين هذين وبين النبي فقال (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) ثم قال (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً.) ☆(وما علمناه الشعر وما ينبغى له ان هو الا ذكر وقرآن مبين)وقال تعالى (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين) ولهذا لما عرض الكفار على كبيرهم الوحيد أن يقولوا للناس هو شاعر ومجنون وساحر وكاهن صار يبين لهم أن هذه أقوال فاسدة ، وأن الفرق معروف بينه وبين هذه الاجناس ☆

فالمقصود ان هذه الأجناس كلها موجودة في الناس معتادة معروفة. وكل واحد منها يعرف بخواصه المستلزمة له وتلك الخواص آيات له مستلزمة له فكذلك النبوة لها خواص مستلزمة لها تعرف بها وتلك الخواص خارقة لعادة غير الانبياء وان كانت معتادة للانبياء فهى لاتوجد لغيرهم فهذا هذا والله أعلم ☆

فاذا أتى مدعى النبوة بالامر الخارق للعادة الذى لا يكون الا لنبى لا يحصل مثله لساحر ولا كاهن ولا غيرهما كان دليلا على نبوته .وكل من الساحر والكاهن يستعين بالشياطين . فان الكهان تنزل عليهم الشياطين تخبرهم والسحرة تعلمهم الشياطين. قال تعالى (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر) والساحر لا يتجاوز سحره الامور المقدورة

للشياطين كما تقدم بيانه والساحر كما قال تعالى (ولا يفلح الساحر حيث أتى) وقال تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق) فهم يعلمون ان السحر لا ينفع في الآخرة ولا يقرب الى الله وان من اشتراه ماله في الآخرة من خلاق فان مبناه على الشرك والكذب والظلم مقصود صاحبه الظلم والفواحش ، وهذا مما يعلم بصريح العقل انه من السيئات . فالنبي لا يأمر به ولا يعمله يستعين على ذلك صاحبه بالشرك والكذب وقد علم بصريح العقل مع ما تواتر عن الانبياء أنهم حرموا الشرك فمتى كان الرجل يأمر بالشرك وعبادة غير الله أو يستعين على مطالبه بهذا وبالكذب والفواحش والظلم علم قطعا انه من جنس السحرة لا من جنس الانبياء. وخوارق هذا يمكن معارضتها وابطالها من بنى جنسه وغير بنى جنسه.وخوارق الانبياء لا يمكن غيرهم أن يعارضها ولا يمكن أحداً ابطالها لا من جنسهم ولا من غير جنسهم.فان الانبياء يصدق بعضهم بعضا فلا يتصور أن نبياً يبطل معجزة آخر وان أتى بنظيرها فهو يصدقه .ومعجزة كل منهما آية له وللآخر أيضاً ، كما ان معجزات اتباعهم آيات لهم بخلاف خوارق السحرة فانها انما تدل على ان صاحبها ساحر يؤثر آثاراً غريبة مما هو فساد في العالم ،ويسر بما يفعله من الشرك والكذب والظلم؛ويستعين على ذلك بالشياطين. فمقصوده الظلم والفساد. والنبى مقصوده العدل والصلاح.وهذا يستعين بالشياطين، وهذا بالملائكة. وهذا يأمر بالتوحيد لله وعبادته وحده لاشريك له، وهذا انما يستعين بالشرك وعبادة غير الله. وهذا يعظم ابليس وجنوده؛ وهذا يذم ابليس وجنوده.والاقرار بالملائكة والجن عام في بنى آدم لم ينكر ذلك الا شواذ من بعض الامم .ولهذا قالت الامم المكذبة (لو شاء الله لأنزل ملائكة) حتى قوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون.قال قوم نوح (ماهذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لانزل ملائكة) وقال (فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم أن لاتعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون) ✡ وفرعون وان كان مظهرا لجحد الصانع فانه ماقال (لولا القى عليه أساور من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين)الا وقد سمع بذكر الملائكة اما معترفا بهم واما منكراً لهم فذكر الملائكة والجن عام في الامم ✡ وليس في الامم أمة تنكر ذلك انكاراً عاماً، وانما يوجد انكار

ذلك في بعضهم مثل من قد يتفلسف فينكرهم لعدم العلم لا للعلم بالعدم فلا بد في آيات الانبياء من أن تكون مع كونها خارقة للعادة أمراً غير معتاد لغير الانبياء بحيث لا يقدر عليه الا الله الذى أرسل الانبياء ليس مما يقدر عليه غير الانبياء لا بحيلة ولا عزيمة ولا استعانة بشياطين ولا غير ذلك. ومن خصائص معجزات الانبياء انه لا يمكن معارضتها فاذا عجز النوع البشرى غير الانبياء عن معارضتها كان ذلك أعظم دليل على اختصاصها بالانبياء بخلاف ما كان موجوداً لغيرها. فهذا لا يكون آية البتة ☆ فأصل هذا أن يعرف وجود الانبياء في العالم وخصائصهم كما يعلم وجود السحرة وخصائصهم. ولهذا من لم يكن عارفاً بالانبياء من فلاسفة اليونان والهند وغيرهم لم يكن له فيهم كلام يعرف كما لم يعرف لارسطو وأتباعه فيهم كلام يعرف بل غاية من أراد أن يتكلم في ذلك كالفارابى وغيره أن يجعلوا ذلك من جنس المنامات المعتادة ولما أراد طائفة كابى حامد وغيره أن يقرروا امكان النبوة على أصلهم احتجوا بأن مبدأ الطب ومبدأ النجوم ونحو ذلك كان من الانبياء لكون المعارف المعتادة لا تنهض بذلك. وهذا انما يدل على اختصاص من أتى بذلك بنوع من العلم وهذا لا ينكره عاقل. وعلى هذا بنى ابن سينا أمر النبوة انها من قوى النفس وقوى النفوس متفاوتة وكل هذا كلام من لا يعرف النبوة بل هو أجنبى عنها وهو أنقص ممن أراد أن يقرر أن في الدنيا فقهاء وأطباء وهو لم يعرف غير الشعراء، فاستدل بوجود الشعراء على وجود الفقهاء والاطباء بل هذا المثال أقرب فان بعد النبوة عن غير الانبياء أعظم من بعد الفقيه والطبيب عن الشاعر ولكن هؤلاء من أجهل الناس بالنبوة ورأوا ذكر الانبياء قد شاع فأرادوا تخريج ذلك على أصول قوم لم يعرفوا الانبياء ☆

﴿فان قيل﴾ موسى وغيره كانوا موجودين قبل ارسطو فان ارسطو كان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة. وأيضاً فقد قال الله تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقال (انا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيرا وان من أمة الا خلا فيها نذير) فهذا يبين ان كل أمة قد جاءها رسول فكيف لم يعرف هؤلاء الرسل؟ قلت عن هذا جوابان: أحدهما ان كثيراً من هؤلاء لم يعرفوا الرسل كما قال (ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)

فلم تبق أخبار الرسول وأقواله معروفة عندهم . الثاني :أنه قال تعالى (تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم) فاذا كان الشيطان قد زين لهم أعمالهم كان في هؤلاء من درست أخبار الانبياء عنـــدهم فلم يعرفوها وأرسطو لم يأت الى أرض الشام. ويقال ان الذين كانوا قبله كانوا يعرفون الانبياء لكن المعرفة المجملة لا تنفع كمعرفة قريش كانوا قد سمعوا بموسى وعيسى وابراهيم سماعا من غير معرفة بأحوالهم وأيضاً فهم وأمثالهم المشاؤون أدركوا الاسلام وهم من أكفر الناس بما جاءت به الرسل اما أنهم لا يطلبون معرفة أخبارهم وما سمعوه حرفوه أو حملوه على أصولهم .وكثير من المتفلسفة هم من هؤلاء فاذا كان هذا حال هؤلاء في ديار الاســلام فما الظن بمن كان ببلاد لا تعرف فيها شريعة نبي ☆

بل طريق معرفة الانبياء كطريق معرفة نوع من الآدميين خصهم الله بخصائص يعرف ذلك من أخبارهم واستقراء أحوالهم كما يعرف الاطباء والفقراء .ولهذا انما يقرر الرب تعالى في القرآن أمر النبوة واثبات جنسها بما وقع في العالم من قصة نوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، وشعيب ولوط وابراهيم وموسى وغيرهم فيذكر وجود هؤلاء وان قوماً صدقوهم وقوماً كذبوهم. ويبين حال من صدقهم، وحال من كذبهم فيعلم بالاضطرار حينئذ ثبوت هؤلاء ويتبين وجود آثارهم في الارض فمن لم يكن رأى في بلدة آثارهم فليسر في الارض ولينظر آثارهم وليسمع أخبارهم المتواترة . يقول الله تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير فكأين من قرية أهلكتها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها والى المصير) ولهذا قال مؤمن آل فرعون لما أراد انذار قومه (ياقوم اني أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد) ولهذا لما سمع ورقة بن نوفل والنجاشي وغيرهما القرآن قال ورقة بن نوفل هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى. وقال النجاشي ان هذا والذي

جاءبه موسى ليخرج من مشكاة واحدة فكان عندهم علم بما جاءبه موسى اعتبروا به ولولا ذلك لم يعلموا هذا وكذلك الجن لما سمعت القرآن ولوا الى قومهم منـذرين قالوا ياقومنا انا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم ☆

ولما أراد سبحانه تقرير جنس ماجاء به محمد قال (انا أرسلنا اليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا) وقال تعالى (وماقدروا الله حق قدره اذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها) فهو سبحانه يثبت وجود جنس الانبياء ابتداء كما في السور المكية حتى يثبت وجود هذا الجنس وسعادة من اتبعه وشقاء من خالفه ثم نبوة عين هذا النبى تكون ظاهرة لان الذى جاء به أكمل مما جاء به جميع الانبياء فمن أقر بجنس الانبياء كان اقراره بنبوة محمد في غاية الظهور أبين مما أقر أن في الدنيا نحاة وأطباء وفقهاء فاذا رأى نحو سيبويه وطب أبقراط وفقه الأئمة الاربعة ونحوهم كان اقراره بذلك من أبين الامور. ولهذا كان من نازع من أهل الكتاب في نبـوة محمد اما أن يكون لجهله بما جاء به وهو الغالب على عامتهم، أو لعناده وهو حال طلاب الرياسة بالدين منهم . والعرب عرفوا ماجاء به محمد فلما أقروا بجنس الانبياء لم يبق عندهم في محمد شك. وجميـع مايذكره الله تعالى في القرآن من قصص الانبياء يدل على نبوة محمد بطريق الاولى اذ كانوا من جنس واحد ونبوته أكمل فينبغى معرفة هذا فانه أصل عظيم. ولهذا جميـع مشركى العرب آمنوا به فلم يحتج أحد منهم ان تؤخذ منه جزية فانهم لما عرفوا نبوته وانه لابد من متابعته أو متابعة اليهود والنصارى عرفوا ان متابعته أولى. ومن كان من أهل الكتاب بعضهم آمن به وبعضهم لم يؤمن جهلا وعناداً . وهؤلاء كان عندهم كتاب ظنوا استغناءهم به فلم يستقرئوا أخبار محمد وماجاء به خالين من الهوى بخلاف من لم يكن له كتاب فانه نظر في الامرين نظر خال من الهوى فعرف فضـل ماجاء به محمد على ماجاء به غيره. ولهذا لاتكاد توجد أمة لا كتاب لها يعرض عليها دين المسلمين واليهود والنصارى الا رجحت دين المسلمين كما يجرى لانواع الامم التى لا كتاب

لها فأهل الكتاب مقرون بالجنس منازعون في العين. والمتفلسفة من اليونان والهند منازعون في وجود كمال الجنس وان أقروا ببعض صفات الانبياء فانما أقروا منها بما لا يختص بالانبياء بل هو مشترك بينهم وبين غيرهم فلم يؤمن هؤلاء بالانبياء البتة هذا هو الذى يجب القطع به ولهذا يذكرون معهم ذكر الجنس الخارج عن أتباعهم فيقال قالت الانبياء والفلاسفة واتفقت الانبياء والفلاسفة كما يقال المسلمون واليهود والنصارى وقال أيضاً رضى الله عنه ☆

فصل

ومن آياته نصر الرسل على قومهم وهذا على وجهين تارة يكون باهلاك الامم وانجاء الرسل واتباعهم كقوم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى ولهذا يقرن الله بين هذه القصص في سورة الأعراف وهود والشعراء ولا يذكر معها قصة ابراهيم[١] وانما ذكر قصة ابراهيم في سورة الانبياء ومريم والعنكبوت والصافات فان هذه السور لم يقتصر فيها على ذكر من أهلك من الامم بل في سورة الانبياء كان المقصود ذكر الانبياء ولهذا سميت سورة الانبياء فذكر فيها اكرامه للانبياء وان لم يذكر قومهم كما ذكر قصة داود وسليمان وأيوب وذكر آخر الكل ان هذه أمتكم أمة واحدة وبدأ فيها بقصة ابراهيم اذ كان المقصود ذكر اكرامه للانبياء قبل محمد وابراهيم أكرمهم على الله تعالى وهو خير البرية وهو أب أكثرهم اذ ليس هو أب نوح ولوط لكن لوط من أتباعه وأيوب من ذريته بدليل قوله في سورة الانعام (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب) وأما سورة مريم فذكر الله تعالى فيها انعامه على الانبياء المذكورين فيها فذكر فيها رحمته زكريا وهبته يحيى وانه ورث نبوته وغيرها من علم آل يعقوب وانه آتاه الحكم صبيا وذكر بدء خلق عيسى وما أعطاه الله تعالى من تعليم الكتاب وهو

---

[١] قوله ولا يذكر معها قصة ابراهيم نعم ذكرت قصة ابراهيم في سورة الشعراء ولكن على نسق من القصص غير نسق مابعدها من بقية الامم المذكورة فيها حيث ذكر هلاكهم وتدمير الله لهم

التوراة والنبوة وان الله تعالى جعله مباركا أينما كان وغير ذلك وذكر قصة ابراهيم وحسن خطابه لابيه وان الله تعالى وهبه اسحاق ويعقوب نبيين ووهبه من رحمته وجعل له لسان صدق عليا ثم ذكر موسى وانه خصصه الله تعالى بالتقريب والتكليم ووهبه أخاه وغير ذلك ، وذكر اسماعيل وانه كان صادق الوعد وكأنه والله أعلم من ذلك أو أعظمه صدقه فيما وعد به أباه من صبره عند الذبح فوفى بذلك وذكر ادريس وان الله تعالى رفعه مكانا عليا ثم قال (أولئك الذين أنعم الله عليهم) وأما سورة العنكبوت فانه ذكر فيها امتحانه للمؤمنين ونصره لهم وحاجتهم الى الصبر والجهاد .وذكر فيها حسن العاقبة لمن صبر وعاقبة من كذب الرسل . فذكر قصة ابراهيم لانها من النمط الاول ونصرة الله له على قومه. وكذلك سورة الصافات قال فيها (ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) وهذا يقتضى انها عاقبة رديئة اما بكونهم غلبوا وذلوا واما بكونهم أهلكوا ولهذا ذكر فيها قصة الياس ولم يذكرها في غيرها ولم يذكر هلاك قومه بل قال (فكذبوه فانهم لمحضرون الا عباد الله المخلصين) والياس قد روى ان الله تعالى رفعه وهذا يقتضى عذابهم في الآخرة فان الياس لم يقم فيهم والياس المعروف بعد موسى من بنى اسرائيل،وبعد موسى لم يهلك المكذبين بعذاب الاستئصال؛ وبعد نوح لم يهلك جميع النوع وقد بعث في كل أمة نذيرا والله تعالى لم يذكر قط عن قوم ابراهيم انهم أهلكوا كما ذكر ذلك عن غيرهم بل ذكر انهم ألقوه في النار فجعلها الله عليه برداً وسلاما،وأرادوا به كيداً فجعلهم الله الأسفلين الاخسرين وفي هذا ظهور برهانه وآيته وانه أظهره عليهم بالحجة والعلم، وأظهره أيضاً بالقدرة حيث أذلهم ونصره وهذا من جنس المجاهد الذى هزم عدوه وتلك من جنس المجاهد الذى قتل عدوه وابراهيم بعد هذا لم يقم بينهم بل هاجر وتركهم وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين ظهرانى قومهم حتى هلكوا فلم يوجد في حق قوم ابراهيم سبب الهلاك وهو اقامته فيهم وانتظار العذاب النازل،وهكذا محمد مع قومه لم يقم فيهم بل خرج عنهم حتى أظهره الله تعالى عليهم بعد ذلك. ومحمد وابراهيم أفضل الرسل [١] فانهم اذا علموا

---

[١] ولذا لم يقيما بين قوميهما بعد ما قاما بابلاغهم الدعوة ولم ينتظرا نزول العذاب بهم ☆

الدعوة حصل المقصود وقد يتوب منهم من يتوب بعد ذلك، كما تاب من قريش من تاب.
وأما حال ابراهيم فكانت الى الرحمة أميل فلم يسع في هلاك قومه لا بالدعاء ولا بالمقام ودوام اقامة الحجة عليهم. وقد قال تعالى (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم) وكان كل قوم يطلبون هلاك نبيهم الا عوقبوا وقوم ابراهيم أوصلوه الى العذاب لكن جعله الله عليه برداً وسلاما، ولم يفعلوا بعد ذلك مايستحقون به العذاب اذ الدنيا ليست دار الجزاء التام وانما فيها من الجزاء ما تحصل به الحكمة والمصلحة كما في العقوبات الشرعية فمن أراد أعداؤه من اتباع [١] الانبياء ان يهلكوه فعصمه الله وجعل صورة الهلاك نعمة في حقه ولم يهلك أعداءه بل أخزاهم ونصره فهو اشبه بابراهيم واذا عصمه من كيدهم وأظهره حتى صارت الحرب بينه وبينهم سجالا ثم كانت العاقبة له فهو أشبه بحال محمد صلى الله عليه وسلم فان محمداً سيد الجميع وهو خليل الله كما ان ابراهيم خليله والخليلان هما أفضل الجميع وفي طريقتها من الرأفة والرحمة ماليس في طريقة غيرهما ولم يذكر الله عن قوم ابراهيم دينا غير الشرك وكذلك عن قوم نوح ☆

وأما عاد فذكر عنهم التجبر وعمارة الدنيا، وقوم صالح ذكر عنهم الاشتغال بالدنيا عن الدين، لم يذكر عنهم من التجبر ما ذكر عن عاد، وانما أهلكهم لما عقروا الناقة، وأما أهل مدين فذكر عنهم الظلم في الاموال مع الشرك (قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو ان نفعل في أموالنا مانشاء) وقوم لوط ذكر عنهم استحلال الفاحشة ولم يذكروا بالتوحيد بخلاف سائر الامم وهذا يدل على انهم لم يكونوا مشركين وانما ذنبهم استحلال الفاحشة وتوابع ذلك، وكانت عقوبتهم أشد. اذ ليس في ذلك تدين بل شر يعلمون انه شر. وهذه الامور تدل على حكمة الرب وعقوبته لكل قوم بما يناسبهم فان قوم نوح أغرقهم اذ لم يكن فيهم خير يرجى ☆

[١] من اتباع بيان لمن في قوله فمن أراد



فصـــل

في آيات الانبياء وبراهينهم

وهي الادلة والعلامات المستلزمة لصدقهم ؛! والدليل لا يكون الا مستلزماً للمدلول عليه مختصاً به،لا يكون مشتركا بينه وبين غيره،فانه يلزم من تحققه تحقق المدلول ،واذا انتفى المدلول انتفى هو ؛ فما يوجد مع وجود الشئ ومع عدمه لا يكون دليلا عليه ؛ بل الدليل ما لا يكون الا مع وجوده فما وجد مع النبوة تارة ومع عدم النبوة تارة لم يكن دليلا على النبوة ، بل دليلها ما يلزم من وجوده وجودها . وهنا اضطرب الناس فقيل دليلها جنس يختص بها وهو الخارق للعادة؛ فلا يجوز وجوده لغير نبى ، لا ساحر؛ ولا كاهن ؛ ولا ولى ، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة وغيرهم كابن حزم وغيره . وقيل بل الدليل هو الخارق للعادة بشرط الاحتجاج به على النبوة والتحدى بمثله ؛وهذا منتف في السحر والكرامة كما يقول ذلك من يقوله من متكلمى أهل الاثبات كالقاضيين أبى بكر وأبى يعلى وغيرهما . وقد بسط القاضى أبوبكر الكلام في ذلك في كتابه المصنف في الفرق بين المعجزات؛والكرامات ؛والحيل،والكهانات،والسحر، والنيرنجيات. وهؤلاء جعلوا مجرد كونه خارقا للعادة هو الوصف المعتبر ؛ وفرق بين أن يقال لا بد أن يكون خارقا للعادة،وبين أن يقال كونه خارقا للعادة هو المؤثر ؛ فان الاول يجعله شرطاً لا موجباً ؛ والثانى يجعله موجباً . وفرق بين أن يقال العلم والبيان وقراءة القرآن لا يكون الا من حى ؛ وبين أن يقال كونه حياً يوجب أن يكون عالماً قارئاً . ومن هنا دخل الغلط على هؤلاء . وليس في الكتاب والسنة تعليق الحكم بهذا الوصف ؛ بل ولا ذكر خرق العادة ولا لفظ المعجز . وانما فيه آيات وبراهين ، وذلك يوجب اختصاصها بالانبياء . وأيضاً فقالوا في شرطها أن لا يقدر عليها الا الله ، لا تكون مقدورة للملائكة، ولا للجن ،ولا للانس ؛ بأن يكون جنسها مما لا يقدر عليه الا الله ، كاحياء الموتى، وقلب العصا حية ، واذا كانت من أفعال العباد لكنها خارقة للعادة ،مثل حمل الجبال، والقفز من المشرق الى المغرب ،والكلام المخلوق الذى يقدر على مثله البشر

ففيه لهم قولان : أحدهما أن ذلك يصح أن يكون معجزة . والثانى أن المعجزة انما هي اقدار المخلوق على ذلك بأن يخلق فيه قدرة خارجة عن قدرته المعتادة ، وهذا اختيار القاضى أبى بكر ومن اتبعه كالقاضى أبى يعلى . وظنوا أن هذا يوجب طرد قولهم انها لا تكون مقدورة لغير الله بخلاف القول الاول ، فانه تقع فيه شبهة اذ كان الجنس معتاداً . وانما الخارق هو الكثير الخارج عن العادة ؛ وهذا الفرق الذى ذكره ضعيف فانه اذا كان قادراً على اليسير ، فخرق العادة في قدرته حتى جعله قادراً على الكثير، فجنس القدرة معتاد مثل جنس المقدور ؛ وانما خرقت العادة بقدرة خارجة عن العادة كما خرقت بفعل خارج عن القدرة . وعنده أن خلق القدرة خلق لمقدورها، والقدرة عنده مع الفعل فلا فرق . وهذا القول وهو أن المعجزة لا تكون الا مقدورة للرب لا للعباد قول كثير من أهل الكلام من القدرية والمثبتة للقدر وغيرهم . ثم انهم لما طولبوا بالدليل على أنه لا يجوز أن تقدر العباد على مثل ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى ونحو ذلك مما ذكروا أنه يمتنع أن يكون مقدوراً لغير الله، اعتمدوا في الدلالة على أن القابل للشئ لا يخلو عنه وعن ضده . فلو جاز أن يكون العبد قادراً على هذه الامور ، لوجب أن لا يخلو من ذلك ومن ضده ، وهو العجز أو القدرة على ضد ذلك الفعل ، كما يقولونه في فعل العبد انه اذا لم يقدر على الفعل فلا بد أن يكون عاجزاً أو قادراً على ضده . هذا احتجاج من يقول القدرة مع الفعل والقدرة عنده لا تصلح للضدين كالاشعرية فيقول لا يخلو من القدرة أو العجز فهذه مقدمة . والمقدمة الثانية ونحن لا نحس من أنفسنا عجزاً عن ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى ونحو هذه الامور لكنا غير قادرين عليها ؛ ولا يجوز أن نقدر عليها . وهؤلاء يقولون لا يكون الشئ عاجزاً الا عما يصح أن يكون قادراً عليه بخلاف ما لا يصح أن يكون قادراً عليه فلا يصح أن يكون عاجزاً عنه . ولهذا قالوا لا ينبغى أن تسمى هذه معجزات لان ذلك يقتضى أن الله أعجز العباد عنها ، وانما يعجز العباد عما يصح قدرتهم عليه . هذا كلام القاضى أبى بكر ومن وافقه . وكلا المقدمتين دعوى مجردة لم يقم على واحدة منهما حجة ، فكيف يجوز أن يكون الفرق بين المعجزة وغيرها مبنياً على مثل هذا الكلام الذى ينازعه فيه أكثر العقلاء ؟ ولو كان صحيحاً لم يفهم الا بكلفة ، ولا نفهمه الا

قليل من الناس ؛ فكيف اذا كان باطلا والذين آمنوا بالرسل لما رأوه وسمعوه من الآيات لم يتكلموا بمثل هذا الفرق بل ولا خطر بقلوبهم . ولهذا لما رأى المتأخرون ضعف هذا الفرق كأبي المعالي والرازي والآمدي وغيرهم حذفوا هذا القيد وهو كون المعجزة مما ينفرد الباري بالقدرة عليها، قالوا كل حادث فهو مقدور للرب، وأفعال العباد هي أيضاً مقدورة للرب وهو خالقها، والعبد ليس خالقاً لفعله . فالاعتبار بكونها خارقة للعادة قد استدل بها على النبوة ، وتحدى بمثلها فلم يمكن أحداً معارضته هذه القيود الثلاثة وحذفوا ذلك القيد . وزعم القاضي أبو بكر أن ما يستدل به على أن المعجزات يمتنع دخولها تحت قدر العباد لا يصح على أصول القدرية، وبسط القول في ذلك بكلام يصح بعضه دون بعض كعادته في أمثال ذلك ثم جعل هذا الفرق هو الفرق بين المعجزات وبين السحر والحيل. فقال وأما على قولنا ان المعجز لا يكون الا من مقدورات القديم ومما يستحيل دخوله ودخول مثله تحت قدر العباد ، فاذا كان كذلك استحال أن يفعل أحد من الخلق شيئاً من معجزات الرسل ؛ أو ما هو من جنسها، لان المحتال انما يحتال ويفعل ما يصح دخوله تحت قدرته دون ما يستحيل كونه مقدوراً له. قال وأما القائلون بأنه يجوز أن يكون في معجزات الرسل ما يدخل جنسه تحت قدر العباد، وان لم يقدروا على كثيره؛ وما يخرق العادة منه فانهم يقولون قد علمنا أنه لا حيلة ولا شيء من السحر يمكن أن يتوصل به الساحر والمشعبذ الى فعل الصعود في السماء ، ولا قفز من المشرق الى المغرب، وقفز الفراسخ الكثيرة، والمشي على الماء، وحمل الجبال الراسيات. هذا أمر لا يتم بحيلة محتال ولا سحر ساحر. وتكلم على أبطال قول من قال ان السحر لا يكون الا تخييلا لا حقيقة له. وذكر أقوال العلماء والآثار عن الصحابة بأن الساحر يقتل بسحره وقول انه يقتل حدا عند أكثرهم، وقصاصاً عند بعضهم. ثم قال (باب القول في الفصل بين المعجز والسحر) وهو لم يفرق بين الجنسين بل يجوز أن يكون ما هو معجزة للرسول يظهر على يد الساحر، لكن قال الفرق هو تحدى الرسول بالاتيان بمثله وتقريع مخالفه بتعذر مثله عليه، فمتى وجد الذى ينفرد الله بالقدرة عليه من غير تحد منه واحتجاج لنبوته بظهوره لم يكن معجزاً واذا كان كذلك خرج السحر عن أن يكون معجزاً ومشبهاً لآيات الانبياء، وكان ما يظهر عند فعل الساحر من جنس بعض معجزات الرسل.

وما يفعله الله عند تحديهم به غير ان الساحر اذا احتج بالسحر وادعى به النبوة أبطله الله بوجهين: أحدهما أن ينسيه عمل السحر أولا يفعل عند سحره شيئاً في المسحور من موت أو سقم أو بغض. ولم يخلق فيه الصعود الى جهة العلو، والقدرة على الدخول في بقرة، فاذا منعه هذه الاسباب بطل السحر. والثانى أن الساحر تمكن معارضته فان أبواب السحر معلومة عند السحرة، فاذا تحدى ساحر بشيء يفعل عند سحره لم يلبث ان يجد خلقاً من السحرة يفعلون مثل فعله ويعارضونه بأدق وأبلغ مما أورده. والرسول اذا ظهر عليه مثل ذلك وادعاه آية له قال لهم هذا آيتى وحجتى ودليل ذلك انكم لاتقدرون على مثله ولا يفعله الله في وقتى هذا، ومع تحدى ومطالبتى بمثله عند سحر ساحر وفعل كاهن وقد كان يظهر من سحرتكم وكهانكم وهي آية لا تظهر اليوم على أحد من الخلق وان دق سحره وعظم في الكهانة علمه فاذا ظهر ذلك عليه وامتنع ظهور مثله على يد ساحر أو كاهن مع انه قد كان يظهر من قبل صار هذا خرق عادة البشر وعادة السحرة والكهنة خاصة. قال ولم يبعد أن يقال هذه الآية أعظم من غيرها وان لها فضل مزية. ذكر هذا بعد أن قال فان قال قائل فاذا أجزتم أن يكون من عمل السحر مايفعل الله عنده سقم الصحيح وموته ويفعل عنده بغض المحب وحب المبغض وبغض الوطن والرد اليه من السفر وضيق الصدر والعجز عن الوطء بالربط والشد الذى يعلمه السحرة والصعود في جهة العلو على خيط أو بعض الآلات فى الفصل بين هذا وبين معجزات الرسل، وكيف ينفصل مع ذلك المعجزات من السحر ويمكن الفرق بين النبى والساحر. أو ليس لو قال نبى مبعوث انى أصعد على هذا الخيط نحو السماء وأدخل جوف هذه البقرة وأخرج وانى أفعل فعلا أفرق به بين المرء وزوجه وأفعل فعلا أقتل به هذا الحى وأسقم هذا الصحيح فهل كان يكون ذلك لو ظهر على يده آية ودليلا على صدقه وما الفصل اذاً بين السحر والمعجز ثم قال في الجواب يقال له جواب هذا قريب وذلك انا قد بينا في صدر هذا الكتاب ان من حق المعجزات لا يكون معجزاً حتى يكون واقعاً من فعل الله على وجه خرق عادة البشر مع تحدى الرسول بالاتيان الى آخر ما كتب ☆

قلت هذا عمدة القوم ولهذا طعن الناس في طريقهم وشنع عليهم ابن حزم وغيره

وذلك ان هذا الكلام مستدرك من وجوه. أحدها انه اذا جوز أن يكون ماينفرد الرب بالقدرة عليه على قوله يأتي به النبي تارة والساحر تارة ولافرق بينهما الا دعوى النبوة والاستدلال به، والتحدى بالمثل فلاحاجة الى كونه مما انفرد البارى بالقدرة عليه؛ لاسيما وقد ظهر ضعف الفرق بين ما يمتنع قدرة العباد عليه وما لايمتنع. ولهذا أعرض المتأخرون عن هذا القيد ☆ الوجه الثانى وبه تنكشف حقيقة طريقهم انه على هذا لم تتميز المعجزات بوصف تختص به وانما امتازت باقترانها بدعوة النبوة وهذا حقيقة قولهم وقد صرحوا به. فالدليل والبرهان ان استدل به كان دليلا وان لم يستدل به لم يكن دليلا، وان اقترنت به الدعوى كان دليلا وان لم تقترن به الدعوى لم يكن دليلا عندهم ولهذا لم يجعلوا دلالة المعجز دلالة عقلية بل دلالة وضعية كدلالة الالفاظ بالاصطلاح وهذا مستدرك من وجوه. منها ان كون آيات الانبياء مساوية في الحد والحقيقة بسحر السحرة أمر معلوم الفساد بالاضطرار من دين الرسل ☆ الثانى ان هذا من أعظم القدح في الانبياء اذا كانت آياتهم من جنس سحر السحرة وكهانة الكهان ☆ الثالث انه على هذا التقدير لاتبقى دلالة فان الدليل مايستلزم المدلول ويختص به فاذا كان مشتركا بينه وبين غيره لم يبق دليلا فهؤلاء قدحوا في آيات الانبياء ولم يذكروا دليلا على صدقهم ☆ الرابع انه على هذا التقدير يمكن الساحر دعوى النبوة وقوله انه عند ذلك يسلبه الله القدرة على السحر أو يأتي بمن يعارضه دعوى مجردة فان المنازع يقول لانسلم انه اذا ادعى النبوة فلا بد أن يفعل الله ذلك، لاسيما على أصله وهو ان الله يجوز أن يفعل كل مقدور وهذا مقدور للرب فيجوز أن يفعله وادعى ان ما يخرق العادة من الامور الطبيعية والطلسمات هي كالسحر فقال ولاجل ذلك لم تلتبس آيات الرسل بما يظهر من جذب حجر المغناطيس وما يوجد ويكون عند كتب الطلسمات قال وذلك انه لو ابتدأ نبي باظهار حجر المغناطيس لوجب أن يكون ذلك آية له ولو أن أحداً أخذ هذا الحجر وخرج الى بعض البلاد وادعى أنه آية له عند من لم يره ولم يسمع به لوجب أن ينقضه الله عليه بوجهين أحدها أن يؤثر دواعى خلق من البشر الى حمل جنس تلك الحجارة الى ذلك البلد وكذلك سبيل الزناد الذى يقدح النار وتعرفه العرب وكذلك سبيل الطلسمات التى يقال انها تنفى الذباب والبق والحيات والوجه الآخر أن لا يفعل

الله عند ذلك ما كان يفعله من قبل فيقال هذه دعوى مجردة ومما يوضح ذلك الوجه الخامس وهو أن جعل قدح الزناد وجذب حجر المغناطيس والطلسمات من جنس معجزات الانبياء وانه لو بعث نبي ابتداء وجعل ذلك آية له جاز ذلك غلط عظيم وعدم علم بقدر معجزات الانبياء وآياتهم وهذا انما أتاهم حيث جعلوا جنس الخارق هو الآية كما فعلت المعتزلة وأولئك كذبوا بوجود ذلك لغير الانبياء وهؤلاء ما أمكنهم تكذيب ذلك لدلالة الشرع والأخبار المتواترة والعيان على وجود حوادث من هذا النوع فجعلوا الفرق افتراق الدعوى والاستدلال والتحدى دون الخارق ومعلوم أن ماليس بدليل لا يصير دليلا بدعوى المستدل أنه دليل وقد بسط الكلام في ذلك. وجوز أن تظهر المعجزات على يد كاذب اذا خلق الله مثلها على يد من يعارضه فعمدته سلامتها من المعارضة بالمثل مع أن المثل عنده موجود وآيات الانبياء لها أمثال كثيرة لغير الانبياء لكن يقول أن من ادعى الاتيان فاما ان لا يظهرها الله على يديه واما أن يقيض من يعارضه بمثلها هذا عمدة القوم وليس فرقا حقيقيا بين النبي والساحر وانما هو مجرد دعوى وهذا يظهر بالوجه السادس وهو ان من الناس من ادعى النبوة وكان كاذبا وظهرت على يده بعض هذه الخوارق فلم يمنع منها ولم يعارضه احد بل عرف أن هذا الذى اتى به ليس من آيات الانبياء وعرف كذبه بطرق متعددة كما في قصة الأسود العنسى ومسيلمة الكذاب والحارس الدمشقي وبابا الرومى وغير هؤلاء ممن ادعى النبوة فقولهم ان الكذاب لا يأتى بمثل هذا الجنس ليس كما ادعوه ☆ الوجه السابع أنه انما أوجب ان لا يظهر الله الخوارق على يد الكذاب لان ذلك يفضى الى عجز الرب وهذه عمدة الاشعرى في أظهر قوليه وهي المشهورة عند قدمائهم وهى التى سلكها القاضى أبو يعلى ونحوه ☆

قال القاضى ابو بكر فان قال قائل من القدرية فلم لا يجوز ان يظهر المعجزات على يد مدعى النبوة ليلبس بذلك على العباد ويضل به عن الدين وأنتم تجوزون خلقه الكفر في قلوب الكفار واضلالهم في الفصل بين اضلالهم بهذا وبين اضلالهم باظهار المعجزات على يد الكاذبين؟ قال فيقال لمن سأل عن هذا من القدرية الفصل بين الامرين ظاهر معلوم وقد نص القرآن والاخبار بأنه يضل ويهدى ويختم على القلوب والاسماع و الابصار. فاما مطالبتهم بالفرق بين اضلال العباد بهذه الضروب من

الأفعال وبين اضلالهم باظهار المعجزات على أيدى الكذابين ؛ فجوابه انا لم نحل اضلالهم بهذا الضرب لانه اضلال عن الدين أو لقبحه من الله لو وقع أو لاستحقاقه الذم عليه تعالى عن ذلك ، أو لكونه ظالماً لهم بالتكليف مع هذا الفعل ؛ كل ذلك باطل محال من تمويههم وانما أحلناه لانه يوجب عجز القديم عن تمييز الصادق من الكاذب . وتعريفنا الفرق بين النبى والمتنبى من جهة الدليل اذ لادليل في قول كل أحد أثبت النبوة على نبوة الرسل وصدقهم الا ظهور اعلام المعجزة على أيديهم؛ أوخبر من ظهرت المعجزة على يده عن نبوة آخر مرسل فهذا اجماع لاخلاف فيه ، فلو أظهر الله على يد المتنبى الكاذب ذلك لبطلت دلائل النبوة وخرجت المعجزات عن كونها دلالة على صدق الرسول ولوجب لذلك عجز القديم عن الدلالة على صدقهم ، ولما لم يجز عجزه وارتفاع قدرته عن بعض المقدورات لم يجز لذلك ظهور المعجزات على أيدى الكذابين ؛ بخلاف خلق الكفر في قلوب الكافرين . قلت هذا عمدة القوم والمتأخرون عرفوا ضعف هذا فلم يسلكوه كابى المعالى والرازى وغيرهما بل سلكوا الجواب الآخر وهو أن العلم بالصدق عند المعجز يحصل ضرورة فهو علم ضرورى وبيان ضعف هذا الجواب مع انه يحتج به وقال فهذا هذا من وجوه: أحدها ان يقال ان كان الامر كما زعمتم فانما يلزم العجز اذا كان خلق الدليل الدال على صدقهم جنسه لايدل بل جنسه يقع مع عدم النبوة ولم يبق عندكم جنس من الادلة يخص النبوة فلم قلتم ان تصديقهم والحال هذه ممكن ولا ينفعكم هنا الاستدلال بالاجماع ونحوه من الادلة السمعية لان كلامكم مع منكرى النبوات فيجب أن تقيموا عليهم كون المعجزات دليلا على صدق النبى . وأما من أقر بنبوتهم بطريق غير طريقكم فانه لا يحتاج الى كلامكم فاذا قال لكم منكرو النبوة لا نسلم امكان طريق يدل على صدقهم لم يكن معكم مايدل على ذلك وقد أورد هذا السؤال وأجاب عنه بأنه يمكنه (١) تصديقهم بالقول والمعجزات تقوم مقام التصديق بالقول بل التصديق بالفعل أوكد وضرب المثل بمدعى الوكالة اذا قال قم أواقعد ففعل ذلك عند استشهاد وكيله ،فان العقلاء كلهم يعلمون انه أقام تلك الأفعال مقام القول.

---

(١) الضمير عائد لله

قلت وهذا يعود الى الاحتجاج بالطريقة الثانية وهي العلم بالتصديق ضرورة فلا حاجة الى طريقة المعجزات . الثانى انه يمكن أن يخلق علماً ضرورياً بصدقهم وقد سلم القاضى أبو بكر ذلك لكن قال اذا اضطررنا الى العلم بصدق مدعى النبوة وانه أرسله الينا كان في ضمن هذا العلم اضطراره لنا الى العلم بذاته والى انه قد أرسل مدعى النبوة واذا علمنا ذلك اضطراراً لم يكن للتكليف بالعلم بصدقه وجها وخرجنا بذلك عن أن نكون مكلفين بالعلم بالدين وهذا كلام يؤدى الى خروجنا عن حد المحنة والتكليف فيقال له اذا حصل العلم الضرورى بوجود الخالق وبصدق رسوله كان التكليف بالاقرار بالصانع وعبادته وحده لاشريك له وبتصديق رسله وطاعة أمره وهذا هو الذى أمرت به الرسل أمرت الخلق أن يعبدوا الله وحده وأن يطيعوا رسله ولم يأمروا جميع الخلق بأن يكتسبوا علماً نظرياً بوجود الخالق وصدق رسله لكن من جحد الحق أمروه بالاقرار به، وأقاموا الحجة عليه ، وبينوا معاندته، وانه جاحد للحق الذى يعرفه ، وكذلك الرسول كانوا يعلمون انه صادق ويكذبونه فليتدبر هذا الموضع فانه موضع عظيم ۞ الوجه الثالث ان يقال نحن نسلم ان المعجزات تدل على الصدق وانه لا يجوز اظهارها على يد الكاذب لكن هو لان الله منزه عن ذلك وان حكمته تمنع ذلك ولا يجوز عليه كل فعل ممكن وأنتم مع تجويزكم عليه كل ممكن يلزمكم تجويز خلق المعجزة على يد الكاذب فما علم بالعقل والاجماع من امتناع ظهورها على يد الكاذب يدل على فساد أصلكم ۞ الوجه الرابع ان يقال لم قلتم انه لادليل على صدقهم الا المعجزات وما ذكرتم من الاجماع على ذلك لايصح الاستدلال به لوجهين : أحدهما انه لا اجماع في ذلك بل كثير من الطوائف يقولون ان صدقهم بغير المعجزات . الثانى انه لايصح الاحتجاج بالاجماع في ذلك فان الاجماع انما يثبت بعد ثبوت النبوة والمقدمات التى يعلم بها النبوة لا يحتج عليها بالاجماع وقولكم لا دليل سوى المعجز مقدمة ممنوعة وذكر عن الاشعرى انه ذكر جواباً آخر فقال وأيضاً فان قول القائل ما أنكرتم من جواز اظهار المعجزات على أيدى الكذابين قول متناقض والله على كل شيء قدير .ولكن ماطالب السائل باجازته محال لاتصح القدرة عليه ولا العجز عنه لانه بمنزلة كونه أظهر المعجزات على أيديهم فانه أوجب انهم صادقون لان المعجز

دليل على الصدق ومتضمن له وقوله مع ذلك انهم كاذبون نقض لقوله انهم صادقون قد ظهرت المعجزات على أيديهم فوجب احالة هذه المطالبة وصار هذا بمثابة قول من قال ماأنكرتم من [١] صحة ظهور الافعال المحكمة الدالة على علم فاعلها والمتضمنة لذلك من جهة الدليل من الجاهل بها في أنه قول باطل متناقض فيجب اذا كان الامر كذلك استحالة ظهور المعجزات على يد الكاذبين واستحالة ثبوت قدرة قادر عليه وكيف يصح على هذا الجواب أن يقال ما أنكرتم وزعمتم أنه من فعل المحال الذى لا يصح حدوثه وتناول القدرة له هو من قبيل الجائز قياساً على صحة خلق الكفر وضروب الضلال التى يصح حدوثها وتناول القدرة لها .قلت هذا كلام صحيح اذا علم أنها دليل الصدق يستحيل وجوده بدون الصدق والممتنع غير مقدور فيمتنع أن يظهر على أيدى الكاذبين مايدل على صدقهم لكن المطالب يقول كيف يستقيم على أصلكم ان يكون ذلك دليل الصدق وهو أمر حادث مقدور وكل مقدور يصح عندكم أن يفعله الله ولو كان فيه من الفساد ما كان فانه عندكم لاينزه عن فعل ممكن ولا يقبح منه فعل فحينئذ اذا خلق على يد الكاذب مثل هذه الخوارق لم يكن ممتنعاً على أصلكم وهي لا تدل على الصدق البتة على أصلكم ويلزمكم اذا لم يكن دليل الهى الا يكون في المقدور دليل على صدق مدعى النبوة فيلزم ان الرب سبحانه لايصدق أحداً ادعى النبوة واذا قلتم هذا ممكن بل واقع ونحن نعلم صدق الصادق اذا ظهرت هذه الاعلام على يده ضرورة قيل فهذا يوجب ان الرب لا يجوز عليه اظهارها على يد كاذب وهذا فعل من الافعال هو قادر عليه وهو سبحانه لا يفعله بل هو منزه عنه فأنتم بين أمرين ان قلتم لا يمكنه خلقها على يد الكاذب وكان ظهورها ممتنعاً فقد قلتم انه لا يقدر على احداث حادث قد فعل مثله وهذا تصريح بعجزه وأنتم قلتم فليست بدليل فلا يلزم عجزه فصارت دلالتها مستلزمة لعجزه على اصلكم وان قلتم يقدر لكنه لا يفعل فهذا حق وهو ينقض أصلكم .وحقيقة الامر ان نفس ما يدل على صدق الصادق بمجموعه امتنع أن يحصل للكاذب وحصوله له ممتنع غير مقدور . وأما خلق مثل تلك الخارقة على يد

---

[١] هكذا الاصل ولعل صوابه هكذا فهو من قبيل وقوله بعد ذلك من الجاهل بها متعلق بظهور

الـكاذب فهو ممكن والله سبحانه وتعالى قادر عليه لكنه لايفعـله لحكمته كما انه سبحانه يمتنع عليه أن يكذب أو يظلم والمعجز تصديق وتصديق الـكاذب هو منزه عنه؛والدال على الصدق قصد الرب تصديق الصادق وهذا القصد يمتنع حصوله للـكاذب فيمتنع جعل من ليس برسول رسولا وجعل الـكاذب صادقا و يمتنع من الرب قصد المحال وهو غير مقدور وهو اذا صدق الصادق بفعله علم بالاضطرار والدليل انه صدقه وهذا العلم يمتنع حصوله للـكاذب واستشهادكم بالعلم هو من هذا الباب فانتم تقولون ان الرب لايخلق شيئاً لشيء وحينئذ فلا يكون قاصداً لما في المخلوقات من الاحكام فلا يكون الاحكام دالا على العلم على أصلكم فان الاحكام انما هو جعل الشيء محصـلاً للمطلوب بحيث يجعل لاجل ذاك المطلوب وهذا عندهم لا يجوز فاثباته علمه وتصديق رسله مشروط بأن يفعل شيئاً لشيء وهذا عندكم لا يجوز فلهذا يقال انكم متناقضون والله سبحانه وتعالى أعلم ☆

الوجه الثامن أن حقيقة الامر على قول هؤلاء الذين جعلوا المعجزة الخـارق مع التحدى ان المعجز في الحقيقة ليس الا منع الناس من المعارضة بالمثل سواء كان المعجز في نفسه خارقا أو غير خارق وكثير مما يأتى به الساحر والكاهن أمر معتاد لهـم وهم يجوزون أن يكون آية للنبى واذا كان آية منع الله الساحر والكاهن من مثل ما كان يفعل أو قيض له من يعارضه وقالوا هذا ابلغ فانه منع المعتاد وكذلك عندهم احدى نوعى المعجزات منعهم من الأفعال المعتادة وهو مأخذ من يقول بالصرفة واذا كان كذلك جاز أن يكون كل أمر كالاكل والشرب والقيام والقعود معجزة اذا منعهم أن يفعلوا كفعله وحينئذ فلا معنى لكونها خارقا ولا لاختصاص الرب بالقـدرة عليها بل الاعتبار بمجرد عدم المعارضة وهم يقرون بخلاف ذلك والله اعلم ☆

الوجه التاسـع أنه اذا كانت المعجزة هي مجموع دعوى الرسالة مع التحدى فلا حاجة الى كونه خارقا كما تقدم ويجب اذا تحدى بالمثل أن يقول فليأت بمثل القرآن من يدعى النبوة فان هذا هو المعجز عندهم والا القرآن مجرداً ليس بمعجز فلا يطلب مثل القرآن الا ممن يدعى النبوة كما في الساحر والكاهن اذا ادعى النبوة سلبـه الله ذلك أو قيض له من يعارضه واذا لم يدع النبوت جاز أن يظهر على يده مثل ما يظهر على يد النبي فكذلك يلزمهم مثل هذا في القرآن وسائر المعجزات والله أعلم ☆

فصل

في أن الرسول لابد أن يبين أصول الدين

وهي البراهين الدالة على أن ما يقوله حق من الخبر والأمر فلا بد أن يكون قد بين الدلائل على صدقه في كل ما أخبر ووجوب طاعته في كل ما أوجب وأمر ومن أعظم أصول الضلال الاعراض عن بيان الرسول للادلة والآيات والبراهين والحجج فان المعرضين عن هذا اما أن يصدقوه ويقبلوا قوله ويؤمنوا به بلا دليل أصلا ولاعلم واما أن يستدلوا على ذلك بغير أدلته فان لم يكونوا عالمين بصدقه فهم ممن يقال له في قبره ما قولك في هذا الرجل الذى بعث فيكم فاما المؤمن او الموقن فيقول هو عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه .وأما المنافق او المرتاب فيقول هاه هاه لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء الا الثقلين. وان استدل على ذلك بغير الآيات والا دلة التى دعا بها الناس فهو مع كونه مبتدعا لابد أن يخطيء ويضل فان ظن الظان انه بأدلة وبراهين خارجة عما جاء به تدل على ما جاء به فهو من جنس ظنه أنه يأتى بعبادات غير ما شرعه توصل الى مقصوده وهذا الظن وقع فيه طوائف من النظار الغالطين أصحاب الاستدلال والاعتبار والنظر كما وقع في الظن الاول طوائف من العباد الغالطين اصحاب الارادة والمحبة والزهد . وقوله ﷺ في خطبته يوم الجمعة « خير الكلام كلام الله ؛ وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» يتناول هذا وهذا وقد أرى الله تعالى عباده الآيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى تبين لهم أن ما قاله فهو حق فان أرباب العبادة والمحبة والارادة والزهد الذين سلكوا غير ما أمروا به ضلوا كما ضلت النصارى ومبتدعة هذه الأمة من العباد وأرباب النظر والاستدلال الذين سلكوا غير دليله وبيانه أيضا ضلوا قال تعالى (فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال

رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى)☆

وفي الكلام المأثور عن الامام أحمد أصول الاسلام أربعة : دال ودليل ، ومبين ومستدل. فالدال هو الله، والدليل هو القرآن ،والمبين هو الرسول .قال الله تعالى(لتبين للناس ما نزل اليهم) والمستدل هم أولو العلم وأولو الالباب الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم وقد ذكره ابن المنى عن احمد وهو مذكور في العدة للقاضى أبى يعلى وغيرها اما أن أحمد قال له أو قيل له فاستحسنه . ولهذا صار كثير من النظار يوجبون العلم والنظر والاستدلال وينهون عن التقليد ويقول كثير منهم أن ايمان المقلد لا يصح أو انه وان صح لكنه عاص بترك الاستدلال ثم النظر والاستدلال الذى يدعون اليه ويوجبونه ويجعلونه أول الواجبات واصل العلم هو نظر واستدلال ابتدعوه ليس هو المشروع لا خبراً ولا أمراً وهو استدلال فاسد لا يوصل الى العلم فانهم جعلوا أصل العلم بالخالق هو الاستدلال على ذلك بحدوث الاجسام والاستدلال على حدوث الأجسام بانها مستلزمة للاعراض لا يخلو عنها ولا ينفك منها ثم استدلوا على حدوث الأعراض قالوا فثبت أن الأجسام مستلزمة للحوادث لا يخلو عنها فلا تكون مثلها ثم كثير منهم قالوا ومالم يخل من الحوادث او مالم يسبق الحوادث فهو حادث وظن أن هذه مقدمة بديهية معلومة بالضرورة لا يطلب عليها دليل وكان ذلك بسبب أن لفظ الحوادث يشعر بان لها ابتداء كالحادث المعين والحوادث المحدودة ولو قدرت ألف ألف ألف حادث فان الحوادث اذا جعلت مقدرة محدودة فلا بد ان يكون لها ابتداء فان مالا ابتداء له ليس له حد معين ابتدأ منه اذ قد قيل لا ابتداء له بل هو قديم أزلى دائم ومعلوم أن هذه الحوادث ما لم يسبقها فهو حادث فانه يكون اما معها واما بعدها وكثير منهم يفطن للفرق بين جنس الحوادث وبين الحوادث المحدودة فالجنس مثل ان يقال مازالت الحوادث توجد شيئا بعد شيء أو مازال جنسها موجوداً أو مازال الله متكلما اذا شاء أو ما زال الله فاعلا لما يشاء أو ما زال قادراً على ان يفعل قدرة يمكن معها اقتران المقدور بالقدرة لا تكون قدرة يمتنع معها المقدور فان هذه في الحقيقة ليست قدرة ومثل ان يقال في المستقبل لا بد ان الله يخلق شيئاً بعد شيء ونعيم اهل الجنة دائم لايزول ولا ينفد وقد يقال في النوعين كلمات الله لاتنفد ولانهاية لها لا في الماضى ولا في المستقبل ونحو ذلك . فالكلام

في دوام الجنس وبقائه وانه لاينفد ولا ينقضى ولا يزول ولا ابتداء له غير الكلام فيما يقدر محدوداً له ابتداء أوله ابتداء وانتهاء فان كثيراً من النظار من يقول جنس الحوادث اذا قدر له ابتداء وجب أن يكون له انتهاء لانه يمكن فرض تقدمه على ذلك الحد فيكون أكثر مما وجد وما لا يتناهى لا يدخله التفاضل فانه ليس وراء عدم النهاية شيء أكثر منها بخلاف مالا ابتداء له ولا انتهاء فان هذا لايكون شيء فوقه فلا يفضى الى التفاضل فيما لايتناهى وبسط هذا له موضع آخر .والمقصود هنا ان هؤلاء جعلوا هذا أصل دينهم وايمانهم وجعلوا النظر في هذا الدليل هو النظر الواجب على كل مكلف وانه من لم ينظر في هذا الدليل فاما انه لايصح ايمانه فيكون كافراً على قول طائفة منهم واما ان يكون عاصياً على قول آخرين واما أن يكون مقلداً لا علم له بدينه لكنه ينفعه هذا التقليد ويصير به مؤمنا غير عاص .والاقوال الثلاثة باطلة لأنها مفرعة على أصل باطل وهو أن النظر الذى هو أصل الدين والايمان هو هذا النظر في هذا الدليل فان علماء المسلمين يعلمون بالاضطرار ان الرسول لم يدع الخلق بهذا النظر ولا بهذا الدليل لاعامة الخلق ولا خاصتهم فامتنع أن يكون هذا شرطاً في الايمان والعلم وقد شهد القرآن والرسول لمن شهد له من الصحابة وغيرهم بالعلم وانهم عالمون بصدق الرسول وبما جاء به وعالمون بالله وبأنه لااله الا الله ولم يكن الموجب لعلمهم هذا الدليل المعين كما قال تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد) وقال (شهد الله ان لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط) وقال (أفمن يعلم أن ما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى)٭

وقد وصف باليقين والهدى والبصيرة في غير موضع كقوله(وبالآخرة هم يوقنون) وقوله(أولئك على هدى من ربهم)وقوله (قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) وأمثال ذلك فتبين أن هذا النظر والاستدلال الذى أوجبه هؤلاء وجعلوه أصل الدين ليس مما أوجبه الله ورسوله ولو قدر انه صحيح في نفسه وان الرسول أخبر بصحته لم يلزم من ذلك وجوبه اذ قد يكون للمطلوب أدلة كثيرة ولهذا طعن الرازى وأمثاله على أبى المعالى في قوله انه لايعلم حدوث العالم الا بهذا الطريق وقالوا هب أنه يدل على حدوث العالم فمن أين يجب أن لا يكون ثم طريق آخر وسلكوا هم طرقا أخر

فلو كانت هذه الطريق صحيحة عقلا وقد شهدلها الرسول والمؤمنون الذين لا يجتمعون على ضلالة بأنها طريق صحيحة لم يتعين مع امكان سلوك طرق أخرى كما أنه في القرآن سور وآيات قدثبت بالنص والاجماع أنها من آيات الله الدالة على الهدى . ومع هذا فاذا اهتدى الرجل بغيرها وقام بالواجب ومات ولم يعلم بهـا ولم يتمكن من سماعها لم يضره. كالآيات المكية التى اهتدى بها من آمن ومات في حياة النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل سائر القرآن فالدليل يجب طرده لا يجب عكسه. ولهذا أنكر كثير من العلماء على هؤلاء ايجاب سلوك هذه الطريق مع تسليمهم أنها صحيحة كالخطابى والقاضى أبى يعلى وابن عقيل وغيرهم والاشعرى نفسه أنكر على من أوجب سلوكها أيضا في رسالته الى أهل الثغر مع اعتقاده صحتها واختصر منها طريقة ذكرها في أول كتابه المشهور المسمى باللمع في الرد على أهل البدع وقد اعتنى به أصحابه حتى شرحوه شروحا كثيرة والقاضى أبو بكر شرحه ونقض كتاب عبد الجبار الذى صنفه في نقضه وسماه نقض نقض اللمع. وأما أكابر أهل العلم من السلف والخلف فعلموا أنها طريقة باطلة في نفسها مخالفة لصريح المعقول وصحيح المنقول وانه لا يحصل بها العلم بالصانع ولا بغير ذلك بل يوجب سلوكها اعتقادات باطلة توجب مخالفة كثير مما جاء به الرسول مع مخالفة صريح المعقول كما أصاب من سلكها من الجهمية والمعتزلة والكلابية والكرامية ومن تبعهم من الطوائف وان لم يعرفوا غورها وحقيقتهـا فان أئمة هؤلاء الطوائف صار كل منهم يلتزم ما يراه لازما له ليطردها فيلتزم لوازم مخالفة للشرع والعقل فيجىء الآخر فيرد عليه ويبين فساد ماالتزمه ويلتزم هو لوازم أخر لطردها فيقع أيضـا في مخالفة الشرع والعقل. فالجهمية التزموا لاجلها نفى أسماء الله وصفاته اذ كانت الصفات اعراضا تقوم بالموصوف ولا يعقل موصوف بصفة الا الجسم فاذا اعتقـدوا حدوثه اعتقـدوا حدوث كل موصوف بصفة والرب تعـالى قديم فالتزموا نفى صفاته واسماؤه مستلزمة لصفاته فنفوا أسماءه الحسنى وصفاته العلى .والمعتزلة استعظموا نفى الاسماء لما فيه من تكذيب القرآن تكذيبا ظاهر الخروج عن العقل والتناقض فانه لابد من التميز بين الرب وغيره بالقلب واللسان فما لايميز من غيره لاحقيقة له ولا اثبات وهو حقيقة قول الجهمية فانهم لم يثبتوا في نفس الامر شيئا قديما البتة كما أن المتفلسفة الذين سلكوا مسلك الامكان والوجوب وجعلوا ذلك

بدل الحادث والقديم لم يثبتوا واجبا بنفسه البتة وظهر بهذا فساد عقلهم وعظيم جهلهم مع الكفر وذلك انه يشهد وجود السموات وغيرها فهذه الافلاك ان كانت قديمة واجبة فقد ثبت وجود الموجود القديم الواجب وان كانت ممكنة أو محدثة فلا بد لها من واجب قديم فان وجود الممكن بدون الواجب والمحدث بدون القديم ممتنع في بداية العقول فثبت وجود موجود قديم واجب بنفسه على كل تقدير فاذا كان ما ذكروه من نفى الصفات عن القديم والواجب يستلزم نفى القديم مطلقا ونفى الواجب علم انه باطل وقد بسط هذا في مواضع وبين أن كل من نفى صفة مما أخبر به الرسول لزمه نفى جميع الصفات فلا يمكن القول بموجب أدلة العقول الا مع القول بصدق الرسول فادلة العقول مستلزمة لصدق الرسول فلا يمكن مع عدم تصديقه القول بموجب العقول بل من كذبه فليس معه لاعقل ولاسمع كما أخبر الله تعالى عن أهل النار قال تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ ان انتم الا في ضلال كبير وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لاصحاب السعير) وهذا مبسوط في غير هذا الموضع ☆

والمقصود هنا أن المعتزلة لما رأوا الجهمية قد نفوا اسماء الله الحسنى استعظموا ذلك وأقروا بالاسماء ولما رأوا هذه الطريق توجب نفى الصفات نفوا الصفات فصاروا متناقضين فان اثبات حى عليم قدير حكيم سميع بصير بلا حياة ولا علم ولا قدرة ولا حكمة ولا سمع ولابصر مكابرة للعقل كاثبات مصل بلا صلاة وصائم يلا صيام وقائم بلا قيام ونحو ذلك من الاسماء المشتقة كأسماء الفاعلين والصفات المعدولة عنها . ولهذا ذكروا في أصول الفقه أن صدق الاسم المشتق كالحى والعليم لا ينفك عن صدق المشتق منه كالحياة والعلم. وذكروا النزاع مع من ذكروه من المعتزلة كأبى على وأبى هاشم فجاء ابن كلاب ومن اتبعه كالاشعرى والقلانسى فقرروا أنه لابد من اثبات الصفات متابعة للدليل السمعى والعقلى مع اثبات الاسماء وقالوا ليست اعراضا لان العرض لايبقى زمانين وصفات الرب باقية وسلكوا في هذا الفرق وهو أن العرض لايبقى زمانين مسلكا أنكره عليهم جمهور العقلاء وقالوا انهم خالفوا الحس وضرورة العقل وهم موافقون لاولئك على صحة هذه

الطريقة طريقة الاعراض قالوا وهذه تنفى عن الله أن يقوم به حادث وكل حادث فانما يكون بمشيئته وقدرته قالوا فلا يتصف بشئ من هذه الامور لايتكلم بمشيئته وقدرته ولا يقوم به فعل اختيارى يحصل بمشيئته وقدرته كخلق العالم وغيره بل منهم من قال لايقوم به فعل بل الخلق هو المخلوق كالاشعرى ومن وافقه ومنهم من قال بل فعل الرب قديم أزلى وهو من صفاته الازلية وهو قول قدماء الكلابية وهو الذى ذكره أصحاب ابن خزيمة لما وقع بينه وبينهم بسبب هذا الاصل فكتبوا عقيدة اصطلحوا عليها وفيها اثبات الفعل القديم الازلى وكان سبب ذلك انهم كانوا كلابية يقولون انه لا يتكلم بمشيئته وقدرته بل كلامه المعين لازم لذاته أزلا وأبداً. وكان ابن خزيمة وغيره على القول المعروف للمسلمين وأهل السنة ان الله يتكلم بمشيئته وقدرته وكان قد بلغه عن الامام احمد انه كان يذم الكلابية وانه امر بهجر الحارث المحاسبى لما بلغه انه على قول ابن كلاب وكان يقول حذروا عن حارث الفقير فانه جهمى واشتهر هذا عن احمد. وكان بنيسابور طائفة من الجهمية والمعتزلة ممن يقولون ان القرآن وغيره من كلام الله مخلوق ويطلقون القول بأنه متكلم بمشيئته وقدرته لكن مرادهم بذلك انه يخلق كلاما بائنا عنه قائما بغيره كسائر المخلوقات وكان من هؤلاء من عرف أصل ابن كلاب فاراد التفريق بين ابن خزيمة وبين طائفة من أصحابه فأطلعه على حقيقة قولهم فنفر منه وهم كانوا قد بنوا ذلك على أصل ابن كلاب واعتقدوا انه لاتقوم به الحوادث بناء على هذه الطريقة طريقة الاعراض وابن خزيمة شيخهم وهو الملقب بامام الأئمة وا كثر الناس معه ولكن لايفهمون حقيقة النزاع فاحتاجوا لذلك الى ذكر عقيدة لا يقع فيها نزاع بين الكلابية وبين أهل الحديث والسنة فذكروا فيها أن كلام الله غير مخلوق وانه لم يزل متكلما وان فعله أيضا غير مخلوق فالمفعول مخلوق ونفس فعل الرب له قديم غير مخلوق وهذا قول الحنفية وكثير من الحنبلية والشافعية والمالكية وهو اختيار القاضى أبى يعلى وغيره في آخر عمره وبسط هذا له موضع آخر☆

والمقصود التنبيه على افتراق الامة بسبب هذه الطريقة ولما عرف كثير من الناس باطن قول ابن كلاب وانه يقول ان الله لم يتكلم بالقرآن العربى وان كلامه شئ واحد هو معنى آية الكرسى وآية الدين عرفوا مافيه من مخالفة الشرع والعقل فنفروا عنه

وعرفوا أن هؤلاء يقولون انه لايتكلم بمشيئته وقدرته فانكروه وكان ممن أنكر ذلك الكرامية وغير الكرامية كأصحاب أبي معاذ التومني وزهير البابي وداود بن على وطوائف فصار كثير من هؤلاء يقولون انه يتكلم بمشيئته وقدرته فانكروه لكن يراعي تلك الطريقة لاعتقاده صحتها فيقول انه لم يكن في الازل متكلما لانه اذا كان لم يزل متكلما بمشيئته لزم وجود حوادث لا تتناهي ☆

وأصل الطريقة أن هذا ممتنع فصار حقيقة قول هؤلاء انه صار متكلما بعد ان لم يكن متكلما فخالفوا قول السلف والائمة انه لم يزل متكلما اذا شاء وبسط هذه الامور له موضع آخر ☆

والمقصود هنا أن كثيراً من أهل النظر صار مايوجبونه من النظر والاستدلال ويجعلونه أصل الدين والايمان هو هذه الطريقة المبتدعة في الشرع المخالفة للعقل الذى اتفق سلف الامة وأئمتها على ذمها وذم أهلها فذمهم للجهمية الذين ابتدعوا هذه الطريقة أولا متواتر مشهور قد صنف فيه مصنفات وذمهم للكلام والمتكلمين مماعنى به أهل هذه الطريقة كذم الشافعى لحفص الفرد الذى كان على قول ضرار بن عمرو وذم احمد بن حنبل لابى عيسى محمد بن عيسى برغوث الذى كان على قول حسين النجار وذمهما وذم أبي يوسف ومالك وغيرهم لأمثال هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريقة وقد صنف في ذم الكلام وأهله مصنفات أيضا وهو متناول لاهل هذه الطريقة قطعا فكان ايجاب النظر بهذا التفسير باطلا قطعا بل هذا نظر فاسد يناقض الحق والايمان ولهذا صار من يسلك هذه الطريقة من حذاق الطوائف يتبين لهم فسادها كما ذكر مثل ذلك أبو حامد الغزالى وأبو عبدالله الرازى وأمثالهما ثم الذى يتبين له فسادها اذا لم يجد عند من يعرفه من المتكلمين في أصول الدين غيرها بقى حائرا مضطربا والقائلون بقدم العالم من الفلاسفة والملاحدة وغيرهم تبين لهم فسادها فصار ذلك من اعظم حججهم على قولهم الباطل فيبطلون قول هؤلاء انه صار فاعلا او فاعلا ومتكلما بمشيئته بعد ان لم يكن ويثبتون وجوب دوام نوع الحوادث ويظنون انهم اذ ابطلوا كلام أولئك المتكلمين بهذا حصل مقصودهم وهم أضل وأجهل من أولئك فان أدلتهم لاتوجب قدم شيء بعينه من العالم بل كل ماسوى الله فهو محدث مخلوق كائن بعد ان لم يكن ودلائل كثيرة غير تلك الطريقة وان كان الفاعل لم يزل فاعلا لما يشاء ومتكلما بما يشاء وصار كثير من أولئك اذا ظهر له فساد أصل

أولئك المتكلمين المبتدعين وليس عنده الا قولهم وقول هؤلاء يميل الى قول هؤلاء الملاحدة ثم قد يبطن ذلك وقد يظهر لمن يأمنه وابتلى بهذا كثير من أهل النظر والعبادة والتصوف وصاروا يظهرون هذا في قالب المكاشفة ويزعمون انهم أهل التحقيق والتوحيد والعرفان فاخذوا من نفى الصفات ان صانع العالم لاداخل العالم ولا خارجه ومن قول هؤلاء ان العالم قديم ولم يروا موجودا سوى العالم فقالوا انه هو الله وقالوا هو الوجود المطلق والوجود واحد وتكلموا في وحدة الوجود وانه الله بكلام ليس هذا موضع بسطه ثم لما ظهر ان كلامهم يخالف الشرع والعقل صاروا يقولون يثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل ويقولون القرآن كله شرك وانما التوحيد في كلامنا ومن أراد أن يحصل له هذا العلم اللدنى الاعلى فليترك العقل والنقل وصار حقيقة قولهم الكفر بالله وبكتبه ورسله وباليوم الآخر من جنس قول الملاحدة الذين يظهرون التشيع لكن أولئك لما كان ظاهر قولهم هو ذم الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان صارت وصمة الرفض تنفر عنهم خلقا كثيرا لم يعرفوا باطن أمرهم وهؤلاء صاروا ينتسبون الى المعرفة والتوحيد واتباع شيوخ الطريق كالفضيل وابراهيم بن ادهم والتسترى والجنيد وسهل بن عبد الله وأمثال هؤلاء ممن له في الامة لسان صدق فاغتر بهؤلاء من لم يعرف باطن أمرهم وهم في الحقيقة من أعظم خلق الله خلافا لهؤلاء المشايخ السادة ولمن هو أفضل منهم من السابقين الاولين والانبياء المرسلين وكان من أسباب ذلك ان العبادة والتأله والمحبة ونحو ذلك مما يتكلم فيه شيوخ المعرفة والتصوف امر معظم في القلوب والرسل انما بعثوا بدعاء الخلق الى ان يعرفوا الله ويكون أحب اليهم من كل ما سواه فيعبدوه ويألهوه ولا يكون لهم معبود مألوه غيره ☆

وقد انكر جمهور أولئك المتكلمين ان يكون الله محبوبا أو انه يحب شيئا أو يحبه أحد وهذا في الحقيقة انكار لكونه الها معبودا فان الاله هو المألوه الذى يستحق ان يؤله ويعبد والتأله والتعبد يتضمن غاية الحب بغاية الذل ولكن غلط كثير من أولئك فظنوا أن الالهية هي القدرة على الخلق وان الاله بمعنى الآله[1] وان العباد يألهم الله لا انهم هم يألهون الله كما ذكر ذلك طائفة منهم الاشعرى وغيره وطائفة ثالثة لما رأت ما دل على ان الله يحب ان يكون محبوبا من أدلة

[١] أى اسم الفاعل من فعل اله كنصر

الكتاب والسنة وكلام السلف وشيوخ أهل المعرفة صاروا يقرون بانه محبوب لكنه هو نفسه لايحب شيئاً الا بمعنى المشيئة وجميع الأشياء مرادة له فهى محبوبة له وهذه طريقة كثير من أهل النظر والعبادة والحديث كابى اسماعيل الانصارى وأبى حامد الغزالى وأبى بكر بن العربى ☆

وحقيقة هذا القول ان الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضاه وهذا هو المشهور من قول الأشعرى واصحابه وقد ذكر أبو المعالى انه أول من قال ذلك وكذلك ذكر ابن عقيل ان اول من قال ان الله يحب الكفر والفسوق والعصيان هو الاشعرى وأصحابه وهم قد يقولون لايحبه دينا ولايرضاه دينا كما يقولون لايريده دينا أى لايريد ان يكون فاعله مأجورا واما هو نفسه فهو محبوب له كسائر المخلوقات فانها عندهم محبوبة له اذ كان ليس عندهم الا ارادة واحدة شاملة لكل مخلوق فكل مخلوق فهو عندهم محبوب مرضى ☆

وجماهير المسلمين يعرفون ان هذا القول معلوم الفساد بالضرورة من دين أهل الملل وان المسلمين واليهود والنصارى متفقون على ان الله لا يحب الشرك ولا تكذيب الرسل ولايرضى ذلك بل هو يبغض ذلك ويمقته ويكرهه كما ذكر الله في سورة بنى اسرائيل ماذكره من المحرمات ثم قال كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها وبسط هذه الامور له مواضع أخر ☆

والمقصود هنا ان الذين اعرضوا عن طريق الرسول في العلم والعمل وقعوا في الضلال والزلل وان أولئك لما أوجبوا النظر الذى ابتدعوه صارت فروعه فاسدة ان قالوا ان من لم يسلكها كفر أو عصى فقد عرف بالاضطرار من دين الاسلام ان الصحابة والتابعين لهم باحسان لم يسلكوا طريقهم وهم خير الأمة وان قالوا ان من ليس عنده علم ولابصيرة بالايمان بل قاله تقليداً محضا من غير معرفة يكون مؤمنا فالكتاب والسنة يخالف ذلك . ولو انهم سلكوا طريقة الرسول لحفظهم الله من هذا التناقض فان ماجاء به الرسول جاء من عند الله وما ابتدعوه جاؤا به من عند غير الله وقد قال تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وهؤلاء بنوا دينهم على النظر والصوفية بنوا دينهم على الارادة وكلاهما لفظ مجمل يدخل فيه الحق والباطل فالحق

هو النظر الشرعى والارادة الشرعية فالنظر الشرعى هو النظر فيما بعث به الرسول من الآيات والهدى كما قال (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) والارادة الشرعية ارادة ماامر الله به ورسوله والسماع الشرعى سماع ماأحب الله سماعه كالقرآن. والدليل الذى يستدل به هو الدليل الشرعى وهو الذى دل الله به عباده وهداهم به الى صراط مستقيم فانه لما ظهرت البدع والتبس الحق بالباطل صار اسم النظر والدليل والسماع والارادة يطلق على ثلاثة امور منهم من يريد به البدعى دون الشرعى فيريدون بالدليل ماابتدعوه من الادلة الفاسدة والنظر فيها ومن السماع والارادة ماابتدعوه من اتباع ذوقهم ووجدهم وما تهواه أنفسهم وسماع الشعر والغناء الذى يحرك هذا الوجد التابع لهذه الارادة النفسانية التى مضمونها اتباع ماتهوى الانفس بغير هدى من الله. ومنهم من يريد مطلق الدليل والنظر ومطلق السماع والارادة من غير تقييدها لا بشرعى ولابدعى فهؤلاء يفسرون قوله الذين يستمعون القول بمطلق القول الذى يدخل فيه القرآن والغناء ويستمعون الى هذا وهذا وأولئك يفسرون الارادة بمطلق المحبة للاله من غير تقييدها بشرعى ولابدعى ويجعلون الجميع من أهل الارادة سواء عبد الله بما أمر الله به ورسوله من التوحيد وطاعة الرسول أو كان عابداً للشيطان مشركا عابدا بالبدع وهؤلاء أوسطهم وهم أحسن حالا من الذين قيدوا ذلك بالبدعى. وأما القسم الثالث فهم صفوة الامة وخيارها المتبعون للرسول علما وعملا يدعون الى النظر والاستدلال والاعتبار بالآيات والادلة والبراهين التى بعث الله بها رسوله وتدبر القرآن ومافيه من البيان ويدعون الى المحبة والارادة الشرعية وهى محبة الله وحده وارادة عبادته وحده لاشريك له بما أمر به على لسان رسوله فهم لا يعبدون الا الله ويعبدونه بما شرع وأمر ويستمعون ماأحب استماعه وهو قوله الذى قال فيه (أفلم يدبروا القول) وهو الذى قال فيه (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) كما قال (واتبعوا أحسن ماأنزل اليكم من ربكم) وقال [وكتبنا له في الالواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) [١]

(١) هكذا في الاصل بياض

سبحانه بين القدرة على الابتداء كقوله (ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقنا كم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم) الآية ومثل قوله (ويقول الانسان أاذا مامت لسوف اخرج حيا اولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) الآية ومثل قوله (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحيها الذى انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) وغير ذلك ✡

فالاستدلال على الخالق بخلق الانسان في غاية الحسن والاستقامة وهي طريقة عقلية صحيحة وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس اليها وبينها وأرشد اليها وهي عقلية فان نفس كون الانسان حادثاً بعد ان لم يكن ومولوداً ومخلوقاً من نطفة ثم من علقة هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر به الرسول أو لم يخبر لكن الرسول أمر أن يستدل به ودل به وبينه واحتج به فهو دليل شرعى لان الشارع استدل به وأمر أن يستدل به وهو عقلى لانه بالعقل تعلم صحته وكثير من المتنازعين في المعرفة هل تحصل بالشرع أو بالعقل لا يسلكونه وهو عقلى شرعى وكذلك غيره من الادلة التى في القرآن مثل الاستدلال بالسحاب والمطر هو مذكور في القرآن في غير موضع وهو عقلى شرعى كما قال تعالى (أولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به ذرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) فهذا مرئى بالعيون ✡ وقال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ثم قال (أو لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد) فالآيات التى يريها الناس حتى يعلموا ان القرآن حق هى آيات عقلية يستدل بها العقل على ان القرآن حق وهى شرعية دل الشرع عليها وأمر بها والقرآن مملوء من ذكر الآيات العقلية التى يستدل بها العقل وهى شرعية لان الشرع دل عليها وأرشد اليها ولكن كثير من الناس لايسمى دليلا شرعيا الا مادل بمجرد خبر الرسول وهو اصطلاح قاصر ولهذا يجعلون أصول الفقه هو لبيان الأدلة الشرعية الكتاب والسنة والاجماع والكتاب يريدون به أن يعلم مراد الرسول فقط والمقصود من أصول الفقه هو معرفة الاحكام الشرعية العملية فيجعلون الادلة الشرعية مادلت على الاحكام العملية فقط ويخرجون مادل باخبار الرسول عن أن يكون شرعياً فضلا عما دل بارشاده وتعليمه ولكن قد يسمون

هذا دليلا سمعياً ؛ ولا يسمونه شرعياً ؛ وهو اصطلاح قاصر ، والأحكام العملية أكثر الناس يقولون انها تعلم بالعقل أيضاً ؛ وان العقل قد يعرف الحسن والقبح فتكون الادلة العقلية دالة على الاحكام العملية أيضاً ؛ ويجوز أن تسمى شرعية لان الشرع قررها ووافقها أو دل عليها وأرشد اليها ، كما قيل مثل ذلك في المطالب الخبرية كاثبات الرب ووحدانيته وصدق رسله وقدرته على المعاد ان الشرع دل عليها وأرشد اليها . وبسط هذا له موضع آخر ☆

والمقصود هنا أن الاشعرى بنى أصول الدين في اللمع ورسالة الثغر على كون الانسان مخلوقاً محدثاً فلا بد له من محدث ، لكون هذا الدليل مذكوراً في القرآن فيكون شرعياً عقلياً لكنه في نفس الامر سلك في ذلك طريقة الجهمية بعينها وهو الاستدلال على حدوث الانسان بأنه مركب من الجواهر الفردة فلم يخل من الحوادث وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، فجعل العلم بكون الانسان محدثاً وبكون غيره من الاجسام المشهودة محدثا ، انما يعلم بهذه الطريقة وهو أنه مؤلف من الجواهر المفردة وهى لا تخلو من اجتماع وافتراق وتلك أعراض حادثة ؛ وما لم ينفك من الحوادث فهو محدث وهذه الطريقة أصل ضلال هؤلاء فانهم أنكروا المعلوم بالحس والمشاهدة والضرورة العقلية من حدوث المحدثات المشهود حدوثها وادعوا انه انما يشهد حدوث أعراض لا حدوث أعيان مع تنازعهم في الاعراض ، ثم قالوا والاجسام لا تخلو من الاعراض وهذا صحيح ، ثم قالوا والاعراض حادثة ، فاضطربوا هنا ثم قالوا وما لم يخل من الحوادث فهو حادث . وهذا أصل دينهم وهو أصل فاسد مخالف للسمع والعقل كما قد بسط في غير هذا الموضع ☆

والمتفلسفة أشد مخالفة للعقل والسمع منهم ؛ لكنهم عرفوا فساد طريقتهم هذه العقلية فاستطالوا عليهم بذلك وسلكوا ماهو أفسد منها كطريقة الامكان والوجوب كما قد بسط في موضع آخر ؛ فلبسوا هذا الباطل بالحق الذى جاء به الرسول وهو الاستدلال بحدوث الانسان وغيره من المحدثات التى يشهد حدوثها ؛ فصار في كلامهم حق وباطل من جنس ما أحدثه أهل الكتاب ، حيث لبسوا الحق بالباطل ؛ واحتاجوا في ذلك الى كتمان الحق الذى جاء به الرسول الذى يخالف ما أحدثوه فصاروا يكرهون ظهور

ما جاء به الرسول بل يمنعون عن قراءة الاحاديث وسماعها وقراءة كلام السلف وسماعه. ومنهم من يكره قراءة القرآن وحفظه، والذين لايقدرون على المنع من ذلك صاروا يقرأون حروفه ولا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله ،بل ان اشتغلوا بعلومه اشتغلوا بتفسير من يشركهم في بدعتهم ممن يحرفون الكلم كلم الله عن مواضعه؛ والاصل العقلى الحسى الذى به فارقوا العقل والسمع هو حدوث مايشهد حدوثه مثل حدوث الزرع والثمار ؛وحدوث الانسان وغيره من الحيوان ،وحدوث السحاب والمطر ونحو ذلك من الاعيان القائمة بنفسها ؛غير حدوث الاعراض ، كالحركة،والحرارة ،والبرودة والضوء؛ والظلمة وغير ذلك ، بل تلك الاعيان التى يسمونها أجساما وجواهر ، هى حادثة فانه معلوم ان الانسان مخلوق من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وان الثمار تخلق من الاشجار، وان الزرع تخلق من الحب،والشجر تخلق من النوى . قال تعالى (ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الاصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذى أنشأ كم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون. وهو الذى أنزل من السماء ماء فاخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون). فهذا الانسان والشجر والزرع المخلوق من مادة قد خلق منها عين قائمة بنفسها . وهم يقولون انما هي من الجسم القائم بنفسه وهو الجوهر العام في اصطلاحهم الذى يقولون انه مركب من الجواهر المفردة. وهل الذى خلق من المادة هو اعيان أم لم يخلق الا اعراض قائمة بغيرها،واما الاعيان فهى الجواهر المفردة وتلك منها شيء في هذه الحوادث ولكن أحدث فيها جمع وتفريق فكان خلق الأنسان وغيره هو تركيب تلك الجواهر واحداث هذا التركيب لا احداث تلك الجواهر. وأما حدوث تلك الجواهر فانما يعلم بالاستدلال. فيستدل عليه بأن الجواهر التى تركبت منها هذه الأجسام لاتخلو من اجتماع وافتراق. والاجتماع والافتراق حادث ومالم يخل من الحوادث فهو حادث فهذا طريق هؤلاء

الجهمية اهل الكلام المحدث . وأما جمهور [١] العقلاء فيقولون بل نحن نعلم حدوث هذه الأعيان القائمة بنفسها لا نقول انه لم يحدث الا عرض فان هذا القول يقتضى ان تلك الجواهر التى ركب منها آدم باقية لم يزل في كل آدمى منها شيء وهذا مكابرة فان بدن آدم لا يحتمل هذا كله لا يحتمل أن يكون فيه جواهر بعدد ذريته لا سيما وكل آدمى انما خلق من منى أبويه ، وهم يقولون تلك الجواهر التى في منى الابوين باقية بأعيانها في الولد ، وهم يقولون ان الجواهر لا تفنى بل تنتقل من حال الى حال ، وكثير منهم يقول انها مستغنية عن الرب بعد ان خلقها ، وتحيروا فيما اذا أراد أن يفنيها ، كيف يفنيها ؟ كما قد ذكر في غير هذا الموضع . اذ المقصود هنا التنبيه على أن أصل لاصول معرفة حدوث الشيء من الشيء كحدوث الانسان من المنى ، فهؤلاء ظنوا أنه لا يحدث الا الاعراض . ولهذا لما ذكر أبو عبد الله بن الخطيب الرازى في كتبه الكبار

---

[١] قوله واما جمهور العقلاء فيقولون الخ يمكن توجيه هذا الالزام الذى ذكره رحمه الله الى أولئك الفلاسفة ومن تابعهم من المتكلمين الذين يرون ما حكاه عنهم من ان الجواهر الفردة في الأصول والآباء تظل متنقلة في الفروع والمواليد الى ما لا نهاية وهذا منتهى ما وصلت اليه عقول الخصمين من جميع الناس في هذه الاعصار وليس الأمر كما زعم هذا ولا هذا ولكن لا ينبغى ان يتهكم على ذلك الاغرار بسر دما كشفته الطبيعة والكيمياء اليوم فلو كان ابن تيمية في هذا العصر لبز أهل المشارق والمغارب في فلسفتهم الحاضرة بعبقريته التى لا يستطيع التاريخ أن يعثر لها على نظير في الفلاسفة او المتكلمين ولو كان مثل دارون ونيوتن ووليم طمسون وديكارت وأضرابهم من أساطين الفلسفة الحاضرة في أيام ابن تيمية ما داناه احد منهم في عقليته الفلسفية ولكانوا عيالا عليه . يوقن بذلك من عرف الرجل وخبره وطالع كتبه الكثيرة مطولة ومختصرة في مناقضة الفلاسفة والمتكلمين (هذا) وقد أثبتت علوم الطبيعة والكيمياء الآن أن جميع الأجسام مركبة من ذرات باقية تتحلل وتتركب وتخرج من هذا الجسم وتدخل في الآخر وأن الأجسام المغتذية وهي مواليد الطبيعة الثلاثة الانسان والحيوان والنبات ليست لها شخصيات ثابتة بل هي دائمة التحليل والتركيب بالافراز والاغتذاء حتى أن جسم الانسان يتجدد كله بعد بضع سنين لا تبقى فيه ذرة مما كان قبل ذلك فذرات المادة باقية ثابتة هي موجودة قبل جميع المركبات ولا يحدث ولا ينعدم الا الاعراض ☆

والصغار الطرق الدالة على اثبات الصانع لم يذكر طريقاً صحيحاً ، وليس في كتبه وكتب أمثاله طريق صحيح لاثبات الصانع ، بل عدلوا عن الطرق العقلية التى يعلمها العقلاء بفطرتهم؛ وهي التى دلتهم عليها الرسل الى طرق سلكوها مخالفة للشرع والعقل، لاسيما من سلك طريقة الوجوب والامكان متابعة لابن سينا كالرازى ، فان هؤلاء من أفسد الناس استدلالا كما قد ذكرنا طرق عامة النظار في غير هذا الموضع ، مثل كتاب منع تعارض العقل والنقل وغير ذلك ☆

والمقصود هنا أن الرازى ذكر ان ما يستدل به على اثبات الصانع ، اما حدوث الاجسام، واما حدوث صفاتها؛ واما امكانها ؛واما امكان صفاتها. وذكر في بعض المواضع واما الاحكام والاتقان ؛ لكن الاحكام والاتقان يدل على العلم ابتداء ، والاستدلال بحدوث الاجسام وامكانها وامكان صفاتها طرق فاسدة ، فان دلالة حدوثها مبنية على امتناع حوادث لا أول لها،ودلالة امكانها مبنية على ان ماقامت به الصفات يمتنع أن يكون واجباً بنفسه لانه مركب ودلالة صفاتها مبنية على تماثلها ؛فلا بد لتخصيص بعضها بالصفات من مخصص ، وهذه كلها طرق باطلة ،قال وأما الاستدلال بحدوث الصفات فهو الاستدلال بحدوث الأعراض وهذه الطريق أجود ما سلكوه من الطرق مع انها قاصرة، فان مدارها على انهم لم يعرفوا حدوث شىء من الاعيان ؛ وانما علموا حدوث بعض الصفات، وهذا يدل على انه لابد لها من محدث ☆ قال وهذا لا ينفى كون المحدث جسما بخلاف تلك الطرق ، وهذه الطريق تدل على أن الاعراض كتركيب الانسان لابد له من مركب ولا ينفى بها شىء من قدم الاجسام والجواهر، بل يجوز أن يكون جميع جواهر الانسان وغيره قديمة أزلية ، لكن حدثت فيها الاعراض ، ويجوز أن يكون المحدث للاعراض بعض أجسام العالم ؛ فهذه الطريق لاتنفى أن يكون الرب بعض أجسام العالم وتلك باطلة ؛ مع أن مضمونها ان الرب لايتصف بشىء من الصفات ،فهى لاتدل على صانع وان دلت على صانع فليس بموجود بل معدوم أو متصف بالوجود والعدم ،كما قد بسط في غير موضع ☆ ولهذا يقول الرازى في آخر مصنفاته (١) لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ،ولا تروى غليلا ؛ورأيت أقرب الطرق

---

[١] ذكر هذا في كتابه نهاية العقول كما يأتى بوجه بعد قريباً

طريقة القرآن ، أقرأ في الاثبات [اليه يصعد الكلم الطيب] ✡ [الرحمن على العرش استوى] واقرأ في النفى [ليس كمثله شيء] ✡ [ولا يحيطون به علما] قال ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى ✡

ولما ذكر الرازى الاستدلال بحدوث الصفات كالحيوان والنبات والمطر ، ذكر أن هذه طريقة القرآن ولا ريب أن القرآن يذكر فيه الاستدلال بآيات الله كقوله [ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون] وهذا مذكور بعد قوله [والهكم اله واحد لااله الا هو الرحمن الرحيم] وقبل قوله [ومن الناس من يتخذ من دونه أنداداً يحبونهم كحب الله] ✡ لكن القرآن لم يذكر ان هذه صفات حادثة وانه ليس فيها احداث عين قائمة بنفسها ، بل القرآن يبين ان في خلق الاعيان القائمة بنفسها آيات ويذكر الآيات في خلق الاعيان والاعراض كقوله (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى في البحر بما ينفع الناس) وهي أعيان ثم قال [وما أنزل الله من السماء من ماء] والماء عين قائمة بنفسها. وقوله [فأحيا به الارض بعد موتها] هو بما يخلقه فيها من النبات وهو أعيان وكذلك قوله [وبث فيها من كل دابة] وقوله [وتصريف الرياح] فالرياح أعيان وتصريفها أعراض .وقوله [والسحاب المسخر بين السماء والارض] والسحاب أعيان [لآيات لقوم يعقلون] وقد تقدم أن أصل الاشتباه في هذا ان خلق الشيء من مادة هل هو خلق عين أم احداث اجتماع وافتراق واعراض فقط والناس مختلفون في هذا على ثلاثة أقوال : فالقائلون بالجواهر الفردة من أهل الكلام القائلون بأن الاجسام مركبة من الجواهر الصغار التى قد بلغت من الصغر الى حد لايتميز منها جانب عن جانب ، يقولون تلك الجواهر باقية تنقلت في الحوادث ولكن تعتقب عليها الاعراض الحادثة والاستدلال بالاعراض على حدوث مايلزمه من الجواهر ثم الاستدلال بذلك على المحدث غير الاستدلال بحدوث هذه الاعراض على المحدث لها ، فتلك هى طريقة الجهمية المشهورة وهى التى سلكها الاشعرى في كتبه كلها متابعة للمعتزلة ولهذا قيل

الاشعرية مخانيث المعتزلة ☆ وأما الاستدلال بالحوادث على المحدث فهى الطريقة المعروفة لكل أحد ، لكن تسمية هذه أعراضاً هو تسمية القائلين بالجوهر الفرد ، مع أن الرازى توقف في آخر أمره فيه ؛ كما ذكر ذلك في نهاية العقول . وذكر أيضاً عن أبى الحسين البصرى وأبا المعالى أنهما توقفا فيه . والمقصود أن القائلين بالجوهر الفرد يقولون انما أحدث أعراضاً كجمع الجواهر وتفريقها ، فالمادة التى هي الجواهر المنفردة باقية عندهم بأعيانها ولكن أحدث صوراً هى أعراض قائمة بهذه الجواهر ؛ وأما المتفلسفة فيقولون أحدث صوراً في مواد باقية كما يقول هؤلاء لكن يقولون أحدث صوراً هى جواهر في مادة هى جوهر وعندهم ثم مادة باقيـة بعينها والصور الجوهرية ، كصورة الماء والهواء والتراب والمولدات تعتقب عليها ؛ وهذه المادة عندهم جوهر عقلى ، وكذلك الصورة المجردة جوهر عقلى ؛ ولكن الجسم مركب من المادة والصورة ، ولهذا قسموا الموجودات ؛ فقالوا اما أن يكون الموجود حالا بغيره أو محلا أو مركباً من الحال والمحل ، أو لا هذا ولا هذا ، فالحال في غيره هو الصورة ، والمحل هو المادة ؛ والمركب منهما هو الجسم ؛ وما ليس كذلك ان كان متعلقاً بالجسم فهو النفس والا فهو العقل ، وهـذا التقسيم فيه خطأ كثير من وجوه ليس هذا موضعها ؛ اذ المقصود أنهم يقولون أيضاً انه لم يحدث جسما قائمـا بنفسه ، بل انما أحدث صورة في مادة باقية ؛ ولا ريب أن الاجسام بينها قدر مشترك في الطول والعرض والعمق ، وهو المقدار المجرد الذى لا يختص بجسم بعينه ، ولكن هذا المقدار المجرد هو في الذهن لا في الخارج ، كالعدد المجرد ، والسطح المجرد ، والنقطة المجردة ، وكالجسم التعليمى وهو الطويل العريض العميق الذى لا يختص بمادة بعينها ، فهذه المادة المشتركة التى أثبتوها هي في الذهن وليس بين الجسمين في الخارج شيء اشتركا فيه بعينه ؛ فهؤلاء جعلوا الاجسام مشتركة في جوهر عقلى ، وأولئك جعلوها مشتركة في الجواهر الحسية ، وهؤلاء قالوا اذا خلق كل شيء من شيء فانما أحدثت صورة مع أن المادة باقية بعينها لكن أفسدت صورة وكونت صورة ، ولهذا يقولون عن ما تحت الفلك عالم الكون والفساد ، ولهذا قال ابن رشد أن الاجسام المركبة من المادة والصورة هي في عالم الكون والفساد بخلاف الفلك فانه ليس مركباً من مادة وصورة عنـد الفلاسفة ؛ قال وانما ذكر انه مركب من هـذا وهذا ابن سينا وهؤلاء وهؤلاء تحيروا

في خلق الشيء من مادة كخلق الانسان من النطفة،والحب من الحب ،والشجرة من النواة.وظنوا أن هذا لايكون الا مع بقاء أصل تلك المادة ، اما الجواهر عند قوم واما المادة المشتركة عند قوم. وهم في الحقيقة ينكرون أن يخلق الله شيئاً من شيء فانه عندهم لم يحدث الا الصورة التي هي عرض عند قوم أو جوهر عقلي عند قوم ،وكلاهما لم يخلق من مادة، والمادة عندهم باقية بعينها لم يخلق ولن يخلق منها شيء ، وقد ذكروا في قوله (أم خلقوا من غير شيء) ثلاثة أمور : قال ابن عباس والاكثرون أم خلقوا من غير خالق وهو الذي ذكره الخطابي . وقال الزجاج وابن كيسان أم خلقوا عبثاً وسدى خلا يبعثون ولا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون كما يقول فعلت هذا من غير شيء أي لغير علة ☆ وقيل أم خلقوا من غير مادة أي من غير أب وأم. ثم من هؤلاء من قال فهم كالجماد؛ ومنهم من قال كالسموات ظناً منه أنها خلقت من غير مادة . ذكر الاربعة أبو الفرج .وذكر البغوي الوجهين الاولين . والذي ذكرناه من قول أولئك المتكلمين والفلاسفة معنى آخر ، وهو أن من قال المادة باقية بعينها وانما حدث عرض أو صورة وذلك لم يخلق من غيره ولكن أحدث في المادة الباقية . فلا يكون الله خلق شيئاً من شيء لان المادة عندهم لم تخلق ، أما المتفلسفة فعندهم المادة قديمة أزلية باقية بعينها ، وأما المتكلمون فالجواهر عندهم موجودة مازالت موجودة ، لكن من قال انها حادثة من اهل الملل وغيرهم قالوا يستدل على حدوثها بالدليل لا أن خلقها معلوم للناس، فهو عندهم مما يستدل عليه بالادلة الدقيقة الخفية مع أن مايذكرونه منتهاه الى أن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث وهو دليل باطل فلا دليل عندهم على حدوثها ، واذا كانت لم تخلق اذ خلق الانسان بل هي باقية في الانسان، والاعراض الحادثة لم تخلق من مادة ، فاذا خلق الانسان لم يخلق من شيء لاجواهره ولا أعراضه . وعلى قولهم ما جعل الله من الماء كل شيء حي،ولا خلق كل دابة من ماء ،ولا خلق آدم من تراب،ولا ذريته من نطفة، بل نفس الجواهر الترابية باقيـة بعينها لم تخلق حينئذ ولكن أحدث فيها أعراض أو صورة حادثة، وتلك الاعراض ليست من التراب؛فلما خلق آدم لم يخلق شيء من تراب وكذلك النطفة جواهرها باقية . اما الجواهر المنفردة واما المادة والحادث هو عرض أو صورة في مادة ولا هذا ولا هذا خلق من نطفة وليس قولهم انه لم يخلق من مادة

معناه أن الخالق أبدعه لا من شيء وانهم قصدوا بها تعظيم الخالق ، بل الانسان لاريب انه جوهر قائم بنفسه، وعندهم ذلك القائم بنفسه مازال موجوداً لم يخلق اذ خلق الانسان والجوهر الحامل لصورته مازال موجوداً أيضاً فلم يخلق عند هؤلاء الا الاعراض،وعند هؤلاء الا صورة مجردة وكلاهما ليس هو الانسان بل صفة له أو صورة له هذا هو المخلوق عندهم يخلق الانسان فقط.وقد قال تعالى (أو لا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) وقال تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) فقد أمر الانسان ان يتذكر ان الله خلقه ولم يك شيئاً، والانسان اذا تذكر انما يذكر انه خلق من نطفة. وعندهم ما زال جواهر الانسان شيئاً وذلك الشيء باق وانما حدث أعراض لتلك الاشياء. ومعلوم أن تلك الاعراض وحدها ليست هي الانسان فان الانسان مأمور منهى حى عليم قدير متكلم سميع بصير موصوف بالحركة والسكون وهذه صفات الجواهر والعرض لا يوصف بشيء لاسيما وهم يقولون العرض لايبقى زمانين. فالمخلوق على قولهم لا يبقى زمانين بل يفنى عقب ما يخلق ولهذا اضطربوا في المعاد فان معرفة المعاد مبنية على معرفة المبدأ والبعث مبنى على الخلق فقال بعضهم هو تفريق تلك الاجزاء ثم جمعها وهي باقية بأعيانها. وقال بعضهم بل يعدمها ويعدم الاعراض القائمة بها ثم يعيدهما واذا أعادها فانه يعيد تلك الجواهر التى كانت باقية، الى أن حصلت في هذا الانسان،فلهذا اضطربوا لما قيل لهم فالانسان اذا أكله حيوان آخر فان اعيدت تلك الجواهر من الاول نقصت من الثانى وبالعكس. أما على قول من يقول انها تفرق ثم تجمع فقيل له تلك الجواهر ان جمعت للآكل نقصت من المأكول وان اعيدت للمأكول نقصت من الآكل . وأما الذى يقول تعدم ثم تعاد بأعيانها فقيل له أتعدم لما أكلها الآكل أم قبل أن يأكلها؟فان كان بعد ان أكلها فانها تعاد في الآكل فينقص المأكول.وان كان قبل الاكل فالآكل لم يأكل الا اعراضاً، لم يأكل جواهر .فهذا مكابرة ثم أن المشهور أن الانسان يبلى ويصير تراباً كما خلق من تراب وبذلك أخبر الله فان قيل انه اذا صار ترابا عدمت تلك الجواهر فهو لما خلق من تراب عدمت أيضاً تلك الجواهر فكونهم يجعلون الجواهر باقية في جميع الاستحالات الا اذا صار تراباً تناقض بين ، ويلزمهم عليه الحيوان المأكول وغير ذلك .وكأن هذا الضلال أصل ضلالهم في تصور الخلق

الاول والنشأة الاولى التى أمرهم الرب أن يتذكروها ويستدلوا بها على قدرته على الثانية قال تعالى(أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون ولقدعلمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون) والفلاسفة أجود تصوراً في هذا الموضع حيث قالوا تفسد الصورة الاولى وهى جوهر وتحدث صورة احرى ، فان هذا أجود من أن يقال يزول عرض ويحدث عرض .ولكن الفلاسفة غلطوا في توهمهم أن هناك مادة باقية بعينها وانما تفسد صورتها.والحق أن المادة التى منها يخلق الثانى تفسد وتستحيل وتفنى وتتلاشى وينشىء الله الثانى ويبتديه ويخلق من غير أن يبقى من الاول شيء لا مادة ولا صورة ولاجوهر ولا عرض. فاذا خلق الله الانسان من المنى فالمنى استحال وصار علقة ، والعلقة استحالت وصارت مضغة، والمضغة استحالت الى عظام وغير عظام .والانسان بعد أن خلق خلق كله جواهره وأعراضه وابتدأه الله ابتداء كما قال تعالى (الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) وقال تعالى(أولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً)فالانسان مخلوق خلق الله جواهره واعراضه كلها من المنى من مادة استحالت ليست باقية بعد خلقه كما تقول المتفلسفة أن هناك مادة باقية .ولفظ المادة مشترك. فالجمهور يريدون به ما منه خلق وهو أصله وعنصره ، وهؤلاء يريدون بالمادة جوهر باق وهو محل للصورة الجوهرية ؛ فلم يخلق عندهم الانسان من مادة ،بل المادة باقية ،وأحدث صورته فيها كما أن الصور الصناعية كصورة الخاتم والسرير والثياب والبيوت وغير ذلك، انما أحدث الصانع صورته العرضية في مادة لم تزل موجودة ولم تفسد ، لكن حولت من صفة الى صفة فهكذا تقول الجهمية المتكلمة المبتدعة أن الله أحدث صورة عرضية في مادة باقية لم تفسد ،فيجعلون خلق الانسان بمنزلة عمل الخاتم والسرير والثوب .والمتفلسفة تقول أيضاً ان مادته باقية لم تفسد كمادة الصورة الصناعية، لكن يقولون أنه أحدث صورة جوهرية وهم قد يخلطون ولا يفرقون بين الصور العرضية والجوهرية ، فانهم يسمون صورة الانسان صورة في مادة ،وصورة الخاتم صورة في مادة فيكون خلق الانسان عند هؤلاء وهؤلاء من جنس ما يحدثه الناس في الصور من المواد ويكون خلقه بمنزلة

تركيب الحائط من اللبن. ولهذا قال من قال منهم انه يستغنى عن الخالق بعد الخلق كما يستغنى الحائط عن البناء . والاشعرية عندهم أن البناء والخياط وسائر أهل الصنائع لم يحدثوا في تلك المواد شيئاً.فان القدرة المحدثة عندهم لا تتعلق الا بما هو في محلها لا خارجا عن محلها . ويقولون ان تلك المصنوعات كلها مخلوقة لله ليس للانسان فيها صنع، وخلق الله لها على أصلهم هو احداث أعراض فيها كما تقدم فينكرون ما يصنعه الانسان وهو في الحقيقة مثلما يجعلونه مخلوقاً للرحمن وهم لا يشهدون للرحمن احداثاً ولا افناء بل انما يحدث عندهم الاعراض ،وهي تفنى بانفسها لا بافنائه ، وهي تفنى عقب احداثها .وهذا لا يعقل وهم حائرون اذا أراد أن يعدم الاجسام كيف يعدمها والمشهور عندهم أنها تعدم بأنفسها اذا لم يخلق لها اعراضاً .فالعرض يفنى عندهم بنفسه والجوهر يفنى بنفسه اذالم يخلق له عرض بعد عرض؛ هذا في الافناء . وأمافي الأحداث فانهم استدلوا على حدوثها بدليل باطل لو كان صحيحاً للزم حدوث كل شيء من غير محدث. فحقيقة أصل أهل الكلام المتبعين للجهمية انه لايحدث شيئاً ولا يفنى شيئاً بل يحدث كل شيء بنفسه ويفنى بنفسه ، ويلزمهم جواز أن يكون الرب محدثاً أيضاً بلا محدث . وهذه الاصول هي أصول دينهم العقلية التى بها يعارضون الكتاب والسنة والمعقولات الصريحة ،وهي في الحقيقة لا عقل ولاسمع ،كما حكى الله عن من قال (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) والخلق يشهدون احداث الله لما يحدثه وافناءه لما يفنيه؛ كالمني الذى استحال وفنى وتلاشى وأحدث منه هذا الانسان؛ وكالحبة التى فنيت واستحالت وأحدث منها الزرع ؛وكالهواء الذى استحال وفنى وحدث منه النار أوالماء، وكالنار التى استحالت وحدث منها الدخان ،فهو سبحانه دائما يحدث ما يحدثه ويكونه ويفني ما يفنيه ويعدمه. والانسان اذا مات وصار تراباً فنى وعدم ؛وكذلك سائر ما على الأرض كما قال (كل من عليها فان) ثم يعيده من التراب كما خلقه ابتداء من التراب ويخلقه خلقاً جديداً. ولكن للنشأة الثانية أحكام وصفات ليست للأولى فمعرفة الانسان بالخلق الأول وما يخلقه من بنى آدم وغيرهم من الحيوان،وما يخلقه من الشجر والنبات والثمار، وما يخلقه من السحاب والمطر وغير ذلك هو أصل لمعرفته بالخلق والبعث بالمبدأ والمعاد، وان لم يعرف أن الله يخلقه كله من المني جواهره وأعراضه ، والا فما عرف أن

الله خلقه. ومن ظن أن جواهره لم يخلقها اذ خلقه بل جواهر المنى وجواهر ما يأكله ويشربه باقية بعينها فيه لم يخلقها أو أن مادته التى تقوم بها صورته لم يخلقها اذ خلقه بل هي باقية أزلية أبدية لم يكن قد عرف أنه مخلوق محدث. والعلماء ينكرون على من يقول أن روح الانسان قديمة أزلية من المنتسبين الى الاسلام وهؤلاء الذين يقولون أن مادة جسمه باقية بعينها وهي أزلية أبدية أبعد عن العقل والنقل منهم ، وأولئك أنكروا عليهم حيث قالوا الانسان مركب من قديم ومحدث من لاهوت قديم وناسوت محدث. أو هؤلاء جعلوه مركباً من مادة قديمة أزلية وصورة محدثة ، وجعلوا القديم الأزلى فيه أخس ما فيه وهو المادة ؛ فانها عندهم أخس الموجودات وهي قديمة أزلية ، وأولئك جعلوا القديم الأزلى أشرف ما فيه وهى النفس الناطقة. وكلا الطائفتين وان كان ضالا فالشريف العالى أولى بالقدم من الخسيس السافل وهذا أولى بالحدوث ☆

وأما المتكلمة الجهمية فهم لا يتصورون ما يشهدونه من حدوث هذه الجواهر في جواهر أخر من مادة ، ثم يدعون ان الجواهر جميعها أبدعت ابتداء لا من شيء ، وهم لم يعرفوا قط جوهراً أحدث لا من شيء كما لم يعرفوا عرضاً أحدث لا في محل. وحقيقة قولهم ان الله لا يحدث شيئاً من شيء لا جوهراً ولا عرضاً ، فان الجواهر كلها أحدثت لا من شيء والأعراض كذلك ☆

والمشهود المعلوم للناس (١) انما هو احداثه لما يحدثه من غيره لا احداثاً من غير مادة ، ولهذا قال تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) ولم يقل خلقتك لا من شيء

---

(١) قوله والمشهود الخ أطال في هذه المسألة وأسهب سابقاً ولاحقاً وأورد الزامات ونقوضاً عقلية ونقلية . وكل ذلك انما يرد على هذه المسألة اذا كانت حقيقتها هي بحسب ماوصلت اليه مدارك أولئك الفلاسفة ومن تابعهم من المتكلمين فهذا أبدع النقوض عليهم وأنجحها . ولكن حقيقة هذه المسألة تجلت الآن على غير ذلك فان الكيمياء الآن بقسميها عضوية وغير عضوية تقوم بتحليل جميع الأجسام الى عناصرها التى تركبت منها بعملية دقيقة هي برهان حسى لاريب فيه، بل تستطيع الكيمياء غير العضوية التى تعمد الى العناصر البسيطة فتركب منها أجساماً جديدة ذات خواص وأوصاف غير خواص عناصرها وأوصافها ثم تحلل تلك الأجسام فتعيدها الى عناصرها ثانية وأما ما ذكره من النصوص النقلية فليست نصاً فيما أراده ولا تناقض ما كشفه العلم اليوم من أمر المسألة

وقال تعالى (والله خلق كل دابة من ماء) ولم يقـل خلق كل دابة لا من شيء .
وقال تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وهذا هو القدرة التي تبهر العقول وهو أن
يقلب حقائق الموجودات فيحيل الأول ويفنيه ويلا شيه ويحدث شيئاً آخـر كما قال
(فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي) ويخرج الشجرة الحية
والسنبلة الحية من النواة والحبة الميتة ويخرج النواة الميتة والحبة الميتـة من الشجرة
والسنبلة الحية كما يخرج الانسان الحي من النطفة الميتة والنطفة الميتـة من الانسان الحي
وعندهم لا يخرج حياً من ميت ولا ميتاً من حي ؛ فان الحي والميت انما هو الجوهـر
القائم بنفسه ، فان الحياة عرض لا يقوم الا بجوهر . والعرض نفسه لا يقوم بعرض آخر
وان كان العرض يوصف بأنه حي كما يقال قد أحييت العلم والايمان ، وأحييت الدين ،
وأحييت السنة والعدل ، كما يقال أمات البدعـة . فهؤلاء عندهم لا يخرج جوهراً من
جوهر ولا عرضاً من عرض ؛ فلا يخرج حياً من ميت ولا ميتاً من حي ، بل الجواهر
التي كانت في الميت هي عينها باقية كما كانت ، ولكن أحدث فيها حياة لم تكن ، وتلك
الحياة لم تخرج من ميت ، فما اخرج عندهم حي من ميت ولا ميت من حي . ولهـذا
ينكرون أن يقلب الله جنساً الى جنس آخر . ويقولون الجواهر كلها جنس واحد ، فاذا
خلق النطفة انساناً لم يقلب عندهم جنساً الى جنس ، بل نفس الجواهر هي باقيـة كما
كانت ؛ وخاصية الخلق انما هي بقلب جنس الى جنس وهذا لا يقدر عليه الا الله كما
قال تعالى (ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن
يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منـه ضعف
الطالب والمطلوب ما قـدروا الله حق قدره ان الله لقـوى عزيز) ☆
ولا ريب أن النخلة ما هي من جنس النواة ، ولا السنبلة من جنس الحبة ، ولا الانسان
من جنس المني ؛ ولا المني من جنس الانسان ، وهو يخرج هذا من هذا ؛ وهذا من
هذا ، فيخرج كل جنس من جنس آخر بعيد عن مماثلته . وهذا خلق الله فأروني
ماذا خلق الذين من دونه وهو سبحانه اذا جعل الابيض أسود أعـدم ذلك البياض
وجعل موضعه السواد ، لا أن الأجسام تعدم تلك المادة فتحيلها وتلاشيها وتجعل منها
هذا المخلوق الجديد ويخلق الضد من ضده ؛ كما جعل من الشجر الأخضر ناراً فاذا

حك الاخضر بالاخضر سخن ما يسخنه بالحركة حتى ينقلب نفس الاخضر فيصير ناراً . وعلى قولهم ما جعل فيه ناراً بل تلك الجواهر باقية بعينها وأحدث فيها عرض لم يكن . وخلق الشيء من غير جنسه أبلغ في قدرة القادر الخالق سبحانه وتعالى كما وصف نفسه بذلك في قوله (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب) ولهذا قال للملائكة (انى خالق بشراً من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) وقال (ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون) ولهذا امتنع اللعين كما قال تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا) وقال (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حماء مسنون) وأيضاً فكون الشيء مخلوقا من مادة وعنصر أبلغ في العبودية من كونه خلق لا من شيء وأبعد عن مشابهة الربوبية ، فان الرب هو أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، فليس له اصل وجد منه ولا فرع يحصل عنه فاذا كان المخلوق له أصل وجد منه كان بمنزلة الولد له ، واذا خلق له شيء آخر كان بمنزلة الوالد ، واذا كان والداً ومولوداً كان أبعد عن مشابهة الربوبية والصمدية ، فانه خرج من غيره ، ويخرج منه غيره ، لا سيما اذا كانت المادة التى حلق منها مهينة كما قال تعالى (ألم نخلقكم من ماء مهين) وقال تعالى (فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب انه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر) وفي المسند عن بشر بن جحاش قال « بصق رسول الله ﷺ في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال يقول الله تعالى ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللارض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى اذا بلغت التراقى قلت أتصدق وأنى أو ان الصدقة » وكذلك اذا خلق في محل مظلم وضيق كما خلق الانسان في ظلمات ثلاث كان أبلغ في قدرة القادر ، وأدل على عبودية الانسان وذله لربه وحاجته اليه. وقد يقول المعير للرجل مالك أصل ولا فصل ولكن الانسان أصله التراب وفصله الماء المهين

ولهذا لما خلق المسيح من غير أب وقعت به الشبهة لطائفة وقالوا انه ابن الله مع انه لم يخلق الا من مادة من أمه، ومن الروح التى نفخ فيها. كما قال تعالى (ومريم ابنة عمران التى احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) وقال تعالى ايضاً (فتمثل لها بشراً سويا قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا قال انما أنا رسول ربك لبهب لك غلاماً زكيا) فما خلق من غير مادة تكون كالأب له قد يظن فيه انه ابن الله وأن الله خلقه من ذاته. فلهذا كانت الانبياء مخلوقة من مادة لها أصول ومنها فروع لها والد ومولود، والأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وحدوث الشىء لا من مادة قد يشبه حدوثه من غير رب خالق وقد يظن انه حدث من ذات الرب كما قيل مثل ذلك في المسيح والملائكة انها بنات الله لما لم يكن لها أب مع انها مخلوقة من مادة كما ثبت في الصحيح صحيح مسلم عن عائشة « ان النبى ﷺ قال خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم [١] »

ولما ظن طائفة انها لم تخلق من مادة ظنوا انها قديمة ازلية وايضا فالدليل الذى احتج به كثير من الناس على ان كل حادث لا يحدث الا من شىء أو في شىء فان كان عرضا لا يحدث الا في محل وان كان عينا قائمة بنفسها لم تحدث الا من مادة فان الحادث انما يحدث اذا كان حدوثه ممكنا وكان يقبل الوجود والعدم فهو مسبوق بامكان الحدوث وجوازه فلا بد له من محل يقوم به هذا الامكان والجواز وقد تنازعوا في هذا هل الامكان صفة خارجية لابد لها من محل أو هي حكم عقلى لا يفتقر الى غير الذهن. والتحقيق انه نوعان: فالامكان الذهنى وهو تجويز الشىء أو عدم العلم بامتناعه محله الذهن والامكان الخارجى المتعلق بالفاعل أو المحل مثل ان تقول يمكن القادر أن يفعل، والمحل مثل أن تقول هذه الارض يمكن ان تزرع، وهذه المرأة يمكن ان تحبل، وهذا لابد له من محل خارجي. فاذا قيل عن الرب يمكن أن يخلق فمعناه أنه يقدر على ذلك ويتمكن منه؛ وهذه صفة قائمة به واذا قيل يمكن أن يحدث حادث، فان قيل يمكن حدوثه بدون سبب حادث فهو ممتنع، واذا كان الحدوث لابد له من سبب حادث، فذاك السبب ان كان قائما بذات الرب فذاته قديمة أزلية. واختصاص ذلك الوقت بقيام مشيئة أو تمام تمكن ونحو ذلك لا يكون الا لسبب قد أحدثه قبل هذا في غيره. فلا يحدث حادث

[١] الجان الجن والمارج اللهب المختلط بسواد النار

مباين الا مسبوقاً بحادث مباين له . فالحدوث مسبوقاً بامكانه ولا بد لامكانه من محل .
ولهذا لم يذكر الله قط أنه أحدث شيئاً الا من شيء . والذى يقول ان جنس الحوادث
حدثت لا من شيء هو كقولهم انها حدثت بلا سبب حادث ، مع قولهم انها كانت
ممتنعة ثم صارت ممكنة من غير تجدد سبب.بل حقيقة قولهم ان الرب صار قادراً بعد
أن لم يكن من غير تجدد شيء يوجب ذلك . وهذه الامور كلها من أقوال الجهمية أهل
الكلام المحدث المبتدع المذموم وهو بناء على قولهم انه تمتنع حوادث لا أول لها . وهؤلاء
وأمثالهم غلطوا فيما جاء به الشرع وأخبرت به الرسل كما غلطوا في المعقولات .فكل
واحد مما يسمى شرعا وعقلا وسمعاً قد وقع فيه اشتباه . فالشرع يطلق تارة على
ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة ؛ هذا هو الشرع المنزل ، وهو الحق الذى ليس
لاحد خلافه . ويطلق على ما يضيفه بعض الناس الى الشرع اما بالكذب والافتراء
واما بالتأويل والغلط ، وهذا شرع مبدل لا منزل ولا يجب ، بل ولا يجوز اتباعه .
وكذلك لفظ السنة فان السنة التى يجب اتباعها هى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والسنة تذكر في الاصول
والاعتقادات وتذكر في الاعمال والعبادات وكلاهما يدخل فيما أخبر به وأمر به . فما أخبر
به وجب تصديقه فيه ، وما أوجبه وأمر به وجبت طاعته فيه . ثم كثير من الناس
يضيف الى السنة ما أدخله بعض الناس فيها اما بالكذب واما بالتأويل مثل أحاديث
كثيرة ضعيفة بل موضوعة ، واستدلالات بأقواله على ما لا يدل عليه . ومثل أقوال
أحدثها قوم انتسبوا الى السنة في بعض الامور ، مثل اثبات الصفات والقدر ، فان
المنتسبين لذلك يضافون الى السنة ، لان نفاة الصفات والقدر مبتدعة ، وكذلك حب
الخلفاء الراشدين وموالاتهم يضاف أهله الى السنة لان الطاعنين فيهم أهل بدعة . ومثل
الاستدلال بالنصوص على موارد النزاع فان أهل ذلك يضافون الى السنة لكونهم
يقصدون اتباع القرآن والحديث والمخالفون لذلك الذين يردون الاخبار الصحيحة او
لا يحتجون بالقرآن مبتدعون . ثم قد يقول المضافون الى السنة أشياء ليست من السنة
مثل أحاديث كثيرة يروونها في فضائل بعض الصحابة وهى كذب . ومثل نفى الحكمة
والأسباب في مسائل القدر . ومثل كلامهم في الأجسام والأعراض وتناهى الحوادث
ونحو ذلك مما لم يأخذوه عن الرسول . فهذا ليس من السنة وان كان أهلها وافقوا

السنة في مواضع خالفهم فيها من تنازعهم في هذه المسائل ، فلا يجب اذا كانوا أصابوا حيث وافقوا السنة أن يصيبوا حيث لم يوافقوها . وكذلك مسمى العقل فان مسمى العقل قد مدحه الله في القرآن في غير آية ، لكن لما أحدث قوم من الكلام المبتدع المخالف للكتاب والسنة ؛ بل وهو في نفس الأمر مخالف للمعقول ، وصاروا يسمون ذلك عقليات وأصول دين ، وكلاما في أصول الدين صار من عرف أنهم مبتدعة ضلال في ذلك ينفر عن جنس المعقول والرأى والقياس والكلام والجدل ، فاذا رأى من يتكلم بهـذا الجنس اعتقده مبتدعاً مبطلا ، كما ان هؤلاء لما رأوا أن جنس المنتسبين الى السنة والشرع والحديث قد أخطأوا في مواضع وخالفوا فيها صريح المعقول ، وهم يقولون ان السنة جاءت بذلك صار هؤلاء ينفرون عن جنس ما يستدل في الاصول بالشرع والسنة ويسمونهم حشوية وعامة ، وكل من هؤلاء وهؤلاء أدخلوا في مسمى الشرع والعقل والسمع ما هو محمود ومذموم . ثم هؤلاء قبلوا من مسمى الشرع والسنة عندهم محمودة ومذمومة ، وخالفوا مسمى العقل محموده ومذمومه . وأولئك قبلوا مسمى العقل عندهم محموده ومذمومه وخالفوا مسمى الشرع محموده ومذمومه ، فيجب البيان والتفصيل والاستفسار وبيان الفرقان بين الحق والباطل فان ذلك يوجب التصديق بما جاء به الشرع المنزل والسنة الغراء وهو المعقول الحق ، وهو الكلام الصدق ؛ وهو الجدل بالتى هى احسن . ويوجب رد ما أدخل في الشرع والسنة وليس منها ورد ما سمِّ. معقولا وهو باطل وسمى كلاماً صدقاً وهو كذب وسمى جدلا بالتى هى أحسن وهو جدل بالباطل بغير علم . ولهذا حصل من الذين لبسوا الحق بالباطل تبديل لما بدلوه من الدين ، وتحريف الكلم عن مواضعه . ومضاهاة لاهل الكتاب مما ذمهم الله عليه . والبخارى في أول كتاب خلق أفعال العباد ذكر الرد على المعطلة الذين يبدلون كلام الله من الجهمية وذكر من كلام السلف والأئمة فيهم ما عرف به مقصودهم ☆

والتبديل نوعان : أحدهما أن يناقضوا خبره . والثانى أن يناقضوا أمره . فان الله بعثه بالهدى ودين الحق وهو صادق فيما أخبر به عن الله آمر بما أمر الله به كما قال (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وأهل التبديل الذين يضيفون الى دينه وشرعه ماليس منه ، وهم

أهل الشرع المبدل تارة يناقضونه في خبره فينفون ماأثبته أو يثبتون مانفاه كالجهمية الذين ينفون ماأثبته من صفات الله وأسمائه. والقدرية الذين ينفون ما أثبته من قدر الله ومشيئته وخلقه وقدرته ✡ والقدرية المجبرة الذين ينفون ماأثبته من عدل الله وحكمته ورحمته ، ويثبتون مانفاه من الظلم والعبث والبخل ونحو ذلك عنه وأمثال ذلك ، ومسائل أصول الدين عامتها من هذا الباب ، ثم أنهم أيضاً يوجبون مالم يوجبه بل حرمه ، ويحرمون مالم يحرمه بل أوجبه ، فيوجبون اعتقاد هذه الأقوال والمذاهب المناقضة لخبره وموالاة أهلها ومعاداة من خالفها . ويوجبون النظر المعين في طريقهم الذي أحدثوه كما أوجبوا النظر في دليل الأعراض الذى استدلوا به على حدوث الأجسام وقالوا يجب على كل مكلف أن ينظر فيه ليحصل له العلم باثبات الصانع . قالوا لان معرفة الله واجبة ولا طريق اليها الا هذا النظر وهذا الدليل ، ولما علم كثير من موافقيهم أن الاستدلال بهذا الدليل لم يوجبه الرسول خالفوهم في ايجابهم مع موافقتهم لهم على صحته . والتحقيق ما عليه السلف انه ليس بواجب أمرا ولا هو صحيح خبراً بل هو باطل منهى عنه شرعا . فان الله تعالى لا يأمر بقول الكذب والباطل بل ينهى عن ذلك . لكن غلطوا حيث اعتقدوا انه حق وان الدين لا يقوم الا على هذا الأصل الذى أصلوه . كما أن طوائف من أهل العبادة والزهد والارادة والمحبة والتصوف سلكوا طرقا ظنوا أنه لا يوصل الى الله الا بها . ثم منهم من يوجبها ويذم من لم يسلكها ومنهم من لم ير أن سالكيها أفضل من غيرهم ويوسع الرحمة لانه قد علم أن الرسول والصحابة لم يأمروا بها الناس مع اعتقادهم انها طرق صحيحة موصلة الى رضوان الله ، وهي عند التحقيق طرق مضلة انما توصل الى رضى الشيطان وسخط الرحمن كالعبادات التى ابتدعها ضلال أهل الكتاب والمشركين وخالفوا بها دين المرسلين فهؤلاء في الاحوال البدعية وأولئك في الاقوال البدعية ✡

والقول الحق هو القرآن والحال الحق هو الايمان كما قال جندب وابن عمر تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا ايمانا ✡ وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الاترجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها» ✡

فالناس أربعة أصناف: صاحب قول قرآني وحال ايماني فهم أفضل الخلق، وصاحب قول قرآني وحال ليس بايماني، وصاحب حال ايماني وليس له قول، ومن ليس له لا قول قرآني ولا حال ايماني وكثير من المنتسبين الى القول والكلام والعلم والنظر والفقه والاستدلال ابتدعوا أقوالا تخالف القرآن وكثير من المنتسبين الى العمل والعبادة والارادة والمحبة وحسن الخلق والمجاهدة ابتدعوا أحوالا وأعمالا تخالف الايمان وصار مع كل طائفة نوع من الحق الذي جاء به الرسول لكن ملبوس بغيره وصار كثير من الطائفتين ينكر ما عليه الاخرى مطلقاً كما قالت اليهود ليست النصارى على شيء. وقالت النصارى ليست اليهود على شيء. وفي كل من الطائفتين شبه من أحد الامتين ففي المنتسبين الى العلم اذا لم يوافقوا العلم النبوي ويعملوا به شبه من اليهود. وفي أهل العمل اذا لم يوافقوا العمل الشرعي ويعملوا بعلم شبه من النصارى. وصار كثير من أهل الكلام والرأي ينكرون جنس محبة الله وارادته كما صار كثير من أهل الزهد والتصوف ينكر جنس العلم والكلام والنظر. وأولئك الذين أنكروا محبة الله وارادته بنوا ذلك على أصل لهم للقدرية المجبرة والنافية وهو أن المحبة والارادة والرضا والمشيئة شيء واحد ولا يتعلق ذلك الا بمعدوم وهو ارادة الفاعل أن يفعل ما لم يكن فعله فاعتقدوا أن المحبة والارادة لا تتعلق الا بمعدوم. فالموجود لا يحب ولا يراد والقديم الازلي لا يحب ولا يراد. والباقي لا يحب ولا يراد فانكروا أن يكون الله محبوبا أو مرادا وهم لانكار كونه يحب أبلغ وأبلغ فلا يثبتون الا مشيئته ان يخلق فقط وهي لا تتعلق الا بمعدوم فاما أن يحب موجودا من خلقه فهذا باطل عند الطائفتين. لكن المجبرة يقولون محبته هي مشيئته وقد شاء خلق كل شيء فهو يحب كل شيء. والنفاة يقولون محبته هي ارادته اثابة المطيعين وهي مشيئة خاصة والذي جاء به الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الامة وعليه مشايخ المعرفة وعموم المسلمين ان الله يحب ويحب كما نطق بذلك الكتاب والسنة في مثل قوله (يحبهم ويحبونه) ومثل قوله (والذين آمنوا أشد حبا لله) وقوله (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) بل لا شيء يستحق أن يحب لذاته محبة مطلقة الا الله وحده وهذا من معنى كونه معبودا الحيث جاء القرآن بالامر بالعبادة والثناء على أهلها أو على المنيبين الى الله والتوابين اليه أو الاوابين أو المطمئنين بذكره أو المحبين له ونحو ذلك. فهذا كله يتضمن محبته وما لا يحب ممتنع كونه معبوداً وما لوها ومطمأناً بذكره ومن اطيع لعوض يؤخذ منه أو لدفع ضرره فهذا ليس بمعبود ولا اله بل قد

يكون الشخص كافرا وظالما يبغض ويلعن ومع هذا يعمل معه عمل بعوض فمن جعل العمل لله لا يكون الا لذلك فلم يثبت الرب الها معبودا ولا ربا محمودا وهو حقيقة قول النفاة من الجهمية والقدرية النافية والمثبتة والله سبحانه وتعالى رغب في عبادته والعمل له بما ذكره من الوعد ورهب من الكفر به والشرك بما ذكره من الوعيد وهو حق لكنه لم يقل ان العابد لله والعامل له لا يحصل له الا ماذكر بل وقد قال تعالى (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين) وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى « اعددت لعبادى الصالحين ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ذخرا بله ماأطلعتهم عليه اقرأوا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون [١] » . وقد ثبت في الحديث الصحيح عن صهيب عن النبى ﷺ قال « يقول الله يا أهل الجنة ان لكم عندى موعدا أريد ان أنجزكموه فيقولون ماهو الم تنضر وجوهنا وتثقل موازيننا وتدخلنا الجنة وتجرنا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون اليه فما أعطاهم شيئاً أحب اليهم من النظر اليه وهي الزيادة [٢] ». وفي الحديث الذى رواه النسائى لما صلى عمار فأوجز وقال دعوت في الصلاة بدعاء سمعته من النبى ﷺ « اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق احينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى اذا كانت الوفاة خيرا لى، اللهم انى اسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لاينفد، وقرة عين لاتنقطع ،وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر الى وجهك ،والشوق الى لقائك من غير ضراء مضرة ،ولا فتنة مضلة ،اللهم زينا بزينة الايمان ،واجعلنا هداة مهتدين » وروى نحو هذا من وجه آخر فقد أخبر الصادق المصدوق انه لم يعط أهل الجنة أحب اليهم من النظر اليه وسن أن يدعى بلذة النظر الى وجهه الكريم وأهل الجنة قد تنعموا

---

[١] قوله ذخراً منصوب متعلق باعددت أى أعددت ذلك لهم مذخورا وقوله بله هو بفتح الباء الموحدة وسكون اللام وفتح الهاء معناه دع الذى اطلعتم عليه ، وقيل معناه سوى أى سوى ماأطلعتم عليه الذى ذكره الله في القرآن . قال الخطابى كأنه يريد دع ماأطلعتم عليه وانه سهل يسير في جنب ماادخرته لهم والله أعلم ☆

[٢] الزيادة يعنى الواردة في قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ☆

من أنواع النعيم بالمخلوقات بما هو غاية النعيم ،فلما كان نظرهم اليه أحب اليهم من كل أنواع النعيم علم أن لذة النظر اليه أعظم عند أهل الجنة من جميع أنواع اللذات . والجنة فيها ماتشتهى الأنفس وتلذ الاعين،فالذت أعينهم باعظم من لذتها بالنظر اليه واللذة تحصل بادراك المحبوب فلولم يكن أحب اليهم من كل شئ ما كان النظر اليه أحب اليهم من كل شئ وكانت لذته أعظم من كل لذة والله تعالى وعد عباده المؤمنين بالجنة وهي اسم لدار فيها جميع أنواع اللذات المتعلقة بالمخلوق وبالخالق كما أن النار اسم لدار فيها أنواع الآلام لكن غلط من ظن أن التنعيم بالنظر اليه ليس من نعيم أهل الجنة.وصار هؤلاء حزبين: حزبا أنكروا التنعيم بالنظر اليه وهم المنكرون للمحبة حتى قال أبو المعالى ونحوه ممن ينكر محبته أنهم اذا رأوه لم يلتذوا بنفس النظر بل يخلق لهم لذة ببعض المخلوقات مع النظر . وكذلك قال من شاركهم في التجهم من أهل الوحدة كابن عربى قال ماالتذ عارف بمشاهدة قط .وادعى أبو المعالى أن انكار محبته من أسرار التوحيد، وهو من أسرار توحيد الجهمية المعطلة المبدلة. وحكى عن ابن عقيل انه سمع رجلا يقول أسألك لذة النظر الى وجهك الكريم فقال له هب أن له وجها أله وجه يلتذ بالنظر اليه. وهذا بناء على هذا الاصل فانه وشيخه أبايعلى ونحوهما وافقوا الجهمية في انكار أن يكون الله محبوبا واتبعوا في ذلك قول أبي بكر بن الباقلانى ونحوه ممن ينكر محبة الله. وجعل القول باثباتها قول الحلولية. والجواب الثانى أن طائفة من الصوفية والعباد شاركوا هؤلاء في أن مسمى الجنة لايدخل فيه النظر الى الله ،وهؤلاء لهم نصيب من محبة الله تعالى والتلذذ بعبادته ، وعندهم نصيب من الخوف والشوق والغرام ، فلما ظنوا أن الجنة لايدخل فيها النظر اليه صاروا يستخفون بمسمى الجنة ويقول أحدهم ما عبدتك شوقا الى جنتك ولا خوفا من نارك. وهم غلطوا من وجهين :أحدهما أن مايطلبونه من النظر اليه والتمتع بذكره ومشاهدته كل ذلك في الجنة * الثانى ان الواحد من هؤلاء لو جاع في الدنيا أياماً أو ألقى في بعض عذابها طار عقله وخرج من قلبه كل محبة . ولهذا قال سمنون

وليس لى في سواك حظ   فكيفما شئت فامتحنى

ابتلى بعسر البول فصار يطوف على المكاتب ويقول ادعوا لعمكم الكذاب

وأبو سليمان لما قال قد أعطيت من الرضا نصيباً لو ألقانى في النار لكنت راضيا ذكر انه ابتلى بمرض فقال ان لم يعافنى والا كفرت أو نحو هذا والفضيل بن عياض ابتلى بعسر البول فقال بحبى لك الا فرجت عنى فبذل حبه في عسر البول فلا طاقة لمخلوق بعذاب الخالق ولا غنى به عن رحمته .وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل ما تدعو في صلاتك قال أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار أما أنى لاأحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال حولها ندندن .ودخل على اعرابى قد صار مثل الفرخ فقال هل كنت تدعو الله بشئ قال كنت أقول اللهم ما كنت معاقبى به في الآخرة فعجله لى في الدنيا فقال سبحان الله انك لاتستطيعه ولا تطيقه هلا قلت اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ☆ والعدوان في الارادة والعبادة والعمل حصل من اعراضهم عن العلم الشرعى واتباع الرسول وقد قال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) قال بعضهم ليس الشأن في أن تحبه الشأن في أن يكون هو يحبك وهو انما يحب من اتبع الرسول والا فالمشركون وأهل الكتاب يدعون انهم يحبونه وأولئك غلطوا بنفى محبته وهؤلاء أثبتوا محبة شركية لم يثبتوا محبة توحيدية خالصة وقد قال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنو أشد حبا لله) ☆

فالاقسام ثلاثة أولئك معطلة للمحبة وحقيقة قولهم تعطيل العبادة مطلقاً وهؤلاء مشركون في المحبة فهم مشركون في العبادة أولئك مستكبرون عن عبادته والكبر لليهود، وهؤلاء مشركون في عبادته والشرك للنصارى ،وكل واحد من المستكبرين والمشركين ليسوا مسلمين بل الأسلام هو الاستسلام لله وحده . ولفظ الاسلام يتضمن الاسلام ويتضمن اخلاصه لله وقد ذكر ذلك غير واحد حتى أهل العربية كابى بكر ابن الانبارى وغيره .ومن المفسرين من يجعلها قولين كما يذكر طائفة منهم البغوى ان المسلم هو المستسلم لله وقيل هو المخلص. والتحقيق أن المسلم يجمع هذا وهذا فمن لم يستسلم له لم يكن مسلما ومن استسلم لغيره كما يستسلم له لم يكن مسلما ، ومن استسلم له وحده فهو المسلم كما في القرآن (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلا) ☆ والاستسلام له يتضمن الاستسلام لقضائه وأمره

ونهيه فيتناول فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور (انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) ☆ قال ابن أبي حاتم حدثنا عصام بن رواد حدثنا آدم عن أبي جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله [بلى من أسلم وجهه لله] يقول من أخلص لله قال ابن أبي حاتم وروى عن الربيع نحو ذلك وقال ذكر عن يحيى بن آدم حدثنا ابن المبارك عن حيوة بن شريح عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير من أسلم وجهه لله قال من أسلم أخلص وجهه قال دينه .وقال ابو الفرج أسلم بمعنى أخلص .وفي الوجه قولان أحدهما انه الدين والثاني العمل☆ وقال البغوى من أسلم وجهه لله أخلص دينه لله وقيل أخلص عبادته لله وقيل خضع وتواضع لله وأصل الاسلام الاستسلام والخضوع وخص الوجه لانه اذا جاد بوجهه في السجود لم يبخل بسائر جوارحه وهو محسن في عمله قيل مؤمن وقيل مخلص ☆ قلت قول من قال خضع وتواضع لربه هو داخل في قول من قال أخلص دينه أو عمله أو عبادته لله فان هذا انما يكون اذا خضع له وتواضع له دون غيره فان العبادة والدين والعمل له لا يكون الا مع الخضوع له والتواضع وهو مستلزم لذلك ولكن أولئك ذكروا مع هذا أن يكون هذا الاسلام لله وحده فذكروا المعنيين الاستلزام وان يكون لله. وقول من قال خضع وتواضع لله يتضمن أيضاً أنه أخلص عبادته ودينه لله فان ذلك يتضمن الخضوع والتواضع لله دون غيره واما ذكره التوجه فقد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع ؛ وتبين ان الله ذكر اسلام الوجه له وذكر اقامة الوجه له في قوله [فأقم وجهك للدين] وذكر توجيه الوجه له في قوله [انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض] لان الوجه انما يتوجه الى حيث توجه القلب والقلب هو الملك فاذا توجه الوجه نحو جهة كان القلب متوجهاً اليها ولا يمكن الوجه أن يتوجه بدون القلب فكان اسلام الوجه واقامته وتوجيهه مستلزما لاسلام القلب واقامته وتوجيهه وذلك يستلزم اسلام كله لله وتوجيه كله لله واقامة كله لله وبسط الكلام على مايناسب ذلك [١]

[١] بياض في الاصل مقدار سطرين

وهذا حقيقة دين الاسلام ،لكن الذين أنكروا ذاك لهم شبهتان : احداهما ان المحبة تقتضى المناسبة ، قالوا وهي منتفية فلا مناسبة بين المحدث والقديم فيقال لهم هذا كلام مجمل تعنون بالمناسبة الولادة أو المماثلة ونحو ذلك مما يجب تنزيه الرب عنه فان الشيء ينسب الى أصله بأنه ابن فلان والى فرعه بأنه أبو فلان والى نظيره بأنه مثل فلان ولما سأل المشركون النبى ﷺ عن نسب ربه أنزل الله تعالى [قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد] فلم يخرج من شيء ولا يخرج منه شيء ولا له مثل فان عنيتم هذا لم نسلم ان المحبة لا بد فيها من هذا. وان أردتم بالمناسبة أن يكون المحبوب متصفا بمعنى يحبه المحب فهذا لازم للمحبة والرب متصف بكل صفة تحب وكل ما يحب فانما هو منه فهو أحق بالمحبة من كل محبوب واذا كان الانسان يحب الملائكة وهم من غير جنسه لما اتصفوا به من الصفات الحميدة فالسبوح القدوس رب الملائكة والروح الذى كلما اتصفت به الملائكة وغيرهم فهومن جوده واحسانه وهو العزيز الرحيم اذ كان المخلوق كثيراً مايتصف بالعزة دون الرحمة أو تكون فيه رحمة بلا عزة وهو سبحانه العزيز الرحيم الغفور الودود المجيد. والودود فعول من الود . وقال شعيب (ان ربى رحيم ودود) وقال تعالى (وهو الغفور الودود) فقرنه بالرحيم في موضع وبالغفور في موضع . قال أبو بكر ابن الانبارى الودود معناه المحب لعباده من قولهم وددت الرجل أوده وداً ووداً ويقال وددت الرجل وداداً ووداداً ووداده . وقال الخطابى هو اسم مأخوذ من الود وفيه وجهان: أحدهما أن يكون فعولا في محل مفعول كما قيل رجل هيوب بمعنى مهيب وفرس ركوب بمعنى مركوب .والله سبحانه وتعالى مودود في قلوب أوليائه لما يعرفونه من احسانه اليهم .والوجه الآخر أن يكون بمعنى الوادأى أنه يود عباده الصالحين بمعنى أنه يرضى عنهم ويتقبل أعمالهم ويكون معناه أن يوددهم الى خلقه كقوله (سيجعل لهم الرحمن وداً) قلت قوله (سيجعل لهم الرحمن وداً) فسروها بأنه يحبهم ويحببهم الى عباده كما في الصحيحين عن النبى ﷺ انه قال « اذا أحب الله العبد نادى ياجبريل انى أحب فلانا فاحبه فيحبه جبريل ثم ينادى في السماء ان الله يحب فلانا فاحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الارض» وقال في البغض مثل ذلك.وقال عبد بن حميد انبأ عبيد الله بن موسى عن ابن ابى ليلى عن الحكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس

(سيجعل لهم الرحمن ودا) قال يحبهم ويحببهم.ورواه ابن ابى حاتم ايضا وقال عبد اخبرنى شبابة عن ورقاء عن ابن ابى نجيح عن مجاهد[سيجعل لهم الرحمن ودا] قال يحبهم ويحببهم الى المؤمنين . أخبرنا عبد الرازق عن الثورى عن مسلم عن مجاهد عن ابن عباس [سيجعل لهم الرحمن ودا] قال محبة وهذا فيه اثبات حبه لهم بعد أعمالهم بقوله [سيجعل لهم الرحمن ودا] وهو نظير قوله [قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله] فهو يحبهم اذا اتبعوا الرسول ونظير قوله في الحديث الصحيح «ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها» وكذلك قوله واحسنوا ان الله يحب المحسنين ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ان الله يحب المتقين ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ☆وهذه الآيات وأشباهها تقتضى ان الله يحب أصحاب هذه الاعمال فهو يحب التوابين وانما يكونون توابين بعد الذنب ففى هذه الحال يحبهم وهذا مبنى على الصفات الاختيارية فمن نفاها رد هذا كله ولهم قولان :احدهما ان المحبة قديمة فهو يحبهم في الازل اذا علم انهم يموتون على حال مرضية ويقولون ان الله يحب الكفار في حال كفرهم اذا علم انهم يموتون على الايمان ويبغض المؤمن اذا علم انه يرتد هذا قول ابن كلاب ومن تبعه. ثم منهم من يفسر المحبة بالارادة ، ومنهم من يقول هى صفة زائدة على الارادة .والقول الثانى يجعلون هذا من باب الفعل فالمحبة عندهم احسانه اليهم والاحسان عندهم ليس فعلا قائما به بل بائنا عنه والكتاب والسنة واقوال السلف والأئمة والادلة العقلية انما تدل على القول الاول كما قد بسط في غير هذا الموضع . اذ المقصود هنا ذكر اسمه الودود والاكثرون على ما ذكره ابن الانبارى وانه فعول بمعنى فاعل أى هو الواد كما قرنه بالغفور وهو الذى يغفر وبالرحيم وهو الذى يرحم. قال ابن ابى حاتم حدثنا ابى ثنا عيسى بن جعفر قاضى الرى ثنا سفيان في قوله ان ربى رحيم ودود قال محب وقال قرىء على يونس ثنا ابن وهب قال وقال ابن زيد قوله الودود قال الرحيم وقد ذكر فيه قولين: القول الاول رواه من تفسير الوالبى عن ابن عباس قوله الودود قال الحبيب . والثانى قول ابن زيد الرحيم .وما ذكره الوالبى انه الحبيب قد يراد به المعنيان انه يحب ويحب فان الله يحب من يحبه واولياؤه يحبهم ويحبونه

والبغوى ذكر الامرين فقال وللودودمعنيان ان يحب المؤمنين وقيل هو بمعنى المودود اى محبوب المؤمنين. وقال أيضاً في قوله (وهو الغفور الودود) أي المحب لهم وقيل معناه المودود كالحلوب والركوب بمعنى المحلوب والمركوب وقيل يغفر ويود أن يغفر وقيل المتودد الى أوليائه بالمغفرة قلت هذا اللفظ معروف في اللغة أنه بمعنى الفاعل كقول النبى ﷺ «تزوجوا الودود الولود» وفعول بمعنى فاعل كثير كالصبور والشكور واما بمعنى مفعول فقليل وأيضاً فان سياق القرآن يدل على أنه صح أراد أنه هو الذى يود عباده كما أنه هو الذى يرحمهم ويغفر لهم فان شعيبا قال واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود فذكر رحمته ووده كما قال تعالى [وجعل بينكم مودة ورحمة] وهو أراد وصفا يبين لهم أنه سبحانه يغفر الذنب ويقبل على التائب وهو كونه ودوداً كما قال ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبى ﷺ «أن الله يفرح بتوبة التائب أشد من فرح من فقد راحلته بارض دوية (١) مهلكة ثم وجدها بعد اليأس» فهذا الفرح منه بتوبة التائب يناسب محبته له ومودته له وكذلك قوله في الآية الاخرى [وهو الغفور الودود] فانه مثل قوله [وهو الغفور الرحيم] وأيضاً فان كونه مودوداً أى محبوبا يذكر على الوجه الكامل الذى يتبين اختصاصه به مثل اسم الاله فان الاله المعبود هو مودود بذلك ومثل اسمه الصمد ومثل ذى الجلال والاكرام ونحو ذلك وكونه مودوداً ليس بعجيب وانما العجب جوده واحسانه فانه يتودد الى عباده كما جاء في الاثر «ياعبدى كم أتودد اليك بالنعم وأنت تتمقت الى بالمعاصى ولايزال ملك كريم يصعد الى منك بعمل سيء» وفي الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال يقول الله تعالى «من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب منى ذراعا تقربت اليه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة» وجاء في تفسير اسمه الحنان المنان أن الحنان الذى يقبل على من أعرض عنه والمنان الذى يجود بالنوال قبل السؤال وأيضاً فمبدأ الحب والود منه لكن اسمه الودود يجمع المعنيين كما قال الوالبى عن ابن عباس أنه الحبيب وذلك أنه اذا كان يود عباده فهو مستحق لان يوده العباد بالضرورة .ولهذا من قال انه يحب المؤمنين قال انهم يحبونه فان كثيراً من الناس يقول انه محبوب وهو لايحب شيئا مخصوصاً لكن محبته بمعنى مشيئته العامة ومن الناس من قال انه لايحب مع أنه يثبت محبته المؤمنين فالقسمة في المحبة

---

(١) رواه مسلم وهى منسوبة الى الدو وهو الصحراء

ربانية فالسلف وأهل المعرفة اثبتوا النوعين قالوا انه يحب ويحب والجهمية والمعتزلة تنكر الامرين ومن الناس من قال انه يحبه المؤمنون وأما هو فلا يحب شيئاً دون شيء ومنهم من عكس فقال بل هو يحب المؤمنين مع أن ذاته لا يحب كما يقولون انه يرحم ولا يرحم فاذا قيل ان الودود بمعنى الواد لزم أن يكون مودوداً بخلاف العكس فالصواب القطع بان الودود هو الذي يود وان كان ذلك متضمناً لانه يستحق أن يود ليس هو بمعنى المودود فقط ولفظ الوداد بالكسر هو مثل الموادة والتواد وذاك يكون من الطرفين كالتحاب وهو سبحانه لما جعل بين الزوجين مودة ورحمة كان كل منهما يود الآخر ويرحمه وهو سبحانه كما ثبت في الحديث الصحيح أرحم بعباده من الوالدة بولدها وقد بين الحديث الصحيح أن فرحه بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد ماله ومركوبه في مهلكة اذ اوجدهما بعد اليأس وهذا الفرح يقتضى أنه أعظم مودة لعبده المؤمن من المؤمنين بعضهم لبعض كيف وكل ود في الوجود فهو من فعله فالذى جعل الود في القلوب هو أولى بالود كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما في قوله (سيجعل لهم الرحمن وداً) قال يحبهم ويحببهم وقد دل الحديث الذى في الصحيحين على أن ما يجعله من المحبة في قلوب الناس هو بعد أن يكون هو قد أحبه وأمر جبريل أن ينادى بأن الله يحبه فنادى جبريل في السماء أن الله يحب فلانا فأحبوه وبسط هذا له موضع آخر ☆

وفي مناجاة بعض الداعين ليس العجب من حبى لك مع حاجتى اليك العجب من حبك لى مع غناك عنى . وفي أثر آخر ياعبدى وحقى أنى لك محب فبحقى عليك كن لى محبا. وروى ياداود حببنى الى عبادى وحبب عبادى الى مرهم بطاعتى فأحبهم وذكرهم آلائى فيحبونى فانهم لايعرفون منى الا الحسن الجميل وهو سبحانه كما قال كلما خلقه فانه من نعمه على عباده ولهذا يقول (فبأى آلاء ربكما تكذبان) والخير بيديه لايأتى بالحسنات الا هو ولايذهب بالسيآت الا هو ولا حول ولا قوة الا به ولاملجأ ولا منجا منه الا اليه ووده سبحانه هو لمن تاب اليه وأناب اليه كما قال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) وقال (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) فلا يستوحش أهل الذنوب وينفرون منه كأنهم حمر مستنفرة فانه ودود رحيم بالمؤمنين يحب التوابين ويحب المتطهرين ولهذا قال شعيب (واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان

ربى رحيم ودود) وقال هنا (وهو الغفور الودود) فذكر الودود في الموضعين لبيان
مودته للمذنب اذا تاب اليه بخلاف القاسى الجافي الغليظ الذى لاود فيه ✡
والحجة الثانية لهم قالوا ان الارادة والمحبة لاتتعلق الابمعدوم يراد فعله فانه لوجاز
ان يراد الموجود وان يراد القديم لجاز أن يكون العالم قديما مع كونه مرادا مقدورا
كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة فان القائلين انه موجب بذاته والعالم قديم منهم
من يصفه بالارادة كأبى البركات وغيره قالوا ومن المعلوم بالاضطرار للعقلاء اذ قالوا
هذا الامر حصل بالارادة أن يكون محدثاً كائناً بعد ان لم يكن ولهذا لايجوز أن
يقال ان قدرته ومشيئته تعلقت بوجوده ولا ببقائه ولا بكونه حيا ومن قال ان صفاته
قديمة الاعيان لا يقول ان كلامه وارادته حصلت بارادته وقدرته فيقال هذا الذى قالوه
صحيح لكن هنا نوعان أحدهما ارادة أن يفعل الشئ ويكون فهذه لاتكون الا مع
حدوثه والثانية محبة نفس ذاته من غير أن يفعل في الذات شئ فهذه التى تتعلق بالموجود
والباقى والقديم وارادة الفعل تابعة لهذه فانه لولا أن تكون الارادة متعلقة بنفس
الشئ الموجود امتنع أن يراد ايجاده فان من أراد أن يبنى بيتا ليسكنه انما مراده نفس
البيت لسكناه والانتفاع وانما البناء وسيلة الى ذلك ولولا ارادة الغاية المقصودة بالذات
لم ترد الوسيلة واذا بناه فهو مريد له بعد البناء ولهذا يكره خرابه وزواله وكذلك من
أراد أن يلبس ثوباً فلبسه فهو في حال اللبس مريد له فمن أراد احداث أمر وفعله كانت
ارادة فعله لغاية مقصودة بعد الفعل هي العلة الغائية والفعل المطلوب لغاية لفاعله ارادتان
ارادة الفعل وارادة الغاية وهذه هي الاصل وتلك تبع لهذه والارادة ارادة لاتتعلق
المعدوم من جهة كونه معدوما بل تتعلق بوجود الفعل لكن يمتنع أن يراد فعله الا اذا
كان معدوما فالعدم شرط في ارادة فعله ولهذا جعل من جملة علل الفعل ولهذا كان
جماهير العقلاء مطبقين على أن كل مفعول فهو حادث وكل ماأريد أن يفعل فانه يكون
حادثاً وكل ماتعلقت المشيئة والقدرة بفعله فهو حادث ثم من الناس من يقول هذا مختص
بكونه مفعولا بالاختيار والا اذا كان معلولا لعلة موجبة لم يلزم حدوثه وهو غلط بل كل
مافعل فلا يكون الا محدثاً سواء كان ذلك ممكنا أو ممتنعا بل نفس كونه مفعولا مستلزم
حدوثه ونفس تصور العلم بكونه مفعولا يوجب العلم بحدوثه وان لم يخطر بالبال كون

مفعولا بالقدرة والاختيار ثم قد يقال مامن مفعول الا وهو مفعول بالاختيار والقديم اذا قدر فاعلا بلا مشيئة كان ذلك ممتنعا والموجب بالذات اذا قيل هو موجب بذاته المتصفة بمشيئته وقدرته لما يشاؤه وهذا حق وهو مستلزم لكونه فاعلا بمشيئته وقدرته واما موجب بلا مشيئة اوموجب يقارنه موجبه فهذان باطلان وبهما ضل من ضل من المتفلسفة القائلين بقدم الفلك ونفى الصفات ولكن من أراد احداث شئ وأحدثه لم يجب أن تنقطع ارادته بل قد يكون مريدا له مادام موجودا ولولا أنه مريد لوجوده لما فعله فكلما شاء الرب وجوده فهو مريد لاحداثه وبقائه مادام باقيا واما الارادة والمحبة المتعلقة بالقديم فليست ارادة فعل فيه بل هي محبة ذاته وكل ارادة ومحبة فلا بد أن تنتهى الى محبوب لذاته وكل فاعل بالارادة فارادته تستلزم محبة عامة لاجلها فعل فالحب أصل وجود كل موجود والرب تعالى يحب نفسه ومن لوازم حبه نفسه أنها محبة مريدة لما يريد أن يفعله وما أراد فعله فهو يريده لغاية يحبها فالحب هو العلة الغائية التى لاجله كان كل شئ والمتفلسفة يصفونه بالابتهاج والفرح كما جاءت به النصوص النبوية لكنهم يقصرون في معرفة هذا وأمثاله من الامور الالهية فانهم يقولون اللذة ادراك الملائم من حيث هو ملائم وهو مدرك لذاته بافضل ادراك فهو أفضل مدرك لافضل مدرك بافضل ادراك وقد قصروا في ذلك من ثلاثة أوجه . أحدها أن اللذة والفرح والسرور والبهجة ليس هو مجرد الادراك بل هو حاصل عقب الادراك فالادراك موجب له ولا بد في وجوده من محبة ✡ فهنا ثلاثة أمور محبة وادراك لمحبوب ولذة تحصل بالادراك وهذا في اللذات الدنيوية الحسية وغيرها فان الانسان يشتهى الحلو ويحبه فاذا ذاقه التذ بذوقه والذوق هو الادراك وكذلك في لذات قلبه يحب الله فانه اذا ذكره وصلى له وجد حلاوة ذلك كما قال صلى الله عليه وسلم « جعلت قرة عينى في الصلاة » وأهل الجنة اذا تجلى لهم فنظروا اليه فال فما أعطاهم شيئاً أحب اليهم من النظر اليه والله أعلم ✡



فصل

في تمام القول في محبة الله

وانقسام المراد الى مايراد لذاته والى مايراد لغيره

ثم ذلك الغير لابد أن يكون مراداً لذاته فالمراد لذاته لازم لجنس الارادة والارادة لازمة لجنس الحركة فان الحركة القسرية مستلزمة للحركة الارادية والحركة الارادية مستلزمة لمراد لذاته فكان جنس الحركات الموجودة في العالم مستلزمة للمراد لذاته وهو المعبود الذى يستحق العبادة لذاته وهو الله لا اله الا هو فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وكل عمل لايراد به وجهه فهو باطل وكل عامل لا يكون عمله لله بل لغيره وهو المشرك فانه كما قال الله تعالى (فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق) فان قوام الشيء بطبيعته الخاصة به فالحي قوامه بطبيعته المستلزمة لحركته الارادية وقوامها بالمراد لذاته فاذا لم يكن حركتها لارادة المعبود لذاته لم يكن لنفسه قوام بل بقيت ساقطة خارة كما ذكر الله تعالى ، ولهذا يهوى في الهاوية وهو ذنب لايغفر، لانه فسد الاصل كالمريض الذى فسد قلبه لاينفع مع ذلك اصلاح اعضائه ولفظ دعاء الله في القرآن يراد به دعاء العبادة ودعاء المسألة فدعاء العبادة يكون الله هو المراد به فيكون الله هو المراد ودعاء المسألة يكون المراد منه [١] كما في قول المصلى اياك نعبد واياك نستعين فالعبادة ارادته والاستعانة وسيلة الى العبادة ارادة المقصود وارادة الاستعانة ارادة الوسيلة الى المقصود ولهذا قدم قوله اياك نعبد وان كانت لا تحصل الا بالاستعانة فان العلة الغائية مقدمة في التصور والقصد وان كانت مؤخرة في الوجود والحصول وهذا انما يكون لكونه هو المحبوب لذاته لكن المراد به محبة مختصة به على سبيل الخضوع له والتعظيم وعلى سبيل تخصيصها به فيعبر عنها بلفظ الانابة والعبادة ونحو ذلك اذ كان لفظ المحبة جنس عام يدخل فيه أنواع كثيرة فلا يرضى لله بالقدر المشترك بل اذا ذكر من يحب غير الله ، قال تعالى [والذين آمنوا أشد حباً لله واذا

---

[١] الجار والمجرور خبر يكون والضمير عائد لله

ذكر محبتهم لربهم ذكرت محبته لهم وجهادهم كما في قوله (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) وفي مثل قوله (أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله) ولهذا كانت القلوب تطمئن بذكره كما قال تعالى [ألا بذكر الله تطمئن القلوب] فتقديم المفعول يدل على أنها لا تطمئن الا بذكره وهو تعالى اذا ذكر وجلت فحصل لها اضطراب ووجل لما تخافه من دونه وتخشاه من فوات نصيبها منه . فالوجل اذا ذكر حاصل بسبب من الانسان والا فنفس ذكر الله يوجب الطمأنينة لانه هو المعبود لذاته والخير كله منه قال تعالى (نبىء عبادى انى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) وقال تعالى (اعلموا ان الله شديد العقاب وان الله غفور رحيم) وقال على رضى الله عنه «لا يرجون عبد الا ربه ولا يخافن عبد الا ذنبه» فالخوف الذى يحصل عند ذكره هو بسبب من العبد والا فذكر الرب نفسه يحصل الطمأنينة والامن فما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك كما قال ذلك المريض الذى سئل كيف تجدك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبى فقال النبى صلى الله عليه وسلم «ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن الا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف» ولم يقل بذكر الله توجل القلوب كما قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب بل قال اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ثم قال واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون وانما يتوكلون عليه لطمأنينتهم الى كفايته وانه سبحانه حسب من توكل عليه يهديه وينصره ويرزقه بفضله ورحمته وجوده فالتوكل عليه يتضمن الطمأنينة اليه والاكتفاء به عما سواه وكذلك قال في الآية الاخرى [فالهكم اله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون] فهم مخبتون والمخبت المطمئن الخاضع لله والارض الخبت(١) روى ابن أبى حاتم من حديث ابن مهدى عن الثورى عن ابن أبى نجيح وبشر المخبتين قال المطمئنين وعن الضحاك المتواضعين فوصفهم بالطمأنينة مع الوجل كما وصفهم هنا بالتوكل عليه مع الوجل وكما قال في وصف القرآن تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم

(١) المطمئنة

بهم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله فذكر أنه بعد الاقشعرار تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله فذكره بالذات يوجب الطمأنينة وانما الاقشعرار والوجل عارض بسبب مافي نفس الانسان من التقصير في حقه والتعدي لحده فهو كالزبد مع ماينفع الناس الزبد يذهب جفاء وماينفع الناس يمكث في الارض فالخوف مطلوب لغيره ليدعو النفس الى فعل الواجب وترك المحرم واما الطمأنينة بذكره وفرح القلب به ومحبته فمطلوب لذاته ولهذا يبقى معهم هذا في الجنة فيلهمون التسبيح كما يلهمون النفس. والمتفلسفة رأوا اللذات في الدنيا ثلاثة: حسية ووهمية وعقلية. والحسية في الدنيا غايتها دفع الالم والوهمية خيالات واضحات واللذة الحقيقية هي العلم فجعلوا جنس العلم غاية وغلطوا من وجوه احدها ان العلم بحسب المعلوم فاذا كان المعلوم محبوبا تكمل النفس بحبه كان العلم به كذلك وان كان مكروها كان العلم به لحذره ودفع ضرره كالعلم بما يضر الانسان من شياطين الانس والجن فلم يكن المقصود نفس العلم بل المعلوم ولهذا قد يقولون سعادتها في العلم بالامور الباقية وانها تبقى ببقاء معلومها ثم يظنون أن الفلك والعقول والنفوس امور باقية وأن بمعرفة هذه تحصل سعادة النفس.

وابو حامد في مثل معراج السالكين ونحوه يشير الى هذا. فان كلامه برزخ بين المسلمين وبين الفلاسفة ففيه فلسفة مشوبة باسلام واسلام مشوب بفلسفة ولهذا كان في كتبه كالاحياء وغيره يجعل المعلوم بالاعمال والاعمال كلها انما غايتها هو العلم فقط وهذا حقيقة قول هؤلاء الفلاسفة وكان يعظم الزهد جدا ويعتنى به أعظم من اعتنائه التوحيد الذى جاءت به الرسل وهو عبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه. فان هذا التوحيد يتضمن محبة الله وحده وترك محبة المخلوق مطلقا الا اذا أحبه الله فيكون داخلا في محبة الله بخلاف من يحبه مع الله فان هذا شرك وهؤلاء المتفلسفة انما يعظمون تجريد النفس عن الهيولى وهي المادة وهي البدن وهو الزهد في أغراض البدن وهو الزهد في الدنيا. وهذا ليس فيه الا تجريد النفس عن الاشتغال بهذا فتبقى النفس فارغة فيلقى اليها الشيطان ما يلقيه ويوهمه أن ذلك من علوم المكاشفات والحقائق وغايته وجود مطلق هو في الاذهان لا في الاعيان ولهذا جعل أبو حامد السلوك الى الله ثلاثة منازل بمنزلة السلوك الى مكة فان السالك اليها له ثلاثة أصناف من الشغل الاول تهيئة الاسباب كشراء الزاد والراحلة وخرز الراوية والآخر السلوك ومفارقة الوطن

بالتوجه الى الكعبة منزلا بعد منزل والثالث الاشتغال بأركان الحج ركنا بعد ركن ثم بعد النزوع عن لبسة الاحرام وطواف الوداع استحق التعرض للملك والسلطنة قال فالعلوم ثلاثة قسم يجرى مجرى سلوك البوادى وقطع العقبات وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبة الشامخة التى عجز عنها الاولون والآخرون الا الموفقون قال فهذا سلوك للطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله وكما لا يغنى علم المنازل وطريق البوادى دون سلوكها فكذا لا يغنى علم تهذيب الاخلاق دون مباشرة التهذيب لكن المباشرة دون العلم غير ممكن قال وقسم ثالث يجرى مجرى نفس الحج واركانه وهو العلم بالله وصفاته وملائكته وافعاله وجميع ماذكرناه في تراجم علم المكاشفة قال وهنا نجاة وفوز بالسعادة والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق اذا كان غرضه المقصد وهو السلامة واما الفوز بالسعادة فلا ينالها الا العارفون فهم المقربون المنعمون في جوار الله بالروح والريحان وجنة ونعيم واما الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله تعالى فأما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم واما ان كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين قال وكل من لم يتوجه الى المقصد او انتهض الى جهته لا على قصد الامتثال بالامر والعبودية بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين فله نزل من حميم وتصلية جحيم قال واعلم انه هذا هو الحق اليقين عند العلماء الراسخين في العلم اعنى أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن ومشاهدة الباطن أقوى وأجل من مشاهدة الابصار وترقوا فيه عن حد التقليد الى الاستبصار. قلت وكلامه من هذا الجنس كثير ومن لم يعرف حقيقة مقصده يهوله مثل هذا الكلام لان صاحبه يتكلم بخبرة ومعرفة بما يقوله لا بمجرد تقليد لغيره لكن الشأن فيما خبره هل هو حق طابق ومن سالك مسالك المتكلمين الجهمية والفلاسفة ولم يكن عنده خبرة بحقائق مابعث به رسوله وانزل به كتبه بل ولا بحقائق الامور عقلا وكشفا فان هذا الكلام غايته. وأما من عرف حقيقة ماجاءت به الرسل أو عرف مع ذلك بالبراهين العقلية والمكاشفات الشهودية صدقهم فيما أخبروا به فانه يعلم غاية مثل هذا الكلام وانه انما ينتهى الى التعطيل ولهذا ذاكرنى مرة شيخ جليل له معرفة وسلوك وعلم في هذا فقال كلام أبى حامد يشوقك فتسير خلفه وهو يشوقك فتسير خلفه منزلا بعد منزل فاذا هو ينتهى الى لا شيء

وهذا الذى جعله هنا الغاية وهو معرفة الله وصفاته وأفعاله وملائكته قد ذكره في المضنون به على غير أهله وهو فلسفة محضة قول المشركين من العرب خير منه دع قول اليهود والنصارى بل قوم نوح وهود وصالح ونحوهم كانوا يقرون بالله وبملائكته وصفاته وأفعاله خيراً من هؤلاء لكن لم يقروا بعبادته وحده لاشريك له ولا بأنه أرسل رسولا من البشر وهذا حقيقة قول هؤلاء فانهم لايأمرون بعبادة الله وحده لاشريك له ولا يثبتون حقيقة الرسالة بل النبوة عندهم فيض من جنس المنامات وأولئك الكفار ما كانوا ينازعون في هذا الجنس فان هذا الجنس موجود لجميع بنى آدم ومع هذا فقد أخبر الله تعالى عنهم انهم كانوا يقرون بالملائكة كما قال [فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم الا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لانزل ملائكة] وقال قوم نوح [ماهذا الا بشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم ولو شاء الله لانزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين] بل فرعون قال لموسى [أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه أساورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فاطاعوه انهم كانوا قوماً فاسقين] ۞ والعبادات كلها عندهم مقصودها تهذيب الاخلاق والشريعة سياسة مدنية والعلم الذى يدعون الوصول اليه لاحقيقة لمعلومه في الخارج والله أرسل رسوله بالاسلام والايمان بعبادة الله وحده وتصديق الرسول فيما أخبر فالاعمال عبادة الله والعلوم تصديق الرسول وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ في ركعتى الفجر تارة بسورتى الاخلاص وتارة (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا) الآية فانها تتضمن الايمان والاسلام وبالآية من آل عمران (قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم) والذين سلكوا خلف أبى حامد أو ضاهوه في السلوك كابن سبعين وابن عربى صرحوا بحقيقة ماوصلوا اليه وهو أن الوجود واحد وعلموا أن أباحامد لايوافقهم على هذا فاستضعفوه ونسبوه الى أنه مقيد بالشرع والعقل وأبو حامد بين علماء المسلمين وبين علماء الفلاسفة علماء المسلمين يذمونه على ماشارك فيه الفلاسفة مما يخالف دين الاسلام والفلاسفة يعيبونه على مابقى معه من الاسلام وعلى كونه لم ينسلخ منه بالكلية الى قول الفلاسفة ولهذا كان الحفيد ابن رشد ينشد فيه

يوماً يمان اذا ماجئت ذا يمن وان لقيت معدياً فعدنان

وأبونصر القشيرى وغيره ذموه على الفلسفة وأنشدوا فيه أبياتاً معروفة يقولون فيها

برئنا الى الله من معشر بهم مرض من كتاب الشفا [1]
وكم قلت ياقوم أنتم على شفا حفرة مالها من شفا
فلما استهانوا بتعريفنا رجعنا الى الله حتى كفا
فماتوا على دين برسطالس وعشنا على سنة المصطفى

ولهذا كانوا يقولون أبو حامد قد أمرضه الشفاء وكذلك الطرطوسى والمازرى وابن عقيل وأبو البيان وابن حمدين ورفيق أبى حامد أبو نصر المرغينانى وأمثال هؤلاء لهم كلام كثير في ذمه على مادخل فيه من الفلسفة ولعلماء الاندلس في ذلك مجموع كبير ولهذا ماسلك خلفه ابن عربى وابن سبعين كان ابن سبعين في كتاب اليد وغيره يجعل الغاية هو المقرب وهو نظير المقرب في كلام أبى حامد ويجعل المراتب خمسة : أدناها الفقيه ثم المتكلم ثم الفيلسوف ثم الصوفي الفيلسوف وهو السالك ثم المحقق. وابن عربى له أربع عقائد : الاولى عقيدة أبى المعالى واتباعه مجردة عن حجة. والثانية تلك العقيدة مبرهنة بحججها الكلامية. والثالثة عقيدة الفلاسفة ابن سينا وأمثاله الذين يفرقون بين الواجب والممكن .والرابعة التحقيق الذى وصل اليه وهو ان الوجود واحد وهؤلاء يسلكون مسلك الفلاسفة الذى ذكره أبو حامد في ميزان العمل وهو أن الفاضل له ثلاث عقائد عقيدة مع العوام يعيش بها في الدنيا كالفقه مثلا .وعقيدة مع الطلبة يدرسها لهم كالكلام .والثالثة لا يطلع عليه أحد الا الخواص ، ولهذا صنف الكتب المضنون بها على غير أهلها وهي فلسفة محضة سلك فيها مسلك ابن سينا. ولهذا يجعل اللوح المحفوظ هو النفس الفلكية الى أمور أخرى قد بسطت في غير هذا الموضع ذكرنا ألفاظه بعينها في مواضع منها الرد على ابن سبعين وأهل الوحدة وغير ذلك فانه لما انتشر الكلام في مذهب أهل الوحدة وكنت لما دخلت الى مصر بسببهم ثم صرت في الاسكندرية جاءنى من فضلائهم من يعرف حقيقة أمرهم وقال ان كنت تشرح لنا كلام هؤلاء وتبين مقصودهم ثم تبطله والا فنحن لانقبل منك كما لانقبل من غيرك فان هؤلاء لايفهمون كلامهم فقلت نعم أنا

---

(١) يشير الى كتاب الشفا لابن سينا

أشرح لك ماشئت من كلامهم مثل كتاب اليد والاحاطة لابن سبعين وغير ذلك فقال لى لا ولكن لوح الاصالة فان هذا يعرفون وهوفي رءوسهم فقلت له هاته فلما أحضره شرحته له شرحا بيناً حتى تبين له حقيقة الامر، وان هؤلاء ينتهى أمرهم الى الوجود المطلق فقال هذا حق وذكر لى انه تناظر اثنان متفلسف سبعيني ومتكلم على مذهب ابن التومرت فقال ذاك نحن شيخنا يقول بالوجود المطلق فقال الآخر ونحن كذلك اماما قلت له والمطلق في الاذهان لا في الاعيان فتبين له ذلك وأخذ يصنف في الرد عليهم ولم أكن أظن ابن التومرت يقول بالوجود المطلق حتى وقفت بعد هذا على كلامه المبسوط فوجدته كذلك .وأنه كان يقول الحق حقان : الحق المقيد والحق المطلق وهو الرب وتبينت انه لايثبت شيئاً من الصفات ولا مايتميز به موجود عن موجود فان ذلك يقيد شيئاً من الاطلاق وسألنى هذا عما يحتجون به من الحديث مثل الحديث المذكور في العقل وأن أول ما خلق الله تعالى العقل، ومثل حديث كنت كنزاً لا أعرف فأحببت أن أعرف وغير ذلك فكتبت له جواباً مبسوطاً وذكرت ان هذه الاحاديث موضوعة وأبو حامد وهؤلاء لايعتمدون على هذا وقد نقلوه اما من رسائل اخوان الصفا أو من كلام أبي حيان التوحيدى أو من نحو ذلك وهؤلاء في الحقيقة هم من جنس الباطنية الاسماعيلية لكن أولئك يتظاهرون بالتشيع والرفض وهؤلاء غالبهم يميلون الى التشيع ويفضلون عليا ومنهم من يفضله بالعلم الباطن ويفضل أبا بكر في العلم الظاهر كأبى الحسن الحرلى [١] وفيه نوع من مذهب الباطنية الاسماعيلية لكن لا يقول بوحدة الوجود مثل هؤلاء ولا اظنه يفضل غير الأنبياء عليهم فهو أنبل من هؤلاء من وجه لكنه ضعيف المعرفة بالحديث والسير وكلام الصحابة والتابعين فيبنى له أصولا على أحاديث موضوعة ويخرج كلامه من تصوف وعقليات وحقائق وهو خير من هؤلاء وفي كلامه اشياء حسنة صحيحة واشياء كثيرة باطلة والله سبحانه وتعالى اعلم ✡ الثانى أن صلاح النفس في محبة المعلوم المعبود وهي عبادته لافي مجرد علم ليس فيه ذلك وهم جعلوا غاية النفس التشبه بالله على حسب الطاقة وكذلك جعلوا حركة الفلك للتشبه به وهذا ضلال عظيم فان جنس التشبه يكون بين اثنين مقصودهما واحد كالامام والمؤتم به

---

[١] لعله الشاذلى

وليس الامر هنا كذلك بل الرب هو معبود لذاته وهو يعرف نفسه ويحب نفسه ويثنى على نفسه والعبد نجاته وسعادته في ان يعرف ربه ويحبه ويثنى عليه والتشبه به ان يكون هو محبوبا لنفسه مثنيا بنفسه على نفسه وهذا فساد في حقه وضار به والقوم أضل من اليهود والنصارى بل ومن مشركى العرب فانه ليس الرب عندهم لا رب العالمين وخالقهم ولا الههم ومعبودهم. ومشركو العرب كانوا يقرون بانه خالق كل شيء وما سواه مخلوق له محدث وهؤلاء الضالون لا يعترفون بذلك كما قد بسط في غير هذا الموضع. والوجه الثالث انهم يظنون ان ما عندهم هو علم بالله وليس كذلك بل هو جهل. والرازى لما شاركهم في بعض أمورهم صار حائراً معترفا بذلك لما ذكر اقسام اللذات وان اللذة العقلية هي الحق وهى لذة العلم وأن شرف العلم بشرف المعلوم وهو الرب وأن العلم به ثلاث مقامات: العلم بالذات والصفات والافعال. قال وعلى كل مقام عقدة فالعلم بالذات فيه أن وجود الذات هل هو زائد عليها أم لا ؟ وفي الصفات هل الصفات زائدة على الذات أم لا؟ وفي الافعال هل الفعل مقارن أم لا ؟ ثم قال ومن الذى وصل الى هذا الباب او من الذى ذاق من هذا الشراب

نهاية اقدام العقول عقال ✡ واكثر سعى العالمين ضلال

وارواحنا في وحشة من جسومنا ✡ وغاية دنيانا اذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ✡ سوى ان جمعنا فيه قيل وقال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ورأيت اقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الاثبات الرحمن على العرش استوى اليه يصعد الكلم الطيب واقرأ في النفى ليس كمثله شيء ولا يحيطون به علما ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى. فالسعادة هو ان يكون العلم المطلوب هو العلم بالله وما يقرب اليه ويعلم ان السعادة في ان يكون الله هو المحبوب المراد المقصود ولا يحتجب بالعلم عن المعلوم كما قال ذلك الشيخ العارف للغزالى لما قال له اخلصت اربعين صباحا فلم يتفجر لى شيء فقال يا بنى أنت اخلصت للحكمة لم يكن الله هو مرادك والاخلاص لله ان يكون الله هو مقصود المرء ومراده فحينئذ تتفجر ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه كما في حديث مكحول عن النبى ﷺ « من أخلص لله اربعين صباحا تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» ولهذا تقول العامة قيمة كل امرىء ما يحسن والعارفون

يقولون قيمة كل امرىء ما يطلب وفي الاسرائيليات يقول الله تعالى «أني لا انظر الى كلام الحكيم وانما انظر الى همته» فالنفس لها قوة الارادة مع الشعور وهما متلازمان؛ وهؤلاء لحظوا شعورها واعرضوا عن ارادتها وهى تتقوم بمرادها لا بمجرد ما تشعر به فانها تشعر بالخير والشر والنافع والضار ولكن لا يجوز ان يكون مرادها ومحبوبها الا ما يصلحها وينفعها وهو الاله المعبود الذى لا يستحق العبادة غيره وهو الله لا اله الا هو سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ثم مع هذا يكون العلم حقا وهو ما اخبرت به الرسل فالعلم الحق هو ما اخبروا به والارادة النافعة ارادة ما امروا به وذلك عبادة الله وحده لا شريك له فهذا هو السعادة وهو الذى اتفقت عليه الانبياء كلهم فكلهم دعوا الى عبادة الله وحده لا شريك له وذلك انما يكون بتصديق رسله وطاعتهم فلهذا كانت السعادة متضمنة لهذين الاصلين الاسلام والايمان عبادة الله وحده وتصديق رسله وهو تحقيق شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله قال تعالى (فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين) قال ابو العالية هما خصلتان يسأل عنهما كل احد يقال لمن كنت تعبد وبماذا أجبت المرسلين وقد بسط هذا في غير هذا الموضع والله اعلم . [١] ☆

وأتبع لها اسعد الناس في الدنيا والآخرة وخير القرون القرن الذين شاهدوه مؤمنين به وبما يقول اذ كانوا أعرف الناس بالفرق بين الحق الذى جاءبه وبين ما يخالفه واعظم محبة لما جاءبه وبغضا لما خالفه وأعظم جهادا عليه فكانوا افضل ممن بعدهم في العلم والدين والجهاد اكمل علما بالحق والباطل وأعظم محبة للحق وبغضا للباطل وأصبر على متابعة الحق واحتمال الاذى فيه وموالاة أهله ومعاداة اعدائه واتصل بهم ذلك الى القرن الثانى والثالث فظهر ما بعث به من الهدى ودين الحق على كل دين في مشارق الارض ومغاربها كما قال ﷺ « زويت لى الارض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك امتى ما زوى لى منها» وكان لابد ان يظهر في امته ما سبق به القدر واقتضته نشأة البشر من نوع من التفرق والاختلاف كما كان فيما غبر لكن كانت امته خير الامم فكان الخير فيهم اكثر منه في غيرهم والشر فيهم أقل منه في غيرهم كما يعرف ذلك من تأمل حالهم وحال

(١) هنا بياض في الاصل مقدار ثلاثة أسطر

بني اسرائيل قبلهم وبنو اسرائيل هم الذين قال الله فيهم [ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الامر فما اختلفوا الا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون انهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين] وقال لهم موسى [ياقوم اذ كروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين] فاذا كان بنو اسرائيل الذين فضلهم على العالمين في تلك الازمان وكانت هذه الامة خيراً منهم كانوا خيراً من غيرهم بطريق الاولى فكان مما خصهم الله به أنه لا يعذبهم بعذاب عام لا من السماء ولا بأيدى الخلق فلا يهلكهم بسنة عامة ولا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم كما كان يسلط على بنى اسرائيل عدواً يجتاحهم حتى لا يبقى لهم دين قائم منصور ومن لا يقبل منهم بقى مقهوراً تحت حكم غيرهم بل لا تزال في هذه الامة طائفة ظاهرة على الحق الى يوم القيامة ولا يجتمعون على ضلالة فلا تزال فيهم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ☆ وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال «سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى عن واحدة سألت ربى ان لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم فاعطانيها وسألته أن لا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» ☆ وهذا البأس نوعان أحدهما الفتن التى تجرى عليهم والفتنة ترد على القلوب فلا تعرف الحق ولا تقصده فيؤذى بعضهم بعضاً بالا قوال و الاعمال والثانى أن يعتدى أهل الباطل منهم على أهل الحق منهم فيكون ذلك محنة في حقهم يكفر الله بها سيآتهم ويرفع بالصبر عليها درجاتهم وبصبرهم وتقواهم لا يضرهم كيد الظالمين لهم بل تكون العاقبة للتقوى ويكونون من أولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وجند الله الغالبين اذا كانوا من أهل الصبر واليقين فانه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين والمتعدى منهم اما أن يتوب الله عليه كما تاب على أخوة يوسف بعد عدوانهم عليه وآثره الله عليهم بصبره وتقواه كما قال لما قالوا [أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا أنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم

الراحمين] وكما فعل سبحانه بقادة الاحزاب الذين كانوا عدواً لله وللمؤمنين وقال فيهم (لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) ثم قال (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم) وفي هذا ما دل على أن الشخص قد يكون عدوا لله ثم يصير وليا لله موالياالله ورسوله والمؤمنين فهو سبحانه يتوب على من تاب ومن لم يتب فالى الله ايابه وعليه حسابه وعلى المؤمنين أن يفعلوا معه ومع غيره ماأمر الله به ورسوله من قصد نصيحتهم واخراجهم من الظلمات الى النور وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر كماأمر اللهورسوله لا اتباعا للظن وما تهوى الانفس حتى يكون من خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله وهؤلاء يعلمون الحق ويقصدونه ويرحمون الخلق وهم أهل صدق وعدل أعمالهم خالصة لله صواب موافقة لامر الله كما قال تعالى [ليبلوكم أيكم أحسن عملا] قال الفضيل ابن عياض وغيره أخلصه وأصوبه والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة وهو كما قالوا فان هذين الاصلين هما دين الاسلام الذى ارتضاه الله كما قال (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا) فالذى أسلم وجههلله هو الذى يخلص نيته لله ويبتغى بعمله وجه اللهوالمحسن هوالذى يحسن عمله فيعمل الحسنات والحسنات هي العمل الصالح والعمل الصالح هو ما أمر الله به ورسوله من واجب ومستحب فماليس من هذا ولا هذا ليس من الحسنات والعمل الصالح فلا يكون فاعله محسنا. وكذلك قال لمن قال [لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى قال تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون] وقد قال تعالى (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) والاسلام هو دين جميع الانبياء والمرسلين ومن اتبعهم من الامم كما أخبر الله بنحو ذلك في غير موضع من كتابه فأخبر عن نوح وابراهيم واسرائيل انهم كانوا مسلمين وكذلك عن اتباع موسى وعيسى وغيرهم. والاسلام هو أن يستسلم لله لا لغيره فيعبد الله ولا يشرك به شيئاً ويتوكل عليه وحده ويرجوه ويخافه وحده ويحب الله المحبة التامة لا يحب مخلوقا كحبه لله بل يحب لله ويبغض لله ويوالى لله ويعادى لله فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلماً ومن عبد مع الله

غيره لم يكن مسلماً وانما تكون عبادته بطاعته وهو طاعة رسله من يطع الرسول فقد أطاع الله فكل رسول بعث بشريعة فالعمل بها في وقتها هو دين الاسلام واما ما بدل منها فليس من دين الاسلام واذا نسخ منها ما نسخ لم يبق من دين الاسلام كاستقبال بيت المقدس في أول الهجرة بضعة عشر شهراً ثم الامر باستقبال الكعبة وكلاهما في وقته دين الاسلام فبعد النسخ لم يبق دين الاسلام الا أن يولى المصلى وجهه شطر المسجد الحرام فمن قصد أن يصلى الى غير تلك الجهة لم يكن على دين الاسلام لانه يريد أن يعبد الله بما لم يأمره وهكذا كل بدعة تخالف أمر الرسول اما ان تكون من الدين المبدل الذى ما شرعه الله قط أو من المنسوخ الذى نسخه الله بعد شرعه كالتوجه الى بيت المقدس فلهذا كانت السنة في الاسلام كالاسلام في الدين هو الوسط كما قد شرح هذا في غير موضع. والمقصود هنا أنه اذا رد ما تنازع فيه الناس الى الله والرسول سواء كان في الفروع أو الاصول كان ذلك خيرا وأحمد عاقبة كما قال تعالى (ياايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وقال تعالى [كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم] وفي صحيح مسلم عن عائشة «ان النبي ﷺ كان اذا قام من الليل يقول اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدى من تشاء الى صراط مستقيم» وهذه حال اهل العلم والحق والسنة يعرفون الحق الذى جاء به الرسول وهو الذى اتفق عليه صريح المعقول وصحيح المنقول ويدعون اليه ويأمرون به نصحا للعباد وبيانا للهدى والسداد ومن خالف ذلك لم يكن لهم معه هوى ولم يحكموا عليه بالجهل بل حكمه الى الله والرسول فمنهم من يكفره الرسول ومنهم من يجعله من أهل الفسق او العصيان ومنهم من يعذره ويجعله من اهل الخطأ المغفور والمجتهد من هؤلاء المأمور بالاجتهاد يجعل له اجرا على فعل ما أمر به من الاجتهاد وخطؤه مغفور له كما دل الكتاب وامة

اهل البدع فهم أهل اهواء وشبهات يتبعون اهواءهم فيما يحبونه ويبغضونه ويحكمون بالظن والشبه فهم يتبعون الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى فكل فريق منهم قد اصل لنفسه أصل دين وضعه اما برأيه وقياسه الذى يسميه عقليات واما بذوقه وهواه الذى يسميه ذوقيات واما بما يتأوله من القرآن ويحرف فيه الكلم عن مواضعه ويقول انه انما يتبع القرآن كالخوارج واما بما يدعيه من الحديث والسنة ويكون كذبا وضعيفاً كما يدعيه الروافض من النص والآيات وكثير ممن يكون قد وضع دينه برأيه أو ذوقه يحتج من القرآن بما يتأوله على غير تأويله ويجعل ذلك حجة لاعمدة وعمدته في الباطن على رأيه كالجهمية والمعتزلة في الصفات والافعال بخلاف مسائل لوعد والوعيد فانهم قد يقصدون متابعة النص فالبدع نوعان: نوع كان قصد أهلها متابعة النص والرسول لكن غلطوا في فهم المنصوص وكذبوا بما يخالف ظنهم من الحديث ومعاني الآيات كالخوارج وكذلك الشيعة المسلمين بخلاف من كان منافقاً زنديقاً يظهر التشيع وهو في الباطن لا يعتقد الاسلام وكذلك المرجئة قصدوا اتباع الامر والنهى وتصديق الوعيد مع الوعد. ولهذا قال عبد الله بن المبارك ويوسف بن اسباط وغيرهما ان الثنتين وسبعين فرقة أصولها أربعة: الشيعة والخوارج والمرجئة والقدرية. واما الجهمية النافية للصفات فلم يكن أصل دينهم اتباع الكتاب والرسول فانه ليس في الكتاب والسنة نص واحد يدل على قولهم بل نصوص الكتاب والسنة متظاهرة بخلاف قولهم وانما يدعون التمسك بالرأى المعقول وقد بسط القول على بيان فساد حججهم العقلية وما يدعيه بعضهم من السمعيات وبين أن المعقول الصريح موافق للمنقول الصحيح في بطلان قولهم لا مخالف له. والمقصود هنا الكلام في افعال الرب فان الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم صاروا يسلكون فيه بأصل أصل بالمعقول ويجعلون العمدة وخاضوا في لوازم القدر برأيهم المحض فتفرقوا فيه تفرقا عظيما وظهر بذلك حكمة نهى النبي ﷺ لامته عن التنازع في القدر مع أن المتنازعين كان كل منهما يدلى بآية لكن كان ذلك يفضى الى ايمان كل طائفة ببعض الكتاب دون البعض فكيف اذا كان المتنازعون عمدتهم رأيهم والحديث رواه أهل المسند والسنن مفصلا ورواه مسلم مجملا عن عبد الله بن رباح الانصارى أن عبد الله ابن عمرو قال «هجرت الى رسول الله ﷺ يوما فسمع صوت رجلين اختلفا في آية

خرج علينا ﷺ يعرف في وجهه الغضب فقال انما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب» . وقال الامام أحمد في المسند حدثنا أبو معاوية ثنا داود بن أبى هند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال« خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر قال فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب قال فقال مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض بهذا هلك من كان قبلكم قال فما غبطت نفسى بمجلس فيه رسول الله ﷺ لم أشهده ما غبطت نفسى بذلك المجلس انى لم أشهده » وهذا حديث محفوظ من رواية عمرو بن شعيب وقد رواه ابن ماجه من حديث أبى معاوية وكتب أحمد في رسالته الى المتوكل هذا الحديث وجعل يقول في مناظرته لهم يوم الدار في المحنة انا قد نهينا عن أن نضرب كتاب الله بعضه ببعض وروى هذا المعنى الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حديث حسن غريب قال وفي الباب الذى فررت منه فانه كما قيل ان له حياة وعلما وقدرة وارادة وغضبا ورضى ونحو ذلك . قلت هذا يستلزم أن يكون موافقا للمخلوق في مسمى هذه الاسماء وهذا تشبيه فقيل لك هذا يلزم مثله في الذات فان قيل بتعطيل الذات فذلك يستلزم ما فررت منه من ثبوت جسم قديم حامل للاعراض والحركات واذا كان هذا لازما لك على تقدير نفى الذات كما ثبت أنه لازم على تقدير اثباتها كان لازما على تقدير النقيضين النفى والاثبات وما كان كذلك لم يكن نفيه واما نحن فقد بينا أن اللازم على تقدير اثباتها لا محذور فيه وانما المحذور لازم على تقدير نفيها وهذا قد بسط في غير هذا الموضع . والمقصود هنا أنه يقال لهؤلاء الذين ينفون الحكمة ثم الارادة ثم الفعل في الافعال نظير ماقيل لاولئك في الصفات ويجعل مبدأ الكلام من الارادة في الموضعين فيقال لمن أثبتها ونفى الحكمة من المنتسبين الى اثبات القدر والمنتسبين الى السنة والجماعة لم نفيتم الحكمة فاذا قالوا لانا لا نعرف من يفعل لحكمة الا من يفعل لغرض يعود اليه وهذا لا يكون الا فيمن يجوز عليه اللذة والالم والانتفاع والضرر والله منزه عن ذلك فيقال لهم ماقاله نفاة الارادة وأنتم لا تعقلون ارادة الا فيمن يجوز عليه اللذة والالم والانتفاع والضرر وقد قلتم ان الله تعالى مريد فاما أن تطردوا أصلكم النافي فتنفوا الارادة أو المثبت فتثبتوا اللذة والا فما الفرق فاذا قال نفاة الارادة فلهذا نفينا الارادة كما رجحه الرازى في المطالب العالية واحتج به للفلاسفة قيل لهم فانفوا ان يكون فاعلا

فانكم لا تعلمون فاعلا غير مقهور الا بارادة ولا يعقلون ما يفعل ابتداء الا بارادة أو فاعلا حياء الا بارادة أو فاعلا مطلقاً الا بارادة فان قال اتباع ارسطو فلهذا قلنا انه لايفعل شيئاً وليس بموجب بذاته شيئاً لكن قلنا إن الفلك يتشبه به أو قال من هو أعظم تعطيلا منهم فلهذا نفينا الاول بالكلية ولم نثبت علة تفعل ولا علة يتشبه بها قيل لهم فهذه الحوادث مشهودة وحركة الكواكب والشمس والقمر مشهودة فهذه الحركات الحادثة وغيرها من الحوادث مثل السحاب والمطر والنبات والحيوان والمعدن وغير ذلك مما يشهد حدوثه أحدث بنفسه من غير أن يحدثه محدث قديم أو لا بد للحوادث من محدث قديم فان قالوا بل حدث كل حادث بنفسه من غير أن يحدثه أحد كان هذا ظاهر الفساد يعلم بضرورة العقل انه في غاية المكابرة ونهاية السفسطة مع لزوم مافروا منه فانهم فروا من أن يكون ثم فاعل محدث وقد اثبتوا فاعلا محدثاً لكن جعلوا كل حادث هو يحدث نفسه ويفعلها فجعلوا ماليس بشيء يجعل الشيء وجعلوا المعدوم يحدث الموجود فلزمهم مافروا منه من اثبات فاعل مع مالزمهم من الكفر العظيم وغاية الجهل وغاية فساد العقل وان قالوا بل كل محدث يحدثه محدث وللمحدث محدث قيل لهم هذا أيضاً ممتنع في صريح العقل فان التسلسل في الفاعل ممتنع بصريح العقل واتفاق العقلاء فانه كلما كثر مايقدر انه حادث كان أحوج الى القديم فليس في تقدير حوادث لا تتناهي مايوجب استغناءها عن القديم بل اذا كان المحدث الواحد لابد له من محدث غيره فمجموع الحوادث أولى بالافتقار الى محدث لها خارج عنها كلها فان المحدث لمجموعها يمتنع أن يكون واحداً منها فانه يلزم أن يحدث نفسه و يمتنع أن يكون المجموع أحدث المجموع فان الشيء لا يحدث نفسه والمجموع هي الآحاد الحادثة وهيئتها الاجتماعية وتلك الهيئة محتاجة الى المجموع الذى هو كل واحد واحد والمجموع ليس الا الآحاد واجتماعها وكل ذلك مفتقر الى محدث مباين لها فلا بد للحوادث من قديم ليس بحادث ثم يقال لهم اذا قدر تسلسل الفاعلين وان ما كان محدثاً له محدث وهلم جرا فهذا فيه اثبات مافررتم منه وهو أن هذا المحدث فعل هذا وهذا فعل هذا لكن أثبتم مالا يتناهي من ذلك في آن واحد فركبتم ما فررتم منه مع لزوم هذه الجهالات التى تقتضى غاية فساد العقل والكفر بالسمع واذا كان المحذور يلزمهم على تقدير أن يكون

الحادث أحدث نفسه أو أحدث كل حادث حادثاً آخر مع فساد هذين تبين أنه لاينفعه انكار القديم وان قال بل أقر بالمحدث القديم قيل فقد أقررت بفعل القديم للمحدث واذا ثبت أن القديم فعل المحدث وأنت لاتعلم فاعلا الا لجلب منفعة أو دفع مضرة قيل له فما كان جوابك عن هـذا كان جواباً عن كونه يفعل بارادته وقيل لمثبت الارادة ما كان جوابك عن هذا كان جواباً عن حكمته فقد يبين أن من نفى الحكمة فلا بد أن ينقض قوله ويلزمه مع التناقض نفى الصانع وهومع نفى الصانع تناقضه أشد ،والمحذور الذى فر منه ألزم فلم يغن عنه فراره من اثبات الحكمة الا زيادة الجهل والشر وهكذا يقال لمن نفى حبه ورضاه وبغضه وسخطه وهذا مقام شريف من تدبره وتصوره تبين له أنه لابد من الاقرار بما جاء به الرسول وأنه هو الذى يوافق صريح المعقول وأن من خالفه فهو ممن لايسمع ولا يعقل وهـو أسوأ حالا ممن فر من الملك العادل الذى يلزمه بطعام امرأته وأولاده والزكاة الشرعيـة الى بلاد ملكها ظالم ألزمه باخراج أضعاف ذلك لخنازيره وكلابه مع قلة الكسب في بلاده وبمنزلة من فر من معاشرة أقوام أهل صلاح وعدل ألزموه مايلزم واحداً منهم من الامور المشتركة اذ كانوا مقيمين أو مسافرين أن يخرج مثلما يخرجه الواحد منهم فـكره هذا وفر الى بلد فألزمه أهلهـا بان ينفق عليهم ويخدمهم والا قتلوه وما أمكنه الهرب منهم فمن فر من حكم الله ورسوله أمرا وخبرا أو ارتد عن الاسلام أو بعض شرائعه خوفاً من محذور في عقـله أو عمله أو دينه أو دنياه كان مايصيبه من الشر أضعاف ماظنه شراً في اتباع الرسول قال تعالى (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به و يريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً واذا قيل لهم تعالوا الى ماأنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً فـكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان أردنا الا احساناً وتوفيقاً أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قـولا بليغاً وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممـا قضيت ويسلموا تسليما) ☆

فصل

ويقال لهم لم فررتم من اثبات المحبة والحكمة والارادة والفعل

فان قالوا لان ذلك لا يعقل الا في حق من يلتذ ويتألم وينتفع ويتضرر والله منزه عن ذلك قيل للفلاسفة فأنتم تثبتون انه مستلذ مبتهج فهذا غير محذور عندكم وان قلتم لان ذلك يستلزم لذة حادثة قيل لكم في حلول الحوادث قولان وليس معكم في النفى الا مايدل على نفى الصفات مطلقاً كدليل التركيب وقد عرف فساده من وجوه ✡ وقيل للجهمية والمعتزلة ان أردتم ان ذلك يقتضى حاجته الى العباد وانهم يضرونه أوينفعونه فهذا ليس بلازم ولهذا كان الله منزهاً عن ذلك كما قال النبى صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الالهى « ياعبادى انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى » فالله أجل من أن يحتاج الى عباده لينفعوه أو يخاف منهم أن يضروه واذا كان المخلوق العزيز لايتمكن غيره من قهره فمن له العزة جميعاً وكل عزة فمن عزته أبعد عن ذلك وكذلك الحكيم المخلوق اذا كان لايفعل بنفسه مايضرها فالخالق جل جلاله أولى أن لا يفعل ذلك لو كان ممكناً فكيف اذا كان ممتنعاً قال تعالى [ان الذين يسارعون في الكفر لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب مهين] وقال تعالى [وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات مارزقناكم وماظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فقد بين أن العصاة لا يضرونه ولا يظلمونه كعصاة المخلوقين فان مماليك السيد وجند الملك وأعوان الرجل وشركاءه اذا عصوه فيما يأمرهم ويطلبه منهم فقد يحصل له بذلك ضرر في نفسه أو ماله أو عرضه أو غير ذلك وقد يكون ذلك ظلما له والله تعالى لايقدر أحد على أن يضره ولا يظلمه وان كان الكافر على ربه ظهيراً فمظاهرته على ربه ومعاداته له ومشاقته ومحاربته عادت عليه بضرره وظلمه لنفسه وعقوبته في الدنيا والآخرة واما النفع فهو سبحانه غنى عن الخلق لايستطيعون نفعه فينفعوه فما أمرهم به اذا لم يفعلوه لم يضروه بذلك كما قال تعالى [ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين] وقل (ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن

كفر فان ربى غنى كريم) وقال [ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم ولا تذروازرة وزر أخرى] ✡ وان أردتم انه سبحانه لا يريد ولا يفعل مايفرح به ويسر به ويجعل عباده المؤمنين يفعلون مايفرح به فمن أين لكم هذا وان سمى هذا لذة فالالفاظ المجملة التى قد يفهم منها معنى فاسد اذا لم يرد في كلام الشارع لم نكن محتاجين الى اطلاقها كلفظ العشق وان أريد به المحبة التامة وقد أطلق بعضهم على الله أنه يعشق ويعشق وأراد به أنه يحب ويحب محبة تامة فالمعنى صحيح والمعنى فيه نزاع واللذة يفهم منها لذة الاكل والشرب والجماع كما يفهم من العشق المحبة الفاسدة والتصور الفاسد ونحـو ذلك مما يجب تنزيه الله عنه فان الذين قالوا لا يجـوز وصفه بأنه يعشق منهم من قال لان العشق هو الافراط في المحبة والله تعـالى لا افراط في حبـه ومنهم من قال لان العشق لا يكون الا مع فساد التصور للمعشوق والافع صحة التصور لا يحصل افراط في الحب وهذا المعنى لا يمدح فاعله فان من تصور في الله ما هو منزه عنه فهو مذموم على تصوره ولوازم تصوره ومنهم من قال لان الشرع لم يرد بهـذا اللفظ وفيه ابهام وايهام فلا يطلق وهذا أقرب. وآخرون ينكرون محبـة الله وأن يحب ويحب كالمعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الاشعرية وغيرهم فهؤلاء يكون الكلام معهم في كونه يحب ويحب كما نطق به الكتاب والسنة في مثل قوله (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) لا في لفظ العشق كذلك لفظ اللذة فيه ابهام وايهام والشرع لم يرد باطلاقه ولكن استفـاض عن النبى ﷺ ان الله يفرح بتوبة التائب أعظم من فرح من وجد راحلته بعـد ان فقدها وأيس منها في مفازة مهلكة ويئس من الحياة والنجاة من تلك الارض ومن وجـود مركبه ومطعمه ومشربه ثم وجد ذلك بعـد اليأس قال النبى ﷺ «فكيف تجدون فرحه بدابته قالوا عظيما يا رسول الله قال لله أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته» (١) وقد نطق الكتاب والسنة بانه يحب المتقين والمحسنين والصابرين والتوابين والمتطهرين والذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وأنه يرضى عن المؤمنين فاذا كنتم نفيتم حقيقة الحب والرضى لان ذلك يستلزم اللذة بحصول المحبوب قيل لكم ان كان

---

(١) هذا الحديث ذكره بمعناه على سبيل الحكاية لمعناه لا بلفظه تنبه

هذا لازما فلازم الحق حق وان لم يكن لازما بطل نفيكم والفرح في الانسان هو لذة تحصل في قلبه بحصول محبوبه ✡ وقد جاء أيضا وصفه تعالى بأنه يسر في الاثر والكتب المتقدمة وهو مثل لفظ الفرح واما الضحك فكثير في الاحاديث ولفظ البشبشة جاء أيضا انه يتبشبش للداخل الى المسجد كما يتبشبش اهل الغائب بغائبهم اذا قدم وجاء في الكتاب والسنة ما يلائم ذلك ويناسبه شيء كثير فيقال لمن نفى ذلك لم نفيته ولم نفيت هذا المعنى وهو وصف كمال لا نقص فيه ومن يتصف به اكمل ممن لا يتصف به وانما النقص فيه أن يحتاج فيه الى غيره والله تعالى لا يحتاج الى أحد في شيء بل هو فعال لما يريد لكن القدرية قد يشكل هذا على قولهم فان العباد عندهم مستقلون باحداث فعلهم ولكن هذا مثل اجابة دعائهم واثابتهم على افعالهم ونحو ذلك مما فيه إن افعالهم تقتضى اموراً يفعلها هو وهم لا يفرون من كونه يجب عليه أشياء وانه يفعل ما يجب عليه فيكون العبد قد جعله مريدا لما لم يكن مريدا له وحينئذ فاذا كان العباد يجعلونه مريداً عندهم فالقول في لوازم الارادة كالقول فيها وهذا اما ان يدل على فساد قولهم في القدر وهو الصواب واما ان يقولوا ان مثل ذلك جائز على الله وجائز ان يجعله العبد مريدا بدون مشيئته لذلك وبدون أن يكون هو الذى شاء ذلك من العبد فيلزمهم في لوازمها ما يلزمهم فيها وأما على قول المثبتة فكلما يحدث فهو بمشيئته وقدرته فما جعله أحد مريداً فاعلا بل هو الذى يحدث كل شيء ويجعل بعض الاشياء سبباً لبعض ✡ فان قال نافي المحبة والفرح والحكمة ونحو ذلك هذا يستلزم حاجته الى المخلوق ظهر فساد قوله وان قيل ان ذلك ان كان وصف كمال فقد كان فاقدا له وان كان نقصا فهو منزه عن النقص قيل له هو كمال حين اقتضت الحكمة حدوثه وحدوثه قبل ذلك قد يكون نقصاً في الحكمة أو يكون ممتنعاً غير ممكن كما يقال في نظائر ذلك وتمام البسط في هذا الاصل مذكور في غير هذا الموضع. والمقصود هنا التنبيه على لوازم ذلك فان نفاة ذلك نفوا ان يكون في الممكن فعل ينزه عنه فليس عندهم فعل يحسن منه وفعل ينزه عنه بل عنده تقسيم الافعال افعال الرب والعبد الى حسن وقبيح لا يكون عندهم الا بالشرع وذلك لا يرجع الى صفة في الفعل بل الشارع عندهم يرجح مثلا على مثل والحسن والقبيح انما يعقل اذا كان الحسن ملائما للفاعل وهو الذى يلتذ به والقبيح ينافيه وهو الذى يتألم به والحسن

والقبح في أفعال العباد بهذا الاعتبار متفق على جوازه وانما النزاع في كونه يتعلق به المدح والثواب وهذا في الحقيقة يرجع الى الالم واللذة فلهذا سلم الرازى في آخر عمره ماذكره في كتاب(١) ان الحسن والقبح العقليين ثابتان في أفعال العباد دون الرب اذا كان معناهما يؤول الى اللذة والالم والمعتزلة اثبتوا حسناً وقبحاً عقليين في فعل القادر مطلقاً سواء كان قديما أو محدثا وقال الحسن ماللقادر فعله والقبيح ماليس له فعله وقالوا ان ذلك ثابت بدون كونه مستلزما للذة والالم كما ادعوا ثبوت حكمته للفاعل القادر ولاتعود اليه ولا يستلزم اللذة فادعوا ماهو خلاف الموجود والمعقول ولهذا تسلط عليهم النفاة فكان حجتهم عليهم أن يثبتوا أن هذا أمر لايعقل الامع اللذة والالم ثم يقولون وذلك في حق الله محال فحجتهم مبنية على مقدمتين ان الحسن والقبح والحكمة مستلزم للذة والالم وذلك في حق الله محال والمعتزلة منعوا المقدمة الاولى فغلبتوا معهم والمقدمة الثانية جعلوها محل وفاق وهي مناسبة لاصول المعتزلة لكونهم ينفون الصفات فنفي الفعل القائم به أولى على أصلهم ونفي مقتضى ذلك أولى على أصلهم وهذه المقدمة التى اشتركوا فيها تقتضى نفي كونه مريدا ونفي كونه فاعلا ونفي حدوث شئ من الحوادث كما أن نفي الصفات يقتضى نفي قائم بنفسه موصوف بالصفات فنفي اتصافه بالصفات يستلزم أن لايكون في الوجود شئ يتصف بصفة ونفي فعله واحداثه يقتضى أن لايكون في الوجود شئ حادث فكان مانفوه مستلزماً نهاية السفسطة وجحد الحقائق ولهذا كان من وافق هؤلاء على نفي محبة الله لما أمر به من الصوفية يلزمهم تعطيل الامر والنهى وأن لاينفي الا القدر العام وقد التزم ذلك طائفة من محققيهم وكان نفي الصفات يستلزم نفي الصفات وان لايكون موجودان أحدهما واجب قديم خالق والاخر ممكن أو محدث أو مخلوق وهكذا التزمه طائفة من محققيهم وهم القائلون بوحدة الوجود وهم يقولون بكون العبد أولا يشهد الفرق بين الطاعة والمعصية ثم يشهد طاعة بلامعصية ثم لاطاعة ولامعصية بل الوجود واحد فالذين اثبتوا الحسن والقبح في الافعال وان لها صفات تقتضى ذلك قالوا انما قاله جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم قال ابو الخطاب هذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين لكن تناقضوا فلم يثبتوا لازم ذلك فتسلط عليهم النفاة والنفاة لما نفوا الحسن والقبح في نفس الامر قالوا لافرق

(١) هنا بياض في الاصل مقدار كلمتين

في مايخلقه الله وما يأمره به بين فعل وفعل ، وليس في نفس الأمر حسن ولاقبيح ولاصفات توجب ذلك،واستثنوا مايوجب اللذة والالم،لكن اعتقدوا ماعتقدته المعتزلة أن هذا لايجوز اثباته في حق الرب،وأما في حق العبد فظنوا أن الافعال لاتقتضى الالذة وألما في الدنيا،وأما كونها مشتملة على صفات تقتضى لذة وألمافي الآخرة فذلك عندهم باطل ولم يمكنهم أن يقولوا أن الشارع يأمر بما فيه لذة مطلقا وينهى عما فيه ألم مطلقا وكون الفعل يقتضى مايوجب اللذة هو عندهم من باب التولد وهم لايقولون به بل قدرة العبد عندهم لاتتعلق الا بفعل في محلها، مع أنها عند شيخهم غير مؤثرة في المقدور،ولايقول ان العبد فاعل في الحقيقة بل كاسب، ولم يذكروا بين الكسب والفعل فرقاً معقولا بل حقيقة قولهم قول جهم ان العبد لاقدرة له ولافعل ولاكسب والله عندهم فاعل فعل العبد وفعله هو نفس مفعوله فصار الرب عندهم فاعلا لكل ما يوجد من أفعال العباد ويلزمهم أن يكون هو الفاعل للقبائح وأن يتصف بها على قولهم أنه يوصف بالصفات الفعلية القائمة بغيره.وقد تناقضوا في هذا الموضع فجعلوه متكلما بكلام يقوم بغيره وجعلوه عادلا ومحسنا بعدل واحسان يقوم بغيره كماقدبسط في غير هذا الموضع وحينئذ فما بقى يمكنهم أن يفرقوا بين ممكن وممكن من جميع الاجناس أى يقولوا هذا يحسن من الرب فعله وهذا ينزه عنه بل يجوز عندهم أن يفعل كل ممكن مقدور والظلم عندهم هو فعل مانهى المره عنه أو التصرف في ملك الغير وكلاهما ممتنع في حق الله، فاما أن يكون هناك أمر ممكن مقدور وهو منزه عنه فهذا عندهم لايجوز. فلهذا جوزوا عليه كل مايمكن ولاينزهونه عن فعل لكونه قبيحاً أو نقصاً أو مذموما ونحو ذلك،بل يعلم مايقع ومالايقع بالخبر أى بخبر الرسول كما علم بخبره المأمور والمحظور والوعد والوعيد والثواب والعقاب أو بالعادة مع أن العادة يجوز انتقاضها عندهم،لكن قالوا قد يعلم بالضرورة عدم مايجوز وقوعه من غير فرق لافي الوجود ولا في العلم بين ماعلموا انتفاءه ومالم يعلموه اذ كان أصل قولهم هو جواز التفريق بين المتماثلين بلاسبب، فالارادة القديمة عندهم ترجح مثلا على مثل بلا سبب في خلق الرب وفي أمره وكذلك عندهم قد يحدث في قلب العبد علما ضرورياً بالفرق بين المتماثلين بلا

سبب فلهذا قالوا ان الشرع لا يأمر وينهى لحكمة، ولم يعتمدوا على المناسبة وقالوا علل الشرع امارات كما قالوا ان افعال العباد امارة على السعادة والشقاء فقط من غير أن يكون في أحد الفعلين معنى يناسب الثواب أو العقاب ومن أثبت المناسبة من متأخريهم كأبي حامد ومن تبعه قالوا عرفنا بالاستقراء أن المأمور به تقترن به مصلحة العباد وهو حصول ماينفعهم، والمنهى عنه تقترن به المفسدة، فاذا وجد الامر والنهى علم وجود قرينه الذى علم بعادة الشرع من غير أن يكون الرب أمر به لتلك المصلحة ولانهى عنه لتلك المفسدة وجمورهم وأئمتهم على أنه يمتنع أن يفعل لحكمة، لكن الآمدى قال ان ذلك جائز غير واجب، فلم يجعله واجبا ولا ممتنعا ☆

فصل

وهذا الاصل دخل في جميع أبواب الدين أصوله وفروعه في خلق الرب لما يخلقه ورزقه واعطائه ومنعه وسائر مايفعله تبارك وتعالى ودخل في أمره ونهيه وجميع مايأمر به وينهى عنه ودخل في المعاد فعندهم يجوز أن يعذب الله جميع أهل العدل والصلاح والدين والانبياء والمرسلين بالعذاب الابدى وأن ينعم جميع أهل الكذب والظلم والفواحش بالنعيم الابدى، لكن بمجرد الخبر عرفنا أنه لا يفعل هذا ويجوز عندهم ن يعذب من لا له ذنب أصلا بالعذاب الابدى، بل هذا واقع عند من يقول بأن اطفال الكفار يعذبون في النار مع آبائهم فانهم كلهم يجوزون تعذيبهم اذ كان عندهم يجوز تعذيب كل حى العذاب المؤبد بلا ذنب ولا غرض ولا حكمة، لكن هل يقع هذا في أطفال المشركين منهم من جزم بوقوعه كالقاضى أبي يعلى ومن وافقه ومنهم من توقف لعدم الدليل السمعى عنده لا لمانع عقلى كالقاضي أبي بكر ونحوه، وليس عندهم من أفعال الرب ماينزهونه عنه أو ماتقتضى الحكمة وجوده بل يجوز عندهم أن يفعل كل ممكن ويجوز أن لا يفعل شيئاً من الخير. لكن اذا اخبر انه يفعل شيئاً أو أنه لا يفعله علم أنه واقع أو غير واقع بالخبر ويجوز عندهم أن يعذب من لا ذنب له ومن هو أبر الناس وأعدلهم وأفضلهم عذاباً مؤبداً لا يعذبه أحداً من العالمين ويجوز ان ينعم شر الخلق من شياطين الانس والجن نعيما في أعلى درجات الجنة لا ينعم مثله لمخلوق، لكن لما أخبر بأن المؤمنين يدخلون

الجنة والكفار يدخلون النار علم مايقع مع انه لو وقع ضده لم يكن بينهما فرق عندهم ثم مع مجيء الخبر فكثير منهم وافقه أما في جنس الفساق مطلقا فيجوزون أن يدخل جميعهم الجنة ويجوزون أن يدخل جميعهم النار، و يجوزون أن يدخل بعضهم كما يقوله من يقوله ممن وافق الشيعة والاشعرية كالقاضى أبي بكر لان القرآن عنده لم يدل على شيء والاخبار أخبار آحاد بزعمه فلا يحتج بها في ذلك ✡

وأما جمهور المنتسبين الى السنة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم فيقطعون بان الله يعذب بعض أهل الذنوب بالنار ويعفو عن بعضهم كما قال تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فهذا فيه الاخبار بانه يغفر ما دون الشرك وانه يغفره لمن يشاء لا لكل أحد لكن هل الجزاء والثواب والعقاب مبنى على الموازنة بالحكمة والعدل كما أخبر الله بوزن الاعمال أو يغفر ويعذب بلا سبب ولا حكمة ولا اعتبار الموازنة فيه لهؤلاء قولان فمن جوز ذلك فانه يجوز عندهم أن يعذب الله من هو من أبر الناس وا كثرهم طاعات وحسنات على سيئة صغيرة عذابا أعظم من عذاب أفسق الفاسقين، ويجوز عندهم أن يغفر لأفسق الفاسقين من المسلمين واعظمهم كبائر كل ذنب ويدخله الجنة ابتداء مع تعذيب ذلك في النار على صغيرة. ولهذا قال جمهور الناس عن هؤلاء انهم لاينزهون الرب على السفه والظلم؛ بل يصفونه بالأفعال التى يوصف بها المجانين والسفهاء فان المجنون والسفيه قد يعطى مالا عظيما لمن ليس هو له باهل وقد يعاقب عقوبة عظيمة من هو أهل للاكرام والاحسان والرب تعالى أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وخير الراحمين والحكمة وضع الاشياء مواضعها والظلم وضع الشيء في غير موضعه. ومن تدبر حكمته في مخلوقاته ومشروعاته رأى مايبهر العقول فانه مثلا خلق العين واللسان ونحوهما من الاعضاء لمنفعة وخلق الرجل والظفر ونحو ذلك لمنفعة؛ فلا تقتضى الحكمة أن يستعمل العين واللسان حيث يستعمل اليد والرجل والظفر ولا أن يستعمل الرجل واليد حيث يستعمل العين واللسان وهذا من حكمته موجود في أعضاء الانسان وسائر الحيوان والنبات وسائر المخلوقات فكيف يجوز في حكمته وعدله ورحمته في من هو دائما يفعل مايرضيه من الطاعات والعبادات والحسنات وقد نظر نظرة منهيا عنها ان يعاقبه على هذه النظرة بما يعاقب به أفجر

الفساق وأن يكون أفجر الفساق في أعلى عليين وهو سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد،
لكن لا يشاء الا ما يناسب حكمته ورحمته وعدله كما لا يشاء ويريد الا ما علم أنه سيكون،
فلو قيل هل يجوز ان يشاء ما علم انه لا يكون لم يجز ذلك باتفاقهم لمناقضة علمه والعلم
يطابق المعلوم فكيف يشاء ما يناقض حكمته ورحمته وعدله وبسط هذه الامور له
مواضع متعددة ☆

والمقصود أن هؤلاء لما احتاجوا الى اثبات النبوات اضطربوا في صفة النبى وما يجوز
عليه وفي الآيات التى بها يعلم صدقه فجوزوا أن يرسل الله من يشاء بما يشاء لا يشترطون
في النبى الا أن يعلم ما أرسل به لأن تبليغ الرسالة بدون العلم ممتنع ومن جوز منهم
تكليف ما لا يطاق مطلقا يلزمه جواز ان يأمره الله بتبليغ رسالة لا يعلم ما هي وجوزوا
من جهة العقل ما ذكره القاضى أبو بكر ان يكون الرسول فاعلا للكبائر الا انه
لا بد أن يكون عالما بمرسله لكن ما علم بالخبر ان الرسول لا يتصف به علم من جهة الخبر فقط
لا لان الله منزه عن ارسال ظالم أو مرتكب للفواحش أو مكاس أو مخنث أو غير ذلك فانه لا يعلم
نفى شيء من ذلك بالعقل لكن بالخبر وهم في السمعيات عمدتهم الاجماع واما الاحتجاج
بالكتاب والسنة فاكثر ما يذكرونه تبعا للعقل أو الاجماع والعقل والاجماع مقدمان عندهم على
الكتاب والسنة فلم يعتمد القاضى أبو بكر وأمثاله في تنزيه الانبياء لا على دليل عقلى ولا سمعى
من الكتاب والسنة فان العقل عنده لا يمنع أن يرسل الله من شاء اذ كان يجوز عنده
على الله فعل كل ما يقدر عليه وانما اعتمد على الاجماع فما أجمع المسلمون عليه انه
لا يكون في النبى نزه عنه ثم ذكر ما ظنه اجماعا كعاداته وعادات أمثاله في نقل اجماعات
لا يمكن نقلها عن واحد من الصحابة ولا ثلاثة من التابعين ولا أربعة من الفقهاء
المشهورين كدعواه الاجماع على أن الصلاة في الدار المغصوبة مجزئة مع قوله أن العقل
يحيل أن يكون مأموراً به فيدعى الاجماع على براءة المأمور من فعل ما أمر به لكونه
فعل ما نهى عنه ولاهل الكلام والرأى من دعوى الاجماعات التى ليست صحيحة بل
قد يكون فيها نزاع معروف وقد يكون اجماع السلف على خلاف ما ادعوا فيه الاجماع
ما يطول ذكره هنا. وقد ذكرنا قطعة من الاجماعات الفروعية التى حكاها طائفة من
أعيان العلماء العالمين بالاختلاف مع انها منتقضة وفيها نزاع ثابت لم يعرفوه وقد يكون

غيرهم حكى الاجماع على نقيض قولهم وربما كان من السلف كقول الشافعي ما أعلم أحداً قبل شهادة العبد وقبله من الصحابة أنس بن مالك. يقول ما أعلم أحداً رد شهادة العبد وكدعوى ابن حزم الاجماع على ابطال القياس وأكثر الاصوليين يذكرون الاجماع على اثبات القياس وبسط هذا له موضع آخر ☆

فصل

ولما أرادوا اثبات معجزات الأنبياء عليهم السلام وان الله سبحانه لايظهرها على يد كاذب مع تجويزهم عليه فعل كل شئ فموا معا (١) فقالوا لو جاز ذلك لزم أن لا يقدر على تصديق من ادعى النبوة ومالزم منه نفى القدرة كان ممتنعاً فهذا هو المشهور عن الاشعرى وعليه اعتمد القاضى أبو بكر وابن فورك والقاضى أبو يعلى وغيرهم وهو مبنى على مقدمات ☆ أحدها أن النبوة لاتثبت الا بما ذكروه من المعجزات وأن الرب لا يقدر على اعلام الخلق بأن هذا نبى الا بهذا الطريق وانه لا يجوز أن يعلموا ذلك ضرورة وأن اعلام الخلق بان هذا نبى بهذا الطريق ممكن (فلو قيل) لهم لانسلم أن هذا ممكن على قولكم فانكم اذا جوزتم عليه فعل كل شئ وارادة كل شئ لم يكن فرق بين أن يظهرها على يد صادق أو كاذب ولم يكن ارسال رسول يصدقه بالمعجزات ممكناً على أصلكم ولم يكن لكم حجة على جواز ارسال الرسول وتصديقه بالمعجزات اذ كان لاطريق عندهم الاخلق المعجز وهذا انما يكون دليلا اذا علم انه انما خلقه لتصديق الرسول وانتم عندكم لايفعل شيئاً لشئ ويجوز عليه فعل كل شئ ☆ وسلك طائفة منهم طريقاً آخر وهي طريقة أبي المعالى واتباعه وهو أن العلم بتصديقه لمن أظهر على يديه المعجز علم ضرورى وضربوا له مثلا بالملك وهذا صحيح اذا منعت أصولهم فان هذه تعلم اذا كان المعلم بصدق رسوله ممن يفعل شيئاً لحكمة فاما من لايفعل شيئاً لشئ فكيف يعلم انه خلق هذه المعجزة لتدل على صدقه لالشئ آخر ولم لايجوز أن يخلقها لالشئ على أصلهم وقالوا أيضا ماذكره الاشعرى المعجز علم الصدق ودليله فيستحيل وجوده بدون الصدق فيمتنع وجوده على يد الكاذب

(١) هكذا الاصل فتأمل ولعله فنفوا منعا

وهذا كلام صحيح لكن كونه علم الصدق مناقض لاصولهم فانه انما يكون علم الصادق اذا كان الرب منزها عن أن يفعله على يد الكاذب أو علم بالاضطرار انه انما فعله لتصديق الصادق أو انه لا يفعله على يد كاذب واذا علم بالاضطرار تنزهه عن بعض الافعال بطل أصلهم ❊

فصل

والمعتزلة قبلهم ظنوا أن مجرد كون الفعل خارقا للعادة هو الآية على صدق الرسول فلا يجوز ظهور خارق الا لنبى والتزموا طردا لهذا انكار ان يكون للسحر تأثير خارج عن العادة مثل أن يموت ويمرض بلا مباشرة شئ وأنكروا الكهانه وأن تكون الجن تخبر ببعض المغيبات وأنكروا كرامات الاولياء فاتى هؤلاء فاثبتوا ما أثبته الفقهاء وأهل الحديث من السحر والكهانة والكرامات ؛ لكن قيل لهم فميزوا بين هذا وبين المعجزات فقالوا لا فرق في نفس الجنس وليس في جنس مقدورات الرب ما يختص بالانبياء لكن جنس خرق العادة واحد، فهذا اذا اقترن بدعوى النبوة وسلم عن المعارضة عند تحدى الرسول بالمثل فهو دليل فهى عندهم لم تدل لكونها في نفسها وجنسها دليلا، بل اذا استدل بها المدعى للنبوة كانت دليلا والا لم تكن دليلا، ومن شرط الدليل سلامته عن المعارضة وهي عندهم غاية الفرق فاذا قال المدعى للنبوة ائتوا بمثل هذه الآية فعجزوا كان هذا هو المعجز المختص بالنبى والا فيجوز عندهم أن تكون معجزات الرسول من حنس ما للسحرة والكهان من الخوارق اذا استدل بها الرسول فالحجة عنده مجموع الدعوى والخارق لا الخارق وحده والاعتبار بالسلامة عن المعارض بل قد لا يشترطون أن يكون خارقاً للعادة لكن يشترطون أن لا يعارض وعجز الناس عن المعارضة مع انه معتاد لا خارق للعادة فالاعتبار عندهم بشيئين باقترانه بالدعوى وتحديه لمن دعاهم أن يأتوا بمثله فلا يقدرون قالوا وخوارق الانبياء يظهر مثلها على يد الساحر والكاهن والصالح ولا يدل على النبوة لانه لم يدعها قالوا ولو ادعى النبوة أحد من أهل هذه الخوارق مع كذبه لم يكن بد من أن الله يعجزه عنها فلا يخلقها على يده أو يقيض له من يعارضه فتبطل حجته واذا قيل لهم لم قلتم أن الله لابد أن يفعل هذا وهذا

وعندكم يجوزعليه كل شئ ولايجب عليه فعل شئ ولايجب منه فعل شئ قالوا لانه لو لم يمنعه من ذلك أو يعارضه بآخر لكان قد أتى بمثل مايأتى به النبى الصادق فتبطل دلالة آيات الانبياء (فاذا قيل لهم) وعلى أصلكم يجوز أنه يبطل دلالتها وعندكم يجوز عليه فعل كل شئ أجابوا بالوجهين المتقدمين أما لزوم أنه ليس بقادر أو أن الدلالة معلومة بالاضطرار وقدعرف ضعفهما ثم هنا يلزمهم شئ آخر وهوأنه لم قلتم أن المعجز الذى يدل به على صدق الانبياء ماذكرتموه من مجرد كونه خارقاً مع الدعوى وعدم المعارضة فان هذا يقال أنه باطل من وجوه ☆

احدها انه اذا كان مايأتى به النبى يأتى به الساحر والكاهن لكان اولئك يعارضون وهذا لا يعارض فالاعتبار اذن بعدم المعارضة فقولوا كل من ادعى النبوة وقال معجزتى أن لايدعيها غيرى فهو صادق او لا يقدر غيرى على دعواها فهو صادق او افعل امرا معتادا من الاكل والشرب واللباس ومعجزتى ان لايفعله غيرى أو لايقدر غيرى على فعله فهو صادق فالتزموا هذا وقالوا المنع من المعتاد كاحداث غير المعتاد وعلى هذا فلو قال الرسول معجزتى انى اركب الحمار او الفرس او آكل هذا الطعام أولبس هذا الثوب أواعدو الى ذلك المكان وامثال ذلك وغيره لا يقدر على ذلك كان هذا آية دعواه وهذا لاضابط له فانما يعجزعنه قوم دون قوم لا ينضبط ولكن هذا يفسد قول من فسرها بخرق العادة فان العادات تختلف وقد ذكروا هذا وقالو المعجزة عند كل قوم ما كان خرقا لعادتهم وقالوا يشترط أن تكون خارقة لعادة من دعاهم وان كان معتادا لغيرهم وقالوا اذا كان المدعى كذابا فان الله يقيض له من يعارضه من اهل تلك الصناعة او يمنعه من القدرة عليها وهذا وجه ثان يدل على فساد ما اصلوه هم والمعتزلة ☆

الوجه الثالث ان المعارضة بالمثل ان يأتى بحجة مثل حجة النبى وحجته عندهم مجموع دعوى النبوة والاثبات بالخارق فيلزم على هذا ان تكون المعارضة بان يدعى غيره النبوة ويأتى بالخارق وعلى هذا فليست معارضة الرسول بان يأتوا بالقرآن او عشر سور اوسورة بل ان يدعى احدهم النبوة ويفعل ذلك وهذا خلاف العقل والنقل ولو قال الرسول لقريش لايقدر احد منكم ان يدعى النبوة ويأتى بمثل القرآن وهذا هو الآية والا فمجرد تلاوة القرآن ليس آية بل قد يقرأه المتعلم له فلا تكون آية لانه لم يدع النبوة

ولو ادعاها لكان الله ينسيه اياه او يقيض له من يعارضه كما ذكرتم لكانت قريش وسائر العلماء يعلمون ان هذا باطل ☆

الرابع انه اذا كان اعتمادكم على عدم المعارضة فقولوا ما قاله غيركم وهو ان آية سلامة ما يقوله من التناقض وان كل من ادعى النبوة وكان كاذبا فلا بد ان يتناقض او يقيض الله له من يقول مثل ما قال واما السلامة من التناقض من غير دعوى النبوة فليست دليلا فهذا خير من قولكم فانه قد علم ان كل ما جاء من عند غير الله فانه لابد ان يختلف ويتناقض وما جاء من عند الله لا يتناقض كما قال تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) واما دعوى الضرورة فمن ادعى الضرورة في شيء دون شيء مع تماثلها وعدم الفرق بينهما في نفس الامر كانت دعواه مردودة بل كذبا فان وجود العلم الضروري بشيء دون شيء لابد ان يكون لفرق اما في المعلوم واما في العالم والا فاذا قدر تساوى المعلومات وتساوى حال العالم بها لم يعلم بالضرورة احد المتماثلين دون الآخر ☆

الخامس : انه لابد ان تكون الآية التى للنبى امرا مختصا بالانبياء فان الدليل مستلزم للمدلول عليه فآية النبى هي دليل صدقه وعلامة صدقه وبرهان صدقه فلا توجد قط الا مستلزمة لصدقه وقد ادعوا ان آيات صدقهم تكون منفكة عن صدقهم تكون لساحر وكاهن ورجل صالح ولمدعى الالهية لكن لا تكون لمن يكذب في دعوى النبوة فجوزوا وجود الدليل مع عدم المدلول عليه الا اذا ادعى المدلول عليه كاذب واستدلوا على ذلك بان الساعة تخرق عندها خوارق ولا تدل على صدق احد ولو ادعى مدعى النبوة مع تلك الخوارق لدلت قالوا فعلم ان جنس ما هو معجز يوجد بدون صدق النبى لكن مع دعوى النبوة لا يوجد الا مع الصدق والآية عندهم الدعوى والخارق والصدق هو المدلول عليه فلا يكون ذلك كذلك الا مع هذا واما وجود الخارق مجردا عن الدعوى فليس بدليل ولا فرق عندهم بين خارق وخارق وخارق معتاد عند قوم دون قوم وليس لهم ضابط في العادات (ولسائل) ان يقول جميع ما يفعله الله من الآيات في العالم فهو دليل على صدق الانبياء ومستلزم له وان كانت الآيات معتادة لجنس الانبياء او لجنس الصالحين الذين يتبعون الانبياء فهى مستلزمة لصدق مدعى النبوة

فانها اذا لم تكن الا لنبي او من يتبعه لزم ان يكون من احد القسمين والكاذب في دعوى النبوة ليس واحدا منهما فالتابع للانبياء الصالح لا يكذب في دعوى النبوة قط ولا يدعيها الا وهو صادق كالانبياء المتبعين لشرع موسى فاذا كان آية نبي احياء الله الموتى لم يمتنع ان يحيي الله الموتى لنبي آخر أو لمن يتبع الانبياء كما قد احيي الميت لغير واحد من الانبياء ومن تبعهم وكان ذلك آية على نبوة محمد ﷺ ونبوة من قبله اذا كان احياء الموتى مختصا بالانبياء واتباعهم وكذلك ما يفعله الله من الآيات والعقوبات بمكذبي الرسل كتغريق فرعون واهلاك قوم عاد بالريح الصرصر العاتية واهلاك قوم صالح بالصيحة وامثال ذلك فان هذا جنس لم يعذب به الا من كذب الرسل فهو دليل على صدق الرسل وقد يميت الله بعض الناس بانواع معتادة من البأس كالطواعين ونحوها لكن هذا معتاد لغير مكذبي الرسل اما ما عذب الله به مكذبي الرسل فمختص بهم ولهذا كان من آيات الله كما قال (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا) وكذلك ما يحدثه من اشراط الساعة كظهور الدجال ويأجوج ومأجوج وظهور الدابة وطلوع الشمس من مغربها بل والنفخ في الصور وغير ذلك هو من آيات الانبياء فانهم اخبروا به قبل ان يكون فكذبهم المكذبون فاذا ظهر بعد مئين او الوف من السنين كما اخبروا به كان هذا من آيات صدقهم ولم يكن هذا الا لنبي او لمن يخبر عن نبي والخبر عن النبي هو خبر النبي ولهذا كان وجود ما اخبر به الرسول من المستقبلات من آيات نبوته اذا ظهر المخبر به كما كان أخبر فيما مضى عرف صدقه فيما اخبر به اذ كان هذا وهذا لا يمكن ان يخبر به الا نبي او من اخذ عن نبي وهو لم يأخذ عن احد من الانبياء شيئا فدل على نبوته ولهذا يحتج الله له في القرآن بذلك كما قد بسط في غير هذا الموضع ٭

واخبار الكهان فيها كذب كثير والكاهن قد عرف انه يكذب كثيرا مع فجوره قال تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل افاك اثيم يلقون السمع واكثرهم كاذبون) والكهانة جنس معروف ومعروف ان الكاهن يتلقى عن الشيطان ولا بد من كذبهم وفجورهم والنبي لا يكذب قط ولا يكون الا برا تقيا فالفرق بينهما

ثابت في نفس صفاتها وافعالها وآياتها لا يقول عاقل ان مجرد ما يفعله الكاهن هو دليل ان اقترن بصادق وليس بدليل اذا لم يقترن بصادق وانه متى ادعاه كاذب لم يظهر على يده وهذا ايضا باطل ✡ ويظهر بالوجه السادس وهو انه قد ادعى جماعة من الكذابين النبوة وأتوا بخوارق من جنس خوارق الكهان والسحرة ولم يعارضهم احد في ذلك المكان والزمان وكانوا كاذبين فبطل قولهم ان الكذاب اذا اتى بمثل خوارق السحرة والكهان فلابد ان يمنعه الله ذلك الخارق اويقيض له من يعارضه وهذا كالاسود العنسى الذى ادعى النبوة باليمن في حياة النبى ﷺ واستولى على اليمن و كان معه شيطان سحيق ومحيق وكان يخبر بأشياء غائبة من جنس أخبار الكهان وما عارضه أحد وعرف كذبه بوجوه متعددة وظهر من كذبه وفجوره ما ذكره الله بقوله (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم) وكذلك مسيلمة الكذاب وكذلك الحارث الدمشقى ومكحول الحلبى وبابا الرومى لعنة الله عليهم وغير هؤلاء كانت معهم شياطين كما هي مع السحرة والكهان ✡

السابع : أن آيات الانبياء ليس من شرطها استدلال النبى بها ولا تحديه بالاتيان بمثلها بل هي دليل على نبوته وان خلت عن هذين القيدين وهذا كاخبار من تقدم بنبوة محمد فانه دليل على صدقه وان كان هو لم يعلم بما أخبروا به ولا يستدل به وأيضاً فما كان يظهره الله على يديه من الآيات مثل تكثير الطعام والشراب مرات كنبع الماء من بين أصابعه غير مرة وتكثير الطعام القليل حتى كفى أضعاف من كان محتاجا اليه وغير ذلك كله من دلائل النبوة ولم يكن يظهرها للاستدلال بها ولا يتحدى بمثلها بل لحاجة المسلمين اليها وكذلك القاء الخليل في النار انما كان بعد نبوته ودعائه لهم الى التوحيد ✡

الثامن: ان الدليل الدال على المدلول عليه ليس من شرط دلالته استدلال أحد به بل ما كان النظر الصحيح فيه موصلا الى علم فهو دليل وان لم يستدل به أحد فالآيات أدلة وبراهين تدل سواء استدل به النبي أو لم يستدل ومالا يدل اذا لم يستدل به لا يدل اذا استدل به ولا ينقلب ما ليس بدليل دليلا اذا استدل به مدع لدلالته ✡

التاسع أن يقال آيات الانبياء لا تكون الا خارقة للعادة ولا تكون مما يقدر

أحد على معارضتها فاختصاصها بالنبي وسلامتها عن المعارضة شرط فيها بل وفي كل دليل فانه لا يكون دليلا حتى يكون مختصاً بالمدلول عليه ولا يكون مختصاً الا اذا سلم عن المعارضة فلم يوجد مع عدم المدلول عليه مثله والا اذا وجد هو أو مثله بدون المدلول لم يكن مختصاً فلا يكون دليلا لكن كما أنه لا يكفى مجرد كونه خارق العادة أولئك القوم دون غيرهم فلا يكفى أيضا عدم معارضة اولئك القوم بل لابد أن يكون مما لم يعتده غير الانبياء فيكون خارقا لعادة غير الانبياء فمتى عرف أنه يوجد لغير الانبياء بطلت دلالته ومتى عارض غير النبي النبى بمثل ما أتى به بطل الاختصاص وما ذكره المعتزلة وغيرهم كابن حزم من أن آيات الانبياء مختصة بهم كلام صحيح لكن كرامات الاولياء هي من دلائل النبوة فانها لا توجد الا لمن اتبع النبى الصادق فصار وجودها كوجود ما أخبر به النبى من الغيب وأما مايأتى به السحرة والكهان من العجائب فتلك جنس معتاد لغير الانبياء وأتباعهم بل الجنس معروف بالكذب والفجور فهو خارق بالنسبة الى غير أهله وكل صناعة فهى خارقة عند غير أهلها ولا تكون آية وآيات الانبياء هي خارقة لغير الانبياء وان كانت معتادة للانبياء ☆

العاشر : ان آيات الانبياء خارجة عن مقدور من أرسل الانبياء اليه وهم الجن والانس فلا تقدر الانس والجن أن يأتوا بمثل معجز الانبياء كما قال تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) وأما الملائكة فلا تضر قدرتهم على مثل ذلك فان الملائكة انما تنزل على الانبياء لا تنزل على السحرة والكهان كما أن الشياطين لا تنزل على الانبياء والملائكة لا تكذب على الله فاذا كانت الآيات من أفعال الملائكة مثل أخبارهم للنبى عن الله بالغيب ومثل نصرهم له على عدوه واهلاكهم له نصر أو هلاكا خارجين عن العادة كما فعلته الملائكة يوم بدر وغيره وكما فعلت بقوم لوط وكما فعلت بمريم والمسيح ونحو ذلك وكاتيانهم لسليمان بعرش بلقيس فقد روى أن الملائكة جاءته به وهي أقدر من الجن لم يكن هذا خارجا عما اعتاده الانبياء بل هذا ليس لغير الانبياء فلا يقول أن غير الانبياء اعتادوه فنقضت عادتهم بل هذا لم يعتده الا الانبياء وهو مناقض لجنس عادات الادميين بمعنى انه الا يوجد فيما اعتاده بنو آدم في جميع الاصناف غير الانبياء كما اعتادوا

العجائب من السحر والكهانة والصناعات العجيبة وما يستعينون عليه بالجن والانس والقوى الطبيعية مثل الطلاسم وغيرها فكل هذا معتاد معروف لغير الانبياء وهؤلاء جعلوا الطلاسم من جنس المعجزات وقالوا لو أتى بها نبى لكانت آية له واذا أتى بها من لم يدع النبوة جاز وان ادعاها كاذب سلبه الله علمها أو قيض له من يعارضه وهذا قول قبيح فانه لو جعل شيء من معجزات الانبياء وآياتهم من جنس مايأتى به ساحر أو كاهن أو مطلسم أو مخدوم من الجن لاستوى الجنسان ولم يكن فرق بين الانبياء وبين هؤلاء ولم يتميز بذلك النبى من غيره وهذا مما عظم غلط هؤلاء فيه فلم يعرفوا خصائص النبى وخصائص آياته كما أن المتفلسفة أبعد منهم عن الايمان فجعلوا للنبوة ثلاث خصائص حصول العلم بلا تعلم وقوة نفسه المؤثرة في هيولى العالم وتخيل السمع والبصر وهذه الثلاثة توجد لكثير من عوام الناس ولم يفرقوا بين النبى والساحر الابأن هذا بر وهذا فاجر والقاضى أبو بكر وأمثاله يجعلون هذا الفرق سمعيا والفرق الذى لابد منه عندهم الاستدلال بها والتحدى بالمثل وكل من هؤلاء وهؤلاء ادخلوا مع الانبياء من ليس بنبي ولم يعرفوا خصائص الانبياء ولا خصائص آياتهم فلزمهم جعل من ليس بنبى نبيا أو جعل النبى ليس بنبى اذ كان ما ذكروه في النبوة مشتركا بين الانبياء وغيرهم فمن ظن انه يكون لغير الانبياء قدح في الانبياء ان يكون هذا هو دليلهم بوجود مثل ماجاءوا به لغير النبى ومن ظن أنه لا يكون الا لنبى اذا رأى من فعله من متنبى كاذب وساحر وكاهن ظن أنه نبى والايمان بالنبوة أصل النجاة والسعادة فمن لم يحقق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال والايمان والكفر ولم يميز بين الخطأ والصواب ولما كان الذين اتبعوا هؤلاء وهؤلاء من المتأخرين مثل ابى حامد والرازى والآمدى وأمثالهم هذا ونحوه مبلغ علمهم بالنبوة لم يكن لها في قلوبهم من العظمة ما يجب لها فلا يستدلون بها على الامور العلمية الخبرية وهي خاصة النبى وهو الاخبار عن الغيب والانباء به فلا يستدلون بكلام الله ورسوله على الانباء بالغيب التى يقطع بها بل عمدتهم ما يدعونه من العقليات المتناقضة ولهذا يقرون بالحيرة في آخر عمرهم كما قال الرازى ☆

نهاية اقدام العقول عقال   واكثر سعى العالمين ضلال
وارواحنا في وحشة من جسومنا   وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى ان جمعنا فيه قيل وقال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الاثبات (اليه يصعد الكلم الطيب) (الرحمن على العرش استوى) واقرأ في النفي (ليس كمثله شيء)(ولا يحيطون به علما) ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي ✡

الوجه الحادي عشر ان آيات الانبياء مما يعلم العقلاء أنها مختصة بهم ليست مما تكون لغيرهم فيعلمون أن الله لم يخلق مثلها لغير الانبياء وسواء في آياتهم التي كانت في حياة قومهم وآياتهم التي فرق الله بها بين اتباعهم وبين مكذبيهم بنجاة هؤلاء وهلاك هؤلاء ليست من جنس ما يوجد في العادات المختلفة لغيرهم وذلك مثل تغريق الله لجميع أهل الارض الا لنوح ومن ركب معه في السفينة فهذا لم يكن قط في العالم نظيره وكذلك اهلاك قوم عاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد مع كثرتهم وقوتهم وعظم عماراتهم التي لم يخلق مثلها في البلاد ثم أهلكوا بريح صرصر عاتية مسخرة سبع ليال وثمانية أيام حسوماً حتى صاروا كلهم كأنهم أعجاز نخل خاوية ونجا هود ومن اتبعه فهذا لم يوجد نظيره في العالم وكذلك قوم صالح أصحاب مدائن ومساكن في السهل والجبل وبساتين أهلكوا كلهم بصيحة واحدة فهذا لم يوجد نظيره في العالم وكذلك قوم لوط أصحاب مدائن متعددة رفعت الى السماء ثم قلبت بهم واتبعوا بحجارة من السماء تتبع شاذهم ونجا لوط وأهله الا امرأته أصابها ما أصابهم فهذا لم يوجد نظيره في العالم وكذلك قوم فرعون وموسى جمعان عظيمان ينفرق لهم البحر كل فرق كالطود العظيم فيسلك هؤلاء ويخرجون سالمين فاذا سلك الآخرون انطبق عليهم الماء فهذا لم يوجد نظيره في العالم فهذه آيات تعرف العقلاء عموماً انها ليست من جنس ما يموت به بنو آدم وقد يحصل لبعض الناس طاعون ولبعضهم جدب ونحو ذلك وهذا مما اعتاده الناس وهو من آيات الله من وجه آخر بل كل حادث من آيات الله تعالى ولكن هذه الآيات ليست من جنس ما اعتيد وكذلك الكعبة فانها بيت من حجارة بواد غير ذي زرع ليس عندها أحد يحفظها من عدو ولا عندها بساتين وأمور يرغب الناس فيها فليس عندها رغبة ولا رهبة ومع هذا فقد حفظها بالهيبة والعظمة فكل

من يأتيها يأتيها خاضعاً ذليلا متواضعاً في غاية التواضع وجعل فيها من الرغبة ما يأتيها الناس من أقطار الارض محبة وشوقا من غير باعث دنيوى وهي على هذه الحال من ألوف من السنين وهذا مما لا يعرف في العالم لبنية [١] غيرها والملوك يبنون القصور العظيمة فتبقى مدة ثم تهدم لا يرغب أحد في بنائها ولا يرهبون من خرابها وكذلك مابنى للعبادات قد تتغير حاله على طول الزمان وقد يستولى العدو عليه كما استولى على بيت المقدس والكعبة لها خاصة ليست لغيرها وهذا مما حير الفلاسفة ونحوهم فانهم يظنون ان المؤثر في هذا العالم هو حركات الفلك وأن ما بنى وبقى فقد بنى بطالع سعيد فحاروا في طالع الكعبة اذ لم يجدوا في الاشكال الفلكية ما يوجب مثل هذه السعادة والفرح والعظمة والدوام والقهر والغلبة وكذلك ما فعل الله بأصحاب الفيل لما قصدوا تخريبها قال تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول) قصدها جيش عظيم ومعهم الفيل فهرب أهلها منهم فبرك الفيــل وامتنع من المسير الى جهتها واذا وجهوه الى غير جهتها توجه ثم جاءهم من البحر طير أبابيل أى جماعات في تفرقة فوجا بعد فوج رموا عليهم حصى هلكوا به كلهم فهذا مما لم يوجد نظيره في العالم فآيات الانبياء هي أدلة وبراهين على صدقهم والدليل يجب أن يكون مختصاً بالمدلول عليه لا يوجد مع عدمه لا يتحقق الدليل الا مع تحقق المدلول كما أن الحادث لابد له من محدث فيمتنع وجود حادث بلا محدث ولا يكون المحدث الا قادراً فيمتنع وجود الاحداث من غير قادر والفعل لا يكون الا من عالم ونحو ذلك فكذلك ما دل على صدق النبى يمتنع وجوده الا مع كون النبى صادقا ولم يجعلوا آيات الانبياء تدل دلالة عقلية مستلزمة للمدلول ولا تدل بجنسها ونفسها بل قال بعضهم قد تدل وقد لا تدل وقال آخرون تدل مع الدعوى ولا تدل مع عدم الدعوى وهذا يبطل كونها دليــلا وآخرون أرادوا تحقيق ذلك فقالوا تدل دلالة وضعية من جنس دلالة اللفظ على مراد المتكلم تدل أن قصد الدلالة ولا تدل بدون ذلك فهى تدل مع الوضع دون غيره فيقال لهم وما يدل على قصد المتكلم هو أيضاً دليل مطرد يمتنع وجوده بدون المدلول ودلالته تعلم بالعقل

[١] بنية على وزن فعيلة كناية عن الكعبة يقول العرب لا ورب هذه البنية

فجميع الادلة تعلم بالعقل دلالتها على المدلول فان ذلك اللفظ انما يدل اذا علم أن المتكلم أراد به هذا المعنى وهذا قد يعلم ضرورة وقد يعلم نظراً فقد يعلم قصد المتكلم بالضرورة كما يعلم أحوال الانسان بالضرورة فيفرق بين حمرة الخجل وصفرة الوجل وبين حمرة المحموم وصفرة المريض بالضرورة وقد يعلم نظراً واستدلالا كما يعلم أن عادته اذا قال كذا أن يريد كذا وانه لا ينقض عادته الا اذا بين مايدل على انتقاضها فيعلم هذا كما يعلم سائر العاديات مثل طلوع الشمس كل يوم والهلال كل شهر وارتفاع الشمس في الصيف وانخفاضها في الشتاء ومن هذا سنة الله في الفرق بين الانبياء واتباعهم وبين مكذبيهم قال تعالى (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقال تعالى (فهل ينظرون الا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) وقال تعالى (أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى في الصدور) وقال تعالى (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) ✡ فان هذه العجائب والآيات التى للانبياء تارة تعلم بمجرد الاخبار المتواترة وان لم نشاهد شيئا من آثارها وتارة نشاهد بالعيان آثارها الدالة على ما حدث كما قال تعالى (وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم) وقال تعالى (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) وقال تعالى (وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون) وقال تعالى (ان في ذلك لآيات للمتوسمين وانها لبسبيل مقيم ان في ذلك لآية للمؤمنين وان كان اصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وانهما لبامام مبين) أى لبطريق موضح متبين لمن مر به آثارهم وهذه الاخبار كانت منتشرة متواترة في العالم وقد علم الناس انها آيات للانبياء وعقوبة لمكذبيهم ولهذا كانوا يذكرونها عند نظائرها للاعتبار كما قال مؤمن آل فرعون (ياقوم انى اخاف مثل يوم الاخرة مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد) وقال شعيب (وياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح او قوم هود اوقوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) والقرآن آيته باقية على طول الزمان من حين جاء به الرسول تتلى آيات التحدى به ويتلى قوله (فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) (وفأتوا بعشر سور مثله) (و بسورة

مثله [وادعوا من استطعتم من دون الله] ويتلى قوله (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) فنفس اخبار الرسول بهذا في أول الامر وقطعه بذلك مع علمه بكثرة الخلق دليل على أنه كان خارقا يعجز الثقلين عن معارضته وهذا لا يكون لغير الانبياء ثم مع طول الزمان قد سمعه الموافق والمخالف والعرب والعجم وليس في الامم من أظهر كتاباً يقرأه الناس وقال انه مثله وهذا يعرفه كل أحد وما من كلام تكلم به الناس وان كان في أعلى طبقات الكلام لفظاً ومعنى الا وقد قال الناس نظيره وما يشبهه ويقاربه سواء كان شعراً أو خطابة أو كلاما في العلوم والحكمة والاستدلال والوعظ والرسائل وغير ذلك وما وجد من ذلك شيء الا ووجد ما يشبهه ويقاربه والقرآن مما يعلم الناس عربهم وعجمهم انه لم يوجد له نظير مع حرص العرب وغير العرب على معارضته فلفظه آية ونظمه آية ، واخباره بالغيوب آية ، وأمره ونهيه آية ، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية ، واذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية ، كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم . واذا قيل ان التوراة والانجيل والزبور لم يوجد لها نظير أيضاً لم يضرنا ذلك فانا قلنا ان آيات الانبياء لا تكون لغيرهم وان كانت لجنس الانبياء كالاخبار بغيب الله فهذه آية يشتركون فيها وكذلك احياء الموتى قد كان آية لغير واحد من الانبياء غير المسيح كما كان ذلك لموسى وغيره . وليس المقصود هنا ذكر تفضيل بعض الانبياء على بعض بل المقصود أن جنس الانبياء متميزون عن غيرهم بالآيات والدلائل الدالة على صدقهم التي يعلم العقلاء انها لم توجد لغيرهم فيعلمون أنها ليست لغيرهم لا عادة ولا خرق عادة بل اذا عبر عنها بأنها خرق عادة وبأنها من العجائب فالامر العجيب هو الخارج عن نظائره وخارق العادة ما خرج عن الامر المعتاد فالمراد بذلك أنها خارجة عن الامر المعتاد لغير الانبياء وأنها من العجائب الخارجة عن النظائر فلا يوجد نظيرها لغير الانبياء واذا وجد نظيرها سواء كان أعظم منها أو دونها لنبي فذلك توكيد لها انها من خصائص الانبياء فان الانبياء يصدق بعضهم بعضاً فآية كل نبي آية لجميع الانبياء كما أن آيات أتباعهم آيات لهم أيضاً وهذا أيضاً من آيات الانبياء وهو تصديق بعضهم لبعض فلا يوجد من أصحاب الخوارق العجيبة

التي تكون لغير الانبياء كالسحرة والكهنة وأهل الطبائع والصناعات الا من يخالف بعضهم بعضاً فيما يدعو اليه ويأمر به ويعادى بعضهم بعضاً وكذلك اتباعهم اذا كانوا من أهل الاستقامة فما أتى به الاول من الآيات فهو دليل على نبوته ونبوة من يبشر به وما أتى به الثانى فهو دليل على نبوته ونبوة من يصدقه ممن تقدم فما أتى به موسى والمسيح وغيرهما من الآيات فهى آيات لنبوة محمد لاخبارهم بنبوته فكان هذا الخبر مما دلت آياتهم على صدقه وما أتى به محمد من الآيات فهو دليل على اثبات جنس الانبياء مطلقاً وعلى نبوة كل من سمى في القرآن خصوصاً اذا كان هذا مما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم عن الله ودلت آياته على صدقه فيما يخبر به عن الله وحينئذ فاذا قدر أن التوراة أو الانجيل أو الزبور معجز لما فيه من العلوم والاخبار عن الغيوب والامر والنهى ونحو ذلك لم ينازع في ذلك بل هذا دليل على نبوتهم صلوات الله عليهم وعلى نبوة من أخبروا بنبوته ومن قال انها ليست بمعجزة فان أراد ليست معجزة من جهة اللفظ والنظم كالقرآن فهذا ممكن وهذا يرجع الى أهل اللغة العبرانية . وأما كون التوراة معجزة من حيث المعانى لما فيها من الاخبار عن الغيوب أو الامر والنهى فهذا لا ريب فيه ومما يدل على أن كتب الانبياء معجزة أن فيها الاخبار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بمدة طويلة وهذا لا يمكن علمه بدون اعلام الله لهم وهذا بخلاف من أخبر بنبوته من الكهان والهواتف فان هذا انما كان عند قرب مبعثه لما ظهرت دلائل ذلك واسترقته الجن من الملائكة فتحدثت به وسمعته الجن من أتباع الانبياء فالنبي الثانى اذا كان قد أخبر بما هو موجود في كتاب النبي الاول وقد وصل اليه من جهته لم يكن آية له فان العلماء يشاركونه في هذا . وأما اذا أخبر بقدر زائد لم يوجد في خبر الاول أو كان ممن لم يصل اليه خبر نبى غيره كان ذلك آية له كما يوجد في نبوة أشعيا وداود وغيرهما من صفات النبى ما لا يوجد مثله في توراة موسى فهذه الكتب معجزة لما فيها من أخبار الغيب الذى لا يعلمه الا نبى وكذلك فيها من الامر والنهى والوعد والوعيد ما لا يأتى به الا نبى أو تابع نبى وما أتى أتباع الانبياء من جهة كونهم أتباعاً لهم مثل أمرهم بما أمروا به ونهيهم عما نهوا عنه ووعدهم بما وعدوا به ووعيدهم بما يوعدون به فانه من خصائص الانبياء والكذاب المدعى للنبوة

لا يأمر بجميع ما أمرت به الانبياء وينهى عن كل ما نهوا عنه فان ذلك يفسد مقصوده وهو كاذب فاجر شيطان من أعظم شياطين الانس والذى يعينه على ذلك من أعظم شياطين الجن وهؤلاء لا يتصور أن يأمروا بما أمرت به الانبياء وينهوا عما نهوا عنه لان ذلك يناقض مقصودهم بل وان أمروا بالبعض في ابتداء الامر من يخدعونه ويربطونه فلا بد أن يناقضوا فيأمروا بما نهت عنه الانبياء ولا يوجبوا ما أمرت به الانبياء كما جرى مثل ذلك لمن ادعى النبوة من الكذابين ولمن أظهر موافقة الانبياء وهو في الباطن من المنافقين كالملاحدة الباطنية الذين يظهرون الاسلام والتشيع ابتداء ثم انهم يستحلون الشرك والفواحش والظلم ويسقطون الصلاة والصيام وغير ذلك مما جاءت به الشريعة فمن أظهر خلاف ما أبطن وكان مطاعاً في الناس فلا بد أن يظهر من باطنه ما يناقض ما أظهره فكيف بمن ادعى النبوة وأظهر انه صادق على الله وهو في الباطن كاذب على الله بل من أظهر خلاف ما أبطن من آحاد الناس يظهر حاله لمن خبره في مدة فان الجسد مطيع للقلب والقلب هو الملك المدبر له كما قال ﷺ « ألا ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب » فاذا كان القلب كاذباً على الله فاجراً كان ذلك أعظم الفساد فلابد أن يظهر الفساد على الجوارح ، وذلك الفساد يناقض حال الصادق على الله وقد بسط هذا في غير هذا الموضع . وذكر أن آيات الانبياء الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة ، وأن النبى الصادق خير الناس ، والكاذب على الله شر الناس ، وبينهما من الفروق ما لا يحصيه الا الله . فكيف يشتبه هذا بهذا بل لهذا من دلائل صدقه ولهذا من دلائل كذبه ما لا يمكن احصاؤه وكل من خص دليل الصدق بشئ معين فقد غلط . بل آيات الانبياء هي من آيات الله الدالة على أمره ونهيه ووعده ووعيده . وآيات الله كثيرة متنوعة كآيات وجوده ووحدانيته وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته سبحانه وتعالى . والقرآن مملوء من تفصيل آياته وتصريفها وضرب الامثال في ذلك وهو يسميها آيات وبراهين . وقد ذكرنا الفرق بين الآيات والمقاييس الكلية التى لا تدل الا على أمر كلى في غير هذا الموضع ☆

(الوجه الثانى عشر) أن ما يأتى به الساحر والكاهن وأهل الطبائع والصناعات

والحيل وكل من ليس من أتباع الانبياء لا يكون الا من مقدور الانس والجن فما يقدر عليه الانس من ذلك هو وأنواعه والحيل فيه كثير . وما يقدر عليه الجن هو من جنس مقدور الانس وانما يختلفون في الطريق . فان الساحر قد يقدر على أن يقتل انساناً بالسحر أو يمرضه أو يفسد عقله أو حسه وحركته وكلامه بحيث لا يجامع أو لا يمشى أو لا يتكلم ونحو ذلك ، وهذا كله مما يقدر الانس على مثله لكن بطرق أخرى والجن يطيرون في الهواء وعلى الماء ويحملون الاجسام الثقيلة كما قال العفريت لسليمان (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) وهذا الجنس يكون لمن هو دون الانس والجن من الحيوان كالطيور والحيتان والانس يقدر على جنسه ولهذا لم يكن هذا الجنس آية لنبى لوجوده لغير الانبياء فكثير من الناس تحمله الجن بل شياطين الجن وتطير به في الهواء وتذهب به الى مكان بعيد كما كان العفريت يحمل عرش بلقيس من اليمن الى مكان بعيد . ونحن نعرف من هؤلاء عدداً كثيراً وليسوا صالحين بل فيهم كفار ومنافقون وفساق وجهال لا يعرفون الشريعة والشياطين تحملهم وتطير بهم من مكان الى مكان وتحملهم الى عرفات فيشهدون عرفات من غير احرام ولا تلبية ولا طواف بالبيت وهذا الفعل حرام . والجهال يحسبون انه من كرامات الصالحين فتفعله الجن بمن يحب ذلك مكراً به وخديعة أو خدمة لمن يستخدمهم من هؤلاء الجهال بالشريعة وان كان له زهد وعبادة. وكذلك الجن كثيراً مايأتون الناس بما يأخذونه من أموال الناس من طعام وشراب ونفقة وماء وغير ذلك وهو من جنس ما يسرقه الانسى ويأتى به الى الانسى لكن الجن تأتى بالطعام والشراب في مكان العدم ولهذا لم يكن مثل هذا آية لنبى وانما كان النبى ﷺ يضع يده في الماء فينبع الماء من بين أصابعه وهذا لا يقدر عليه لا انس ولا جن وكذلك الطعام القليل يصير كثيراً وهذا لا يقدر عليه لا الجن ولا الانس ولم يأت النبى ﷺ قط بطعام من الغيب ولا شراب وانما كان هذا قد يحصل لبعض أصحابه كما أتى خبيب بن عدى وهو أسير بمكة بقطف من عنب وهذا الجنس ليس من خصائص الانبياء ومريم عليها السلام لم تكن نبية وكانت تؤتى بطعام فان هذا قد يكون من حلال فيكون كرامة يأتى به اما ملك واما جنى مسلم وقد يكون حراماً فليس كل ما كان من آيات الانبياء يكون كرامة للصالحين وهؤلاء

يسوون بين هذا وهـذا ويقولون الفرق هو دعوى النبوة والتحدى بالمثل وهـذا غلط فان آيات الانبياء التى دلت على نبوتهم هي أعلى مما يشتركون فيـه هم وأتباعهم مثل الاتيان بالقرآن ومثل الاخبار بأحوال الانبياء المتقدمين وأممهم والاخبار بما يكون يوم القيامة واشراط الساعة ومثل اخراج الناقة من الارض ومثل قلب العصا حيـة وشق البحر ومثل أن يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيـه فيكون طيراً باذن الله وتسخير الجن لسليمان لم يكن مثله لغيره لكن من الجن المؤمنين من يعاون المؤمنـين ومن الجن الفساق والكفار من يعاون الفساق كما يعاون الانس بعضهم بعضاً فاما طاعة مثل طاعة سليمان فهذا لم يكن لغير سليمان ومحمد صلى الله عليه وسلم أعطى أفضل مما أعطى سليمان فانه أرسل الى الجن وأمروا أن يؤمنوا به ويطيعوه فهو يدعوهم الى عبادة الله وطاعته لا يأمرهم بخدمته وقضاء حوائجه كما كان سليمان يأمرهم ولا يقهرهم باليد كما كان سليمان يقهرهم بل يفعل فيهـم كما يفعل في الانس فيجاهدهم الجن المؤمنون ويقيمون الحدود على منافقيهم فيتصرف فيهم تصرف العبد الرسول لا تصرف النبى الملك كما كان سليمان يتصرف فيهم والصالحون من أمته المتبعون له يتبعونه فيما كان يأمر به الانس والجن وآخرون دون هؤلاء قد يستخدمون بعض الجن في مباحات كما قد يستخدمون بعض الانس وقد يكون ذلك مما ينقص دينهم لا سيما ان كان بسبب غير مباح وآخرون شر من هؤلاء يستخدمون الجن في أمور محرمة من الظلم والفواحش فيقتلون نفوساً بغير حق ويعينونهم على ما يطلبـونه من الفاحشة كما يحضرون لهم امرأة أو صبياً أو يجذبونه اليه وآخرون يستخدمونهم في الكفر فهذه الامور ليست من كرامات الصالحين فان كرامات الصالحين هو ما كان سببه الايمان والتقوى لا ما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان وأيضاً فالصالحون سابقوهم لا يستخدمونهم الا في طاعة الله ورسوله ومن هو دون هؤلاء لا يستخدمهم الا في مباح وأما استخدامهم في المحرمات فهـو حرام وان كانوا انما خدموه لطاعته لله كما لو خدم الانس رجلا صالحاً لطاعته لله ثم استخدمهم فيما لا يجوز فهذا بمنزلة من أنعم عليـه بطاعته نعمة فصرفها الى معصية الله فهو آثم بذلك وكثير من هؤلاء يسلب تلك النعمة ثم قد يسلب الطاعة فيصير فاسقاً ومنهم من يرتد عن دين الاسلام فطاعة الجن للانسان ليست أعظم من طاعة الانس بل الانس

أجل وأعظم وأفضل وطاعتهم أنفع واذا كان المطاع من الانس قد يطاع في طاعة الله فيكون محموداً مثاباً وقد يطاع في معصية الله فيكون مذموماً آثماً فكذلك المطاع من الجن الذى يطيعه الناس والمطاع من الانس قد يكون مطاعاً لصلاحه ودينه وقد يكون مطاعاً لملكه وقوته وقد يكون مطاعاً لنفعه لمن يخدمه بالمعاوضة فكذلك المطاع من الجن قد يطاع لصلاحه ودينه وقد يطاع لقوة وملك محمود أو مذموم ثم الملك اذا سار بالعدل حمد وان سار بالظلم فعاقبته مذمومة وقد يهلكه أعوانه فكذلك المطاع من الجن اذا ظلمهم أو ظلم الانس بهم أو بغيرهم كانت عاقبته مذمومة وقد تقتله الجن أو تسلط عليه من الانس من يقتله وكل هذا واقع نعرف من ذلك من الوقائع ما يطول وصفه كما نعرف من ذلك من وقائع الانس ما يطول وصفه وليس آيات الانبياء في شيء من هذا الجنس ونبينا ﷺ لما أسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى انما أسرى به ليرى من آيات ربه الكبرى وهذا هو الذى كان من خصائصه أن مسراه كان هذا كما قال تعالى [أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى] وقال تعالى [وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس] قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به فهذا الذى كان من خصائصه ومن أعلام نبوته واما مجرد قطع تلك المسافة فهذا يكون لمن تحمله الجن وقد قال العفريت لسليمان [أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك] وحمل العرش من القصر من اليمن الى الشام أبلغ من ذلك وقال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فهذا أبلغ من قطع المسافة التى بين المسجدين في ليلة ومحمد ﷺ أفضل من الذى عنده علم من الكتاب ومن سليمان فكأن الذى خصه الله به أفضل من ذلك وهو أنه أسرى به في ليلة ليريه من آياته فالخاصة أن الاسراء كان ليريه من آياته الكبرى كما رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى: فهذا ما حصل مثله لا لسليمان ولا لغيره والجن وان قدروا على حمل بعض الناس في الهواء فلا يقدرون على اصعاده الى السماء واراءته آيات ربه الكبرى فكان ما آتاه الله محمداً خارجا عن قدرة الجن والانس وانما كان الذى صحبه في معراجه جبريل الذى اصطفاه الله لرسالته والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس وكان

المقصود من الاسراء أن يريه ما رآه من آياته الكبرى ثم يخبر به الناس فلما أخبر به كذب به من كذب من المشركين وصدق به الصديق وأمثاله من المؤمنين فكان ذلك ابتلاء ومحنة للناس كما قال [وما جعلنا الرؤية التى أريناك الا فتنة للناس] أى محنة وابتلاء للناس ليتميز المؤمن عن الكافر وكان فيما أخبرهم به أنه رأى الجنة والنار وهذا مما يخوفهم به قال تعالى [ونخوفهم فما يزيدهم الا طغياناً كبيراً] والرسول لما أخبرهم بما رآه كذبوه في نفس الاسراء وأنكروا أن يكون أسرى به الى المسجد الاقصى فلما سألوه عن صفته فوصفه لهم وقد علموا أنه لم يره قبل ذلك وصدقه من رآه منهم كان ذلك دليلا على صدقه في المسرى فلم يمكنهم مع ذلك تكذيبه فيما لم يروه وأخبر الله تعالى بالمسرى الى المسجد الاقصى لانهم قد علموا صدقه في ذلك بما أخبرهم به من علاماته فلا يمكنهم تكذيبه في ذلك . وذكر انه رأى من آيات ربه الكبرى ولم يعين ما رآه وهو جبريل الذى رآه في صورته التى خلق عليها مرتين لان رؤية جبريل هي من تمام نبوته ومما يبين أن الذى أتاه بالقرآن ملك لا شيطان كما قال في سورة اذا الشمس كورت [انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين] ثم قال [وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالافق المبين وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون ان هو الا ذكر للعالمين] ✡

فصل

ومما يبين ضعف طريقة هؤلاء أنهم قالوا المعجزات لا تدل بجنسها على النبوة بل يوجد مثل المعجز من كل وجه ولا يدل على النبوة كاشراط الساعة وكما يوجد للسحرة والكهان والصالحين من الخوارق التى تماثل آيات الانبياء فيما زعمه هؤلاء قالوا لكن الفرق أن هذا يدعى النبوة ويحتج بها ويتحداهم بالمثل فلا يقدر أحد على معارضته وأولئك لو ادعوا النبوة لمنعهم الله منها وان كانوا قبل ذلك غير ممنوعين منها أو لقيض لهم من يعارضهم ولو عارضوا بها نبياً لمنعهم الله اياها ليسلم دليل النبوة قالوا والمعجز انما يدل دلالة وضعية بالجعل والقصد كدلالة الالفاظ والعقد والخط والعلامات التى يجعلها الناس بينهم فيقال لهم هذه الامور كلها انما تدل اذا تقدم علم المدلول بها أن الدال

جعلها علامة كما يوكل الرجل وكيلا ويجعل بينه وبينه علامة اما وضع يده على ترقوته واما وضع خنصره واما وضع يده على رأسه فمن جاء بهذه العلامة علم أن موكله أرسله فاما اذا لم يتقدم ذلك لم تكن دلالة جلية وضعية اصطلاحية وآيات الانبياء لم تتقدم قبلها من الرب مواضعة بينه وبين العباد قالوا هي تشبه ما اذا قال الرجل لموكله والرسول لمرسله انك أرسلتنى الى هؤلاء القوم فان كنت أرسلتنى فقم واقعد ليعلموا أنك أرسلتنى فاذا قام وقعد عقب طلب الرسول علم الحاضرون انه قام وقعد ليعلمهم أنه رسوله وان كان بدون طلبه قد يقوم ويقعد لامور أخرى فيقال لهم هنا لما علم الحاضرون انتفاء داع يدعوه الا قصد التصديق علموا أنه قصد تصديقه ولهذا لو جوزوا قيامه لحاجة عرضت أو لحية أو عقرب وقعت في ثيابه أو لغير ذلك لم يجعلوا ذلك دليلا والسبر والتقسيم مما يعلم به الدليل وان لم يقصده الدليل حتى أن الرجل المشهور اذا خرج في غير وقت خروجه المعتاد فقد يعرف كثير من الناس لاى شئ خرج لعلمهم بانتفاء غيره وأن خروجه له مناسب وان لم يكن هنا أحد طلب الاستدلال بخروج الانسان عن عادته قد يكون لاسباب فاذا اقترن بسبب صالح وعلم انتفاء غيره علم أنه لذلك السبب وهذا انما يكون ممن يفعل لداع يدعوه والرب تعالى عندهم لا يفعل لداع يدعوه فلزمهم اما ابطال أصلهم واما ابطال هذه الدلالة وأيضاً فيقال لهم بل الدليل دل لجنسه وهو هذا الفعل الذى لم يفعل الا لهذا الطلب ومتى وجد هذا كان جنسه دليلا وليست الدعوى جزءا من الدليل بل طلب الاعلام بهذا الفعل مع الفعل هو الدليل ولهذا لو قال فافعل ما يدل على صدقى وقام وقعد لم يدل على صدقه بخلاف ما اذا قال فقم واقعد ولو قال فاظهر ما يدل على صدقى فلا بد أن يظهر ما يدل جنسه أنه دليل كقول أو خط أو غير ذلك أو خلعة تختص بمثل ذلك ففرق بين أن يطلب فعلا معيناً أو دليلا مطلقاً وهو اذا طلب فعلا معيناً كقيام أو وضع يد على الرأس أو صلاة ركعتين أو غير ذلك من الافعال دل على صدقه وان كان ذلك معتاداً له أن يفعله فليس من شرط دلالته أن يخرج عن عادته لكن شرط دلالته ان يعلم أنه فعله لاجل الاعلام بحيث لا يكون هناك سبب داع غير الاعلام وحينئذ فهو دال لجنسه وكذلك يقال الرب اذا خرق العادة لمدعى الرسالة عقب مطالبته بآية علم أن الله لم يخلق تلك

الادلة على صدقه فهذا يدل وهذا انما يتم مع كون الرب يفعل شيئاً لاجل شئ آخر وحينئذ فقد يكون من شرط الدليل مطالبة الطالب بدليل لا أن نفس الدعوى هي جزء الدليل وفرق بين طلبه من الرب آية أو طلبهم منه آية وبين الدعوى فاظهار ما يظهره الرب عقب طلبهم أو طلبه قد يقال فيه ان الطلب جزء الدليل وأنه لو أظهره بدون الطلب لم يدل وأما نفس دعوى النبوة فليست جزءاً وعلى هذا فاذا قدر أنه يفعل ذلك عند طلبه أو طلب غيره آية دل على صدقه لكن هذا يكون اذا علم أنه لم يفعله الا لاعلام أولئك بصدقه وهذا لا يكون الا بأن يتميز جنس ما دل به عن غيره ولا يجوز أن يدل مع وجود مثله من غير دلالة بل متى قدر وجود مثله من غير دلالة بطل كونه دليلا ولو كانت الدعوى جزءا من الدليل لكانت المعارضة لا تكون الا مع دعوى النبوة فلو أتوا بمثل القرآن من غير دعوى النبوة لم يكونوا عارضوه وهذا خلاف ما في القرآن وخلاف ما أجمع المسلمون بل العقلاء والله أعلم وهم يسمون مايكون بقصد الدال كالكلام دليلا وضعياً فالاقوال والافعال التى يقصد بها الدلالة كالعقد وما يجعله الرجل علامة ونحو ذلك يسمونه دليلا وضعياً ويسمون ما يدل مطلقاً دليلا عقلياً والاجود أن يقال جميع الادلة عقلية بمعنى أن العقل اذا تصورها علم أنها تدل فان الدليل هو ما يكون النظر الصحيح فيه مفضياً الى العلم بالمدلول عليه وانما يكون النظر الصحيح لمن يعقل دلالة الدليل فمن لم يعقل كون الدليل مستلزماً للمدلول لم يستدل به ومن عقل ذلك استدل به فهو يدل بصفة هو في نفسه عليها لا بصفة هي في المستدل لكن كونه عقلياً يرجع الى أن المستدل علمه بعقله وهذا صفة في المستدل لافيه أو الاجود أن يقال الدليل قد يدل بمجرده وقد يدل بقصد الدال على دلالته فالاول لا يحتاج الى قصد الدلالة كما تقول النحاة ان الاصوات تدل بالطبع وتدل بالوضع فالذى يدل بالطبع كالنحنحة والسعال والبكاء ونحو ذلك من الاصوات وهذا ليس كلاماً وحينئذ فما يدل بقصد الدال أحق بالدلالة ودلالته أكمل ولهذا كانت دلالة الكلام على مقصود المتكلم وهي دلالة سمعية أكمل من جميع أنواع الادلة على مراده وهو البيان الذى علمه الله الانسان وامتن بذلك على عباده فمنها ما يدل بمجرده ومنها ما يدل بقصد الدال فاذا انضم اليه ما يعرف أنه قصد الدلالة دل فالدليل هنا في

الحقيقة قصد الدال للدلالة وهي دلالة لا تنتقض اذا لم يجوز عليه الكذب وانما الذى دل به على قصده هو دل بجعله دليلا لم يدل بمجرده فهو دليل بالاختيار لا بمجرده فالاقوال والافعال التى يقصد بها الدلالة تدل باختيار الدال بها لا بمجردها ودلالتها تعلم بالعقل وقد يفتقر من العقل الى اكثر مما يفتقر اليه العقلى المجرد لانها تحتاج الى ان يعلم قصد الدال ولكن ما يحصل بها من الدلالة اوضح واكثر كالكلام وعلى هذا فاذا اريد تقسيمها الى عقلى ووضعى اى الى عقلى مجرد والى وضعى يحتاج مع العقل الى قصد من الدال فهو تقسيم صحيح، فدال يعلم بمجرد العقل وهذا لا يحتاج مع العقل الى السمع أو غيره وحينئذ فاذا قيل في السمعيات انها ليست عقلية اى لا يكفى فيها مجرد العقل بل لابد من انضمام السمع اليه وكذلك ذكر الرازى وغيره ان السمع المحض لا يدل بل لابد من العقل وهذا صحيح فان العقل شرط في جميع العلوم التى تختص بالعقلاء والله أعلم ومما يلزم أولئك ان ما كان يظهر على يد النبي ﷺ في كل وقت من الاوقات ليست دليلا على نبوته لانه لم يكن كلما ظهر شيء من ذلك احتج به وتحدى الناس بالاتيان بمثله بل لم ينقل عنه التحدى الا في القرآن خاصة ولا نقل التحدى عن غيره من الانبياء مثل موسى والمسيح وصالح ولكن السحرة لما عارضوا موسى ابطل معارضتهم وهذا الذى قالوه يوجب ان لا تكون كرامات الاولياء من جملة المعجزات وقد ذكر غير واحد من العلماء ان كرامات الاولياء معجزات لنبيهم وهي من آيات نبوته وهذا هو الصواب كقصة أبي مسلم الخولاني وغيره مما جرى لهذه الامة من الايات ومثل ما كان ظهر على أيدى الحواريين وعلى يد موسى واتباعه لانه جعل التحدى بالمثل جزءا من دليله وآيته فلا يكون دليلا حتى يتحداهم بالمثل بل قد علم ان نفس استدلال المستدل بالدليل يوجب اختصاصه بالمدلول عليه وكل من أتى بآية هي دليل وبرهان وحجة فقد علم انه يقول انها مستلزمة للمدلول عليه لا يوجد مع عدمه فلا يمكن أحدا أن يعارضها فيأتى بمثلها مع عدم المدلول عليه وهؤلاء جعلوا من جملة الدليل دعوى النبوة والاحتجاج به والتحدى بالمثل ثلاثة أشياء وهذه الثلاثة هي أجزاء الدليل ودعوى النبوة هو الذى تقام عليه البينة والذى تقام عليه الحجة ليس هو جزءا من الحجة

والدعوى تسمى مدلولا عليها ونفس المدعى يسمى مدلولا عليه وثبوت المدعى يسمى مدلولا عليه والعلم بثبوته يسمى مدلولا عليه فهنا دعوى النبوة وهنا النبوة المدعاة قبل ان يعلم ثبوتها وهنا ثبوتها في نفس الامر وهنا علم الناس بثبوتها وكذلك سائر الدعاوى فمن ادعى تحريم النبيذ المتنازع فيه فهنا دعواه التحريم ونفس التحريم هل هو ثابت أم منتف وثبوت التحريم في نفس الامر والعلم بالتحريم وكذلك من ادعى حقا عند الحاكم فهنا دعواه الحق وهنا نفس المدعى وهو استحقاقه ذلك الحق وهنا ثبوت هذا الاستحقاق في نفس الامر وهنا العلم باستحقاقه فالبينة والحجة يجب ان يقارن المدلول عليه الذى هو المدعى وثبوته في نفس الامر سواء ادعاه مدع أولم يدعه وسواء علمه عالم أولم يعلمه فان الدليل مستلزم للمدلول عليه مستلزم لحرمة النبيذ واستحقاق الحق وثبوت الحرمة في نفس الامر مستلزم للحرمة واما مجرد الحرمة المتصورة فليست مستلزمة لوجودها في نفس الامر بل قد يتصور في الاذهان مالا يوجد في الاعيان والله أعلم ✡

فصل

وقد ذكر القاضى أبوبكر أن من المثبتة المجيزين للكرامات من أجاب عن حجة النفاة بان قال الادلة على ضربين عقلية ووضعية فالعقلى يدل لنفسه وجنسه والوضعى يدل مع المواطأة ولا يدل مثله مع عدمها كعقد العشرة وضعف أبوبكر هذا بان قال لهم ان يقولوا اذا كانت المعجزات تجرى مجرى القول فحيث قصدت دلت وعنده ان الامر ليس كذلك قلت بل هذا القائل أحسن لانها تدل اذا قصدت بها الدلالة مثل قيام الامر وقعوده اذا طلب ذلك منه ومثل العلامة التى تكون للشخص اذا جعلها علامة فحيث قصد الدلالة به دل لكن لازم هذا ان لا يكون الا اذا طلب الاستدلال بها الا نفس الدعوى ثم انه ذكر ان الخارق للعادة لابد ان يكون خارقا للعادة جميع المرسل اليهم ثم جوز ان يكون مما اعتاده كثير منهم بشرط ان يمنعهم عن المعارضة فيكون ذلك خرق عادة ثم قال في الكرامات لا يجوز ان تكثر حتى تصير عادة لان من حق المعجز على قولنا وقولهم ان يكون خارقا للعادة فلا تجوز ادامة ظهوره فيصير عادة بل يقع نادرا وقد جوزوا في السحر والكهانة ان يكون عادة لكن عند دعوى النبوة يمنعهم من المعارضة فكانت الكرامات اولى بذلك

هي عادة للصالحين واذا ادعى النبوة صادق منع من المعارضة فهـذا اضطراب آخر ✡
وادعى اجماع الامة على انها لا تظهر على فاسق ولولا الاجماع لجوز ذلك لانه لاينقض
دليل النبوة فصارت تدل على الولاية بالاجماع على انها لا تظهر الا على يد نبى أو ولى
فبهذا الاجماع يعلم انمن ظهرت على يده ولى لله اذا لم يدع النبوة ✡ وهذا تناقض
من وجهين احدهما انهم قد قالو انها لا تدل على الولاية لان الولى من مات على الايمان
وهذا غير معلوم . الثانى انه يقال اذا جوزت ان يظهر عـلى يد الساحر والكاهن
ونحوهما من الكفار ما هو من جنس المعجزات والكرامات وقلت يجب ان لا يستثنى
من السحر شيء لا يفعل عنده الا ما ورد الاجماع والتوقيف على انه لا يكون بضرب
من السحر ولا يفعل عنده كفلق البحر ونحوة فيكون الفرق بين السحر وغيره انما
يعلم بهذا الاجماع ان ثبت والا فعندك يجوز ان يظهر على يد الساحر كل ما يظهر على
يد النبي اذا لم يدع النبوة ولا يحتج بذلك اذا ادعى النبوة وعارضه معـارض بالمثـل
فكيف تقول مع هذا ان الخوارق تدل على الولاية بالاجماع وانت تجوز ظهورها على
ايدى الكفار من السحرة والكهان فان قال السحر والكهانة كانا قبل الرسول فلما
جاء بطلا قيل انت قد اثبت ان نفسه سحر بعد النبوة وان السحر كان على عهد الصحابة
وقتلوا الساحر وذكرت اجماع الفقهاء على ان السحر يكون من المسلمين واهل الكتاب
والساحر ليس بولى لله والسحر عندك هو من جنس الكرامات الجميع خارق للعادة
لم يستدل به على النبوة فكيف تقول مع هذا ان الخوارق لا تكون الا لنبى اوولى
وانت أثبتها للكفار وهذا كله من جهة انه اخذ جنس الخوارق مشتركا فجوز ان
يكون للنبى وغير النبي مع قوله ان الخارق لابد ان يكون خارقا لعادة جميع المرسل
اليهم ولكن عنده هذا يحصل بعدم المعارضة وحينئذ فاشتراط كونه خارقا ومختصا
بمقدور الرب باطل وهـو قد حكى ان الاجماع على ان المعجز لا بد ان يكون خارقا
للعادة فقال:اعلموا رحمكم الله ان الكل من سائر الامم قد شرطوا في صفة المعجزان
يكون خارقا للعادة ثم قال في فصول الكرامات ✡

فصـــل

ويقال لهم ان من الناس من لا يشترط في الآية المجزة ان تكون خارقا للعادة وهذا كما ذكر اجماع الناس على انه لا يدل على صدق النبي الا المعجزات فقال في الاستدلال على انها لو لم تدل لزم عجز القديم اذ لا دليل بقول كل احد اثبت النبوة على نبوة الرسل وصدقهم الا ظهور المعجزة فهذا اجماع لا خلاف فيه فلو ظهرت على يد المتنبي لبطلت دلالة النبوة ولوجب عجز القديم عن دليل يدل على نبوتهم وهو نفسه قد ذكر في ذلك عدة اقوال في غير هذا الكتاب . وايضا فالاستدلال بالاجماع انما يكون بعد ثبوت النبوة فلا يحتج على مقدمات دليل النبوة بمجرد الاجماع وهؤلاء انما اوقعهم في هذه المناقضات ان القدرية يجعلون لربهم شريعة بالقياس على خلقه ويقولون لا يجوز ان يفعل كذا ولا ان يفعل كذا كقولهم لا يجوز ان يضل هذا فانا لو جوزنا عليه الاضلال لجاز ان يظهر المعجزات على ايدى الكذابين فان غايه ذلك انه اضلال واذا جاز ذلك لم يبق دليل على صدق الانبياء ولم يفرق بين الصادق والكاذب فعارضهم هؤلاء بان قالوا يجوز ان يفعل كل ممكن مقدور ليس يجب ان ينزه عن فعل من الافعال وليس في الممكنات ما هو قبيح اوظلم او سيء بل كل ذلك حسن وعدل فله ان يفعله فقيل لهم فجوزوا اظهار المعجزات على أيدى الكذابين ففتقوا لهم فتقا فقالوا هذا يلزم منه عجز الرب عن ان ينصب دليلا يدل على صدق النبي وان كان يمكنه ان يعرف صدقهم بالضرورة فذاك يوجب ان يعرفوا نفسه بالضرورة وهو يرفع التكليف والتحقيق ان اظهار المعجزات الدالة على صدق الانبياء على يد الكاذب لا يجوز لكن قيل لامتناع ذلك في نفسه كما قاله الاشعرى وقيل لان ذلك يمتنع في حكمة الرب وعدله وهذا أصح فانه قادر على ذلك لكن لو فعله بطلت دلالة المعجز على الصدق وهذا كما انه قادر على سلب العقول ولو فعل ذلك لبطلت العلوم وهو سبحانه لو فعل ذلك قادر على تعريف الصدق بالضرورة وقادر على ان لا يعرف بذلك ولا يميز للناس بين الصادق والكاذب لكنه لا يفعل هذا المقدور ونحن نعلم بالاضطرار انه لا يفعل ذلك وانه لا يبعث انبياء صادقين يبلغون رسالته ويأمر الناس باتباعهم ويتوعد من كذبهم

فيقوم آخرون كذابون يدعون مثل ذلك وهو يسوى بين هؤلاء وهؤلاء في جميع مايفرق به بين الصادق والكاذب بل قد علمنا من سنته انه لا يسوى في دلائل الصدق الكذب بين المحدث الصادق والكاذب والشاهد الصادق والكاذب وبين الذى يعامل الناس بالصدق والكذب وبين الذى يظهر الاسلام صادقا والذى يظهره نفاقا وكذبا بل يميز هذا من هذا بالدلائل الكثيرة كما يميز بين العادل وبين الظالم وبين الامين وبين الخائن فان هذا مقتضى سنته التى لا تتبدل وحكمته التى هو منزه عن نقيضها وعدله سبحانه بتسويته بين المتماثلات وتفريقه بين المختلفات فكيف يسوى بين افضل الناس واكملهم صدقا وبين اكذب الناس وشرهم كذبا فيما يعود الى فساد العالم في العقول والاديان والابضاع والاموال والدنيا والآخرة وقول القدر اذا جاز عليه اضلال من أضله جاز عليه اضلال بعض الناس يقال له اولا ليس اظهار المعجزة على ايدى الكذابين من باب الاضلال بل لو ظهرت على يده لكانت لا تدل على الصدق فلم يكن دليلا يفرق به بين الصدق والكذب وعدم الدليل يوجب عدم العلم بذلك الدليل لايوجب اعتقاد نقيضه ولو كان لايظهرها الا على يد كاذب لكانت انما تدل على الكذب فالاشتراك بين الصنفين يرفع دلالتها واختصاص احدهما بها يوجب دلالتها على المختص ويقال ثانيا تجويز اضلال طائفة معينة بمعنى انه حصل لهم الضلال لعدم نظرهم واستدلالهم وقصدهم الحق وجعل قلوبهم معرضة عن طلب الحق وقصده وانها تكذب الصادق ليس هو مثل اضلال العالم كله ورفع ما يعرف به الحق من الباطل بل مثال هذا مثل من قال اذا جاز ان يعمى طائفة من الناس جاز ان يعمى جميع الناس فلا يرى أحد شيئا واذا جاز ان يصم بعض الناس جاز ان يصم جميعهم فلا يسمع احد شيئا واذا جاز ان يزمن بعض الناس او يشل يديه جاز ازمان جميع الناس واشلال ايديهم حتى لا يقدر احد في العالم على شيء ولا يبطش بيده واذا جاز ان يجنن بعض الناس جاز ان يجنن جميعهم حتى لا يبقى في الارض الا مجنون لا عاقل واذا جاز ان يميت بعض الناس جاز ان يميتهم كلهم في ساعة واحدة مع بقاء العالم على ماهو عليه وان يقال اذا جاز ان يضل بعض الناس عن قبول بعض الحق جاز ان يضله عن قبول كل حق حتى لا يصدق احدا في شيء ولا يقبل شيئا مما يقال له فلا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا ينام

وان كل من اضل جاز ان يفعل به هذا كله وهذا كله مما يعرف بضرورة العقل الفرق بينهما ومن سوى بين هذا وهذا كان مصابا في عقله وآيات الانبياء هي من هذا الباب فلو لم يميز بين الصادق والكاذب لكان قد بعث أنبياء يبلغون رسالته ويأمرون بما أمر به من اطاعهم سعد في الدنيا والآخرة ومن كذبهم شقى في الدنيا والآخرة وآخرين كذابين يبلغون عنه مالم يقله ويامرون بما نهى عنه وينهون عما امر به ومن اتبعهم شقى في الدنيا والآخرة ولم يجعل لاحد سبيلا الى التمييز بين هؤلاء وهؤلاء وهذا أعظم من ان يقال انه خلق أطعمة نافعة وسموما قاتلة ولم يميز بينهما بل كل ما اكله الناس جاز ان يكون من هذا وهذا ومعلوم ان من جوز مثل هذا على الله فهو مصاب في عقله ثم ان الله جعل الاشياء متلازمة وكل ملزوم هو دليل على لازمه فالصدق له لوازم كثيرة فان من كان يصدق ويتحرى الصدق كان من لوازمه انه لا يتعمد الكذب ولا يخبر بخبرين متناقضين عمدا ولا يبطن خلاف ما يظهر ولا يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ولا يخون امانته ولا يجحد حقا هو عليه الى امثال هذه الامور التى يمتنع ان تكون لازمة الا لصادق فاذا انتفت انتفى الصدق واذا وجدت كانت مستلزمة لصدقه والكاذب بالعكس لوازمه بخلاف ذلك وهذا لان الانسان حى ناطق والنطق من لوازمه الظاهرة لبنى جنسه ومن لوازم النطق الخبر فانه الزم له من الامر والطلب حتى قد قيل ان جميع انواع الكلام يعود الى الخبر فلزم ان يكون من لوازم الانسان اخباره وظهور اخباره وكثرته وان هذا لا بد من وجوده حيث كان وحينئذ فاذا كان كذابا عرف الناس كذبه لكثرة ما يظهر منه من الخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه من احوال نفسه وغيره ومما رآه وسمعه وقيل له في الشهادة والغيب ولهذا كل من كان كاذبا ظهر عليه كذبه بعد مدة سواء كان مدعيا للنبوة او كان كاذبا في العلم ونقله او في الشهادة او في غير ذلك وان كان مطاعا كان ظهور كذبه اكثر لما فيه من الفساد وفي الصحيح عن النبى ﷺ انه قال ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم ملك كذاب وشيخ زان وعائل مستكبر ويروى وفقير مختال ولهذا كثير من اهل الدول كانوا يتواصون بالكذب وكتمان امورهم ثم يظهر كالقرامطة ولهذا امتنع اتفاق الناس على الكذب والكتمان من غير تواطىء لما جعل الله في النفوس من الداعى الى الصدق والبيان

وجعل الله في القلوب هداية ومعرفة بين هذا وهذا ولم يعرف قط في بنى آدم انه اشتبه صادق بكاذب الامدة قليلة ثم يظهر الامر وليس هذا كالضلال في امور خفية ومشتبهة على اكثر الناس فان التمييز بين الصادق والكاذب يظهر لجمهور الناس وعامتهم بعد مدة ولا يطول اشتباه ذلك عليهم وانما يشتبه الامر عليهم فيما لم يتعمد فيه الكذب بل أخطأ اصحابه فاخذ عنهم تقليدا لهم واما مع كون اصحابه يتعمدون الكذب فهذا لا يخفى على عامة الناس ☆

فصل

وقد تقدم ذكر بعض الفروق بين آيات الانبياء وغيرهم وبينها وبين غيرها من الفروق ما لا يكاد يحصى ☆ الاول ان النبى صادق فيما يخبر به عن الكتب لا يكذب قط ومن خالفهم من السحرة والكهان لا بد ان يكذب كما قال (هل انبؤكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم). الثانى من جهة ما يأمر به هذا ويفعله ومن جهة ما يأمر به هذا ويفعله فان الانبياء لا يأمرون الا بالعدل وطلب الآخرة وعبادة الله وحده واعمالهم البر والتقوى ومخالفوهم يأمرون بالشرك والظلم ويعظمون الدنيا وفي أعمالهم الاثم والعدوان. الثالث ان السحر والكهانة ونحوهما امور معتادة معروفة لاصحابها ليست خارقه لعادتهم وآيات الانبياء لا تكون الا لهم ولمن اتبعهم. الرابع ان الكهانة والسحر يناله الانسان بتعلمه وسعيه واكتسابه وهذا مجرب عند الناس بخلاف النبوة فانه لا ينالها احد باكتسابه. الخامس ان النبوة لو قدر انها تنال بالكسب فانما تنال بالاعمال الصالحة والصدق والعدل والتوحيد لا تحصل مع الكذب على من دون الله فضلا عن ان تحصل مع الكذب على الله فالطريق الذى تحصل به لو حصلت بالكسب مستلزم للصدق على الله فيما يخبر به. السادس ان ما يأتى به الكهان والسحرة لا يخرج عن كونه مقدورا للجن والانس وهم مأمورن بطاعة الرسل وآيات الرسل لا يقدر عليها لا جن ولا انس بل هي خارقة لعادة كل من ارسل النبى اليه (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا). السابع ان هذه يمكن ان تعارض بمثلها وآيات الانبياء لا يمكن احدا ان

يعارضها بمثلها . الثامن ان تلك ليست خارقة لعادات بنى آدم بل كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الانبياء وأما آيات الانبياء فليست معتادة لغير الصادقين على الله ولمن صدقهم. التاسع ان هذه قد لا يقدر عليها مخلوق لا الملائكة ولا غيرهم كانزل القرآن وتكليم موسى وتلك تقدر عليها الجن والشياطين. العاشر انه اذا كان من الايات ما يقدر عليه الملائكة فان الملائكة لا تكذب على الله ولا تقول لبشر ان الله ارسلك ولم يرسله وانما يفعل ذلك الشياطين والكرامات معتادة في الصالحين منا ومن قبلنا ليست خارقة لعادة الصالحين وآيات الانبياء خارقة لعادة الصالحين وهذه تنال بالصلاح بدعائهم وعبادتهم ومعجزات الانبياء لا تنال بذلك ولو طلبها الناس حتى يأذن الله فيها قل انما الايات عند الله قل ان الله قادر على ان ينزل آية . الحادى عشر ان النبى قد تقدمه انبياء فهو لا يأمر الا بجنس ما امرت به الرسل قبله فله نظراء يعتبر بهم وكذلك الساحر والكاهن له نظراء يعتبر بهم. الثانى عشر ان النبى لا يأمر الا بمصالح العباد في المعاش والمعاد فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيأمر بالتوحيد والاخلاص والصدق وينهى عن الشرك والكذب والظلم فالعقول والفطر توافقه كما توافقه الانبياء قبله فيصدقه صريح المعقول وصحيح المنقول الخارج عما جاء به والله اعلم ☆

فصل

ومن تدبر هذا وغيره تبين له ان جميع ما ابتدعه المتكلمون وغيرهم مما يخالف الكتاب والسنة فانه باطل ولاريب أن المؤمن يعلم من حيث الجملة أن ماخالف الكتاب والسنة فهو باطل لكن كثير من الناس لايعلم ذلك في المسائل المفصلة لا يعرف ما الذى يوافق الكتاب والسنة وما الذى يخالفه كما قد أصاب كثير من الناس في الكتب المصنفة في الكلام في أصول الدين وفي الرأى والتصوف وغيرذلك فكثير منهم قد اتبع طائفة يظن أن مايقولونه هوالحق وكلهم على خطأ وضلال ولقد أحسن الامام أحمد في قوله في خطته وان كانت مأثورة عمن تقدم الحمدلله الذى جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لابليس قد أحيوه وكم من ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف

الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا الوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مفارقة الكتاب يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعوذ بالله من فتن المضلين فهؤلاء أهل البدع من أهل الكلام وغيرهم كما قال مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مفارقة الكتاب وتصديق ماذكره انك لا تجد طائفة منهم توافق الكتاب والسنة فيما جعلوه أصول دينهم بل لكل طائفة أصول دين لهم فهى أصول دينهم الذى هم عليه ليس هي أصول الدين الذى بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه وما هم عليه من الدين ليس كله موافقاً للرسول ولا كله مخالفا له بل بعضه موافق وبعضه مخالف بمنزلة أهل الكتاب الذين لبسوا الحق بالباطل كما قال تعالى (يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم واياى فارهبون وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولاتكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا واياى فاتقون ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) وقال تعالى (ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) لكن بعض الطوائف أكثر مخالفة للرسول من بعض وبعضها أظهر مخالفة ولكن الظهور أمر نسبى فمن عرف السنة ظهرت له مخالفة من خالفها فقد تظهر مخالفة بعضهم للسنة لبعض الناس لعلمه بالسنة دون من لا يعلم منها ما يعلمه هو وقد تكون السنة في ذلك معلومة عند جمهور الامة فتظهر مخالفة من خالفها كما تظهر للجمهور مخالفة الرافضة للسنة وعند الجمهور هم المخالفون للسنة فيقولون أنت سنى أو رافضى وكذلك الخوارج لما كانوا أهل سيف وقتال ظهرت مخالفتهم للجماعة حين كانوا يقاتلون الناس وأما اليوم فلا يعرفهم اكثر الناس وبدع القدرية والمرجئة ونحوهم لا تظهر مخالفتها بظهور هذين وهاتان البدعتان ظهرتا لما قتل عثمان في الفتنة في خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب وظهرت الخوارق بمفارقة أهل الجماعة واستحلال دمائهم وأموالهم حتى قاتلهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب متبعاً في ذلك لامر النبى ﷺ قال الامام أحمد بن حنبل صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه وهذه قدرواها صاحبه مسلم بن الحجاج في صحيحه وروى البخارى قطعة منها واتفقت الصحابة على قتال الخوارج حتى أن ابن عمر مع امتناعه عن الدخول في فرقة كسعد وغيره

من السابقين ولهذا لم يبايعوا لاحد الا في الجماعة قال عند الموت ما أسى على شيء الا على أني لم أقاتل الطائفة الباغية مع علي يريد بذلك قتال الخوارج والا فهو لم يبايع لا لعلي ولا غيره ولم يبايع معاوية الا بعد ان اجتمع الناس عليه فكيف يقاتل احدى الطائفتين وانما اراد المارقة التي قال فيها النبي ﷺ تمرق مارقة على حين فرقة من الناس يقتلهم أدنى الطائفتين الى الحق وهذا حدث به أبو سعيد فلما بلغ ابن عمر قول النبي ﷺ في الخوارج وأمره بقتالهم تحسر على ترك قتالهم فكان قتالهم ثابتا بالسنة الصحيحة الصريحة وباتفاق الصحابة بخلاف فتنة الجمل وصفين فان اكثر السابقين الاولين كرهوا القتال في هذا وهذا وكثير من الصحابة قاتلوا إما من هذا الجانب واما من هذا الجانب فكانت الصحابة في ذلك على ثلاثة أقوال لكن الذي دلت عليه السنة الصحيحة أن علي بن أبي طالب كان أولى بالحق وان ترك القتال بالكلية كان خيراً وأولى ففي الصحيحين عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال «تمرق مارقة على حين فرقة من الاسلام يقتلهم أولى الطائفتين بالحق وقد ثبت عنه أنه جعل القاعد فيها خيراً من القائم والقائم خيراً من الماشي والماشي خيراً من الساعي» وانه أثنى على من صالح ولم يثن على من قاتل ففي البخاري وغيره عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قال عن الحسن إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين فاثنى على الحسن في اصلاح الله به بين الفئتين وفي صحيح مسلم وبعض نسخ البخاري ان النبي ﷺ قال لعمار «تقتلك الفئة الباغية» وفي الصحيحين أيضاً انه قال «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة» قال معاذ وهم بالشام وفي صحيح مسلم عنه أنه قال «لا يزال أهل المغرب ظاهرين لا يضرهم من خذلهم» قال احمد بن حنبل وغيره اهل المغرب اهل الشام اي انهم اول المغرب فان التغريب والتشريق أمر نسبي فلكل بلد غرب وشرق وهو ﷺ تكلم بمدينته فما تغرب عنها فهو غرب وما تشرق عنها فهو شرق وهي مسامتة اول الشام من ناحية الفرات كما ان مكة مسامتة لحران وسميساط ونحوها وتصويب قتالهم ان كان بعد الاصلاح فلم يقع الاصلاح وان كان عند بغيهم في الاقتتال وان لم يكن اصلاح فهؤلاء البغاة لم تكن في اصحاب علي من يقاتلهم بل تركوا قتالهم اما عجز او اما تفريطا فترك الاصلاح المأمور به وعلى هذا فوتلوا ابتداء قتالا غير مأمور به ولما صار قتالهم مأمورا به لم يقاتلوا القتال المأمور به بل نكل أصحاب علي عن القتال اما عجزا واما تفريطا والبغاة المأمور بقتالهم

الذين بغوا بعد الاقتتال وامتنعوا من الاصلاح المأمور به فصاروا بغاة مقاتلين والبغاة اذا ابتدأوا بالقتال جاز قتالهم بالاتفاق كما يجوز قتال الغواة قطاع الطريق اذا قاتلوا باتفاق الناس فأما الباغي من غير قتال فليس في النص ان الله أمر بقتاله بل الكفار انما يقاتلون بشرط الحراب كما ذهب اليه جمهور العلماء وكما دل عليه الكتاب والسنة كما هو مبسوط في موضعه والصديق قاتل المرتدين الذين ارتدوا عما كانوا فيه على عهد الرسول من دينه وهم أنواع منهم من آمن بمتنبئ كذاب ومنهم من لم يقر ببعض فرائض الاسلام التى أقر بها مع الرسول ومنهم من ترك الاسلام بالكلية ولهذا تسمى هذه وأمثالها من الحروب بين المسلمين فتناً كما سماها النبى ﷺ والملاحم ما كان بين المسلمين والكفار وبسط هذا له موضع آخر . والمقصود هنا أن الخوارج ظهروا في الفتنة وكفروا عثمان وعلياً ومن والاهما وباينوا المسلمين في الدار وسموا دارهم دار الهجرة وكانوا كما وصفهم النبى ﷺ يقتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الاوثان وكانوا أعظم الناس صلاة وصياماً وقراءة كما قال النبى ﷺ « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية » ومروقهم منه خروجهم باستحلالهم دماء المسلمين وأموالهم . فانه قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » وهم بسطوا في المسلمين أيديهم وألسنتهم فخرجوا منه ولم يحكم علي وأئمة الصحابة فيهم بحكمهم في المرتدين بل جعلوهم مسلمين . وسعد بن أبي وقاص وهو أفضل من كان قد بقى بعد علي وهو من أهل الشورى واعتزل في الفتنة فلم يقاتل لا مع علي ولا مع معاوية ولكنه ممن تكلم في الخوارج وتأول فيهم قوله (وما يضل به الا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض أولئك هم الخاسرون) وحدث أيضاً طوائف الشيعة الالهية الغلاة فرفع الى علي منهم طائفة ادعوا فيه الالهية فأمرهم بالرجوع فأصروا فأمهلهم ثلاثاً ثم أمر بأخاديد من نار فخدت وألقاهم فيها فرأى قتلهم بالنار . وأما ابن عباس فقال لو كنت أنا لم أحرقهم بالنار لنهى رسول الله ﷺ أن يعذب بعذاب الله ولضربت أعناقهم لقوله ﷺ « من بدل دينه فاقتلوه » رواه البخارى وأكثر الفقهاء

على قول ابن عباس . وروى أنه بلغه أن ابن السوداء يسب أبا بكر وعمر فطلب قتله فهرب منه فإما قتله على السب أو لأنه كان متهماً بالزندقة . وقيل انه هو الذى ابتدع بدعة الرافضة وأنه كان قصده افساد دين الاسلام وهذا يستحق القتل باتفاق المسلمين والذين يسبون أبا بكر وعمر فيهم تزندق كالاسماعيلية والنصيرية فهؤلاء يستحقون القتل بالاتفاق وفيهم من يعتقد بنبوة النبى ﷺ كالامامية فهؤلاء في قتلهم نزاع وتفصيل مذكور في غير هذا الموضع . وتواتر عن على بن أبى طالب أنه قال « خير هذه الامة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر » وهذا متفق عليه بين قدماء الشيعة وكلهم كانوا يفضلون أبا بكر وعمر . وانما كان النزاع في على وعثمان حين صار لهذا شيعة ولهذا شيعة وأما أبو بكر وعمر فلم يكن أحد يتشيع لهما بل جميع الامة كانت متفقة عليهما حتى الخوارج فانهم يتولونهما وانما يتبرءون من على وعثمان . وروى أن معاوية قال لابن عباس أنت على ملة على أم عثمان قال لا على ملة على ولا عثمان أنا على ملة رسول الله ﷺ . وكان كل من الشيعتين يذم الآخر بما برأه الله منه فكان بعض شيعة عثمان يتكلمون في على بالباطل وبعض شيعة على يتكلمون في عثمان بالباطل والشيعتان مع سائر الامة متفقة على تقديم أبى بكر وعمر . قيل لشريك بن عبدالله القاضى أنت من شيعة على وأنت تفضل أبا بكر وعمر فقال كل شيعة على على هذا هو يقول على أعواد هذا المنبر خير هذه الامة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر أفكنا نكذبه والله ما كان كذاباً . وقد روى البخارى في صحيحه من حديث محمد ابن الحنفية أنه قال له يا أبت من خير الناس بعد رسول الله ؟ فقال يابنى أو ما تعرف ؟ قال لا ! قال أبو بكر . قال ثم من قال؟ ثم عمر وهو مروى من حديث الهمدانيين شيعة على عن أبيه . وروى عن على أنه قال :

ولو كنت بواباً على باب جنة ☆ لقلت لهمدان ادخلى بسلام

وقد روى عنه أنه قال « لا أوتى بأحد يفضلنى على أبى بكر وعمر الا جلدته حد المفترى » وقد ثبت عن على رضى الله عنه بالاحاديث الثابتة بل المتواترة أنه قتل الغالية كالذين يعتقدون الهيته بعد أن استتابهم ثلاثاً كسائر المرتدين وأنه كان يبالغ في عقوبة من يسب أبا بكر وعمر وأنه كان يقول انهما خير هذه الامة بعد نبيها وهذا مبسوط في مواضع . والمقصود هنا أن هاتين البدعتين حدثتا في ذلك الوقت ثم في

آخر عصر الصحابة حدثت القدرية وتكلم فيهم من بقى من الصحابة كابن عمر وابن عباس ووائلة بن الاسقع وغيرهم . وحدثت أيضاً بدعة المرجئة في الايمان والآثار عن الصحابة ثابتة بمخالفتهم وانهم قالوا الايمان يزيد وينقص كما ثبت ذلك عن الصحابة كما هو مذكور في موضعه . وأما الجهمية نفاة الاسماء والصفات فانما حدثوا في أواخر الدولة الاموية وكثير من السلف لم يدخلهم في الثنتين وسبعين فرقة منهم يوسف بن أسباط وعبدالله بن المبارك قالوا أصول البدع أربعة : الخوارج ، والشيعة ، والقدرية ، والمرجئة . فقيل لهم الجهمية فقالوا ليس هؤلاء من أمة محمد . ولهذا تنازع من بعدهم من أصحاب أحمد وغيرهم هل هم من الثنتين وسبعين على قولين ذكرهما عن أصحاب أحمد أبوعبدالله بن حامد في كتابه في الاصول والتحقيق ان التجهم المحض وهو نفى الاسماء والصفات كما يحكى عن جهم والغالية من الملاحدة ونحوهم من نفى اسماء الله الحسنى كفر بيّن مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول وأما نفى الصفات مع اثبات الاسماء كقول المعتزلة فهودون هذا لكنه عظيم أيضاً وأما من أثبت الصفات المعلومة بالعقل والسمع وانما نازع في قيام الامور الاختيارية به كابن كلاب ومن اتبعه فهؤلاء ليسوا جهمية بل وافقوا جهماً في بعض قوله وان كانوا خالفوه في بعضه وهؤلاء من أقرب الطوائف الى السلف وأهل السنة والحديث وكذلك السالمية والكرامية ونحو هؤلاء يوافقون في جملة أقوالهم المشهورة فيثبتون الاسماء والصفات والقضاء والقـدر في الجملة ليسوا من الجهمية والمعتزلة النفاة للصفات وهم أيضاً يخالفون الخوارج والشيعة فيقولون باثبات خلافة الاربعة وتقديم أبى بكر وعمر ولا يقولون بخلود أحد من أهل القبلة في النار لكن الكرامية والـكلابية وأكثر الاشعرية مرجئة وأقربهم الـكلابية يقولون الايمان هو التصديق بالقلب والقول باللسان والاعمال ليست منـه كما يحكى هذا عن كثير من فقهاء الكوفة مثل أبى حنيفة وأصحابه . وأما الاشعرى فالمعروف عنه وعن أصحابه انهم يوافقون جهماً في قوله في الايمان وأنه مجرد تصـديق القلب أو معرفة القلب لكن قد يظهرون مع ذلك قول أهل الحديث ويتأولونه ويقولون بالاستثناء على الموافاة فليسوا موافقين لجهم من كل وجه وان كانوا أقرب الطوائف اليـه في الايمان وفي القدر أيضاً فانه رأس الجبرية يقول ليس للعبد فعل البتة والاشعرى يوافقـه على أن

العبد ليس بفاعل ولا له قدرة مؤثره في الفعل ولكن يقول هو كاسب وجهم لايثبت له شيئاً لكن هذا الكسب يقول أكثر الناس انه لا يعقل فرق بين الفعل الذى نفاه والكسب الذى أثبته وقالوا عجائب الكلام ثلاثة طفرة النظام وأحوال أبى هاشم وكسب الاشعرى وأنشدوا :

مما يقال ولا حقيقة عنده ✡ معقولة تدنو الى الافهام
الكسب عند الاشعرى والحا ✡ ل عند البهشمى وطفرة النظام

وأما الكرامية فلهم في الايمان قول ما سبقهم اليه أحد قالوا هو الاقرار باللسان وان لم يعتقد بقلبه وقالوا المنافق هو مؤمن ولكنه مخلد في النار وبعض الناس يحكى عنهم أن المنافق في الجنة وهذا غلط عليهم بل هم يجعلونه مؤمناً مع كونه مخلداً في النار فينازعون في الاسم لا في الحكم . وقد بسط القول على منشأ الغلط حيث ظنوا أن الايمان لا يكون الا شيئاً متماثلا عند جميع الناس اذا ذهب بعضه ذهب سائره ثم قالت الخوارج والمعتزلة وهو أداء الواجبات واجتناب المحرمات فاسم المؤمن مثل اسم البر والتقى وهو المستحق للثواب فاذا ترك بعض ذلك زال عنه اسم الايمان والاسلام ثم قالت الخوارج ومن لم يستحق هذا ولا هذا فهو كافر وقالت المعتزلة بل ينزل منزلة بين المنزلتين فنسميه فاسقاً لا مسلماً ولا كافراً ونقول انه مخلد في النار وهذا هو الذى امتازت به المعتزلة والا فسائر بدعهم قد قالها غيرهم فهم وافقوا الخوارج في حكمه ونازعوهم ونازعوا غيرهم في الاسم وقالت الجهمية والمرجئة بل الاعمال ليست من الايمان لكنه شيئان أو ثلاثة يتفق فيها جميع الناس التصديق بالقلب والقول باللسان أو المحبة والخضوع مع ذلك . وقالت الجهمية والاشعرية والكرامية بل ليس الا شيئاً واحداً يتماثل فيه الناس . وهؤلاء الطوائف أصل غلطهم ظنهم أن الايمان يتماثل فيه الناس وأنه اذا ذهب بعضه ذهب كله وكلا الامرين غلط فان الناس لا يتماثلون لا فيما وجب منه ولا فيما يقع منهم بل الايمان الذى وجب على بعض الناس قد لا يكون مثل الذى يجب على غيره كما كان الايمان بمكة لم يكن الواجب منه كالواجب بالمدينة ولا كان في آخر الامر كما كان في أوله ولا يجب على أهل الضعف والعجز من الايمان ما يجب على أهل القوة والقدرة في العقول والابدان بل أهل العلم بالقرآن والسنة ومعانى

ذلك يجب عليهم من تفصيل الايمان ما لا يجب على من لم يعرف ما عرفوا وأهل الجهاد يجب عليهم من الايمان في تفصيل الجهاد ما لا يجب على غيرهم وكذلك ولاة الامر وأهل الاموال يجب على كل من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه وأخبر به ما لا يجب على غيره والاقرار بذلك من الايمان ومعلوم أنه وان كان الناس كلهم يشتركون في الاقرار بالخالق وتصديق الرسول جملة فالتفصيل لا يحصل بالجملة ومن عرف ذلك مفصلا لم يكن ما أمر به ووجب عليه مثل من لم يعرف ذلك . وأيضاً فليس الناس متماثلين في فعل ما أمروا به من اليقين والمعرفة والتوحيد وحب الله وخشية الله والتوكل على الله والصبر لحكم الله وغير ذلك مما هو من ايمان القلوب ولا في لوازم ذلك التي تظهر على الابدان واذا قدر أن بعض ذلك زال لم يزل سائره بل يزيد الايمان تارة وينقص تارة كما ثبت ذلك عن أصحاب رسول الله ﷺ مثل عمر بن حبيب الخطمي وغيره انهم قالوا الايمان يزيد وينقص كما قد بسط في غير هذا الموضع اذ المقصود هنا أن طوائف أهل البدع من أهل الكلام وغيرهم ليس فيهم من يوافق الرسول في أصول دينه لا فيما اشتركوا فيه ولا فيما انفرد به بعضهم فانهم وان اشتركوا في مقالات فليس اجماعهم حجة ولا هم معصومون من الاجتماع على خطأ وقد زعم طائفة أن اجماع المتكلمين في المسائل الكلامية كاجماع الفقهاء وهذا غلط بل السلف قد استفاض عنهم ذم المتكلمين وذم أهل الكلام مطلقاً ونفس ما اشتركوا فيه من اثبات الصانع بطريقة الاعراض وأنها لازمة للجسم أو متعاقبة عليه فلا يخلو منها وما لم يخل من الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا أول لها وأن الله يمتنع أن يقال انه لم يزل متكلما بمشيئته وقدرته أو يمتنع أن يقال انه لم يزل فعالا وانه صار فاعلا أو فاعلا ومتكلما بمشيئته بعد أن لم يكن بلا حدوث حادث وما يتبع هذا هو أصل مبتدع في الاسلام أول ما عرف انه قاله الجهم بن صفوان مقدم الجهمية وأبو الهذيل العلاف مقدم المعتزلة ولهذا طرداه فقالا بامتناع الحوادث في المستقبل وقال الجهم بفناء الجنة والنار . وقال أبو الهذيل بانقطاع حركاتهما كما قد بسط فروع هذا الاصل الذى اشتركوا فيه ثم افترقوا بعد ذلك في فروعه فأئمتهم كانوا يقولون كلام الله القرآن وغيره مخلوق وكذلك سائر ما يوصف به الرب ليس له صفة قامت به لان ذلك عرض عندهم لا يقوم

الا بجسم والجسم حادث فقالوا القرآن وغيره من كلام الله مخلوق وكذلك سائر ما يوصف به الرب فجاء بعدهم مثل ابن كلاب وابن كرام والاشعرى وغيرهم من شاركهم في أصل قولهم لكن قالوا بثبوت الصفات لله وانها قديمة لكن منهم من قال لا تسمى أعراضاً لان العرض لا يبقى زمانين وصفات الرب باقية كما يقوله الاشعرى وغيره ومنهم من قال تسمى أعراضاً وهي قديمة وليس كل عرض حادثاً كابن كرام وغيره ثم افترقوا في القرآن وغيره من كلام الله فقال ابن كلاب ومن اتبعه هو صفة من الصفات قديمة كسائر الصفات ثم قال ولا يجوز أن يكون صوتاً لانه لا يبقى ولا معانى متعددة فانها ان كان لها عدد مقدر فليس قدر بأولى من قدر وان كانت غير متناهية لزم ثبوت معان في آن واحد لا نهاية لها وهذا ممتنع فقال انه معنى واحد هو معنى آية الكرسي وآية الدين والتوراة والانجيل . وقال جمهور العقلاء أن تصور هذا القول تصوراً تاماً يوجب العلم بفساده . وقال طائفة بل كلامه قديم العين وهو حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية مع أنها مترتبة في نفسها وأن تلك الحروف والاصوات باقية أزلا وأبداً . وجمهور العقلاء يقولون ان فساد هذا معلوم بالضرورة وهاتان الطائفتان تقولان انه لا يتكلم بمشيئته وقدرته . وقال آخرون كالهشامية والكرامية بل هو متكلم بمشيئته وقدرته وكلامه قائم بذاته ولا يمتنع قيام الحوادث لكن يمتنع أن يكون لم يزل متكلما فان ذلك يستلزم وجود حوادث لا أول لها وهو ممتنع فهذه الاربعة في القرآن وكلام الله هي أقوال المشركين في امتناع دوام كون الرب فعالا بمشيئته أو متكلما بمشيئته ✡

وأما أئمة السنة والحديث كعبدالله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما فقالوا لم يزل الرب متكلما اذا شاء وكيف شاء فذكروا أنه يتكلم بمشيئته وقدرته وأنه لم يزل كذلك وهذا يناقض الاصل الذى اشترك فيه المتكلمون من الجهمية والمعتزلة ومن تلقى عنهم فلا هم موافقون للكتاب والسنة وكلام السلف لا فيما اتفقوا عليه ولا فيما تنازعوا فيه ولهذا يوجد في عامة أصول الدين لكل منهم قول وليس في أقوالهم ما يوافق الكتاب والسنة كأقوالهم في كلام الله وأقوالهم في ارادته ومشيئته وفي علمه وفي قدرته وفي غير ذلك من صفاته وان كان بعضهم أقرب الى السنة والسلف من بعض ولكن قد شاع ذلك بين أهل العلم والدين منهم فكثير من أهل العلم والدين المنتسبين الى

السنة والجماعة من قد يوافقهم على بعض أقوالهم في مسألة القرآن أو غيرها اذ كان لا يعرف الا ذلك القول أو ما هو أبعد عن السنة منه اذ كانوا في كتبهم لا يحكون غير ذلك اذ كانوا لا يعرفون السنة وأقوال الصحابة ومادل عليه الكتاب والسنة لا يعرفون الا قولهم وقول من يخالفهم من أهل الكلام ويظنون انه ليس للامة الا هذان القولان أو الثلاثة وهم يعتمدون في السمعيات على ما يظنونه من الاجماع وليس لهم معرفة بالكتاب والسنة بل يعتمدون على القياس العقلى الذى هو أصل كلامهم وعلى الاجماع وأصل كلامهم العقلى باطل والاجماع الذى يظنونه انما هو اجماعهم واجماع نظرائهم من أهل الكلام ليس هو اجماع أمة محمد ولا علمائها والله تعالى انما جعل العصمة للمؤمنين من أمة محمد فهم الذين لا يجتمعون على ضلالة ولا خطأ كما ذكر على ذلك الدلائل الكثيرة وكل ما اجتمعوا عليه فهو مأثور عن الرسول فان الرسول بين الدين كله وهم معصومون أن يخطئوا كلهم ويضلوا عما جاء به محمد بل هم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فلا يبقى معروف الا أمروا به ولا منكر الا نهوا عنه وهم أمة وسط عدل خيار شهداء الله في الارض فلا يشهدون الا بحق فاجماعهم هو على علم موروث عن الرسول جاء من عند الله وذلك لا يكون الا حقاً وأما من كان اجماعهم على ما ابتدعه رأس من رؤوسهم فيجوز أن يكون اجماعهم خطأ اذ ليسوا هم المؤمنين ولا أمة محمد وانما هم فرقة منهم واذا قيل المعتبر من أمة محمد بعلمائها قيل اذا اتفقت علماؤها على شئ فالباقون يسلمون لهم ما اتفقوا عليه لا ينازعونهم فيه فصار هذا اجماعاً من المؤمنين ومن نازعهم بعلم فهذا لا يثبت الاجماع دونه كائناً من كان وأما من ليس من أهل العلم فيما تكلموا فيه فذاك وجوده كعدمه. وقول من قال الاعتبار بالمجتهدين دون غيرهم وأنه لا يعتبر بخلاف أهل الحديث أو أهل الاصول ونحوهم كلام لا حقيقة له فان المجتهدين ان أريد بهم من له قدرة على معرفة جميع الاحكام بأدلتها فليس في الامة من هو كذلك بل أفضل الامة كان يتعلم ممن هو دونه شيئاً من السنة ليس عنده وان عنى به من يقدر على معرفة الاستدلال على الاحكام في الجملة فهذا موجود في كثير من أهل الحديث والاصول والكلام وان كان بعض الفقهاء أمهر منهم بكثير من الفروع أو بأدلتها الخاصة أو بنقل الاقوال فيها فقد يكون أمهر منه في معرفة أعيان

الا دلة كالاحاديث والفرق بين صحيحها وضعيفها ودلالات الالفاظ عليها والتمييز بين ما هو دليل شرعى وما ليس بدليل وبالجملة العصمة انما هي للمؤمنين لامة محمد لا لبعضهم لكن اذا اتفق علماؤهم على شئ فسائرهم موافقون للعلماء واذا تنازعوا ولو كان المنازع واحداً وجب رد ما تنازعوا فيه الى الله والرسول ☆ وما أحد شذبقول فاسد عن الجمهور الا وفي الكتاب والسنة ما يبين فساد قوله وان كان القائل كثيراً كقول سعيد في أن المطلقة ثلاثاً تباح بالعقد . فحديث عائشة في الصحيحين يدل على خلافه مع دلالة القرآن أيضاً وكذلك غيره . وأما القول الذى يدل عليه الكتاب والسنة فلا يكون شاذاً وأن القائل به أقل من القائل بذاك القول فلا عبرة بكثرة القائل باتفاق الناس . ولهذا كان السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان يردون على من أخطأ بالكتاب والسنة لا يحتجون بالاجماع الا علامة وقد يبعث معه نشابه أو سيفه أو شيئاً من السلاح المختص به أو يركبه دابته المختصة به ونحو ذلك مما يعلم الناس أنه قصد به تخصيصه وان كانت تلك الافعال يفعل مع أمثاله وقد يفعل لغير الرسول ممن يقصد اكرامه وتشريفه لكن هي خارقة لعادته بمعنى أنه لم يعتد أن يفعل ذلك مع عموم الناس ولا يفعله الا مع من ميزه بولاية أو رسالة أو وكالة والولاية والوكالة تتضمن الرسالة فكل من هؤلاء هو في معنى رسوله الى من ولاه انى قد وليته والى من أرسله بأنى أرسلته فهذه عادة معروفة في العلامات والدلائل التى يبين بها المرسل أن هذا رسولى وجنس خرق العادة لا يستلزم الاكرام بل تخرق عادته بالاهانة تارة وبالاكرام أخرى فقد يخرج ويركب في وقت لم تجر عادته به بل لعقوبة قوم وآيات الرب تعالى قد تكون تخويفاً لعباده كما قال (وما نرسل بالآيات الا تخويفاً) وقد يهلك بها كما أهلك أمما مكذبين واذا قص قصصهم قال ان في ذلك لآيات وكان اهلاكهم خرقا للعادة دل بها على أنه عاقبهم بذنوبهم وتكذيبهم للرسل وأن ما فعلوه من الذنوب مما ينهى عنه ويعاقب فاعله بمثل تلك العقوبة فهذه خرق عادات لاهانة قوم وعقوبتهم لما فعلوه من الذنوب تجرى مجرى قوله عاقبتهم لانهم كذبوا رسولى وعصوه ولهذا يقول سبحانه كلما قص قصة من كذب رسله وعقوبته اياهم يقول (فكيف كان عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) كما يقول في موضع آخر (ان في ذلك لآيات وان

كنا لمبتلين وان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وتركنا فيهم آية للذين يخافون العذاب الاليم) واذا كانت تلك العلامات مما جرت عادته أنه يفعلها مع من أرسله ويهلك بها من كذب رسله كانت أبلغ في الدلالة وكانت معتادة في هذا النوع وهؤلاء تكلموا بلفظ لم يحققوا معناه وهو لفظة خرق العادة وقالوا العادات تنقسم الى عامة وخاصة فمنها ما يشترك فيه جميع الناس في جميع الاعصار كالاكل والشرب واتقاء الحر والبرد والخاص منها ما يكون كعادة للملائكة فقط أو للجن فقط أو للانس دون غيرهم قالوا ولهذا صح أن يكون لكل قبيل منهم ضرب من التحدى وخرق لما هو عادة لهم دون غيرهم وحجة عليهم دون ما سواهم . ومنها ما يكون عادة لبعض البشر نحو اعتياد بعضهم صناعة أو تجارة أو رياضة في ركوب الخيل والعمل بالسلاح لكن هذه كلها مقدورات للبشر قالوا وآية الرسل لا تكون مقدورة لمخلوق بل لا تكون الا مما ينفرد الله بالقدرة عليه فاذا قالوا هذا ظن الظان أنهم اشترطوا أمراً عظيما ولم يشترطوا شيئاً فانهم قالوا في جنس الأفعال التى لا تقدر الناس الا على اليسير منها كحمل الجبال ونقلها أن المعجزة هنا اقدارهم على الفعل لا نفس الفعل ورجحوا هذا على قول من يقول نفس الفعل آية لان جنس الفعل مقدور وليس هذا بفرق طائل فانه لا فرق بين تخصيصهم بالفعل أو بالقدرة عليه فاذا كان اقدارهم على الكثير الذى لم تجر به العادة معجزة كان نفس الكثير الذى لم تجر به العادة معجزة وهؤلاء عندهم أن قدرة العباد لا تؤثر في وجود شئ ولا يكون مقدورها الا في محلها فهم في الحقيقة لم يثبتوا قدرة فكل مافي الوجود هو مقدور لله عندهم ولهذا عدل أبو المعالى ومن اتبعه كالرازى عن هذا الفرق فلم يشترطوا أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه اذ كانت جميع الحوادث عندهم كذلك وقالوا ان ما يحصل على يد الساحر والكاهن وعامل الطلسمات وعند الطبيعة الغريبة هو مما ينفرد الرب بالقدرة عليه ويكون آية للنبى وهذا معتاد لغير الانبياء فلم يبق لقولهم خرق للعادة معنى معقول بل قالوا واللفظ للقاضى أبى بكر الواجب على هذا الاصل أن يكون خرق العادة الذى يفعله الله مما يخرق جميع القبيل (١) الذين تحداهم الرسول بمثله ويحتج به على نبوته فان أرسل ملكا الى الملائكة أظهر على يده ما هو خرق

(١) القبيل معناه الجماعة ومنه قوله تعالى (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا)

لعادتهم وان أرسل بشراً أرسله بما يخرق عادة البشر وان أرسل جنياً أظهر على يديه ما هو خارق لعادة الجن فيقال السحر والكهانة معتاد للبشر وأنتم تقولون يجوز أن يكون ما يأتى به الساحر والكاهن آية بشرط أن لا يمكن معارضته فلم يبق لكونه خارقا للعادة معنى يعقل عندكم ولهذا قال محققوهم أنه لا يشترط في الآيات أن تكون خارقة للعادة كما قد حكينا لفظهم في غير هذا الموضع كما تقدم . وانما الشرط أنها لا تعارض وأن تقترن بدعوى النبوة هذان الشرطان هما المعتبران وقد بينا في غير موضع أن كلا من الشرطين باطل والاول (١) يقتضى أن يكون المدلول عليه جزءاً من الدليل وآيات النبوة أنواع متعددة منها ما يكون قبل وجوده ومنها ما يكون بعد موته ومنها ما يكون في غيبته . والمقصود هنا كان هو الكلام على المثال الذى ذكروه وأن ما ضرب من الامثلة على الوجه الصحيح فانه ولله الحمد يدل على صدق الرسول وعلى فساد أصولهم ولكن هم ضربوا مثالا اذا اعتبر على الوجه الصحيح كان حجة ولله الحمد على صدق النبى وعلى فساد ما ذكروه في المعجزات حيث قالوا هي الفعل الخارق للعادة المقترن بدعوى النبوة والاستدلال به وتحدى النبى من دعاهم أن يأتوا بمثله وشرط بعضهم أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه وهذه الاربعة هي التى شرط القاضى أبو بكر ومن سلك مسلكه كابن اللبان وابن شاذان والقاضى أبى يعلى وغيرهم أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه على أحد القولين أو منه ومن الجنس الآخر اذا وقع على وجه يخرق العادة وطريق متعذر على غيرهم مثله على القول الآخر قالوا وهذا لفظ القاضى أبى بكر ☆

والثانى أن يكون ذلك الشئ الذى يظهر على أيديهم مما يخرق العادة وينقضها ومتى لم يكن كذلك لم يكن معجزاً ☆

والثالث أن يكون غير النبى ممنوعاً من اظهار ذلك على يده على الوجه الذى ظهر عليه ودعا الى معارضته مع كونه خارقا للعادة ☆

والرابع أن يكون واقعاً مفعولا عند تحدى الرسول بمثله وادعائه آية لنبوته وتقريعه بالعجز عنه من خالفه وكذبه قالوا فهذه هي الشرائط والاوصاف التى تختص بها المعجزات

(١) لعله (والثانى) بل هو المتعين

فيقال لهم الشرط الاول قد عرف أنه لا حقيقة له ولهذا أعرض عنه أكثرهم. والثاني أيضا لا حقيقة له فانهم لم يميزوا ما يخرق العادة مما لا يخرقها ولهذا ذهب من ذهب من محققيهم الى الغاء هذا الشرط فهم لا يعتبرون خرق عادة جميع البشر بل ما اعتاده السحرة والكهان وأهل الطلاسم عندهم يجوز أن يكون آية اذا لم يعارض وما اعتاده أهل صناعة أو علم أو شجاعة ليس هو عندهم آية وان لم يعارض فالامور العجيبة التي خص الله بالاقدار عليها بعض الناس لم يجعلوها خرق عادة والامور المحرمة أو هي كفر كالسحر والكهانة والطلسمات جعلوها خرق عادة وجعلوها آية بشرط أن لا يعارض وهو الشرط الثالث وهو في الحقيقة خاصة المعجزة عندهم لكن كون غير الرسول ممنوعاً منه ان اعتبروا أنه ممنوع مطلقاً فهذا لا يعلم وان اعتبروا أنه ممنوع من المرسل اليهم فهذا لا يكفي بل يمكن كل ساحر وكاهن أن يدعى النبوة ويقول انى كذا قالوا لو فعل هذا لكان الله يمنعه فعل ذلك أو يقيض له من يعارضه قلنا من أين لكم ذلك ومن أين يعلم الناس ذلك ويعلمون أن كل كاذب فلا بد أن يمنع من فعل الامر الذى اعتاده هو وغيره قبل ذلك أو أن يعارض والواقع خلاف ذلك فما أكثر من ادعى النبوة أو الاستغناء عن الانبياء وأن طريقه فوق طريق الانبياء وأن الرب يخاطبه بلا رسالة وأتى بخوارق من جنس ما تأتى السحرة والكهان ولم يكن فيمن دعاه من يعارضه ✡

وأما الرابع وهو أن يكون عند تحدى الرسول فيه يحترزون عن الكرامات وهو شرط باطل بل آيات الانبياء آيات وان لم ينطقوا بالتحدى بالمثل وهي دلائل على النبوة وصدق المخبر بها والدليل مغاير للمدلول عليه ليس المدلول عليه جزءاً من الدليل لكن اذا قالوا الدليل هو دعاء الرسول لزمه أن يريهم آية وخلق تلك الآية عقب سؤاله وان كان ذلك قد يخلقه بغير سؤاله لحكمة أخرى فهذا متوجه فالدليل هو مجموع طلب العلامة مع فعل ماجعله علامة كما أن العباد اذا دعوا الله فاجابهم كان مافعله اجابة لدعائهم ودليلا على أن الله سمع دعاءهم وأجابهم كما أنهم اذا استسقوه فسقاهم واستنصروه فنصرهم وان كان قد يفعل ذلك بلا دعاء فلا يكون هناك دليل على اجابة دعاء فهو دليل على اجابة الدعاء اذا وقع عقب الدعاء ولا يكون دليلا اذا وقع على غير هذا الوجه وكذلك الرسول اذا قال لمرسله اعطنى علامة

فاعطاه ماشرفه به كان دليلا على رسالته وان كان قد يفعل ذلك لحكمة اخرى لكن فعل ذلك عقب سؤاله آية لنبوته هو الذى يختص به وكذلك اذا علم أنه فعله اكراما له مع دعواه النبوة علم انه قد أكرمه بما يكرم به الصادقين عليه فعلم أنه صادق لأن مافعله به مختص بالصادقين الابرار دون الكاذبين عليه الفجار وعلى هذا فكرامات الاولياء هي من آيات الانبياء فانها مختصة بمن شهد لهم بالرسالة وكل مااستلزم صدق الشهادة بنبوتهم فهو دليل على صدق هذه الشهادة سواء كان الشاهد بنبوتهم المخبر بها هم أو غيرهم بل غيرهم اذا أخبر بنبوتهم وأظهر الله على يديه ما يدل على صدق هذا الخبر كان هذا أبلغ في الدلالة على صدقهم من أن يظهر على أيديهم فقد تبين أنه ليس من شرط دلائل النبوة لاقترانه بدعوى النبوة ولا الاحتجاج به ولا التحدى بالمثل ولا تقريع من يخالفه بل كل هذه الامور قد تقع في بعض الآيات لكن لايجب ان مالا يقع معه لايكون آية بل هذا ابطال لاكثر آيات الانبياء لخلوها عن هذا الشرط ثم هو شرط بلا حجة فان الدليل على المدلول عليه هو ما استلزم وجوده وهذا لايكون الا عند عدم المعارض المساوى أو الراجح وما كان كذلك فهو دليل سواء قال المستدل به ائتوا بمثله وانتم لاتقدرون على الاتيان بمثله وقرعهم وعجزهم أو لم يقل ذلك فهو اذا كان في نفسه مما لايقدرون على الاتيان بمثله سواء ذكر المستدل هذا أو لم يذكره لابذكره يصير دليلا ولا بعدم ذكره تنتفى دلالته وهؤلاء قالوا لا يكون دليلا الا اذا ذكره المستدل وهذا باطل وكذلك الدليل هو دليل سواء استدل به مستدل أو لم يستدل وهؤلاء قالوا لا يكون دليل النبوة دليلا الا اذا استدل به النبي حين ادعى النبوة فجعل نفس دعواه واستدلاله والمطالبة بالمعارضة وتقريعهم بالعجز عنها كلها جزءا من الدليل وهذا غلط عظيم بل السكوت عن هذه الامور أبلغ في الدلالة والنطق بها لايقوى الدليل والله تعالى لم يقل فليأتوا بحديث مثله الا حين قالوا افتراه لم يجعل هذا القول شرطا في الدليل بل نفس عجزهم عن المعارضة هو من تمام الدليل وهم انما شرطوا ذلك لان كرامات الاولياء عندهم متى اقترن بها دعوى النبوة كانت آيه للنبوة وجنس السحر والكهانة متى اقترن به دعوى النبوة كان دليلا على النبوة عندهم لكن قالوا

الساحر والكاهن لو ادعى النبوة لكان يمتنع من ذلك أو يعارض بمثله وأما الصالح فلا يدعى فكان أصلهم أن مايأتى به النبى والساحر والكاهن والولى من جنس واحد لايتميز بعضه عن بعض بوصف لكن خاصة النبى اقتران الدعوى والاستدلال والتحدى بالمثل بما يأتى به فلم يجعلوا لآيات الأنبياء خاصة تتميز بها عن السحر والكهانة وعما يكون لآحاد المؤمنين ولم يجعلوا للنبى مزية على عموم المؤمنين ولا على السحرة والكهان من جهة الايات التى يدل الله بها العباد على صدقه وهذا افتراء عظيم على الأنبياء وعلى آياتهم وتسوية بين أفضل الخلق وشرار الخلق بل تسوية بين ما يدل على النبوة وما يدل على نقيضها فان مايأتى به السحرة والكهان لا يكون الا لكذاب فاجر عدو لله فهو مناقض للنبوة فلم يفرقوا بين مايدل على النبوة وعلى نقيضها وبين مالايدل عليها ولا على نقيضها فان آيات الأنبياء تدل على النبوة وعجائب السحرة والكهان تدل على نقيض النبوة وان صاحبها ليس بر ولا عدل ولا ولى لله فضلا عن أن يكون نبيا بل يمتنع أن يكون الساحر والكاهن نبيا بل هو من أعداء الله والانبياء أفضل خلق الله وايمان المؤمنين وصلاحهم لايناقض النبوة ولا يستلزمها فهؤلاء سووا بين الاجناس الثلاثة فكانوا بمنزلة من سوى بين عبادة الرحمن وعبادة الشيطان والأوثان فان الكهان والسحرة يأمرون بالشرك وعبادة الأوثان وما فيه طاعة للشيطان والأنبياء لايأمرون الا بعبادة الله وحده وينهون عن عبادة ماسوى الله وطاعة الشياطين فسوى هؤلاء بين هذا وهذا ولم يبق الفرق الا مجرد تلفظ المدعى بأنى نبى فان تلفظ به كان نبيا وان لم يتلفظ به لم يكن نبيا فالكذاب المتنبى اذا أتى بما يأتى الساحر والكاهن وقال انا نبى كان نبيا وقولهم انه اذا فعل ذلك منع منه وعورض دعوى مجردة فهى لاتقبل لو لم يعلم بطلانها فكيف وقد علم بطلانها وان كثيرا ادعوا ذلك ولم يعارضهم ممن دعوه أحد ولا منعوا من ذلك فلزم على قول هؤلاء التسوية بين النبى الصادق والمتنبى الكاذب وقد قال تعالى (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق اذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين والذى جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون) ولم يفرق هؤلاء بين هؤلاء وهؤلاء ولا بين آيات هؤلاء وآيات هؤلاء وقال تعالى (وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به

موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا او قال اوحى الى ولم يوح اليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) فنسأل الله العظيم أن يهدينا الى صراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذين عبدوه وحده لا شريك له وآمنوا بما أرسل به رسله وبما جاءوا به من الآيات وفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال والغى والرشاد وطريق أولياء الله المتقين وأعداء الله الضالين والمغضوب عليهم فكان ممن صدق الرسل فيما أخبروا به واطاعهم فيما أمروا به ولا حول ولا قوة الا بالله ✡

وهؤلاء يجوزون أن يأمر الله بكل شيء وأن ينهى عن كل شيء فلا يبقى عندهم فرق بين النبى الصادق والمتنبى الكاذب لا من جهة نفسه فانهم لا يشترطون فيه الا مجرد كونه في الباطن مقراً بالصانع وهذا موجود في عامة الخلق ولا من جهة آياته ولا من جهة ما يأمر به والفلاسفة من هذا الوجه أجود قولا في الانبياء فانهم يشترطون في النبى اختصاصه بالعلم من غير تعلم وبالقدرة على التأثير الغريب والتخييل ويفرق بين الساحر والنبى بأن النبى يقصد العدل ويأمر به بخلاف الساحر ولهذا عدل الغزالى في النبوة عن طريق اولئك المتكلمين الى طريق الفلاسفة فاستدل بما يفعله ويأمر به على نبوته وهى طريق صحيحة لكن انما أثبت بها نبوة مثل نبوة الفلاسفة وأولئك خير من الفلاسفة من جهة أنهم لما أقروا بنبوة محمد صدقوه فيما أخبر به من أمور الانبياء وغيرهم وكان عندهم معصوماً من الكذب فيما يبلغه عن الله فانتفعوا بالشرع والسمعيات وبها صار فيهم من الاسلام ما تميزوا به على أولئك فان أولئك لا ينتفعون بأخبار

الانبياء اذ كانوا عندهم يخاطبون الجمهور بالتخييل فهم يكذبون عندهم للمصلحة ولكن آخرون سلكوا مسلك التأويل وقالوا أنهم لا يكذبون ولكن أسرفوا فيه ففى الجملة ظهور الفلاسفة والملاحدة والباطنية على هؤلاء تارة ومقاومتهم لهم تارة لا بد له من أسباب في حكمة الرب وعدله ومن أعظم أسبابه تفريط أولئك وجهلهم بما جاء به الانبياء فالنبوة التى ينتسبون الى نصرها لم يعرفوها ولم يعرفوا دليلها ولا قدروها قدرها وهذا يظهر من جهات متعددة ولا حول ولا قوة الا بالله ☆

فصل

قد ذكرنا في غير موضع ان أصول الدين الذى بعث الله به رسوله محمداً ﷺ قد بينها الله في القرآن أحسن بيان وبين دلائل الربوبية والوحدانية ودلائل أسماء الرب وصفاته وبين دلائل نبوة أنبيائه وبين المعاد بين امكانه وقدرته عليه في غير موضع وبين وقوعه بالادلة السمعية والعقلية فكان في بيان الله أصول الدين الحق وهو دين الله وهى أصول ثابتة صحيحة معلومة فتضمن بيان العلم النافع والعمل الصالح الهدى ودين الحق. وأهل البدع الذين ابتدعوا أصول دين يخالف ذلك ليس فيما ابتدعوه لا هدى ولا دين حق فابتدعوا ما زعموا أنه أدلة وبراهين على اثبات الصانع وصدق الرسول وامكان المعاد أو وقوعه وفيما ابتدعوه ما خالفوا به الشرع وكل ما خالفوه من الشرع فقد خالفوا فيه العقل أيضاً فان الذى بعث الله به محمدا وغيره من الانبياء هو حق وصدق وتدل عليه الادلة العقلية فهو ثابت بالسمع والعقل والذين خالفوا الرسل ليس معهم لا سمع ولا عقل كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شىء ان أنتم الا في ضلال كبير وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لاصحاب السعير] وقال تعالى لمكذبى الرسل [أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى في الصدور] ذكر ذلك بعد قوله [وان يكذبوك فقد

كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة وهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد] ثم قال (أفلم يسيروا في الارض) الآية ثم قال [وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها والى المصير] فذكرا هلاك من أهلك وأملاء لمن أملى لئلا يغتر المغتر فيقول نحن لم يهلكنا وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ☆

والمقصود هنا ان ما جاء به الرسول يدل عليه السمع والعقل وهو حق في نفسه كالحكم الذى يحكم به فانه يحكم بالعدل وهو الشرع فالعدل هو الشرع والشرع هو العدل ولهذا يامر نبيه ان يحكم بالقسط وأن يحكم بما أنزل الله والذى أنزل الله هو القسط والقسط هو الذى أنزل الله وكذلك الحق والصدق هو ما أخبرت به الرسل وما أخبرت به فهو الحق والصدق والسلف والائمة ذموا أهل الكلام المبتدعين الذين خالفوا الكتاب والسنة ومن خالف الكتاب والسنة لم يكن كلامه الا باطلا فالكلام الذى ذمه السلف يذم لانه باطل ولأنه يخالف الشرع ولكن لفظ الكلام لما كان مجملا لم يعرف كثير من الناس الفرق بين الكلام الذى ذموه وغيره فمن الناس من يظن انهم انما أنكروا كلام القدرية فقط كما ذكره البيهقى وابن عساكر في تفسير كلام الشافعى ونحوه ليخرجوا أصحابهم عن الذم وليس كذلك بل الشافعى انكر كلام الجهمية كلام حفص الفرد وأمثاله وهؤلاء كانت منازعتهم في الصفات والقرآن والرؤية لا في القدر وكذلك احمد بن حنبل خصومه من أهل الكلام هم الجهمية الذين ناظروه في القرآن مثل أبى عيسى محمد بن عيسى برغوث صاحب حسين النجار وأمثاله ولم يكونوا قدرية ولا كان النزاع في مسائل القدر ولهذا يصرح أحمد وأمثاله من السلف بذم الجهمية بل يكفرونهم أعظم من سائر الطوائف. وقال عبد الله بن المبارك ويوسف بن اسباط وغيرهما أصول أهل الاهواء اربع الشيعة والخوارج والمرجئة والقدرية فقيل لهم الجهمية فقالوا الجهمية ليسوا من أمة محمد ولهذا ذكر أبو عبد الله ابن حامد عن أصحاب أحمد في الجهمية هل هم من الثنتين وسبعين فرقة وجهين أحدهما أنهم ليسوا منهم لخروجهم عن الاسلام وطائفة تظن أن الكلام الذى ذمه السلف هو مطلق النظر

والاحتجاج والمناظرة وزعم من زعم من هؤلاء أن قوله (ولاتجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن[و]جادلهم بالتي هي أحسن) منسوخ بآية السيف وهؤلاء أيضا غالطون فان الله تعالى قد أخبر عن قوم نوح وابراهيم بمجادلتهم للكفار حتى (قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) وقال عن قوم ابراهيم (وحاجه قومه) الى قوله (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) وذكر محاجة ابراهيم للكافر والقرآن فيه من مناظرة الكفار والاحتجاج عليهم ما فيه شفاء وكفاية (١) وقوله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم) وقوله (وجادلهم بالتي هي أحسن) ليس في القرآن ما ينسخها ولكن بعض الناس يظن أن من المجادلة ترك الجهاد بالسيف وكل ما كان متضمنا لترك الجهاد المأمور به فهو منسوخ بآيات السيف والجهاد والمجادلة قد تكون مع أهل الذمة والهدنة والامان ومن لا يجوز قتاله بالسيف وقد تكون في ابتداء الدعوة كما كان النبي ﷺ يجاهد الكفار بالقرآن وقد تكون لبيان الحق وشفاء القلوب من الشبه مع من يطلب الاسترشاد والبيان وبسط هذا له موضع آخر ✡

والمقصود هنا أن المبتدعين الذين ابتدعوا كلاما وأصولا تخالف الكتاب وهي أيضاً مخالفة للميزان وهو العدل فهي مخالفة للسمع والعقل كما ابتدعوا في اثبات الصانع اثباته بحدوث الأجسام وأثبتوا حدوث الاجسام بأنها مستلزمة للاعراض لاتنفك عنها قالوا ومالا يخلو عن الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا أول لها فهؤلاء اذا حقق عليهم ما قالوه لم يوجدوا قد أثبتوا العلم بالصانع ولا أثبتوا النبوة ولا أثبتوا المعاد وهذه هي أصول الدين والايمان بل كلامهم في الخلق والبعث المبدأ والمعاد وفي اثبات الصانع ليس فيه تحقيق العلم لا عقلا ولا نقلا وهم معترفون بذلك كما قال الرازي لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في النفي (ليس كمثله شيء ولا يحيطون به علما) واقرأ في الاثبات (الرحمن على العرش استوى اليه يصعد الكلم الطيب أأمنتم من

---

(١) وقد نشرنا رسالة للامام ابن الحنبلي سماها استخراج الجدال من القرآن الحكيم ضمن الجزء الثالث في مجموعة الرسائل المنيرية فعليك بها فانها مفيدة جداً.

في السماء) ثم قال ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى وكذلك الغزالى وابن عقيل وغيرهما يقولون ما يشبه هذا وهو كما قالوا فان الرازى قد جمع ما جمعه من طرق المتكلمين والفلاسفة ومع هذا فليس في كتبه اثبات الصانع كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع وبين جميع ما ذكره في إثبات الصانع وانه ليس فيه ذلك وليس فيه أيضاً اثبات النبوة فان النبوة مبناها على أن الله قادر وانه يحدث الآيات لتصدق بها الرسل وليس في كتبه اثبات أن الله قادر ولا مريد بل كلامه فيه تقرير حجج من نفى قدرته وارادته دون الجانب الآخر كما قد بينا ذلك في الكلام على ماذكره في مسألة القدرة والإرادة مع أنه ولله الحمد الادلة الدالة على اثبات الصانع واثبات قدرته ومشيئته تفوق الاحصاء لكن من لم يجعل الله له نوراً فماله من نور*

وسبب ذلك اعراضهم عن الفطرة العقليه والشرعة النبوية بما ابتدعه المبتدعون مما أفسدوا به الفطرة والشرعة فصاروا يسفسطون في العقليات ويقرمطون في السمعيات كما قد بين هذا في مواضع وأيضاً فاذا عرف أن الله قادر كما قد عرفه غيره فليس عنده في النبوة الا طريق أصحابه الاشعرية الذين سلكوا مسلك الجهمية في أفعال الله تعالى أو طريق الفلاسفة ولهذا يقول من يقول من علماء الزيدية وهم يميلون الى الاعتزال مع تشيع الزيدية يقولون نحن لانتكلم في الشافعي فانه امام لكن هؤلاء صاروا جهمية يعنى القدر فلاسفة والشافعي لم يكن جهمياً ولا فيلسوفاً وهؤلاء لم يعرفوا آيات الانبياء والفرق بينها وبين غيرها لكن أدعوا أن ما يأتى به لكهان والسحرة وغيرهم قد يكون من آيات الانبياء لكن بشرط أن لايقدر أحد من المرسل اليهم على معارضته وهذه خاصة المعجز عندهم وهذا فاسد من وجوه كثيرة كما قد بسط في غير هذا الموضع وأما كلامه في المعاد فابعد من هذا وهذا كما قد بين أيضا وكذلك كلام من تقدمه من الجهمية وأتباعهم من الاشعرية وغيرهم ومن المعتزلة فانك لا تجد في كلامهم الذى ابتدعوه لا اثبات الربوبية ولا النبوة ولا المعاد والأشعرى نفسه واتباعه ليس في كتبهم اثبات الربوبية ولا المعاد وكذلك من سلك سبيلهم في أدلتهم من اتباع الفقهاء كالقاضى أبى يعلى وابن عقيل وابن الزاغونى وغيرهم والمعتزلة كذلك أيضاً وكذلك الكرامية وقد تأملت كلام أئمة هؤلاء الطوائف كأبى الحسين

الصبرى ونحوه من المعتزلة وكابن الهيضم من الكرامية وكابى الحسن نفسه والقاضى أبى بكر وأبى المعالى الجوينى وأبى اسحاق الاسفراينى وأبى بكر ابن فورك وأبى القاسم القشيرى وأبى الحسن التميمى والقاضى أبى يعلى وابن عقيل وابن الزاغونى غفر الله لهم ورحمهم أجمعين ✡

وتأملت ما وجدته في الصفات من المقالات مثل كتاب الملل والنحل للشهرستانى وكتاب مقالات الاسلاميين للاشعرى وهو أجمع كتاب رأيته في هذا الفن وقد ذكر فيه ما ذكر أنه مقالة أهل السنة والحديث وانه يختارها وهي أقرب ما ذكره من المقالات الى السنة والحديث لكن فيه أمور لم يقلها احد من أهل السنة والحديث ونفس مقالة أهل السنة والحديث لم يكن يعرفها ولا هو خبير بها فالكتب المصنفة في مقالات الطوائف التى صنفها هؤلاء ليس فيها ما جاء به الرسول ومادل عليه القرآن لافي المقالات المجردة ولافي المقالات التى يذكر فيها الادلة فان جميع هؤلاء دخلوا في الكلام المذموم الذى عابه السلف وذموه ولكن بعضهم أقرب الى السنة من بعض وقد يكون هذا أقرب في بعض وهذا أقرب في مواضع وهذا لكون أصل اعتمادهم لم يكن على القرآن والحديث بخلاف الفقهاء فانهم في كثير مما يقولونه انما يعتمدون على القرآن والحديث فلهذا كانوا أكثر متابعة لكن ما تكلم فيه أولئك أجل ولهذا يعظمون من وجه ويذمون من وجه فان لهم حسنات وفضائل وسعيا مشكورا وخطأهم بعد الاجتهاد مغفور والاشعرى أعلم بمقالات المختلفين من الشهرستانى ولهذا ذكر عشر طوائف وذكر مقالات لم يذكرها الشهرستانى وهو أعلم بمقالات أهل السنة وأقرب اليها وأوسع علما من الشهرستانى والشهرستانى أعلم باختلاف المختلفين ومقالاتهم من الغزالى ولهذا ذكر لهم في القرآن أربع مقالات وعدد طوائف من أهل القبلة والغزالى حصر أهل العلم الالهى في أربعة أصناف في الفلاسفة والباطنية والمتكلمين والصوفية فلم يعرف مقالات أهل الحديث والسنة ولا مقالات الفقهاء ولامقالات أئمة الصوفية ولكن ذكر عنهم العمل وذكر عن بعضهم اعتقادا يخالفهم فيه أئمتهم والقشيرى اعلم باقوال الصوفيه ومع هذا لم يذكر أقوال أئمتهم وأبو طالب اعلم منها بأقوال الصوفية ومع هذا فلم يعرف مقالة الاكابر كالفضيل بن عياض ونحوه وأبو الوليد ابن رشد الحفيد حصر أهل العلم الالهى في

ثلاثة في الحشوية والباطنيـــة والاشعرية والباطنية عنده يدخل فيهم باطنية الصوفية وباطنية الفلاسفة ومن هنا دخل ابن سبعين وابن عربي فأخـذوا مذاهب الفلاسفة وادخلوها في التصوف وأبو حامد يدخل في بعض هذا فان ابن سينا تكلم في مقالات العارفين بتصوف فاسد ثم أن هؤلاء مع هذا لما لم يجدوا الصحابة والتابعين تكلموا بمثل كلامهم بل ولا نقل ذلك عن النبي ﷺ صار منهم من يقول كانوا مشغولين بالجهاد عن هذا الباب وانهم هم حققوا ما لم يحققه الصحابة ويقولون أيضاً أن الرسول لم يعلمهم هذا لئلا يشتغلوا به عن الجهاد فانه كان محتاجا اليهم في الجهاد وهكذا يقول من يقول من مبتدعة أهل الزهد والتصوف اذا دخلوا في عبادات منهي عنها ومذمومة في الشرع قالوا كان الصحابة مشغولين عنها بالجهاد وكان النبي ﷺ يخاف أن يشتغلوا بها عن الجهاد وأهل السيف قد يظن من يظن منهم أن لهم من الجهاد وقتال الاعداء ما لم يكن مثله للصحابة وان الصحابة كانوا مشغولين بالعلم والعبادة عن مثل جهادهم ومن أهل الكلام من يقول بل الصحابة كانوا على عقائدهم وأصولهم لكن لم يتكلموا بذلك لعدم حاجتهم اليه فهؤلاء جمعوا بين أمرين بين أن ابتدعوا أقوالا باطلة ظنوا أنها هي أصول الدين لا يكون عالما بالدين الا من وافقهم عليها وانهم علموا وبينوا من الحق ما لم يبينه الرسول والصحابة واذا تدبر الخبير حقيقة ما هم عليه تبين له أنه ليس عند القوم فيما ابتدعوه لا علم ولا دين لا شرع ولا عقل وآخرون لما رأوا ابتـداع هؤلاء وان الصحابة والتابعين لم يكونوا يقولون مثل قولهم ظنوا أنهم كانوا كالعامـة الذين لا يعرفون الادلة والحجج وانهم كانوا لا يفهمون ما في القرآن مما تشابه على من تشابه عليه وتوهموا أنه اذا كان الوقف على قوله (وما يعلم تأويله الا الله) كان المراد أنه لا يفهم معناه الا الله لا الرسول ولا الصحابة فصاروا ينسبون الصحابة بل والرسول الى عدم العلم بالسمع والعقل وجعلوهم مثل أنفسهم لا يسمعون ولا يعقلون وظنوا أن هذه طريقة السلف وهي الجهل البسيط التي لا يعقل صاحبها ولا يسمع وهـذا وصف أهل النار لا وصف أفضل الخلق بعد الانبياء . قال ابن مسعود رضي الله عنه من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات فان الحي لا يؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد أبر هذه الامة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً قوم اختارهم الله لصحبة نبيه واقامة دينه فاعرفوا لهم

حقهم وتمسكوا بهديهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم ☆ وقال أيضاً ان الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد بعد قلبه فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح ☆ وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبى ﷺ انه قال «خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» وقد قال تعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان) فرضى عن السابقين مطلقاً ورضى عمن اتبعهم باحسان وذلك متناول لكل من اتبعهم الى يوم القيامة كما ذكر ذلك أهل العلم . قال ابن أبى حاتم قرئ على يونس بن عبد الاعلى انا ابن وهب حدثنى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله (والذين اتبعوهم باحسان) قال من بقى من أهل الاسلام الى أن تقوم الساعة وبسط هذا له موضع آخر ☆

والمقصود هنا ان الهدى والبيان والادلة والبراهين في القرآن فان الله تعالى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق وارسله بالايات البينات وهي الادلة البينة الدالة على الحق وكذلك سائر الرسل ومن الممتنع ان يرسل الله رسولا يأمر الناس بتصديقه ولا يكون هناك ما يعرفون به صدقه وكذلك من قال انى رسول الله فمن الممتنع ان يجعل مجرد الخبر المحتمل للصدق والكذب دليلا له وحجة على الناس هذا لا يظن باجهل الخلق فكيف بأفضل الناس وفي الصحيحين عن النبى ﷺ انه قال «مامن نبى من الانبياء الا وقد أوتى من الايات ما امن على مثله البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا اوحاه الله الى فارجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة» قال تعالى (ان الذين يكتمون اما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) فالبينات جمع بينة وهى الادلة والبراهين التى هى بينة في نفسها وبها يتبين غيرها يقال بين الامر اى تبين في نفسه ويقال بين غيره فالبين اسم لما ظهر في نفسه ولما اظهر غيره وكذلك المبين كقوله فاحشة مبينة أى متبينة فهذا شأن الأدلة فان مقدماتها تكون معلومة بنفسها كالمقدمات الحسية والبديهية وبها يتبين غيرها فيستدل على الخفى بالجلى والهدى مصدر هداه هدى والهدى هو بيان ما ينتفع به الناس

ويحتاجون اليه وهو ضد الضلالة فالضال يضل عن مقصوده وطريق مقصوده وهو سبحانه بين في كتبه ما يهدى الناس فعرفهم ما يقصدون وما يسلكون من الطرق عرفهم ان الله هو المقصود المعبود وحده وانه لا يجوز عبادة غيره وعرفهم الطريق وهو ما يعبدونه به ففى الهدى بيان المعبود وما يعبد به والبينات فيها بيان الادلة والبراهين على ذلك فليس ما يخبر به ويأمر به من الهدى قولا مجردا عن دليله ليؤخذ تقليدا واتباعا للظن بل هو مبين بالآيات البينات وهى الادلة اليقينية والبراهين القطعية وكان عند اهل الكتاب من البينات الدالة على نبوة محمد وصحة ماجاءبه أمور متعددة لبشارات كتبهم وغيرذلك فكانوا يكتمونه قال تعالى (ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله فانه كان عندهم شهادة من الله تشهد بما جاء به محمد وبمثله فكتموها) وقال تعالى (شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) فانزله هاديا للناس وبينات من الهدى والفرقان فهو يهدى الناس الى صراط مستقيم يهديهم الى صراط العزيز الحميد الذى له مافي السموات وما في الارض بما فيه من الخبر والامر وهو بينات دلالات وبراهين من الهدى من الادلة الهادية المبينة للحق ومن الفرقان المفرق بين الحق والباطل والخير والشر والصدق والكذب والمأمور والمحظور والحلال والحرام وذلك ان الدليل لا يتم الا بالجواب عن المعارض فالادلة تشتبه كثيراً بما يعارضها فلا بد من الفرق بين الدليل الدال على الحق وبين ما عارضه ليتبين ان الذى عارضه باطل فالدليل يحصل به الهدى وبيان الحق لكن لابد مع ذلك من الفرقان وهو الفرق بين ذلك الدليل وبين ما عارضه والفرق بين خبر الرب والخبر الذى يخالفه فالفرقان يحصل به التمييز بين المشتبهات ومن لم يحصل له الفرقان كان في اشتباه وحيرة والهدى التام لا يكون الا مع الفرقان فلهذا قال اولا هدى للناس ثم قال وبينات من الهدى والفرقان فالبينات الادلة على ما تقدم من الهدى وهى بينات من الهدى الذى هو دليل على ان الاول هدى ومن الفرقان الذى يفرق بين البينات والشبهات والحجج الصحيحة والفاسدة فالهدى مثل ان يؤمر بسلوك الطريق الى الله كما يؤمر قاصد الحج بسلوك طريق مكة مع دليل يوصله والبينات ما يدل ويبين ان ذلك هو الطريق وان سالكه سالك للطريق لاضال والفرقان ان

يفرق بين ذاك الطريق وغيره وبين الدليل الذى يسلكه ويدل الناس عليه وبين غيرهم ممن يدعى الدلالة وهو جاهل مضل وهذا وامثاله مما يبين ان في القرآن الادلة الدالة للناس على تحقيق ما فيه من الاخبار والاوامر كثير وقد بسط هذا في غير هذا الموضع. والمقصود هنا الكلام على النبوة فان المتكلمين المبتدعين تكلموا في النبوات بكلام كثير لبسوا فيه الحق بالباطل كما فعلوا مثل ذلك في غير النبوات كالالهيات وكالمعاد وعند التحقيق لم يعرفوا النبوة ولم يثبتوا ما يدل عليها فليس عندهم لا هدى ولا بينات والله سبحانه انزل في كتبه البينات والهدى فمن تصور الشيء على وجهه فقد اهتدى اليه ومن عرف دليل ثبوته فقد عرف البينات فالتصور الصحيح اهتداء والدليل الذى يبين التصديق بذلك التصور بينات والله تعالى انزل الكتاب هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ☆

والقرآن أثبت الصفات على وجه التفصيل ونفى عنها التمثيل وهى طريقة الرسل جاؤا باثبات مفصل ونفى مجمل واعداؤهم جاؤا بنفى مفصل واثبات مجمل فلو لم يكن الحق فيما بينه الرسول للناس واظهر لهم بل كان الحق في نقيضه للزم ان يكون عدم الرسول خيرا من وجوده اذا كان وجوده لم يفدهم عند هؤلاء علما ولا هدى بل ذكر أقوالا تدل على الباطل وطلب منهم ان يتعلموا الهدى بعقولهم ونظرهم ثم ينظروا فيما جاءبه فاما ان يتأولوه ويحرفوا الكلم عن مواضعه واما ان يعوضوه فذكرنا هذا ونحوه مما يبين ان الهدى مأخوذ عن الرسول وانه قد بين للامة ما يجب اعتقاده من أصول الدين في الصفات وغيرها فكان الجواب خطاباً مع من يقر بنبوته ويشهد له بأنه رسول الله فلم يذكر فيه دلائل النبوة وذكر أن الشبهات العقلية التى تعارض خبر الرسول باطلة وذكر في ذلك ما هو موجودفي هذا الجواب ثم بعد ذلك حدثت أمور أوجبت أن يبسط الكلام في هذا الباب ويتكلم على حجج النفاة ويبين بطلانها ويتكلم على ما أثبتوه من أنه يجب تقديم ما يزعمون أنه معقول على ما علم بخبر الرسول وبسط في ذلك من الكلام والقواعد ما ليس هذا موضعه وتكلم مع الفلاسفة والملاحدة الذين يقولون ان الرسل خاطبوا خطابا قصدوا به

التخييل الى العامة ما ينفعهم لا أنهم قصدوا الاخبار بالحقائق وهؤلاء لم يكن وقت الجواب قصد مخاطبتهم اذ كان هؤلاء في الحقيقة مكذبين للرسل يقولون انهم كذبوا لما رأوه مصلحة بل كان الخطاب مع من يقر بأن الرسول لا يقول الا الحق باطناً وظاهراً ثم بعد هذا طلب الكلام على تقرير أصول الدين بأدلتها العقلية وان كانت مستفادة من تعليم الرسول وذكر فيها ما ذكر من دلائل النبوة في مصنف يتضمن شرح عقيدة صنفها شيخ النظار بمصر شمس الدين الاصبهانى فطلب منى شرحها فشرحتها وذكرت فيها من الدلائل العقلية ما يعلم به أصول الدين وبعدها جاء كتاب من النصارى يتضمن الاحتجاج لدينهم بالعقل والسمع واحتجوا بما ذكروه من القرآن فأوجب ذلك أن يرد عليهم ويبين فساد ما احتجوا به من الادلة السمعية من القرآن ومن كلام الانبياء المتقدمين وما احتجوا به من العقل وأنهم مخالفون للانبياء وللعقل خالفوا المسيح ومن قبله وحرفوا كلامهم كما خالفوا العقل وبين ما يحتجون به من نصوص الانبياء وأنها هي وغيرها من نصوص الانبياء التى عندهم حجة عليهم لا لهم وبين الجواب الصحيح لمن حرف دين المسيح وهم لم يطالبوا ببيان دلائل نبوة نبينا لكن اقتضت المصلحة أن يذكر من هذا ما يناسبه ويبسط الكلام في ذلك بسطاً أكثر من غيره وقلوب كثير من الناس يجول فيها أمر النبوات وما جاءت به الرسل وهم وان أظهروا تصديقهم والشهادة لهم ففى قلوبهم مرض ونفاق اذ كان ما جعلوه أصولا لدينهم معارض لما جاءت به الانبياء وهم لم يتعلموا ما جاءت به الانبياء ولم يأخذوا عنهم الدلائل والاصول والبينات والبراهين واذا وجب أن يؤخذ عن الانبياء ما أخبروا به من أصول الدين ومن تصديق خبرهم مع وجود ما يعارضه فلان يؤخذ عنهم ما بينوا به تلك العقائد من الآيات والبراهين أولى وأحرى فانه بهذا يتبين ذلك والا فتصديق الخبر متوقف على دليل صحته أو على صدق المخبر به وتصديقه بدون أن يعلم أنه في نفسه حق أو أن المخبر به صادق قول بلا علم والرسول صلوات الله عليه وسلامه قد أرسل بالبينات والهدى بين الاحكام الخبرية والطلبية وأدلتها الدالة عليها بين المسائل والوسائل بين الدين ما يقال وما يعمل وبين أصوله التى بها يعلم أنه دين حق. وهذا المعنى قد ذكره الله تعالى في غير موضع. وبين أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ذكر هذا في سورة التوبة والفتح والصف والهدى هو هدى

الخلق الى الحق وتعريفهم ذلك وارشادهم اليه وهذا لا يكون الا بذكر الادلة والآيات الدالة على أن هذا هدى والا فمجرد خبر لم يعلم انه حق ولم يقم دليل على أنه حق ليس بهدى وهو سبحانه اذا ذكر الانبياء نبينا وغيره ذكر أنه أرسلهم بالآيات البينات وهي الادلة والبراهين البينة المعلومة علما يقينيا اذ كان كل دليل لا بد أن ينتهى الى مقدمات بينة بنفسها قد تسمى بديهيات وقد تسمى ضروريات وقد تسمى أوليات وقد يقال هى معلومة بأنفسها فالرسل صلوات الله عليهم بعثوا بالآيات البينات. وفي الصحيحين عنه ﷺ انه قال « ما من نبى من الانبياء الا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر وانما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » وهو سبحانه اذا خاطب جنس الانس ذكر جنس الانبياء وأثبت جنس ما جاءوا به واذا خاطب أهل الكتاب المقرين بنبوة موسى خاطبهم باثبات نبى بعده كما قال في سورة البقرة في خطابه لبنى اسرائيل لما ذكر ما ذكره من أحوالهم مع موسى وذكرهم بانعامه عليهم وبما فعلوه من السيئات ومغفرته لها قال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) ثم ذكر محمداً فقال (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين) فذكر سبحانه أنه أرسل المسيح اليهم بالبينات بعد ما أرسل قبله الرسل وأنهم تارة يكذبون الرسل وتارة يقتلونهم وذكر أنه أرسل عيسى بالبينات لانه جاء بنسخ بعض شرع التوراة بخلاف من قبله . ولهذا لم يذكر ذلك عنهم . وقال في موسى انه آتاه الكتاب لانهم كانوا مقرين بنبوته ولكن حرفوا كتابه في المعنى باتفاق الناس وحرفوا اللفظ أحيانا وفي بعض المواضع وهو تعالى قد ذكر في غير موضع أنه أرسل موسى بالآيات البينات فقال لما ناجاه (والق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً) ولم يعقب (ياموسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات

الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين . وقال في سورة القصص [ياموسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب فذنك برهانان من ربك الى فرعون وملئه انهم كانوا قوماً فاسقين) وقال تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) وقد قال تعالى لما قص قصص الرسل نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ونصره لهم واهلاك أعدائهم ثم ذكر الانبياء عموما فقال (وما أرسلنا في قرية من نبي الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون) الى قوله (أو لم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها ان لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون تلك القرى نقص عليك ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا لاكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) فقد أخبر أن أهل القرى كلهم الذين أهلكهم جاءتهم رسلهم بالبينات ولكن شابه متأخروهم متقدميهم فما كان هؤلاء ليؤمنوا بما كذب به أشباههم كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وهذا كقوله تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون) قال تعالى (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) فبين سبحانه أنه بعث موسى بآياته وقال في أثناء القصة انى رسول من رب العالمين حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فارسل معي بني اسرائيل فأخبر انه جاء ببينة من الله أى بآية بينة من الله بدليل من الله وبرهان فهي آية منه وعلامة منه على صدقي واني رسول منه فان قوله من ربكم متعلق بالرسول وبالآية يقال فلان قد جاء بعلامة من فلان فالعلامة منه والرسول منه والآية منه كما قال (فذانك برهانان من ربك) فدل على أن كل واحد من الرسول ومن آيات الرسول هو من الله تعالى قال له فرعون ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين وذكر القصة ومعارضة السحرة له الى أن قال فأوحينا الى موسى أن الق عصاك فاذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون

قال فرعون آمنتم به قبل أن أذن لكم ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين قالوا انا الى ربنا منقلبون وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين فذكر السحرة أنهم آمنوا بآيات ربهم لما جاءتهم وهم من أعلم الناس بالسحر لما علموا أن هذه الآيات آيات من الله كما قال موسى قد جئتكم ببينة من ربكم الى قوله فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين الى قوله فاغرقناهم في اليم بانهم كذبوا باياتنا وكانوا عنها غافلين وليس المراد بالآيات هنا كتابا منزلا فان موسى لما ذهب الى فرعون لم تكن التوراة قد نزلت وانما انزلت التوراة بعد ان غرق فرعون وخلص ببنى اسرائيل فاحتاجوا الى شريعة يعملون بها قال تعالى [ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ولكن تكذيبهم باياته انكارهم ان تكون آية من الله وقولهم انها سحر كما اخبر الله تعالى عنهم بقوله (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين وكانوا عنها غافلين لم يذكروها ويتأملوا ما دلت عليه من صدق موسى وانه مرسل من الله فالتكذيب ضد التصديق والغفلة عنها ضد النظر فيها ولهذا قيل النظر تجريد العقل عن الغفلات وقيل هو تحديق العقل نحو المرئى والاول هو النظر الطلبى وهو طلب ما يدله على الحق والثانى هو النظر الاستدلالى وهو النظر في الدليل الذى يوصله الى الحق وهذا الثانى هو الذى يوجب العلم فذمهم على الغفلة عن آيته يتضمن النوعين النظر فيها والتأمل لها والتذكر لها ضد الغفلة عنها وهى آيات معينة فاذا جرد العقل عن الغفلة عنها وحدقه للنظر فيها حصل له العلم بها وقد يحصل العلم بها ولكن يمتنع عن اتباعها لهواه كما قال الله عن قوم فرعون وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً فان الحق اذا ظهر صار معلوما بالضروة والآيات والدلائل الظاهرة تدل على لوازمها بالضرورة لكن اتباع الهوى يصد عن التصديق بها واتباع ما أوجبه العلم بها وهذه حال عامة المكذبين مثل مكذبى محمد وموسى وغيرهما فانهم علموا صدقهما علما يقينيا لما ظهر من آيات الصدق ودلائله الكثيرة لكن اتباع الهوى صد قال تعالى (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بايات الله يجحدون) وقال تعالى عن

قوم فرعون وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً وقال موسى لفرعون لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر ولهذا قال وكانوا عنها غافلين فعلموا انها حق وغفلوا عنها كما يغفل الانسان عما يعلمه ومنه الغفلة عن ذكر الله تعالى قال تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) وقال تعالى (واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) وقال تعالى (ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) فذكر الذين هم عن آياته غافلون هنا كما ذكرهم هناك وهناك وصفهم بالتكذيب بها مع الغفلة عنها وضد الغفلة التذكر والتذكر لآياته سبحانه وتعالى يوجب العلم بها وحضورها في القلب وهو موجب لاتباعها الا أن يمنعه هوى قال تعالى (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) فهو سبحانه لو علم فيهم خيراً وهو قصد الحق لأفهمهم لكنهم لا خير فيهم فلو أفهمهم لتولوا وهم معرضون . وقال تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فقال انى رسول رب العالمين فلما جاءهم باياتنا اذا هم منها يضحكون وما نريهم من آية الا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) وقد ذكر أن الايات التى هي دلائل النبوة منه في غير موضع غير ما تقدم كقوله تعالى (فائتياه فقولا انا رسولا ربك فارسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك باية من ربك والسلام على من اتبع الهدى انا قد أوحى الينا ان العذاب على من كذب وتولى قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربى في كتاب لا يضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الارض مهاداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ان في ذلك لايات لأولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى فلنأتينك بسحر مثله) الى قوله عن السحرة (لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات) وقال تعالى [ورسولا الى بنى اسرائيل انى قد جئتكم باية من ربكم] وقال

تعالى [وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى] فالآيات التى هي دلائل النبوة وبراهينها هي آيات من الله وعلامات منـه أنه أرسل الرسول وكما أن الايات التى هي كلامه تتضمن اخباره لعباده وأمره لهم ففيها الاعلام والالزام فكذلك دلائل النبوة هي آيات منه تتضمن اخباره لعباده بأن هذا رسوله وأمره لهم بطاعته ففيها الاعلام والالزام وكما أن آياته القولية زعم المكذبون أنها ليست كلامه ولا منه بل هي من قول البشر وزعموا أن الرسول افتراها أو من معه أو تعلمها من غيره فكذلك الآيات الفعلية زعم المكذبون أنها ليست آية منه وعلامة ودلالة منه على أن الرسول رسوله بل مما يفعله الرسول فيكذب وهذه من فعل المخلوقين لكنها عجيبة فهي سحر سحر بها الناس فلم [١] يكن من المكذبين من قال انها من الله ولكن لم يخلقها لنصدقك بها بل خلقها لا لشيء أو خلقها وان كنت كاذبا فانه قد يخلق مثل هذه على أيدى الكذابين ليضل بها الناس فان هذا وان كان يقال انه قبيح فانه لايقبح منه شيء كما أنه لم يكن في المكذبين من قال ان الكلام كلام الله لكنه كذب اذ الكذب وان كان قبيحا من المخلوق فالخالق لا يقبح منه شيء وهـذا لانه من المعلوم بالفطرة الضرورية لجميع بنى آدم أن الله لا يكذب ولا يفعل القبائح فلا يؤيد الكذاب بآيته ليضل بها الناس لكن قالوا ليست آية من الله بل هى سحر من عندك وهم وان كانوا قد يعلمون أن الله خالق كل شىء ففرق بين ما يفعله البشر ويتوصلون اليه بالاكتساب وبين مالا قدرة لهم على التوصل اليه بسبب من الاسباب وفرق بين ما قد علموا أنه يخلقه لغير تصديق الرسل كالسحر فانه لم يزل معروفا في بنى آدم فقد علموا أنه لايخلقه آية وعلامة لنبى اذ كان موجوداً لغير الانبياء معتاداً منهم وان كان عجيبا خارجا عن العادة عند من لم يعرفه بل كان المكذبون يطالبون الرسل بالايات كقول فرعون فأت بآية ان كنت من الصادقين وقول قوم صالح له انما أنت من المسحرين ما أنت الا بشر مثلنا فأت بآيه ان كنت من الصادقين وكانت الانبياء تأتى بالايات وهى آيات بينات فيكذبون بها كما يكذب المعاند بالحق الظاهر المعلوم كما قال فرعون انه ساحر ولما

---

[١] قوله [فلم يكن] أى فلم يوجد فكان هنا تامة بمعنى وجد وكذا هي في قوله بعد كما لم أنه يكن من المكذبين

غلب السحرة وآمنوا واعترفوا بأن هذه آية من الله قال لهم فرعون انه لكبيركم الذى علمكم السحروان هذا لمكرمكر تموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها وهذا كذب ظاهر فان موسى جاء من الشام ولم يجتمع بالسحرة انما فرعون جمعهم ولم يكن دين موسى دين السحرة ولا مقصوده مقصودهم بل هم وهو في غاية التعادى والتباين وكذلك سائر السحرة والكهنة مع الانبياء من أعظم الناس ذما لهم وأمرا بقتلهم مع تصديق الانبياء بعضهم ببعض وايجاب بعضهم الايمان ببعض وهم يأمرون بقتل من يكذب نبيا ويأمرون بقتل السحرة ومن آمن بهم والسحرة يذم بعضهم بعضاً والانبياء يصدق بعضهم بعضاً وهؤلاء يأمرون بعبادة الله وحده والصدق والعدل ويتبرأون من الشرك وأهله وهؤلاء يحبون أهل الشرك ويوالونهم ويبغضون أهل التوحيد والعدل فهذان جنسان متعاديان كتعادى الملائكة والشياطين كما قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم ومايفترون ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) فمن جعل النبى ساحراً أو مجنونا هو بمنزلة من جعل الساحر أو المجنون نبياً وهذا من أعظم الفرية والتسوية بين الاضداد المختلفة وهو شر من قول من يجعل العاقل مجنونا والمجنون عاقلا أو يجعل الجاهل عالما والعالم جاهلا فان الفرق بين النبى وبين الساحر والمجنون أعظم من الفرق بين العاقل والمجنون والعالم والجاهل وموسى صلوات الله عليه أمر بتصديق من يأتى بعده من الانبياء الصادقين كما أمر بتكذيب الكذابين وأما السحرة فانه أمر بقتلهم وفي التوراة سأقيم لبنى اسرائيل من اخوتهم نبيا مثلك اجعل كلامى على فمه كما يسمعون وهذا يقتضى طاعة من يقوم بعده من الانبياء ثم من الناس من يعين هذا فاليهود يقولون هو يوشع والنصارى يقولون هو المسيح وبعض المسلمين يقولون هو محمد ﷺ يحتجون على ذلك بحجج كثيرة قد ذكرت في غير هذا الموضع ومنهم من يقول بل هذا اسم جنس وهو عام في كل نبى يأتى بعده لئلا يكذبوه كما فعلت اليهود وانكروا النسخ وهذا القول اقرب فيدخل في هذا المسيح ومحمد ومن قبلهما من انبياء بنى اسرائيل فان المقصود أمرهم بتصديق الانبياء وطاعتهم وان الله سبحانه ينزل على الانبياء كلامه فالذى يقولونه هو كلام الله ما سمعوا منه وبسط هذا له موضع

آخر وقد بسط القول في أن الناس يعلمون بالضرورة أن الآيات التى يأتى بها الانبياء آيات من الله وعلامة أعلم بها عباده أنه أرسلهم وأمرهم بطاعتهم والذين كذبوا بها كانوا يقولون ليست من الله بل هى سحر أو كهانة أو نحو ذلك لا يقرون بأنهـا آية من الله ويقولون مع ذلك قد يخلقها الله لغير التصديق أو يخلقها ليضل بها الخلق أو نحو ذلك فان بسط هذه الامور له موضع آخر والمقصود هنا أن الرسول بين للناس الادلة والبراهين الدالة على أصول الدين كلها كما قد ذكر سبحانه هـذا في مواضع كقوله (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله) وقوله (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) ومن ذلك قوله تعالى (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وقد وصف الرسول بذلك في مواضع فذكر هذا في البقرة في دعوة ابراهيم وفي قوله تعالى [كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة] وفي قوله [واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به] وهنا لم يذكر يتلو عليهم آياته ويزكيهم لحكمة تختص بذلك وذكر هذا في آل عمران في قوله [لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة] وقد قال [واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة] وهذا شبه الموضع الثالث في البقرة . فأخبر في غير موضع عن الرسول انه يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فالتلاوة والتزكية عامة لجميع المؤمنين فتلاوة الآيات يحصل بها العلم فان الآيات هي العلامات والدلالات فاذا سمعوها دلتهم على المطلوب من تصديق الرسول فيما أخبر والاقرار بوجوب طاعته وأما التزكيـة فهى تحصل بطاعته فيما يأمرهم به من عبادة الله وحده وطاعته فالتزكية تكون بطاعة مره كما أن تلاوة آياته يحصل بها العلم وسميت آيات القرآن آيات وقيل انها آيات الله كقوله [تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق] لانها علامات ودلالات على الله وعلى ما أراد فهى تدل على ما أخبر به وعلى ما أمر به ونهى عنه وتدل أيضاً على أن الرسـول

صادق اذ كانت مما لا يستطيع الانس والجن ان يأتوا بمثلها وقد تحداهم بذلك كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع وأيضاً فهى نفسها فيها من بينات الادلة والبراهين ما يبين الحق فهى آيات من وجوه متعددة ثم قال [ويعلمهم الكتاب والحكمة] وهذا لمن يعلم ذلك منهم وقد يتعلم الشخص منهم بعض الكتاب والحكمة فالكتاب هو الكلام المنزل الذى يكتب والحكمة هي السنة وهي معرفة الدين والعمل به وقد قال تعالى [وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون] وقال تعالى [واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا] ففرق بين الآيات الدالة على العلم التى يعلم بالعقل انها دلائل للرب وبين النذر وهو الاخبار عن المخوف كاخبار الانبياء بما يستحقه العصاة من العذاب فهذا يعلم بالخبر والنذر ولهذا قال وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وأما الآيات فتعلم دلالتها بالعقل والانبياء جاؤا بالآيات والنذر وقال تعالى [وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر] وقال تعالى [وان يكذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤا بالبينات والزبر والكتاب المنير] ومثل هذا كثير يذكر أن جميع الانبياء جاؤا بالآيات التى تعلم دلالتها بالعقل ولما كان كثير من الناس مقصرين فيما جاء به الرسول قد أخرجوا ماتعلم دلالته بالعقل عن مسمى الشرع تنازع الناس في معرفة الله وتوحيده وأصول الدين هل يجب ويحصل بالشرع أو يجب بالشرع ويحصل بالعقل أو يجب ويحصل بالعقل على ثلاثة أقوال مشهورة لاصحاب الامام احمد وغيرهم من اتباع الأئمة الاربعة فطائفة يقولون يجب بالشرع ويحصل به وهو قول السالمية وغيرهم مثل الشيخ أبى الفرج المقدسى وهذا هو الذى حكاه عن أهل السنة من أصحاب أحمد وغيرهم وكذلك من شابههم مثل ابن درباس وابن شكر وغيرهما من أصحاب الشافعى وهو المشهور عن أهل الحديث والفقه الذين يذمون الكلام وهذا مما وقع فيه النزاع بين صدقة ابن الحسين الحنبلى المتكلم وبين طائفة من أصحاب احمد وكذلك بين أبى الفرج ابن الجوزى وطائفة منهم أولئك يقولون الوجوب والحصول بالشرع وهؤلاء يقولون الحصول بالعقل والوجوب بالشرع وقد ذكر الآمدى ثلاثة أقوال في طرق العلم قيل بالعقل فقط والسمع لا يحصل به كقول الرازى وقيل بالسمع فقط وهو الكتاب والسنة وقيل بكل منهما ورجح هذا وهو الصحيح والقول الثانى انها لا تجب الا بالشرع لكن

يحصل بالعقل وهو قول الاشعرى وأصحابه ومن وافقهم كالقاضى أبى يعلى وابن الزاغونى وابن عقيل وغيرهم والقول الثالث انها تحصل بالعقل وتجب به وهو قول من يوجب بالعقل كالمعتزلة والكرامية وغيرهم من أتباع الأئمة كأبي الحسن الآمدى وأبى الخطاب وغيرهم وهو قول طائفة من المالكية والشافعية وعليه أكثر الحنفية ونقلوه عن أبي حنيفة نفسه وقد صرح هؤلاء قبل المعتزلة وقبل أبي بكر الرازى وأبى الخطاب وغيرهم أن من لم يأته رسول يستحق العقوبة في الآخرة لمخالفته موجب العقل وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن أعدل الاقوال أن الافعال مشتملة على أوصاف تقتضى حسنها ووجوبها وتقتضى قبحها وتحريمها وان ذلك قد يعلم بالعقل لكن الله لا يعذب أحداً الا بعد بلوغ الرسالة كما قال [وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا] ولم يفرق سبحانه بين نوع ونوع وذكرنا أن هذه الآية يحتج بها الاشعرى وأصحابه ومن وافقهم كالقاضى أبى يعلى وأتباعه وهم يجوزون ان الله يعذب في الآخرة بلا ذنب حتى قالوا يعذب أطفال الآخرة فاحتجوا بها على المعتزلة والآية حجة على الطائفتين كما قد بسط في غير هذا الموضع ☆

فصل

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الحجة على من أنكر قدرته وعلى من أنكر حكمته فأول ما أنزل الله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) فذكر أنه الاكرم وهو أبلغ من الكريم وهو المحسن غاية الاحسان ومن كرمه أنه علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم فعلمه العلوم بقلبه والتعبير عنها بلسانه وان يكتب ذلك بالقلم فذكر التعليم بالقلم يتناول علم العبارة والنطق وعبارة المعانى والعلوم فاذا كان قد علمه هذه العلوم [١] فكيف يمتنع عليه أن يعلمه ما يأمره به وما يخبره به وبيان ذلك أنه قال فى أول السورة [اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق] ومعلوم ان من رأى العلقة قطعة من دم فقيل له هذه العلقة يصير منها انسان يعلم كذا وكذا لكان يتعجب من هذا غاية التعجب وينكره أعظم الانكار

[١] هكذا الاصل ولعله الامور

ومعلوم أن نقل الانسان من كونه علقة الى أن يصير انسانا عالما قادراً كاتباً أعظم من جعل مثل هذا الانسان يعلم ما أمر الله به وما أخبر به فمن قدر على أن ينقله من الصغر الى أن يجعله عالماً قارئاً كاتباً كان أن يقدر على جعله عالماً بما أمر به وبما أخبر به أولى وأحرى وهـذا كما استدل على قدرته على اعادة الخلق بقدرته على الابتداء وقـد أخبر الله تعالى عن الكفار أنهم تعجبوا من التوحيد ومن النبوة ومن المعاد فقال تعالى [ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هـذا ساحر كذاب أجعل الآلهة الهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب] فذكر تعجبهم من التوحيد والنبوة وقال تعالى [أكان للناس عجبا ان أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم] وهذا أيضاً تعجب من أن أرسل اليهم رجل منهم وقوله [أكان للناس عجباً ان أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس] دل على أنه منـذر لجنس الناس وانه من جنس الناس لا يختص به العرب دون غـيرهم وان كان أول ما أرسل اليهم وبلسانهم وقال تعالى [ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هـذا شيء عجيب أاذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد] وقال تعالى [وان تعجب فعجب قولهم أاذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جـديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الاغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النـار هم فيها خالدون] وقال تعالى [بل عجبت ويسخرون واذا ذكروا لا يذكرون واذا رأوا آية يستسخرون] فالرسول كان يعجب من تكذيبهم لما جاءهم به من آيات الأنبياء وهم يعجبون مما جاء به لكونه خارجا عما اعتادوه من النظائر فانهم لم يعرفوا قبل مجيئه لا توحيداً ولا نبوة ولا معاداً قال تعالى [قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فان شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون] وأما حكمته في ارسـال بشر فقد ذكر أنه من جنسهم وأنه بلسانهم فهو أتم في الحكمة والرحمة وذكر أنهم لا يمكنهم الاخذ عن الملك وأنه لو نزل ملـكا لكان يجعله في صورة بشر ليأخذوا عنه ولهذا لم يكن البشر يرون الملائكة الا في صورة الآدميين كما كان جبريل يأتي في صورة دحية الكلبي وكما أتى مرة في صورة أعرابي ولما جاؤا ابراهيم

وامرأته حاضرة كانوا في صورة بشر وبشروها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب
قال تعالى [وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشراً
رسولا قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا
رسولا] وأما قدرته على تعريف الخلق بانه نبيه فكما تقدم فانه اذا كان قادراً على أن
يهدى الانسان الذى كان علقة ومضغة الى أنواع العلوم بأنواع من الطرق انعاما عليه
وفي ذلك من بيان قدرته وحكمته ورحمته ما فيه فكيف لا يقدر أن يعرفه صدق
من أرسله اليه وهذا أعظم النعم عليه والاحسان اليه والتعريف بهذا دون تعريف
الانسان ما عرفه به من أنواع العلوم فانه اذا كان هداهم الى أن يعلم بعضهم صدق
رسول من أرسله اليه بشر مثله بعلامات يأتى بها الرسول وان كان لم تتقدم مواطأة
وموافقة بين المرسل والمرسل اليهم فمن هدى عباده الى أن يرسلوا رسولا بعلامة
ويعلم المرسل اليه أنها علامة تدل على صدقه قطعاً فكيف لا يقدر هو أن يرسل
رسولا ويجعل معه علامات يعرف بها عباده أنه قد أرسله وهذا كمن جعل غيره
قديراً عليما حكيما فهو أولى أن يكون قديراً عليما حكيما فمن جعل الناس يعلمون صدق
رسول يرسله بعض خلقه بعلامات يعلم بها المرسل صدق رسوله فمن هدى العباد الى
هذا فهو أقدر على أن يعلمهم صدق رسوله بعلامات يعرفون بها صدقه وان لم يكن
قبل ذلك قد تقدم بينهم وبينه مواطأة وللناس طرق في دلالة المعجزة على صدق
الرسول طريق الحكمة وطريق القدرة وطريق العلم والضرورة وطريق سنته وعادته
التى بها يعرف أيضاً ما يفعل وهو من جنس المواطأة وطريق العدل وطريق الرحمة
وكلها طرق صحيحة وكلما كان الناس الى الشيء أحوج كان الرب به أجود
وكذلك كلما كانوا الى بعض العلم أحوج كان به أجود فانه سبحانه
الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم وهو الذى خلق
فسوى والذى قدر فهدى وهو الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى فكيف لا يقدر
أن يهدى عباده الى أن يعلموا أن هذا رسوله وان ما جاء به من الآيات آية من الله
وهى شهادة من الله له بصدقه وكيف تقتضى حكمته أن يسوى بين الصادق والكاذب
فيؤيد الكاذب من آيات الصدق بمثل ما يؤيد به الصادق حتى لا يعرف هذا من

هذا وأن يرسل رسولا يأمر الخلق بالايمان به وطاعته ولا يجعل لهم طريقاً الى معرفة صدقه وهذا كتكليفهم بما لا يقدرون عليه وما لا يقدرون على أن يعلموه وهذا ممتنع في صفة الرب وهو منزه عنه سبحانه فانه لا يكلف نفساً الا وسعها وقد علم من سنته وعادته أنه لا يؤيد الكذاب بمثل ما أيد به الصادق قطبل لابد أن يفضحه ولا ينصره بل لابد أن يهلكه واذا نصر ملكا ظالماً مسلطاً فهو لم يدع النبوة ولا كذب عليه بل هو ظالم سلطه على ظالم كما قال تعالى (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً) بخلاف من قال أنه أرسله فهذا لا يؤيده تأييداً مستمراً الا مع الصدق لكن قد يمهله مدة ثم يهلكه كما فعل بمن كذب الرسل أنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ولفظ النبى كلفظ الرسول هو في الاصل انما قيل مضافا الى الله فيقال رسول الله ثم عرف باللام فكانت اللام تعاقب الاضافة كقوله (فارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول) وقوله (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منهم لواذا) وكذلك اسم النبى يقال نبى الله كما قال (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين) وقيل لهم (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) فتقولون يا محمد بل قولوا يانبى الله يارسول الله ورسول فعول بمعنى مفعول أى مرسل فرسول الله الذى ارسله الله فكذلك نبى الله هو بمعنى مفعول أى منبأ الله الذى نبأه الله وهذا أجود من أن يقال انه بمعنى فاعل أى منبئ فانه اذا نبأه الله فهو نبى الله سواء أنبأ بذلك غيره أو لم ينبئه فالذى صار به النبى نبيا أن ينبئه الله وهذا مما يبين ما امتاز به عن غيره فانه اذا كان الذى ينبئه الله كما أن الرسول هو الذى يرسله الله فما نبأ الله حق وصدق ليس فيه كذب لا خطأ ولا عمداً وما يوحيه الشيطان هو من ايحائه ليس من أنباء الله فالذى اصطفاه الله لانبائه وجعله نبياً له كالذى اصطفاه الرسالته وجعله رسولا له فكما أن رسول الله لا يكون رسولا لغيره فلا يقبل أمر غير الله فكذلك نبى الله لا يكون نبياً لغير الله فلا يقبل أنباء أحد الا أنباء الله واذا أخبر بما أنبأ الله وجب الايمان به فانه صادق مصدوق ليس في شئ مما أنبأه الله به شئ من وحى الشيطان وهذا بخلاف غير النبى فانه وان كان قد يلهم ويحدث ويوحى اليه أشياء من الله ويكون حقاً فقد يأتى اليه الشيطان أشياء ويشتبه هذا بهذا فانه ليس نبياً لله

كما أن الذى يأمر بطاعة الله غير الرسول وان كان أكثر ما يأمر به هو طاعة الله فقد يغلط ويأمر بغير طاعة الله بخلاف الرسول المبلغ عن الله فانه لا يأمر الا بطاعة الله قال تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال تعالى (وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله) فنبي الله هو الذى ينبئه الله لا غيره ولهـذا أوجب الله الايمان بما أوتيه النبيون فقال تعالى [قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحـد منهم ونحن له مسلمون] وقال تعالى [آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله] وقال تعالى [ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين] وليس كل من أوحى اليه الوحى العام يكون نبياً فانه قد يوحى الى غير الناس قال تعالى [وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون] وقال تعالى (وأوحى في كل سماء أمرها) وقال تعالى عن يوسف وهو صغير [فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون] وقال تعالى [وأوحينا الى أم موسى أن ارضعيه] وقال تعالى [واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى] وقوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً) يتناول وحى الانبيـاء وغيرهم كالمحدثين الملهمين كما في الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال « قد كان في الامم قبلكم محدثون فان يكن في أمتى أحـد فعمر منهم » وقال عبادة بن الصامت رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه فهؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون يوحى اليهم هذا الحديث الذى هو لهم خطاب و الهام وليسوا بأنبياء معصومين مصدقين في كل ما يقع لهم فانه قد يوسوس لهم الشيطان بأشياء لا تكون من ايحاء الرب بل من ايحاء الشيطان وانما يحصل الفرقان بما جاءت به الانبياء فهم الذين يفرقون بين وحى الرحمن ووحى الشيطان فان الشياطين أعداؤهم وهم يوحون بخلاف وحى الانبياء قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون) وقال تعالى (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون) وقد غلط في النبوة

طوائف غير الذين كذبوا بها اما ظاهراً أو باطناً واما باطنا كالمنافق المحض بل الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل الى الرسول والى من قبله وهم خلق كثير فيهم شعبة نفاق وان لم يكونوا مكذبين للرسول من كل وجه بل قد يعظمونه بقلوبهم ويعتقدون وجوب طاعته في أمور دون أمور وأبعد هؤلاء عن النبوة المتفلسفة والباطنية والملاحدة. فان هؤلاء لم يعرفوا النبوة الا من جهة القدر المشترك بين بنى آدم وهو المنام. وليس في كلام أرسطو واتباعه كلام في النبوة. والفارابى جعلها من جنس المنامات فقط ولهذا يفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبى. وابن سينا عظمها أكثر من ذلك فجعل للنبى ثلاث خصائص: أحدها أن ينال العلم بلا تعلم. ويسميها القوة القدسية وهى القوة الحدسية عنده. والثانى أن يتخيل في نفسه ما يعلمه فيرى في نفسه صوراً نورانية ويسمع في نفسه أصواتاً كما يرى النائم في نومه صوراً تكلمه ويسمع كلامهم وذلك موجود في نفسه لا في الخارج فهكذا عند هؤلاء جميع ما يختص به النبى مما يراه ويسمعه دون الحاضرين انما يراه في نفسه ويسمعه في نفسه وكذلك المرور عندهم. والثالث أن يكون له قوة يتصرف بها في هيولى العالم باحداث أمور غريبة وهي عندهم آيات الانبياء وعندهم ليس في العالم حادث الا عن قوة نفسانية أو ملكية أو طبعية كالنفس الفلكية والانسانية والاشكال الفلكية والطبائع التى للعناصر الاربعة والمولدات لا يقرون بأن فوق الفلك نفسه شيء يفعل ولا يحدث شيئاً. فلا يتكلم ولا يتحرك بوجه من الوجوه لا ملك ولا غير ملك فضلا عن رب العالم. والعقول التى يثبتونها عندهم ليس فيها تحول من حال الى حال البتة لا بارادة ولا قول ولا عمل ولا غير ذلك وكذلك المبدأ الاول. وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل في نفوس الانبياء انما هو من فيض العقل الفعال ثم أنهم لما سمعوا كلام الانبياء أرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم. فصاروا يأخذون الفاظ الانبياء فيضعونها على معانيهم ويسمون تلك المعانى بتلك الالفاظ المنقولة عن الانبياء ثم يتكلمون ويصفون الكتب بتلك الالفاظ المأخوذة عن الانبياء فيظن من لم يعرف مراد الانبياء ومرادهم أنهم عنوا بها ما عنته الانبياء. وضل بذلك طوائف وهذا موجود في كلام ابن سينا ومن أخذ عنه وقد ذكر الغزالى ذلك عنهم تعريفاً بمذهبهم وربما حذر عنه ووقع في كلامه طائفة من هذا فى الكتب المضنون بها على غير

أهلها وفي غير ذلك حتى في كتابه الاحياء يقول الملك والملكوت والجبروت ومقصوده الجسم والنفس والعقل الذى أثبتته الفلاسفة ويذكر اللوح المحفوظ ومراده به النفس الفلكية الى غير ذلك مما قد بسط في غير هذا الموضع وهو في التهافت وغيره يكفرهم وفي المضنون به يذكر ما هو حقيقة مذهبهم حتى يذكر في النبوات عين ما قالوه وكذلك في الالهيات وهذه الصفات الثلاث التى جعلوها خاصة الانبياء توجد لعموم الناس بل توجد لكثير من الكفار من المشركين وأهل الكتاب فانه قد يكون لاحدهم من العلم والعبادة ما يتميز به على غيره من الكفار ويحصل له بذلك حدس وفراسة يكون أفضل من غيره وأما التخييل في نفسه فهذا حاصل لجميع الناس الذين يرون في مناماتهم مايرون لكن هو يقول أن خاصة النبى أن يحصل له في اليقظة ما حصل لغيره في المنام وهذا موجود لكثير من الناس قد يحصل له في اليقظة ما يحصل لغيره في المنام ويكفيك أنهم جعلوا مثل هذا يحصل للممرور وللساحر ولكن قالوا الساحر قصده فاسد والممرور ناقص العقل فجعلوا ما يحصل للانبياء من جنس ما يحصل للمجانين والسحرة وهذا قول الكفار في الانبياء كما قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أومجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون) وهؤلاء عندهم ما يحصل للنبى من المكاشفة والخطاب هو من جنس ما يحصل للساحر والمجنون لكن الفرق بينه وبين الساحر أنه يأمر بالخير وذاك يأمر بالشر والمجنون ما له عقل وهذا القدر الذى فرقوا به موجود في عامة الناس فلم يكن عندهم للانبياء مزية على السحرة والمجانين الا ما يشاركهم فيه عموم المؤمنين وكذلك ما أثبتوه من القوة الفعالة المتصرفة هى عندهم تحصل للساحر وغيره وذلك أنهم لا يعرفون الجن والشياطين وقد أخبروا بأمور عجيبة في العالم فأحالوا ذلك على قوة نفس الانسان فما يأتى به الانبياء من الآيات والسحرة والكهان وما يخبر به المصروع والممرور هو عندهم كله من قوة نفس الانسان فالخبر بالغيب هو لاتصالها بالنفس الفلكية ويسمونها اللوح المحفوظ والتصرف هو بالقوة النفسانية وهذا حذق ابن سينا وتصرفه لما أخبر بأمور في العالم غريبة لم يمكنه التكذيب بها فاراد اخراجها على أصولهم وصرح بذلك في اشاراته وقال هذه الامور

لم نثبتها ابتداء بل لما تحققنا أن في العالم أموراً من هذا الجنس أردنا أن نبين أسبابها وأما أرسطو وأتباعه فلم يعرفوا هذه الامور الغريبة ولم يتكلموا عليها ولا على آيات الانبياء ولكن كان السحر موجوداً فيهم وهؤلاء من أبعد الامم عن العلوم الكلية والالهية فان حدوث هذه الغرائب من الجن واقترانهم بالسحرة والكهان مما قد عرفه عامة الامم وذكروه في كتبهم غير العرب مثل الهند والترك وغيرهم من المشركين وعباد الاصنام وأصحاب الطلاسم والعزائم وعرفوا أن كثيراً من هذه الخوارق هو من الجن والشياطين وهؤلاء الجهال لم يعرفوا ذلك ولهذا كان من أصلهم أن النبوة مكتسبة وكان السهروردى المقتول يطلب أن يكون نبياً وكذلك ابن سبعين وغيره والنبوة الحق هى أنباء الله لعبده ونبى الله من كان الله هو الذى ينبئه ووحيه من الله وهؤلاء وحيهم من الشياطين فهم من جنس المتنبئين الكذابين كمسيلمة الكذاب وأمثاله بل أولئك أحذق منهم فانهم كانت تأتيهم أرواح فتكلمهم وتخبرهم بأمور غائبة وهى موجودة في الخارج لا في أنفسهم وهؤلاء لا يعرفون مثل هذا ووجود الجن والشياطين في الخارج وسماع كلامهم أكثر من أن يمكن سطر عشره هنا وكذلك صرعهم للانس وتكلمهم على ألسنتهم والفرق بين النبى الساحر أعظم من الفرق بين الليل والنهار والنبى يأتيه ملك كريم من عند الله ينبئه الله والساحر والكاهن انما معه شيطان يأمره ويخبره قال تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) فلا الخبر كالخبر ولا الامر كالامر ولا مخبر هذا كمخبر هذا ولا آمر هذا كآمر هذا كما أنه ليس هذا مثل هذا ولهذا قال تعالى لما ذكر الذى جاء بالقرآن الى محمد وانه ملك منفصل ليس خيالا في نفسه كما يقوله هؤلاء قال تعالى (انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالافق المبين وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون ان هو الا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين) فالقرآن قول رسول أرسله الله لم يرسله الشيطان وهو ملك كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين فهو مطاع عند ذى العرش في الملأ الأعلى والشياطين لا يطاعون لا في السموات بل ولا يصعدون اليها وابليس من حين أهبط منها لم يصعد اليها ولهذا كان أصح القولين

أن جنة آدم جنة التكليف لم تكن فى السماء فان ابليس دخل الى جبة التكليف جنه
آدم بعد اهباطه من السماء وقول الله له [فاخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتى الى
يوم الدين] وقوله قال [فاخرج منها مذموما مدحوراً] لكن كانت في مكان عال في الارض
من ناحية المشرق ثم لما أكل من الشجرة أهبط منها الى الارض كما قد بسط هذا في
غير هذا الموضع ولفظ الجنة في غير موضع من القرآن يراد به بستان في الارض كقوله
[انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة] وقوله (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين
من أعناب) الى قوله (كلتا الجنتين أتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً) الى قوله (ودخل جنته وهو
ظالم لنفسه) وقوله تعالى (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من
أنفسهم كمثل جنة بربوة) الآية الى قوله (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب)
الآية ، وقوله تعالى (لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال) الى قوله
وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط واثل وشيء من سدر قليل وقوله (كم تركوا من
جنات وعيون)الآية وقوله(أتتركون فيما ههنا آمنين في جنات وعيون)وجنة الجزاء
والثواب التى في السماء لم يدخلها الشيطان بعد أن أهبط من السماء وهو أهبط من السماء
لما امتنع من السجود لآدم قبل أن يدخل آدم الى جنته التكليف التى وسوس له
وأخرجه منها وجنه الجزاء مخلوقة أيضاً وقد أنكر بعض أهل البدع أن تكون مخلوقة
وقال ان آدم لم يدخلها لكونها لم تخلق بعد فأنكر ذلك عليه من أنكره من علماء السنة
وقد ذكر أبو العالية وغيره من السلف أن الشجرة التى نهى عنها آدم كان لها غائط
فلما أكل احتاج الى الغائط وجنة الجزاء ليس فيها هذا لكن الله أعلم بصحة هذا النقل
وانما المقصود أن بعض السلف كان يقول أنها في السماء وبعضهم يقول أنها في مكان
عال من الارض ولفظ الجنة في القرآن قد ذكر فيما شاء الله من المواضع وأريد به جنة
في الارض وجنة الجزاء مخصوصة بمما تهم كقوله (قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون
بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) فان أرواح المؤمنين تدخل الجنة من حين
الموت كما في هذه الآية (قيل أدحل الجنة قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى
وجعلنى من المكرمين)قال تعالى (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء
وما كنا منزلين ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون) وقال تعالى (ولا تحسبن

الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) وقال تعالى لما ذكر أحوال الموتى عند الموت (فأما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما ان كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما ان كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم) وهذا غير ما ذكره في أول السورة من انقسامهم يوم القيامة الكبرى الى سابقين وأصحاب يمين ومكذبين فانه سبحانه ذكر في أول السورة انقسامهم في القيامة الكبرى وذكر في آخرها انقسامهم عند الموت وهو القيامة الصغرى كما قال المغيرة بن شعبة من مات فقد قامت قيامته وكذلك قال علقمة وسعيد بن جبير عن ميت أما هذا فقد قامت قيامته أى صار الى الجنة أو النار وان كان بعد هذا تعاد الروح الى البدن ويقعد بقبره ومقصودهم أن الشخص لايستبطىء الثواب والعقاب فهو اذا مات يكون في الجنة أو في النار قال تعالى عن قوم نوح (مما خطاياهم أغرقوا فادخلوا نارا) وقال عن آل فرعون (النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) وبسط هذا له موضع آخر (والمقصود هنا) الكلام على النبوة فهؤلاء المتفلسفة ماقدروا النبوة حق قدرها وقد ضل بهم طوائف من المتصوفة المدعين للتحقيق وغيرهم وابن عربي وابن سبعين ضلوا بهم فانهم اعتقدوا مذهبهم وتصوفوا عليه ولهذا يقول ابن عربي ان الاولياء أفضل من الانبياء وان الانبياء وسائر الاولياء يأخذون عن خاتم الانبياء علم التوحيد وانه هو يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به الى الرسول فان الملك عنده هو الخيال الذى في النفس وهو جبريل عندهم وذلك الخيال تابع للعقل فالنبى عندهم يأخذ عن هذا الخيال مايسمعه من الصوت في نفسه ولهذا يقولون ان موسى كلم من سماء عقله والصوت الذى سمعه كان في نفسه لا في الخارج ويدعى أحدهم أنه أفضل من موسى وكما ادعى ابن عربى أنه أفضل من محمد فانه يأخذ عن العقل الذى يأخذ منه الخيال والخيال عنده هو الملك الذى يأخذ منه النبي فلهذا قال فانه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به الى النبى قال فان عرفت هذا فقد حصل لك العلم النافع وبسط الكلام على هؤلاء له مواضع أخر (والمقصود هنا) الكلام على النبوة فالنبى هو الذى ينبئه الله وهو ينبىء بما أنبأ الله به فان أرسل مع ذلك الى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله اليه فهو رسول وأما اذا كان انما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو الى

أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان في أمنيته) وقوله (من رسول ولا نبي) فذكر ارسالا يعم النوعين وقد خص أحدهما بأنه رسول فان هذا هو الرسول المطلق الذى أمره بتبليغ رسالته الى من خالف الله كنوح وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث الى أهل الارض وقد كان قبله أنبياء كشيث وادريس وقبلهما آدم كان نبيا مكلما قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام فأولئك الانبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم لكونهم مؤمنين بهم كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول وكذلك أنبياء بني اسرائيل يأمرون بشريعة التوراة وقد يوحى الى أحدهم وحي خاص في قصة معينة ولكن كانوا في شرع التوراة كالعالم الذى يفهمه الله في قضية معنى يطابق القرآن كما فهم الله سليمان حكم القضية التى حكم فيها هو وداود فالانبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر والامر والنهى فان ارسلوا الى كفار يدعونهم الى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ولا بد أن يكذب الرسل قوم قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون) وقال (ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك) فان الرسل ترسل الى مخالفين فيكذبهم بعضهم وقال (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فننجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) وقال [انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد] فقوله [وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي] دليل على أن النبي مرسل ولا يسمى رسولا عند الاطلاق لانه لم يرسل الى قوم بما لا يعرفونه بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه انه حق كالعالم ولهذا قال النبي ﷺ العلماء ورثة الانبياء وليس من شرط الرسول أن يأتى بشريعة جديدة فان يوسف كان رسولا وكان على ملة ابراهيم وداود وسليمان كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة قال تعالى عن مؤمن آل فرعون ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات

فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) وقال تعالى[انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما] والارسال اسم عام يتناول ارسال الملائكة وارسال الرياح وارسال الشياطين وارسال النار قال تعالى (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس] وقال تعالى (جاعل الملائكة رسلا أولى اجنحة) فهنا جعل الملائكة كلهم رسلا والملك في اللغة هو حامل الالوكة وهي الرسالة وقد قال في موضع آخر (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) فهؤلاء الذين يرسلهم بالوحى كما قال وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء وقال تعالى [وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته) وقال تعالى [انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً] لكن الرسول المضاف الى الله اذا قيل رسول الله فهم من يأتى برسالة من الله من الملائكة والبشر كما قال (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) وقالت الملائكة [يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك] وأما عموم الملائكة والرياح والجن فان ارسالها لتفعل فعلا لا لتبلغ رسالة قال تعالى [اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً] فرسل الله الذين يبلغون عن الله أمره ونهيه هي رسل الله عند الاطلاق وأما من أرسله الله ليفعل فعلا بمشيئة الله وقدرته فهذا عام يتناول كل الخلق كما أنهم كلهم يفعلون بمشيئته واذنه المتضمن لمشيئته لكن أهل الايمان يفعلون بأمره ما يحبه ويرضاه ويعبدونه وحده ويطيعون رسله والشياطين يفعلون بأهوائهم وهم عاصون لامره متبعون لما يسخطه وان كانوا يفعلون بمشيئته وقدرته وهذا كلفظ البعث يتناول البعث الخاص البعث الشرعى كما قال (هو الذى بعث في الاميين رسولا منهم) ويتناول البعث العام الكونى كقوله (فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار) وقال تعالى [واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) فالعام بحكم مشيئته وقدرته والخاص هو أيضا بحكم مشيئته وقدرته وهو مع ذلك بحكم أمره ورضاه ومحبته وصاحب الخاص من

اولياء الله يكرمه ويثبته وأما من خالف أمره فانه يستحق العقوبة ولو كان فاعلا بحكم المشيئة فان ذلك لا يغنى عنه من الله شيئاً ولا يحتج بالمشيئة على المعاصى الا من تكون حجته داحضة ويكون متناقضاً متبعاً لهواه ليس عنده علم بما هو عليه كالمشركين الذين قالوا (لوشاء الله ما أشركنا ولا أباؤنا ولا حرمنا من شيء) كما قد بسط في غير هذا الموضع والله أعلم ☆

فصل

الدليل الذى هو الآية والبرهان يجب طرده كما تقدم فانه لو كان تارة يتحقق مع وجود المدلول عليه وتارة يتحقق مع عدمه فاذا تحقق لم يعلم هل وجد المدلول أم لا فانه كما يوجد مع وجوده يوجد مع عدمه ولهذا كان الدليل اما مساويا للمدلول عليه وأما أخص منه لا يكون أعم من المدلول ولهذا لم يكن للامور المعتادة دلالة على ما هو أخص كطلوع الشمس والقمر والكواكب لا يدل على صدق احد ولا كذبه لا مدعى النبوة ولا غيره فانها توجد مع كذب الكاذب كما توجد مع صدق الصادق لكن يدل على ماهو أعم منها وهو وجود الرب وقدرته ومشيئته وحكمته فان وجود ذاته وصفاته ثابت سواء كانت هذه المخلوقات موجودة أو لم تكن فيلزم من وجود المخلوق وجود خالقه ولا يلزم من عدمه عدم خالقه فلهذا كانت المخلوقات كلها آيات للرب فما من مخلوق الا وهو آية له هو دليل وبرهان وعلامة على ذاته وصفاته ووحدانيته واذا عدم كان غيره من المخلوقات يدل على ما دل عليه ويجتمع على المعلوم الواحد من الادلة ما لا يحصيه الا الله وقد يكون الشىء مستلزما لدليل معين فاذا عدم عرف انتفاؤه وهذا مما يكون لازما ملزوما فتكون الملازمة من الطرفين فيكون كل منهما دليلا واذا قدر انتفاؤه كان دليلا على انتفاء الآخر كالادلة على الاحكام الشرعية فما من حكم الا جعل الله عليه دليلا واذا قدر انتفاء جميع الادلة الشرعية على حكم علم أنه ليس حكما شرعيا وكذلك ما تتوفر الهمم والدواعى على نقله فانه اذا نقل دل التواتر على وجوده واذا لم ينقل مع توفر الهمم والدواعى على نقله لو كان موجوداً علم أنه لم يوجد كالامور الظاهرة التى يشترك فيها الناس مثل موت ملك وتبدل ملك

وتبدل ملك بملك وبناء مدينة ظاهرة وحدوث حادث عظيم في المسجد أو البلد فمثل هذه الامور لا بد أن ينقلها الناس اذا وقعت فاذا لم تنقل نقلا عاما بل نقلها واحد علم أنه قد كذب وهذا مبسوط في غير هذا الموضع وقد بسط في غير هذا الموضع الفرق بين الآية التى هي علامة تدل على نفس المعلوم وبين القياس الشمولى الذى لا يدل الا على قدر كلى مشترك لا يدل على شيء معين اذ كان لا بد فيه من قضية كلية وان ذلك القياس لا يفيد العلم بأعيان الأمور الموجودة ولا يفيد معرفة شيء لا الخالق ولا نبي من انبيائه ولا نحو ذلك بل اذا قيل كل محدث فلا بد له من محدث دل على محدث مطلق لا يدل على عينه بخلاف آيات الله فانها تدل على عينه وبينا أن القرآن ذكر الاستدلال بآيات الله وقد يستدل بالقياس الشمولى والتمثيلى لكن دلالة الآيات أكمل وأتم وتبين غلط من عظم دلالة القياس الشمولى المنطقى وانهم من ابعد الناس عن العلم والبيان وذكرنا أيضاً غلط من فضل الشمولى على التمثيلى وانها من جنس واحد والتمثيلى أنفع وانما الآيات تكون أحسن. وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزى ما ذكره أبو بكر ابن الانبارى وغيره في الآيات آيات القرآن مثل قوله قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين ثلاثة اقوال قال في معنى الآية ثلاثة أقوال أحدها انها العلامة فمعنى آية علامة لانقطاع الكلام الذى قبلها وبعدها قال الشاعر ✡

ألا أبلغ لديك بنى تميم ✡ بآية ما يحبون الطعاما

وقال النابغة : توهمت آيات لها فعرفتها ✡ لستة أعوام وذا العام سابع

قال وهذا اختيار أبى عبيد قلت أما أن الآية هي العلامة في اللغة فهذا صحيح وما استشهد به من الشعر يشهد لذلك وأما تسمية الآية من القرآن آية لانها علامة صحيح لكن قول القائل أنها علامة لانقطاع الكلام الذى قبلها وبعدها ليس بطائل فأن هذا المعنى الحد والفصل فالآية مفصولة عما قبلها وعما بعدها وليس معنى كونها آية هو هذا وكيف وآخر الآيات آية مثل آخر سورة الناس وكذلك آخر آية من السورة وليس بعدها شيء وأول الايات آية وليس قبلها شيء مثل أول آية من القرآن ومن السورة واذا قرئت الآية وحدها كانت آية وليس معها غيرها وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم

بآية يرددها حتى أصبح ان تعذبهم فانهم عبادك وأن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم فهى آية في نفسها لا لكونها منقطعة مما قبلها وما بعدها وأيضاً فكونه علامة على هذا الانقطاع قدر مشترك بين جميع الاشياء التى يتميز بعضها عن بعض ولا تسمى آيات والسورة متميزة عما قبلها وما بعدها وهي آيات كثيرة وأيضاً فالكلام الذى قبلها منقطع وما قبلها آية فليست دلالة الثانية على الانقطاع بأولى من دلالة الاولى عليه وايضاً فكيف يكون كونها آية علامة للتمييز بينها وبين غيرها والله سماها آياته فقال تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق والصواب انها آية من آيات الله اى علامة من علاماته ودلالة من ادلة الله وبيان من بيانه فان كل آية قد بين فيها من امره وخبره ما هى دليل عليه وعلامة عليه فهى آية من آياته وهى ايضاً دالة على كلام الله المباين لكلام المخلوقين فهى دلالة على الله سبحانه وعلى ما أرسل بها رسوله ولما كانت كل آية مفصولة بمقاطع الآى التى يختم بها كل آية صارت كل جملة مفصولة بمقاطع الآى آية ولهذا كان النبى ﷺ يقف على رءوس الآى كما نعتت قراءته الحمد لله رب العالمين وتقف الرحمن الرحيم وتقف مالك يوم الدين وتقف ويسمى اصحاب الوقف وقف السنة لأن كل آية لها فصل ومقطع تتميز عن الاخرى . قال والوجه الثانى انها سميت آية لانها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه قال أبو عمر الشيبانى يقال خرج القوم بآيتهم اى بجماعتهم وأنشدوا

خرجنا من النقبين لاحى مثلنا ☆ بآياتنا ترجى اللقاح المطافلا[١]

قلت هذا فيه نظر فان قولهم خرج القوم بآيتهم قد يراد به بالعلامة التى تجمعهم مثل الراية واللواء فان العادة ان كل قوم لهم امير تكون له آية يعرفون بها فاذا أخرج الامير آيتهم اجتمعوا اليه ولهذا سمى ذلك علماً والعلم هي العلامة والآية ويسمى راية لانه يرى فخروجهم بآيتهم اى بالعلم والآية التى تجمعهم فيستدل به على خروجهم جميعهم فان الامير المطاع اذا خرج لم يتخلف احد بخلاف ما اذا خرج بعض امرائه والا فلفظ الآية هي العلامة وهذا معلوم بالاضطرار من اللغة والاشتراك في اللفظ لا يثبت بأمر محتمل. قال والثالث انها سميت آية لانها عجب وذلك أن قارئها يستدل

[١] والبيت لبرج بن مسهر الطائى

اذا قرأها على مباينتها لكلام المخلوقين وهذا كما يقول فلان آية من الآيات اى عجب من العجائب ذكره ابن الانبارى قلت هذا القول هو داخل في معنى كونها آية من آيات الله فإن آيات الله كلها عجيبة فانها خارجة عن قدرة البشر وعما قد يشبه بها من مقدور البشر والقرآن كله عجب تعجبت به الجن كما حكى عنهم تعالى انهم قالوا [انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احداً] فانه كلام خارج عن المعهود من الكلام وهو كما في الحديث لا تنقضى عجائبه ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق[١] عن كثرة الرد وكل آية لله خرجت عن المعتاد فهو عجب كما قال تعالى [ام حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا] فالآيات العلامات والدلالة ومنها مألوف معتاد ومنها خارج عن المألوف المعتاد وآيات القرآن من هذا الباب فالقرآن عجب لا لأن مسمى الآية هو مسمى العجب بل مسمى الآية اعم ولهذا قال كانوا من آياتنا عجباً ولكن لفظ الآية قد يخص في العرف بما يحدثه الله وانها غير المعتاد دائماً كما قال النبي ﷺ «ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله وانهما لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده» وقد قال تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفاً] وفي الحديث الصحيح لما دخلت اسماء على عائشة وهي في الصلاة فسألتها فقالت سبحان الله فقالت آية فأشارت أى نعم وتسمى صلاة الكسوف صلاة الآيات وهي مشروعة في أحد القولين في مذهب أحمد في جميع الآيات التى يحصل بها التخويف كانتثار الكواكب والظلمة الشديدة وتصلى للزلزلة نص عليه كما جاء الأثر بذلك فهذه الآيات أخص من مطلق الآيات وقد قال تعالى [وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين] وقال ﷺ «ثلاث آيات يتعلمهن خير له من ثلاث خلفات سمان» ☆

فصل

والدليل الذى هو الآية والعلامة ينقسم الى مايدل بنفسه والى مايدل بدلالة الدال به فيكون الدليل في الحقيقة هو الدال به الذى قصد أن يدل به وقد جعل ذلك علامة

---

[١] ولا يخلق عن كثرة الرد أى لا يبلى من كثرة الترديد

وآية ودليلا والذى يدل بنفسه يعلم أنه يدل بنفسه وان لم يعلم أن أحداً جعله دليلاوان كان في نفس الأمر كل مخلوق قد جعله الله آية ودلالة وهو سبحانه عليم مريد فلا يمكن أن يقال لم يرد بالمخلوقات أن تكون أدلة له ولأنها ليست دليلا يجعلها أدلة كما قد يطلقه طائفة من النظار ولكن يستدل بها مع عدم النظر في كونها جعلت أدلة كما قد يطلقه اذ كان فيها مقاصد كثيرة غير الدلالة والذى جعلها دليلا وهو الله جعل ذاتها يستدل بها مع قطع النظر عن كونها هي دليلا فما من مخلوق الا ويمكن الاستدلال به على الخالق والمحدث نفسه يعلم بصريح العقل أن له محدثاً وهذه الادلة التى تدل بنفسها قد تسمى الادلة العقلية ويسمى النوع الآخر الادلة الوضعية لكونها انما دلت بوضع واضع والتحقيق أن كلاهما عقلى اذا نظر فيه العقل علم مدلوله لكن هذه تدل بنفسها وتلك تدل بقصد الدال بها فيعلم بها قصده وقصده هو الدال بها كالكلام فانه يدل بقصد المتكلم به وارادته وهو يدل على مراده وهو يدلنا بالكلام على ما أراد ثم يستدل بارادته على لوازمها فان اللازم ابدا مدلول عليه بملزومه والآيات التى تدل بنفسها مجردة نوعان منها ما هو ملزوم مدلول عليه بذاته لا يمكن وجود ذاته دون وجود لازمه المدلول عليه مثل دلالة المخلوقات على الخالق ومنها ما هو مستلزم له مدة طويلة أو قصيرة فتدل عليه تلك المدة مثل نجوم السموات فانه يستدل بها على الجهات والامكنة وعلى غيرها من النجوم وعلى الزمان ماضيه وغابره مادام العالم على هذه الصورة قال تعالى [والقى في الارض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون] وقال تعالى (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) ثم قال وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ثم قال [وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً] الى قوله (ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) وقوله (والقى في الارض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون) وعلامات هى علامات ألقاها في الارض وهذا قول الاكثرين. قالت طائفة هى معالم الطرق يستدل بها بالنهار ويستدل بالنجم بالليل وقالت طائفة هى الجبال وهى ايضاً مما يستدل به ولهذا سماها الله اعلاما في قوله (ومن آياته الجوارى في البحر كالاعلام فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى كالجبال والاعلام جمع علم والعلم ما يعلم به كالعلامة ومنه أعلام الطرق المنصوبة ومنه يقال لدلائل النبوة

أعلام النبوة ويقال للراية المرفوعة أنها علم وأنها جعلت علامة لصاحبها واتباعه والعالم بالفتح مثل الخاتم ما يعلم به كما أن الخاتم ما يختم به وهو بمعنى العالم (١) ويسمى كل صنف من المخلوقات عالما لأنه علم وبرهان على الخالق تعالى بخلاف العالم بالكسر فانه الذى يعلم كالخاتم بالكسر فانه الذى يختم قال تعالى [ولكن رسول الله وخاتم النبيين] لانه ختمهم كما يسمى الماحى والحاشر والعاقب. وقد قرىء وخاتم أى ختموا به فالجبال أعلام وهي علامات لمن في البر والبحر يستدل بها على ما يقاربها من الامكنة فانه يلزم من وجودها وجوده وهى لا تزال دالة مادامت موجودة ومدلولها موجوداً وهى أثبت من غيرها فقد يكون عندها قرية وسكان فيكون علما عليهم ثم قد تخرب القرية ويذهب السكان فتزول الدلالة لزوال الملزوم وهذا كله مما يبين أن الدليل قد يكون معينا بل الآيات كلها معينة وأن يكون مطابقاً ملازما لمدلوله ليس أحدهما أعم من الآخر كالثريا مع الدبران وكالجدى مخ بنات نعش ونحو ذلك فتبين غلط من ذكر أنه يحصر الادلة فيقال اما أن يستدل بالعام على الخاص أو بالخاص على العام أو بأحد الخاصين على الآخر والأول هو القياس الشمولى والثانى هو الاستقراء والثالث هو التمثيل وقد بينا ما في هذا الكلام من الغلط في حصره وفي حكم أقسامه فان هؤلاء المقسمون للامور العامة كثيراً ما يغلطون في هذا وهذا اذ كان المقسم يجب أن يستوفي جميع الاقسام ولا يدخل فيها ما ليس منها كالحادوهم يغلطون فيها كثيراً لعدم احاطتهم بأقسام المقسوم كما يقسمون أقسام الموجودات أو أقسام مدارك العلم أو أقسام العلوم أو غير ذلك وليس معهم دليل على الحصر الا عدم العلم وحصر الاقسام في المقسوم هو من الاستقراء ثم اذا حكموا على تلك الاقسام بأحكام فقد يغلطون أيضاً كما قد ذكر هذا في غير هذا الموضع مثل غلط من حصر الادلة في هذه الأنواع من أهل المنطق ومن تبعهم وقد بسط هذا في مواضع وذلك مثل قولهم الدليل اما أن يستدل بالعام على الخاص أو بالخاص على العام أو بأحد الخاصين على الآخر فان الدليل أولا لا يكون قط أعم من المدلول عليه اما مساويا له واما أخص منه فان الدليل ملزوم للمدلول عليه والملزوم

---

(١) وهو بمعنى العالم أى لانه يعلم به نسبة المختوم الى صاحبه

حيث تحقق تحقق اللازم واذا انتفى اللازم انتفى الملزوم فحيث تحقق الدليل تحقق المدلول
عليه فاذا كان مساوياً له أو أخص كان حيث تحقق المدلول كما أنه حيث تحقق ما هو
ناطق النطق الذى يختص الانسان تحقق الانسان وتحقق أيضاً ما هو أعم من الانسان
وهو ثبوت حيوان وجسم حساس نام متحرك بالارادة بمعنى أنه تحقق مطلق هذا
الجنس والا فلم يوجد شىء أعم من الانسان بمجرد وجوده لكن وجد من صفاته
ما يشبه به غيره ويصح اطلاقه عليه وعلى غيره وهو مسمى الجسم والحيوان ونحوذلك
وكذلك اذا وجد آية أو خبر يدل على الايجاب أو التحريم لزم ثبوت الايجاب أو التحريم
وقد ثبت الايجاب والتحريم بآية أخرى أو خبر آخر فلهذا قيل الدليل يجب طرده
ولا يجب عكسه واذ كان الدليل لايكون أعم من المدلول عليه فقولهم اما أن يستدل
بالعام على الخاص انما أرادوا به القياس الشمولى الذى هو مقدمتان صغرى وكبرى
كقولنا النبيذ المتنازع فيه مسكر وكل مسكر حرام أو كل مسكر خمر كما ثبت في صحيح
مسلم عن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام» بين أن
المسكر موصوف بأنه خمر وبأنه حرام ولم يقصد القياس الشمولى وهو أن يستدل على
أن المسكر حرام فالرسول أجل من هذا شرعاً وعقلا ﷺ فانه بكلامه يثبت الاحكام
وغيره اذا قال كل مسكر خمر أو حرام احتاج أن يستدل عليه وأما هو فيستدل بنفس
كلامه والنظم الشمولى المنطقى لا يوجد في كلام فصيح بل هو طويل لا يحتاج اليه كما
قد بسط في مواضع وبين أن الدليل قد يكون مقدمة واحدة وقد يكون مقدمتين
وقد يكون ثلاث مقدمات وأربع وأكثر بحسب ما يحتاج اليه المستدل الطالب لدلالة
نفسه أو الطالب ليدل غيره فانه قد لا يحتاج الا الى مقدمة واحدة مثل من عرف أن
الخمر حرام لكن لم يعرف أن كل مسكر هو خمر فاذا عرف بالنص أن كل مسكر خمر
عرف أن كل مسكر حرام وكان علمه موقوفاً على مقدمة واحدة بخلاف من لم يكن
عرف بعد أن الخمر حرام فيحتاج الى مقدمة ثانية ثم ان كان عرف أن محمداً رسول
الله بنصوصه المتواترة كفاه ذلك وان كان لم يقر بنبوته احتاج الى مقدمة ثالثة وهو
الايمان بأنه رسول الله لا يقول على الله الا الحق ويذكر له من دلائل النبوة واعلامها
ما يعرف به ذلك فيهتدى ان كان طالب علم وتقوم عليه الحجة ان يكن كذلك فقول

هؤلاء في مثل هذا انا استدللنا بالعام على الخاص ليس عظيم فان المدلول عليه وهو تحريم النبيذ المتنازع فيه مثلا وان كان أخص من تحريم المسكر والخمر فالدليل ليس هو القضية العامة بل الدليل أن النبيذ المتنازع فيه مسكر وهو احدى المقدمتين وهذه قضية خاصة أخص من مسمى المسكر فان المسكر يتناول المتفق على تحريمه والمتنازع فيه وهذا هو الحد الاوسط وهو المتكرر في المقـدمتين الذى هو محمول في الصغرى موضوع في الكبرى فالاستدلال وقع باسكاره على أنه خمر ومحرم ومسكر النبيذ المتنازع فيه أخص من مسمى المسكر والخمر والمقدمة الثانية الكبرى وهي قولنا وكل مسكر خمر ليست هي الدليل بل لابد من الصغرى معها وهى خاصة فالمدلول عليه ان كان تحريم النبيذ المتنازع فيه فهذا انما يدل على تحريمه أنه مسكر وليس اسكاره أعم منه بل يلزم من ثبوت اسكاره ثبوته فان ثبوت الموصوف بدون الصفة ممتنع فاسكاره دل على تحريمه وليس تحريمه أعم من اسكاره بل جنس الاسكار والحرام أعم من هذا المسكر فهذا المحرم لكن هذا العام ليس هو الدليل بدون الخاص بل قوله كل مسكر حرام يدل على تحريم كل مسكر مطلقاً من غير تعيين فيكون الاسكار مستلزماً للتحريم والمسكر أخص من الحرام وهذا استدلال بالخاص على العام فوجود المسكر أخص من وجود الحرام حيث كان مسكر كان الحرام موجودا وليس اذا كان الحرام موجوداً يجب وجود المسكر لان المحرمات كثيرة كالدم والميتة ولحم الخنزير فالحد الاوسط وهو المسكر دل على ثبوت الاعم وهو التحريم من الاخص (١) في الاخص وهو النبيذ المتنازع فيه فالمدلول عليه التحريم وهو اعم من المسكر فهو استدلال بالخاص على العام لكن المعنى العام الكلى لايوجد في الخارج عاما كلياً بل معينا فهو استدلال على نوع من أنواعه وهو التحريم الثابت في النبيذ المتنازع فيه وهذا أخص من مطلق التحريم كما أن مسكره اخص من مطلق المسكر ومن هنا ظنوا أنهم استدلوا بالعام على الخاص حيث استدلوا بتحريم كل مسكر على تحريم هذا المسكر وليس الامر كذلك بل الذى دل على تحريم هذا المسكر ليس هو مجرد القضية العامة الكلية بل لابد معها من قضية أخص منها جزئية مثل قولنا هذا النبيذ مسكر وبهذا الخاص يعلم ثبوت ذلك لا بمجرد العام

[١] أى وهو المسكر

والدليل هنا ليس هو أعم من المدلول عليه ولا يمكن ذلك قط وأما قولهم ان الاستدلال بالخاص على العام هو الاستقراء فمجرد الخاص ان لم يستلزم العام لا يدل عليه والمستقرىء ان لم يحصر الافراد لا يعلم أن ذلك المعنى شامل لها فما استدل بخاص على عام بل بعام مثله مطابق له وقولهم في قياس التمثيل انه استدلال بخاص على خاص ليس كذلك فان مجرد ثبوت الحكم في صورة لا يستلزم ثبوته في أخرى ان لم يكن بينهما قدر مشترك ولا يثبت بذلك حتى يقوم دليل على أن ذلك المشترك مستلزم للحكم والمشترك هو الذى يسمى في قياس التمثيل الجامع والوصف والعلة والمناط ونحو ذلك فان لم يقم دليل على أن الحكم متعلق به لازم له لم يصح الاستدلال وهذا المشترك في قياس التمثيل هو الحد الاوسط في قياس الشمول بعينه ☆

فالمعنى في القياسين واحد ولكن التأليف والنظم متنوع اذا أراد أن يثبت تحريم النبيذ بقياس الشمول (١) قال هذا هو حرام لانه شراب مسكر فيكون حراماً قياساً على المسكر من العنب فالدليل هو المسكر وهو المشترك وهو الحد الاوسط ثم لا يكفى ذلك حتى يبين أن العلة في الاصل هي المشترك فيقول وعصير العنب حرم لكونه مسكراً وهذا الوصف موجود في الفرع الذى هو صورة النزاع فيجب اشتراكهما في التحريم وقوله انه حرام لكونه مسكراً هى المقدمة الكبرى في قياس الشمول وهى قولنا كل مسكر حرام فثبت أن علة التحريم هى السكر اما بالنص وهو قوله كل مسكر حرام واما بدلالة القرآن وهو أنه يوقع العداوة والبغضاء ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة واما بالمناسبة واما بالدوران واما بالسبر والتقسيم كما قد عرف في موضعه وهو نظير ما يستدل به على ثبوت القضية الكبرى ثم الدليل قد يكون قطعياً وقد يكون ظنياً لخصوص المادة لا تعلق لذلك بصورة القياس فمن جعل قياس الشمول هو القطعى دون قياس التمثيل فقد غلط كما أن من جعل مسمى القياس هو التمثيل دون الشمول فلم يفهم معناه والذى عليه جمهور العلماء ان كلا منهما قياس قد يكون قطعياً وقد يكون ظنياً وطائفة يقولون اسم القياس لا يستعمل الا في الشمول كما يقوله ابن حزم ومن يقوله من المنطقيين وطائفة يقولون لا يستعمل حقيقة الا في التمثيل ومن هؤلاء من يقول ليس في العقليات قياس وهذا مبسوط في مواضع

(١) لعله بقياس التمثيل بدل الشمول

﴿والمقصود هنا﴾ التنبيه على جنس الادلة وأيضا فالدليل قد يكون مطابقا للمدلول عليه ملازما له ليس أعم منه ولا أخص منه كالكواكب التي في السماء المتلازمة التى يستدل بكل منها على الآخر وكالناطقية والانسانية التى يستدل بثبوت كل منهما على ثبوت الآخر وهذا خارج عن تقسيمهم فان هذا ليس استدلالا بعام على خاص ولا بخاص على عام ولا بخاص على نظيره بطريق التمثيل بل هو استدلال بأحد المتلازمين على الآخر قد يكونان عامين وخاصين فالكواكب خاصة والعام كالاستدلال بالحيوانية على الحس والحركة الا أنه استدلال بعام على عام ملازم له وكذلك الاستدلال بكونه جسما على وجود جنس العرض والاستدلال بوجود جنس العرض على وجود جنس الجسم هو استدلال بأحد العامين المتلازمين على الآخر ﴿والمقصود هنا﴾ أن هذه المعينات كالنجوم والجبال والطرق واعلام الطرق كلها آيات وأعلام وعلامات على ما هو لازم لها في العادة وكذلك قد يستدل على منزل الشخص بما هو ملازم من دور الجيران والباب وغير ذلك وشجرة هناك وغير ذلك من العلامات التى يذكرها الناس يستدلون بها ويدلون غيرهم بها وسميت الجبال أعلاماً لانها مرتفعة عالية والعالى يظهر ويعلم ويعرف قبل الشىء المنخفض ولهذا يوصف العالى بالظهور كقوله فما اسطاعوا أن يظهروه ويقال ظهر الخطيب على المنبر ومنه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح «وأنت الظاهر فليس فوقك شيء» فادخل معنى العلو في اسمه الظاهر لان الظاهر يعلو والعالي يظهر وكذلك العالى يعرف قبل غيره ومنه قيل عرف الديك أصله فعل بمعنى مفعول أى معروف كما يقال كره بمعنى مكروه ومنه الاعراف وهى أمكنة عالية بين الجنة والنار وقد قيل في قوله وعلامات وبالنجم أن العلامات هى النجوم منها مايكون علامة لا يهتدى به ومنها مايهتدى به وقول الاكثرين أصح فان العلامات كلها يهتدى بها ولانه قد قال [والقى في الارض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات] وهذا كله مما ألقاه في الارض وهو منصوب بألقى أو بفعل من جنسه كما قال بعضهم أى وجعل في الارض أنهارا لان الالقاء من جنس الجعل وبسط ما في هذا من اعراب ومعان له مقام آخر ﴿والمقصود هنا﴾ ذكر العلامات والعلامات يدخل فيها ما تقدم من الرواسى والسبل فان كونها رواسى وسبلا يسلكها الناس غير كونها علامات والعطف قد يكون لتغاير الصفات مع اتحاد الذات كقوله [الذى خلق

فسوى والذى قدر فهدى] وأمثاله فكيف اذا كانت العلامات تتناول هذا وغيره فان الجبال أعلام وهى علامات وكذلك الطرق يستدل بها السالك فيها ولهذا يسمى الطريق اماماً لان السالك يأتم به وكذلك يسمون مايستدل به المستدل طريقا ومسلكا ويقال لاصحاب هذا القول عدة طرق ومسالك حتى أطلقوا على ما يصنف من الاحتجاج على مسائل النزاع طريقة لانه فيه أدلة المصنف على موارد النزاع ومن هذا الباب الاستدلال على المرض بعلامات له والاستدلال بالاصوات فان كانت كلاما كانت الدلالة قصدية ارادية قصد المتكلم أن يدل بها وهى دلالة وضعية عقلية وان كانت غير كلام كانت الدلالة عقلية طبعية كما يستدل بالاصوات التى هى بكاء وانتحاب وضحك وقهقهة ونحنحة وتنخم ونحو ذلك على أحوال المصوت ومن الدلائل الشعائر مثل شعائر الاسلام الظاهرة التى تدل على أن الدار دار الاسلام كالأذان والجمع والاعياد. وفي الصحيحين عن أنس رضى الله عنه قال «كان رسول الله ﷺ اذا غزا قوماً لم يغز حتى يصبح فان سمع أذانا أمسك وان لم يسمع أذاناً أغار بعدما يصبح» هذا لفظ البخارى .ولفظ مسلم «كان يغير اذا طلع الفجر وكان يستمع الاذان فان سمع أذاناً أمسك والا أغار فسمع رجلا يقول الله أكبر الله أكبر فقال رسول الله ﷺ على الفطرة ثم قال أشهد أن لا اله الا الله فقال خرجت من النار» وعن عصام المزنى قال كان النبى ﷺ اذا بعث السرية يقول اذا رأيتم مسجداً أو سمعتم منادياً فلا تقتلوا أحداً رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه .ومن هذا النوع دلائل الجهات ومنه دلائل القبلة يستدل عليها بالنجوم والشمس والقمر والرياح والطرق وغير ذلك من الدلائل كما قد ذكر الناس ما ذكروه من دلائل القبلة ☆

فصل

والنوع الثانى مايدل بقصد الدال به كالكلام وكالعقد باليد والاشارة بها أو بالعين أو الحاجب أو غير ذلك من الاعضاء وقد يسمى ذلك رمزاً ووحياً وكذلك الخط خط الكتابة بخلاف الاستدلال بآثار خطى الانسان فان هذا من النوع الاول وكذلك القيافة وهى من النوع الاول وهو الاستدلال بالشبه على النسب وكذلك القايف قد يعرف

بالاثر من هو الواطيء وأين ذهب ومن هذا النوع الاميال التى جعلت علامات على حدود الحرم والاميال التى تجعل في الطرقات فانه قصد بها الدلالة على الطريق أى قصد الناس بها ذلك. وهذا النوع قسمان: منه ما يكون بالاتفاق والمواطأة بين اثنين فصاعداً كما يتفق الرجل مع وكيله على علامة لمن يرسله اليه مثل وضع خنصره في خنصره ومثل وضع يده على ترقوته كما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل ذلك علامة مع بعض الناس وكما يجعل الملوك وغيرهم لهم علامات عند بعض الناس من جاء بها عرفوا أنه مرسل من جهته ومن هذا الباب شعائر الناس في الحرب كل طائفة يعرف أصحابها بشعارها ولهذا قال الفقهاء ويجعل لكل طائفة شعاراً يتداعون به كما كان للمهاجرين شعار وللانصار شعار. ومن هذا الباب الاعلام والرايات للمقدمين فان الراية ترى فيعلم صاحبها وكذلك العلم يعلم فيعلم صاحبه وقد تميز راية عن راية لما يختص به صاحبها ويسمى ذلك رنكا وقد يكون ذلك اسم الشخص وقد يكون غير ذلك لكن قد اتفق مع غيره على أن هذا علامة وآية له فمتى رؤى استدل به على أنه هو المضاف اليه ذلك العلم ويجعل هذا على الدور والثياب والدواب ومنه الوسم الذى يعلم به ابل الصدقة وابل الجزية فان الوسم علامة مقصودة للواسم وأما السيما فهى علامة بنفسها لم يقصدها مثل سيما المؤمنين وسيما المنافقين قال تعالى في المؤمنين (سيماهم في وجوههم من أثر السجود) وقال في المنافقين (فلعرفتهم بسيماهم) وقال (عتل بعد ذلك زنيم) قيل له زنمة من الشر يعرف بها ومنه سيما المؤمنين يوم القيامة التى بها يعرفهم نبيهم وهو انهم غر محجلون من آثار الوضوء فهذه علامة وآية لكنها من النوع الاول لم يقصد المسلمون أن يتوضؤا ليعرفوا بالوضوء لكن من اللوازم لهم الوضوء للصلاة وقد جعل الله أثر ذلك نوراً في وجوههم وأيديهم وليس هذا لغيرهم فان هذا الوضوء لم يكن لغيرهم والحديث الذى يروى هذا وضوئى ووضوء النبيين من قبلى ضعيف بخلاف الصلاة في المواقيت الخمس فان الانبياء كانوا يصلون في هذه المواقيت كما قال هذا وقتك ووقت الانبياء قبلك والوسم والسيما من الوسم متفقان في الاشتقاق الاوسط فان أصل سيما سوما فلما سكنت الواو انكسر ما قبلها قلبت ياء مثل ميقات وميعاد ونحو ذلك والاسم ايضاً من هذا الباب وهو علم على المسمى ودليل عليه وآية عليه وهذا المعنى ظاهر فيه فلذلك قال الكوفيون انه مشتق من الوسم والسمة وهي

العلامة وقال البصريون بل هو مشتق من السمو فانه يقال في تصغيره سمى لا وسيم
وفي جمعه اسماء لا اوسام وفي تصريفه سميت لا وسمت وكلا القولين حق لكن قول
البصريين اتم فانه مشتق منه على قولهم في الاشتقاق الاصغر وهو اتفاق اللفظين في
الحروف وتأليفها وعلى قول الكوفيين هو مشتق منه من الاشتقاق الاوسط وهو
اتفاق اللفظين في الحروف لا في ترتيبها كما قلنا في الوسم والسيما والسمو هو العلو
والسامى هو العالى والعلو مستلزم للظهور كما تقدم فالعالى ظاهر والظاهر عال فكان
الاسم بعلوه يظهر فيدل على المسمى لانه يظهر باللسان والخط ويظهر للسمع المسمى
فيعرف بالقلب وقد تقدم انهم يسمون الجبال اعلاما لما فيها من الظهور ودلالة الاسم
على مسماه دلالة قصدية فان المسمى يسمى بالاسم ليعرف به المسمى وليدل عليه تارة
يقصد به الدلالة على مجرد نفسه كالاسماء الاعلام للاشخاص وتارة يقصد به الدلالة
على ما في اللفظ من المعنى كالاسماء المشتقة مثل العالم والحى والقادر ومن هذا الباب
تسمية المعبودين آلهة سموها بما لا تستحقه كما يسمى الجاهل عالما والعاجز قادراً
والكذاب نبيا فلهذا قال تعالى[ان هي الا اسماء سميتموها انتم واباؤكم ما انزل الله بها
من سلطان] والنوع الثانى من هذه الدلالة القصدية أن يقصد الدال الدلالة من غير
مواطأة مع المستدلين على أنه دليل لكن هم يعلمون أن قصد الدلالة لعلمهم باحواله
مثل ما يرسل الرجل شيئاً من ملابسه المختص به مع شخص فيعلمون انه ارسلها
علامة على انه ارسله. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس أن في ذلك لآية للمؤمنين
قال العلامة تكون بين الرجل واهله رواه ابن المنذر حدثنا موسى بن هرون حدثنا
أبو بكربن أبى شيبة ثنا وكيع عن سفيان عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس
ورواه ابن أبى حاتم ثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ثنا أبو اسامة
حدثنى سفيان عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان في ذلك لآية قال
علامة المتر الى الرجل اذا أراد أن يرسل الى أهله في حاجة أرسل بخاتمه أو بثوبه
فعرفوا أنه حق فتارة يرسل خاتمه معه فيعلمون أنه أرسله ليعلموا أنه أرسله اذ كانوا
قد علموا أن الخاتم معه وأنه ليس في ارساله مع ذلك الشخص الذى لا يعرفونه
مقصود له الا ان يكون علامة على انه أرسله اليهم فيصدقونه فيما اخبر عنه وتارة

يرسل معه عمامته أو نعليه وقد علموا أنه لا يخلع عمامته ويبعثها مع ذلك الشخص الا لتكون علامة على صدقه كما فعل النبي ﷺ في غزاة الفتح لما كانت راية الخزرج مع سعد بن عبادة وكان فيه حدة وقال لا قريش بعد اليوم اليوم يوم الملحمة اليوم يستحل الحرمة قيل للنبي ﷺ أنه يخاف منه أن يضع السيف في أهل مكة فقال قولوا له يعطى الراية لابنه قيس فقال انه لا يقبل منه فقال هذه عمامتي قولوا له قد امر رسول الله ﷺ بذلك فلما رأى عمامته مع من جاء بها علم أنه ليس له في اعطائه عمامته مقصود الا أن تكون علامة ولم يكن قبل ذلك قد واطأه على ذلك وكذلك لما اعطى أبا هريرة نعليه ليخرج فيبشر الناس بما ذكره له فانهم اذا رأوا معه نعليه علموا أنه لم يعطه النعلين الا علامة وكذلك قد يكون بين الشخص وبين غيره سر لم يطلع عليه المرسل فيقول له اعطنى علامة فيقول قل له بعلامة ما تكلمت انت وهو في كذا وكذا او ما فعلت انت وهو كذا وكذا فيعلم المرسل اليه ان المرسل هو أعلم هذا الرسول بهذا الامر اذ كان غيره لم يعلمه ويعلم انه ليس له في اعلامه به مقصود الا أن يكون علامة له على تصديقه ثم أكثر هذه الآيات التى هي علامات للناس يرسلونها مع من يرسلونه ليعرف صدقه هي قطعية عند المستدل بها المرسل اليه من الاهل والاصدقاء والوكلاء والنواب وغيرهم يأتيهم الرجل بعلامة وهي مستدلة على جبهم فيعلمون قطعاً أن هذا جاء من عنده ويعلمون قطعاً أنه لم يرسله بتلك العلامة الا ليعلموا صدقه لا يخطر لسعد بن عبادة حين رأى عمامة النبي ﷺ معهم أنهم أخذوها بغير قصده بأن تكون سقطت منه ونحو ذلك بل قد علم أنها كانت على رأسه وهو راكب في الجيش وقد أرسلها مع هذا وكذلك خاتم الشخص الذى يعلمون أنه لا ينزع خاتمه من يده ويعطيها لغيره ليعبث بها عنه وهو لا يختم بها شيئاً الا لذلك وقد يقع في مثل ذلك احتمالات فيستعمل المستدلون التقسيم فان الاستدلال مداره على انه أرسله بالعلامة وانه انما أرسله بها ليبين صدقه فقد يعرض في المقدمة الاولى انه أخذها بغير اختياره أو أن الخاتم سقط منه أو ان كان مسافرا انه قتل أو مات فقد يقع مثل ذلك وقد يؤخذ خاتم الرجل بغير امره ويختم به كتابه كما حكى أن مروان فعل مثل ذلك بعثمان والمقدمة الثانية انه قد يرسله بالخاتم ليختم به شيئاً أو

ليصلحه ونحو ذلك فاذا عرض مثل هذا الاحتمال وقوى توقفوا وان عرفوا انتفاء
ذلك مثل أن يكون قد ذهب من عندهم قريبا وليس له ما يختم به ونحو ذلك قطعوا
بانه أرسله علامة ثم بعد هذا قد يعلمون انه أرسله لكن قد يكذب عليه ولكن العهدة
في هذا على المرسل فان ارسال العلامة هو أعلام منه لهم بأني أرسلته اليكم فهذا
الفعل هو مثل هذا القول يجرى مجرى اعلامهم واخبارهم بانه أرسله وتصديقه في **قوله**
هو أرسلني والاخبار تارة يكون بالقول وتارة يكون بالعمل كما يعلم الرجل غيره
بالاشارة بيده ورأسه وعينه وغير ذلك وان لم يتقدم بينهما مواضعة لكن يعلم قصده
ضرورة مثل أن يسأله عن شيء هل كان فيرفع رأسه أو يخفضه أو يشير بيده أو يكون
قائما فيشير اليه اجلس أو قاعداً مطلوبا فيشير اليه أن اهرب فقد جاء عدوك أو نحو
ذلك من الاشارات التي هي أعمال بالاعضاء وهي تدل دلالة ضرورية تعلم من قصد
الدال كما يدل القول وقد تكون أقوى من دلالة القول لكن دلالة القول أعم وأوسع
فانه يدل على الامور الغائبة وعلى الامور المعضلة وهذه الادلة العيانية هي أقوى من
وجه ولكن ليس فيها من السعة للمعاني الكثيرة ما في الاقوال ☆

فصل

وخاصة الدليل أن يكون مستلزما للمدلول فكل ما استلزم شيئاً كان دليلا عليه
ولا يكون دليلا الا اذا كان مستلزما له ثم دلالة الدليل تعلم كما يعلم لزوم اللازم للملزوم
وهذا لا بد أن يعلم بالضرورة أو بدليل ينتهي الى الضرورة وعلى هذا فآيات الانبياء
هي أدلة صدقهم وبراهين صدقهم وهي ما يستلزم صدقهم ويمتنع وجوده بدون صدقهم
فلا يمكن أن يكون ما يدل على النبوة موجودا بدون النبوة ثم كونه مستلزما للنبوة
ودليلا عليها يعلم بالضرورة أو بما ينتهي الى الضرورة فآيات الانبياء صلوات الله عليهم
وسلامه لا تحد بحدود يدخل فيها غير آياتهم كحد بعضهم كالمعتزلة وغيرهم بانها خرق
العادة ولم يعرف مسمى هذه العبارة بل ظن أن خوارق السحرة والكهان والصالحين
خرق للعادة فكذبها وحد بعضهم بانها الخارق للعادة اذا لم يعارضه أحد وجعل
هذا فصلا احترز به عن تلك الامور فقال المعجزة هي الخارق المقرون بالتحدي

بالمثل مع عدم المعارضة وجوز أن يأتى غير الانبياء بمثل ما أتوا به سواء مع المعارضة وجعل ما يأتى به الساحر والكاهن معجزات مع عدم المعارضة وحقيقة المعجز هذا ما لم يعارض ولا حاجة الى كونه خارقا للعادة بل الامور المعتادة اذا لم تعارض كانت آية وهذا باطل قطعا ثم مسيلمة والاسود العنسى وغيرهما لم يعارضوا ثم يقال ما يعنى بعدم المعارضة في ذلك المكان والزمان فالسحرة والكهان لا يعارضون والعنسى ومسيلمة لم يعارضا في مكانهم ووقت اغوائهم وان قال لا يعارض البتة فمن أين يعلم هذا العدم فان قيل فما آيات الانبياء قيل هى آيات الانبياء التى تعلم أنها مختصة بالانبياء وانها مستلزمة لصدقهم ولا تكون الا مع صدقهم وهى لا بد أن تكون خارقة للعادة خارجة عن قدرة الانس والجن ولا يمكن أحداً أن يعارضها لكن كونها خارقة للعادة ولا تمكن معارضتها هو من لوازمها ليس هو حدا مطابقاً لها والعلم بأنها مستلزمة لصدقهم قد يكون ضرورياً كانشقاق القمر وجعل العصا حية وخروج الناقة فمجرد العلم بهذه الآيات يوجب علماً ضرورياً بأن الله جعلها آية لصدق هذا الذى استدل بها وذلك يستلزم أنها خارقة للعادة وأنه لا يمكن معارضتها فهذا من جملة صفاتها لا أن هذا وحده كاف فيها وهذا اذا قال من قال ان فلاناً رسلنى اليكم فانه يأتى بما يعلم أنه علامة والعلامة والدليل والآية حدها أنها تدل على المطلوب وآيات الانبياء تدل على صدقهم وهذا لا يكون الا مع كونها مستلزمة لصدقهم فيمتنع أن تكون معتادة لغيرهم ويمتنع أن يأتى من يعارضهم بمثلها ولا يمتنع أن يأتى نبى آخر بمثلها ولا أن يأتى من يصدقهم بمثلها فان تصديقه لهم يتضمن صدقهم فلم يأت الا مع صدقهم وقد تكون الآيات تدل على جنس الصدق وهو صدق صاحبها فيلزم صدقه اذا قال أنا نبى ولكن يمتنع أن يكون لكاذب فهذا ونحوه مما ينكشف به حقيقة هذا الباب وهو من أهم الامور واذا فسر خرق العادة بأنها خرق لعادات غير الانبياء أى لا يكون لغير جنسهم وجنس من صدقهم وفسر عدم المعارضة بأنه لا يقدر أن يأتى بها من ليس بنبى أو متبع لنبى كان المعنى واحداً واتحدت التفاسير الثلاثة ☆

فصل

والله سبحانه دل عباده بالدلالات العيانية المشهودة والدلالات المسموعة وهي كلامه لكن عامتهم تعذر عليهم أن يسمعوا كلامه منه فأرسل اليهم بكلامه رسلا وأنزل اليهم كتباً والمخلوق اذا قصد اعلام من يتعذر أن يسمع منه أرسل اليه رسلا وكتب اليه كتباً كما يفعل الناس ولاة الامور وغيرهم يرسلون الى من بعد عنهم رسولا ويكتبون اليه كتباً ثم أنه سبحانه جعل مع الرسل آيات هن علامات وبراهين هي أفعال يفعلها مع الرسل يخصهم بها لا يوجد لغيرهم فيعلم العباد لاختصاصهم(١) بها أن ذلك أعلام منه للعباد واخبار لهم أن هؤلاء رسلى كما يعلمهم بكلامه المسموع منه ومن رسوله ولهذا قد يعلم برسالة رسول باخبار رسول أخبر عنه وقد يخبر عن ارساله بكلامه لمن سمع كلامه منه كما أخبر موسى وغيره بالوحى الذى يوحيه اليهم فآيات الانبياء هي علامات وبراهين من الله تتضمن اعلام الله لعباده واخباره فالدليل وهو الآية والعلامة لا تدل الا اذا كان مختصاً بالمدلول عليه مستلزماً له اما مساو له واما أخص منه لا يكون أعم منه غير مستلزم له فلا يتصور أن يوجد الدليل بدون المدلول عليه فالآيات التى أعلم الله بها رسالة رسله وصدقهم لا بد أن تكون مختصة بهم مستلزمة لصدقهم فان الاعلام والاخبار بأن هذا رسول وتصديقه في قوله ان الله أرسلنى لا يتصور أن يوجد لغير رسول والآيات التى جعلها الله علامات هي أعلام بالفعل الذى قد يكون أقوى من القول فلا يتصور أن تكون آيات الرسل الا دالة على صدقهم ومدلولها أنهم صادقون لا يجوز أن توجد بدون صدق الرسل البتة وكون الرب أراد بها اعلام عباده بصدقهم وصدقهم بها في أخبارهم أنه أرسلهم وكونها آية وعلامة على صدقهم أمر يعلم كما تعلم دلالة سائر الادلة كما يعلم من الرجل أصدقاؤه ووكلاؤه أنه أرسل هذا بهذه العلامات فتارة يعلم ذلك بالضرورة بعد تصور الامر وتارة يحتاج الى نظر هل هذه العلامة منه أو من غيره وهل هو أرسله بها أو غيره وهل قصد بها الاعلام والتصديق أم لا وهل يعلم من حال الذاكر أنه أرسله أنه صادق فقد يرسل من يعلمون هم صدقه وأنه لا يكذب فيعلمون صدقه

(١) الضمير عائد للرسل

بمجرد قوله هو أرسلني من غير آية ولا علامة ولهذا اذا قال من صدقه أنه رأى رؤيا صدقه وجزم بصدقه من قد خبر صدقه والرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وكذلك لو أخبر بغير ذلك كما أخبر عمران بن حصين أن الملائكة تسلم عليه فلم يشك الذين أخبرهم في صدقه من غير آية فمن كان يعلم صدق موسى والمسيح ومحمد وغيرهم وأنهم لا يكذبون في أخف الامور فكيف بالكذب على الله اذا أخبرهم أحدهم بما جاءه من الوحى والرسالة وما غاب من الملائكة فانه قد يجزم بصدقه من غير آية لا سيما ان كان ما يقوله لهم مما يؤيد صدقه ولهذا لم يكن من شرط الايمان بالانبياء وجود الآيات بل قد يعلم صدقهم بدون ذلك كما قد بين في موضع آخر .
وتارة يحتاجون الى العلامة وتارة يعلمون كذبه بأن يذكر عن صاحبهم ما يعلمون هم خلافه ويصفه بما علموا نقيضه وقد يظهر لهم من قصده أنه كذاب ملبس طالب أغراض له اما مال يعطونه أو ولاية يولونه أو امرأة يزوجونه بها أو غير ذلك من أغراض النفوس فيسألونه عن مقصوده فاذا عرفوا مقصوده فقد يعلمون كذبه أو صدقه ومثل هذا كثير في عادات الناس فكثيراً ما يجيء الرجل بما يزعم أنه علامة وتكون مشتركة فيقال له ما تريد فيذكر مراده فيعلمون كذبه فدلائل الصدق والكذب لا تنحصر كدلائل الحب والبغض هي كثيرة جداً وهذا يعرفه من جرب عادات الناس ✡

فصل

فالآيات التى تكون آيات للانبياء هي دليل وبرهان والله تعالى سماها برهانا في قوله لموسى [فذانك برهانان من ربك] وهى العصا واليد وسماها برهانا وآيات في مواضع كثيرة من القرآن فحدها حد الدليل والبرهان وهى أن تكون مستلزمة لصدق النبى فلا يتصور ان توجد مع انتفاء صدق من اخبر أن الله أرسله فليس له الاحالان اما أن يكون الله أرسله فيكون صادقا أو لا يكون أرسله فلا يكون صادقا فآيات الصدق لا توجد الا مع أحد النقيضين وهو الصدق لا توجد قط مع الآخر وهو انتفاء الصدق كسائر الادلة التى هى البراهين والآيات والعلامة فانها لا توجد الا مع تحقق المدلول عليه لا توجد مع عدمه قط اذ كانت مستلزمة له يلزم من وجود الدليل وجود المدلول

عليه فلا يوجد الدليل مع عدم المدلول عليه فلا توجد آياتهم مع عدم صدقهم فيجب أن يتصور هذا الموضع فانه حق معلوم بعد تصوره لكل العقلاء بالضرورة فلا يمكن أحداً كذب النبي أن يأتي بمثلها فانه لو اتى بمثلها مع تكذيب النبى لكانت قد وجدت مع قوله انى صادق ومع قول هذا المكذب انه كاذب فلم يختص بصدقه ولم تستلزمه فلا يلزم اذا قال انى صادق ان يكون صادقا وهذا قد اتى بمثل ما اتى به وقال انه كاذب ولا يكون اعلاما من الله لعباده واخباراً لهم بانى أرسلته ولا تصديقا له كما لو قال رجل ان فلانا أرسلنى وجاء بعلامة ذكر انه خصه بها مثل أن يقول العلامة انه أعطانى خاتمه فيقول المكذب وانا أيضاً أعطانى خاتمه الاخرى لاصلحها له او لاختم بها كذا وأنت انما اعطاك خاتمه لتصلحها أو تختم بها فاذا اتى المكذب له بمثل ما اتى به امتنع كونها آية ولكن لو كان قد جاء بالخاتم غيره لامر آخر أرسله له لم يمتنع ذلك بل قد جرت عادته معهم بأنه من أرسله يرسل معه خاتمه فقد صار ارسال الخاتم عادة له يدل على صدق من أرسله فهو يميز رسله بالخاتم لا يخص بها واحداً منهم وهى عادة منه لرسله ليست لغيرهم لا عادة ولا غير عادة فهذا شأن الآيات والعلامات التى يقصد الدال بها أن يدل بها ☆

فصل

والله تعالى سماها آيات وبراهين وهو اسم مطابق لمسماه مطرد لا ينتقض فلا تكون قط الا آيات لهم وبراهين واما تسميتها بخرق العادة فللناس في ذلك ثلاثة أقوال: احدها أن ذلك حد لها مطرد منعكس فكل خرق هو معجزة للنبى فهو خرق عادة والثانى ان خرق العادة شرط فيها وليس بحد لها فيجب ان تكون خارقة لعادة ولكن ليس كل خارق للعادة يكون آية لنبى كاشراط الساعة بل أن يقع على وجه مخصوص مثل دعوى النبوة والاستدلال بها والتحدى بمثلها مع عجز الناس عن معارضته والقول الثانى ان كونها خارقة للعادة ليس بحد ولا شرط. قال القاضى أبو بكر في مناظرته في الكرامات ويقال لهم ايضاً ان من الناس من لا يشترط في الآية المعجزة ان تكون

خارقة للعادة ويقول انما تكون آية اذا كانت من فعل الله مع التحدى بمثلها ودعوى النبوة فدلالتها على وجه لا يمكن ان يشترك في ادعائه الصادق والكاذب فاذا ظهرت على هذا الوجه كانت آية لمن فعلت على يده قال المجيبون بهذا ولهذا لم تكن اشراط الساعة آية لاحد وان خرقت العادة اذ لم يكن معها دعوى نبوة ولان موت زيد عند قول الرسول آيتى ان يميت الله زيدا عند دعائى موته فاذا مات عند دعوته صار ذلك آية له وان كان فعل الموت في الانسان وغيره من الحيوان معتاداً قال ان قالوا لو كان كذلك لكان من قال آيتى ان تطلع الشمس وتغرب ويأتى الليل والنهار والضياء والظلام وفعل ذلك مع دعواه الرسالة كان آية له وان لم يكن المفعول من ذلك خارقا للعادة فلما لم يكن كذلك وان كان واقعا من فعل الله مع دعوى النبوة لكونه غير خارق للعادة بطل ما قلتموه يقال لهم قد أجبنا عن هذا حين قلنا ويكون الواقع من فعل الله مع دعوى النبوة مما لا يشترك فيه الصادق والكاذب ويستوى مع ظهوره دعوى المحق والمبطل وطلوع الشمس وغروبها ولو قال النبى آيتى ان يطلنا السحاب الساعة وتزلزل الارض وتحدث الامطار بدعوى فحدث ذلك لكان آية له وان كان مثل ذلك قد يحدث في العصر ويشاهد فاذا قال المتنبى انى معارضه وآيتى في كونى نبيا ظهور مثل ذلك منع منه ولم يحدث . قلت هذا الذى ذكروه هو أيضاً خرق للعادة فان ظهور مثل ذلك على هذا الوجه مما لم تجر به العادة وهو نفسه القاضى أبو بكر في هذا الكتاب كتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنيرنجيات قد قال قيل هذا باب القول في معنى العادة وانخراقها والعادة التى اذا انخرقت دلت على صدق الرسل والاعتياد للامر وتفصيل ذلك وتنزيله اعلموا رحمكم الله ان الكل من سائر الامم قد شرطوا في صفة المعجزات يكون خارقا للعادة واذا كان ذلك واجبا وجب معرفة هذه العادة ومعرفة انخراقها فقد حكى هنا الاجماع وهناك صرح بالاختلاف وقوى ذلك القول وسبب ذلك اضطرابهم في معنى العادة وانخراقها فان كل قوم يفهمون غير مايفهمه الآخرون والله تعالى انما سماها آيات وهذا القول الذى ذكره وقواه وهو لا يشترط فيها أن تكون خارقة للعادة هو حقيقة قول القاضى وأمثاله من المتكلمين الاشعرية ومن وافقهم كالقاضى

ابى يعلى وأمثاله فان المعجزات عنـدهم لا تختص بجنس من الاجناس المقدورات بل خاصتها أن النبى يحتج بها ويتحدى بمثلها فلا يمكن معارضته فاشترطوا لها وصفين: ان تكون مقترنة بدعوى النبوة وجعلوا المدلول جزءاً من الدليـل وانهـا لا تعارض وبالاول فرقوا بينهـا وبين الكرامات وبه بالثـانى فرقوا بينها وبين السحر والكهانة وصرحوا بان جميـع خوارق السحرة والكهان يجـوز ان تكون معجزة لنبى لكن اذا كانت معجزة لم تمـكن معارضتهـا فـلو ادعى سـاحر أو كاهن النبوة لكان الله يعجزه عن تلك الخوارق قد علم أن غـيره من السحرة والكهان يفعل مثلها وليس بنبي وما يأتى به الانبياء من المعجزات جوزوا أن يأتى بمثله الساحر والكاهن الا ما منع منه السمع للاجماع على أن الساحر لا يقلب العصا حيةوهذا الفرق ليس لما يختص به أحد النوعين ولا ضابط له وصرحوا بأنه لا يستثنى من الخوارق الا ما انعقد عليه الاجماع وصرحوا بأن العجائب الطبعية مثل جذب حجر المغناطيس الحديد يجوز أن يكون معجزة لكن بشرط أن لا يعارض وكذلك الطلاسم وكذلك الامور المعتادة يجوز أن تكون معجزة بشرط أن يمنع غيره منها فتكون المعجزة منع المعتاد فالخاصة عندهم فيها انها لا تعارض وانها تقترن بدعوى النبوة وقد يشترطون أن تكون خارقة للعادة لكن يكتفون بمنع المعارض فهو وحده خرق للعادة فلا يشترطون هذا وهذا وقد اشترط القاضى أبو بكر أن يكون مما يختص الرب بالقدرة عليه ولا حقيقة له فان جميع الحوادث كذلك عندهم وكل ما خرج عن محل قدرة العبد فالرب عندهم مختص بفعله كخوارق السحرة والكهان وحقيقة الامر أنه لا فرق عندهم بين المعجزات والكرامات والسحر والكهانة لكن هذه اذا لم تقترن بدعوى النبوة لم تكن آية واذا اقترنت بها كانت آية بشرط أن لا تعارض ثم أنه لما أثبت النبوة قال انه يجوز على النبى فعل كل شيء من الكبائر الا أن يمنع من ذلك سمع كما قال كل ما كان معجزة للانبياء يجوز أن يأتى به الساحر الا أن يمنع منـه سمع اذ كان في نفس الامر لا فرق بين فعل وفعل بل يجوز من الرب كل شيء فيجوز أن يبعث كل أحد ولا يقيم على نبوته دليلا هذا حقيقة قولهم انه يجوز أن يبعث كل أحد وانه اذا بعثه لا يقيم دليلا على نبوته بل يلزم العباد بتصديقه بلا دليل

يدلهم على صدقه فان غاية هذا تكليف مالا يطاق وهم يجوزونه وهذا الذى قالوه باطل من وجوه متعددة قد بسطت في غير هذا الموضع: منها انهم جعلوا المدلول عليه وهو اخبار النبى بنبوته وشهودها وثبوتها جزءاً من الدليل قالوا لانها لو كانت معجزة لجنسها لم تقع الا معجزة والخوارق التى تكون أمام الساعة ليست معجزة لاحد فعلم أن الدليل هو مجموع دعوى النبوة والخارق والجواب عن هذا من وجهين: أحدها ان تلك من آيات الله تعالى فالخوارق التى لا يقدر عليها العباد كلها آيات لله تعالى وهي دالة على ما يظهر دلالتها عليه تارة تكون تخويفاً كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وانهما لا تنكسفان لموت أحد ولا لحيـاته ولكنهما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده .والتخويف يتضمن الامر بطاعته والنهى عن معصيته واشراط الساعة آيات على قربها وعلى جزاء الاعمال ،وهو يتضمن الامر بالطاعة والنهى عن المعصية .والثانى أن يقال هي آيات على صدق الانبياء فانهم أخبروا بها وهى آية على ما أخبروا به وعلى صدقهم وأيضاً فان عامة معجزات الرسول لم يكن يتحدى بها ويقول ائتوا بمثلها والقرآن انما تحداهم لما قالوا انه افتراه ولم يتحدهم به ابتداء وسائر المعجزات لم يتحـد بها وليس فيما نقل تحـد الا بالقرآن لكن قد علم أنهم لا يأتون بمثل آيات الانبياء فهذا لازم لها لكن ليس من شرط ذلك أن يقارن خبره وأيضاً فمن آيات الانبياء ما كان قبل ولادتهم وقبل انبائهم وما يكون بعد موتهم فان الآية دليل على صدق الخبر بأنه رسول الله وهذا الدليل لا يختص لا بمكان ولا زمان ولا يكون هذا الدليل الا من جنس لا يقدر عليه الانس كلهم ولا الجن فلا بد أن يكون جنسه معجزاً أعجز الانس والجن . وأما قولهم خاصة المعجز عدم المعارضة فهذا باطل وان كان عدم المعارضة لازماً له فان هذا العدم لا يعلم اذ يمكن أن يعارضه من ليس هناك اذا كان مما يعلم أنه معتاد مثل خوارق السحرة والكهان فانه وان لم يكن أن يعارض في هذا الموضع ففى السحرة والكهان من يفعل مثلها مع أنه ليس بنبى ودليـل النبوة يمتنع ثبوته بدون النبوة واذا قالوا الدليل هو مجموع الدعوى والدليل تبين خطأهم وان القوم لم يعرفوا دلائل النبوة ولا أقاموا دليلا على نبوة الانبياء كما لم يقيموا دليـلا على وجود الرب فليس في كتبهم ما يدل على الرب تعالى ولا على رسوله

مع أن هذا هو المقصود من أصول الدين وأيضاً فمسيلمة والعنسى لم يكن عندهما من يعارضهما وأيضاً فالمعارض ان اعتبروه في المدعوين وهذا مقتضى في خرق العادة وان العادات تختلف فلكل قوم عادة قالوا فالمعتبر خرق عادة من أرسل اليهم وعلى هذا فاذا أرسل الى بنى اسرائيل ففعل مالم يقدروا عليه كان آية وان كان ذلك مما يقدر عليه العرب ويقدر عليه السحرة والكهان وصرحوا بأن السحر الذى قال الله فيه (وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر) يجوز أن يكون من معجزات الانبياء اذا لم يعارض وقد قال الرازى أن السمعيات لا يحتج بها لان دلالتها مشروطة بعدم المعارض العقلى وذلك غير معلوم وكذلك يقال في معجزات هؤلاء أن خاصتها عدم المعارضة فان اعتبروا أن أحداً من الخلق لا يعارض فهذا لا يعلم وان اكتفوا بأن لا يعارض في ذلك المكان والزمان فكثير من الصناعات والعجائب والعلوم من هذا الباب وهم لا ينكرون هذا بل يقولون المعجز هو هذا مع دعوى النبوة وقد تبين أن الشيء في نفسه اذا لم يكن دليلا لم يصر دليلا باستدلال المستدل به بل هو في نفسه دليل وان لم يستدل به اذ كان الدليل هو المستلزم للمدلول فدليل صدق النبى هو يدل على أنه نبى وان الخبر بنبوته صدق وان كان هو لا يستدل بذلك ولا يتحدى بمثلها وقد لا يخبر بنبوة نفسه ويكون له دلائل تدل على نبوته كما كانت قبل أن يولد وفي الامكنة البعيدة فتبين أن قول هؤلاء هو أنه لا يعلم ما يستدل به على نبوة الانبياء وهذا اذا انضم الى أصلهم وهو أن الرب يجوز عليه فعل كل شيء صارا شاهدين بأنه على أصلهم لا دليل على النبوة اذ كان عندهم لا فرق بين فعل من الرب وفعل وعندهم لا فرق بين جنس وجنس في اختصاصه بالانبياء به فليس في أجناس المعقولات ما يكون آية تختص بالانبياء فيستلزم نبوتهم بل ما كان لهم قد يكون عند غيرهم حتى للسحرة والكهان وهم أعداؤهم وفرقوا بعدم المعارضة وهذا فرق غير معلوم وهو مجرد دعوى قالوا لو ادعى الساحر والكاهن النبوة لكان الله ينسيه الكهانة والسحر ولكان له من يعارضه لان السحر والكهانة هي معجزة عندهم وفي هذه الاقوال من الفساد عقلا وشرعاً ومن المناقضة لدين الاسلام وللحق ما يطول وصفه ولا ريب أن قول من أنكر وجود هذه الخوارق أقل فساداً من هذا ولهذا يشنع عليهم ابن حزم وغيره

بالشناعات العظيمة ولهذا يقيم أكابر فضلائهم مدة يطلبون الفرق بين المعجزات والسحر فلا يجدون فرقا اذ لا فرق عندهم في نفس الامر والتحقيق أن آيات الانبياء مستلزمة للنبوة ولصدق الخبر بالنبوة فلا يوجد الا مع الشهادة للرسول بأنه رسول لا يوجد مع التكذيب بذلك ولا مع عدم ذلك البتة وليست من جنس ما يقدر عليه لا الانس ولا الجن فان ما يقدر عليه الانس والجن يفعلونه فلا يكون مختصاً بالانبياء ومعنى كونها خارقة للعادة أنها لا توجد الا للنبوة لامرة ولا أقل ولا أكثر فالعادة هنا تثبت بمرة. والقاضى أبو بكر يقول ان ما فعل مرات يسيرة لا يكون معتاداً وفي كلامه في هذا الباب من الاضطراب ما يطول وصفه وهو رأس هؤلاء الذين اتبعوه كالقاضى أبى يعلى وأبى المعالى والرازى والآمدى وغيرهم وما يأتى به السحرة والكهان يمتنع أن يكون آية لنبى بل هو آية على الكفر فكيف يكون آية للنبوة وهو مقدور للشياطين وآيات الانبياء لا يقدر عليها جن ولا انس وآيات الانبياء آيات لجنسها فحيث كانت آية لله تدل على مثل ما أخبرت به الانبياء وان شئت قلت هي آيات لله يدل بها على صدق الانبياء تارة وعلى غير ذلك تارة وما يكون للسحرة والكهان لا يكون من آيات الانبياء بل آيات الانبياء مختصة بهم وأما كرامات الاولياء فهى أيضاً من آيات الانبياء فانها انما تكون لمن تشهد لهم بالرسالة فهى دليل على صدق الشاهد لهم بالنبوة وأيضاً فان كرامات الاولياء معتادة من الصالحين ومعجزات الانبياء فوق ذلك فانشقاق القمر والاتيان بالقرآن وانقلاب العصا حية وخروج الدابة من صخرة لم يكن مثله للاولياء وكذلك خلق الطير من الطين ولكن آياتهم صغار وكبار كما قال تعالى (فاراه الآية الكبرى) فلله تعالى آية كبيرة وصغيرة وقال عن نبيه محمد (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) فالآيات الكبرى مختصة بهم وأما الآيات الصغرى فقد تكون للصالحين مثل تكثير الطعام فهذا قد وجد لغير واحد من الصالحين لكن لم يوجد كما وجد للنبى ﷺ أنه أطعم الجيش من شيء يسير فقد يوجد لغيرهم من جنس ما وجد لهم لكن لا يماثلون في قدره فهم مختصون اما بجنس الايات فلا يكون لمثلهم كالاتيان بالقرآن وانشقاق القمر وقلب العصا حية وانفلاق البحر وأن يخلق من الطين كهيئة الطير وأما بقدرها وكيفيتها كنار الخليل فان أبا مسلم الخولانى وغيره صارت النار

عليهم برداً وسلاما لكن لم تكن مثل نار ابراهيم في عظمتها كما وصفوها فهو مشارك للخليل في جنس الآية كما هو مشارك في جنس الايمان محبة الله وتوحيده ومعلوم أن الذى امتاز به الخليل من هذا لا يماثله فيه أبو مسلم وأمثاله وكذلك الطيران في الهواء فان الجن لا تزال تحمل ناسا وتطيربهم من مكان الى مكان كالعفريت الذى قال لسليمان (انا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك لكن قول الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك) لا يقدر عليه العفريت ومسرى النبي ﷺ الى بيت المقدس ليريه الله من آياته الكبرى أمر اختص به بخلاف من يحمل من مكان الى مكان لا ليريه الله من آياته الكبرى أمر اختص به ولا يعرج الى السماء فهؤلاء كثيرون وهذا مبسوط في غير هذا الموضع (والمقصود هنا) أن هؤلاء حقيقة قولهم أنه ليس للنبوة آية تختص بها كما أن حقيقة قولهم ان الله لا يقدر أن يأتى بآية تختص بها وانه لو كان قادراً على ذلك لم يلزم أن يفعله بل ولم يفعله فهذان أمران متعلقان بالرب اذ هو عندهم لا يقدر أن يفعل شيئاً لشيء والآية انما تكون آية اذا فعلها لتدل ولو قدر أنه قادر فهم يجوزون عليه فعل كل شيء فيمكن أنه لم يجعل على صدق النبي دليلا وأما الذى ذكرناه عنهم هنا فانه يقتضى أنه لا دليل عندهم على نبوة النبي بل كل ما قدر دليلا فانه يمكن وقوعه مع عدم النبوة فلا يكون دليلا فهم هناك (١) حقيقة قولهم انا لا نعلم على النبوة دليلا وهنا حقيقة قولهم انه لا دليل على النبوة ولهذا كان كلامهم في هذا الباب منتهاه التعطيل ولهذا عدل الغزالى وغيره عن طريقهم في الاستدلال بالمعجزات لكون المعجزات على أصلهم لا تدل على نبوة نبي وليس عندهم في نفس الأمر معجزات وانما يقولون المعجزات علم الصدق لانها في نفس الامر كذلك وهم صادقون في هذا لكن على أصلهم ليست دليلا على الصدق ولا دليل على الصدق فآيات الانبياء تدل على صدقهم دلالة معلومة بالضرورة تارة وبالنظر أخرى وهم قد يقولون انه يحصل العلم الضرورى بأن الله صدقه بها وهي الطريقة التى سلكها أبو المعالى والرازى وغيرهما وهي طريقة صحيحة فى نفسها لكن تناقض بعض أصولهم فالقدح ليس

---

(١) قوله هناك أى في باب أفعال الرب حيث ينفون عنها الحكمة والتعليل وقوله هنا أى في باب النبوة ☆

في آيات الانبياء لكن في الاقوال الفاسدة التى تناقض ماهو معلوم بالضرورة عقلا وماهو أصل الايمان شرعاً ومن عرف تناقضهم في الاستدلال يعرف أن الآفة في فساد قولهم لا في جهة صحة الدلالة فقد يظهر بلسانه ما ليس في قلبه كالمنافقين الذين يقولون نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون ولقد صدق الامام احمد في قوله علماء الكلام زنادقة وطريقة القرآن فيها الهدى والنور والشفاء سماها آيات وبراهين فآيات الانبياء مستلزمة لصدقهم وصدق من صدقهم وشهد لهم بالنبوة والآيات التى يبعث الله بها أنبياء قد يكون مثلها لانبياء أخر مثل احياء الموتى فقد كان لغير واحد من الانبياء وقد يكون احياء الموتى على يد اتباع الانبياء كما قد وقع لطائفة من هذه الامة ومن اتباع عيسى فان هؤلاء يقولون نحن انما احيي الله الموتى على ايدينا لاتباع محمداً أو المسيح فبأيماننا بهم وتصديقنا لهم احيي الله الموتى على ايدينا فكان احياء الموتى مستلزماً لتصديقه عيسى ومحمداً لم يكن قط مع تكذيبهما فصار آية لنبوتهم وهو ايضا آية لنبوة موسى وغيره من انبياء بنى اسرائيل الذين احيي الله الموتى على ايديهم وليس مدلول الآيات هو مجرد دعواه أن الله ارسلنى واخباره عن نفسه بذلك لان ذلك معلوم بالحس لمن سمعه وبالتواتر لمن لم يسمعه بل صدقه في هـذا الخبر وهو ثبوت نبوته فالآية مستلزمة لصدقه وثبوت نبوته ومن اخبر غيره عن ارسال الله له واتى هـذا المخبر بآية كانت ايضا آية على صدق هذا المخبر وثبوت نبوة النبى فان من اخبر عن نبوة نبى من الانبياء واتى بآية على صدقه في خبره كانت تلك آية ودليلا على نبوة النبى وان اخبار المخبر بنبوته صدق بل كون غيره هو المخبر الآتى بالعلامة ابلغ ولهذا كانت من اعظم آيات النبى اخبار غيره من الانبياء بنبوته فان قال آخر انه كذب وأتى بمثل تلك الآية بطلت الدلالة المعينة ولا يلزم من بطلان دليل معين بطلان سائر الادلة فان الدليل تجب طرده ولا يجب عكسه ولو جاء من قال ان فلاناً ارسلنى ومعه شخص فصدقه وقال انه امرنى ان اخبركم بان رسوله بعلامة كيت وكيت لكان ذلك ابلغ وكل من علم صدق النبى فقد صدقه أنه(١) ان يعلم الناس ان الله يشهد له بالنبوة ويحكم بينه وبين منازعيه بتصديقه وتكذيبهم وذلك بآياته وعلاماته يبين بها انه مصدق للرسول وقد يصدقه بكلامه الذى قد بين انه كلامه فكونه في نفسه آية وعلامة اذ كان لا يمكن الجن

(١) هنا بياض بالاصل مقدار سطرين

والانس ان يأتوا بمثله فهو من اعظم الآيات وبغير ذلك فالآيات كلها شهادة بالنبوة واخبار بها وتصديق للمخبر فهى تستلزم ثبوت النبوة في نفسها وان صاحب الآيات قد نبأه الله واوحى اليه كما اوحى الى غيره من الانبياء وتستلزم ايضا صدق الاخبار بانه نبي فهو اذا قال انى نبى كان صادقا وكذلك كل من أخبر بنبوته فانه يكون صادقا وثبوت الشيء وصدق من أخبر به متلازمان فكل حق ثابت اذا أخبر به مخبر فهو صادق وكل خبر صادق فقد تحقق مخبره فالخبر الصادق هو ومخبره متلازمان يلزم من صدق الخبر تحقق مخبره ومن تحقق الشيء صدق المخبر به بخلاف الكذب فانه ومخبره ليسا متلازمين بل الخبر الكذب يوجد مع انتفاء مخبره والمخبر به يتحقق على صفة خلاف ما في الخبر الكاذب فلهذا كانت الآيات والعلامات والدلائل ونحو هذا كما تدل على المدلول وانه حق ثابت فهى أيضا تدل على صدق من أخبر به كائنا من كان فمن قال انى ابن فلان وقامت بينة بنسبه فهى تثبت صدقه وصدق كل من قال هو ابن فلان وكذلك البينة التى تشهد برؤية الهلال هى تشهد بصدق كل من أخبر بطلوعه وكذلك كل دليل دل على مدلول فهو دليل على صدق كل من أخبر بذلك المدلول عليه وكذلك اذا قال الصادق ان الله أرسلنى فهذا خبر منه عن ارسال الله فالآيه الدالة على صدقه تدل على صدق كل من قال ان الله أرسله فالآيات الدالة على صدق محمد اذا قال ما أمره الله به في قوله قل يا أيها الناس أنى رسول الله اليكم جميعاً هى دالة على صدق كل من قال أشهد أن محمداً رسول الله فجميع آياته وآيات الانبياء الذين أخبروا بنبوته كموسى والمسيح وأنبياء بنى اسرائيل وغيرهم كلها آيات ومعجزات تبين صدق كل واحد من المؤمنين به الذين يقول أحدهم أشهد أن محمداً رسول الله سواء قالها مجردة أو قالها في صلاته أو عقب طهارته أو متى ما قالها ليست آيات النبوة دالة على أنه وحده هو الصادق في قوله انى رسول الله اليكم جميعاً بل الآيات تصدقه وتصدق كل من شهد له بالرسالة وهكذا سائر الادلة الدالة على مدلول فانها تدل على صدق من أخبر بذلك المدلول عليه من جميع الخلق وقد عرف أن الدليل لابد أن يكون مختصاً بالمدلول عليه مستلزماً له فآيات الانبياء وسائر أنواع الآيات والادلة لا تكون مع نقيض المدلول عليه أى مع عدمه فانها اذا كانت مع وجوده وعدمه لم تكن دالة على وجوده ولا على عدمه ولم يكن الاستدلال به على وجوده

ولا على عدمه ولم يكن الاستدلال به على وجوده أولى به من الاستدلال على عدمه كالامور المعتادة التى توجد مع الصادق والكاذب كطلوع الشمس وغروبها فان هذه لا تدل على صدق أحد ولا كذبه وكذلك خوارق السحرة والكهان هى معتادة مع صدق أحدهم ومع كذبه فلا تدل على الصدق ولا على الكذب والاستدلال بها على صدقه كالاستدلال بها على كذبه وهى تدل على الصدق اذ كان كذبهم اكثر من صدقهم كالذين يخبرون بكلمة صدق وعشرة كذب قال تعالى [هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وا كثرهم كاذبون] فكيف اذا كان مع الصدق مائة كذبة كما قال النبي ﷺ لما سئل عن الكهان كما روى البخارى في صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت سأل ناس رسول الله ﷺ عن الكهان فقال لهم رسول الله ﷺ ليسوا بشىء قالوا يارسول الله فانهم يحدثون أحيانا بالشىء يكون حقاً فقال رسول الله ﷺ تلك الكلمة من الحق يحفظها الجنى فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة [١] ☆

فيلزم من هذا أن آيات الانبياء لا يكون مثلها لمن يكذبهم وهو الذى يخبر بكذبهم والناس فيهم رجلان اما مصدق واما مكذب فالمكذب لهم يمتنع أن يأتى بمثل آياتهم ومتى كذب مكذب لمدعى النبوة وأتى بمثل آيته سواء دل على أن تلك ليست من آيات الانبياء ولا تدل على صدق النبى لكن لا يلزم أن يدل على كذبه فان الدليل المعين اذا بطل لا يستلزم انتفاء المدلول عليه فقد تكون له آيات أخر تدل على نبوته وصدق الصادق وكذب الكاذب يعرف بوجوه كثيرة جداً وكذلك النبوة لها آثار مستلزمة لها بدون اخبار النبى بانه نبى وكذب المتنبى الذى يزين له الشيطان أن يقول انه نبى له آثار تستلزم انتفاء النبوة وأنه كاذب اما عمداً واما أن الشيطان قد لبس عليه فان الخبر عند كثير من الناس ينقسم الى صدق وكذب فالمطابق هو الصدق والمخالف هو الكذب وأثبت بعضهم واسطة بين الصدق والكذب وهو مالم يتعمده الانسان قال فهذا ليس بصدق لأنه غير مطابق وليس بكذب لان صاحبه لم يتعمد الكذب بل أخطأ وليس كل من أخطأ يقال انه كاذب كالناسى في الصلاة اذا قال صليت أربعا ولم يصل الا ثلاثا كما قال النبى ﷺ لما قال له ذو اليدين اقصرت الصلاة ام نسيت فقال لم انس ولم تقصر فقال بلى قد نسيت فقال أكما يقول ذو اليدين قالوا نعم والذى يدل عليه القرآن ان كل من تكلم بلا علم

---

(١) هنا بياض في الاصل مقدار كلمتين

فاخطأ فهو كاذب كالذين حرموا وحللوا واوجبوا وان كان الشيطان قد زين لهم ذلك وأوهمهم انه حق ولهذا قال [قل هل انبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك اثيم]وهي تتنزل على من يظن انه يصدقها قال تعالى [ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون] وقال تعالى[وقال الشيطان لما قضى الامر أن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم] وكذلك الذى يدل عليه الشرع ان كل من اخبر بخبر ليس له ان يخبر به وهو غير مطابق فانه يسمى كاذبا وان كان لم يتعمد الكذب كقول النبي ﷺ لما قيل له ان أبا السنابل قال ما أنت بناكحة حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر فقال كذب أبو السنابل ولما قيل له ان عامر بن الاكوع حبط عمله لانه قتل نفسه فقال كذب من قالها ان له لاجرين أنه جاهد مجاهد ولما قال سعد بن عبادة في يوم الفتح اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة وحكاه أبو سفيان لرسول الله ﷺ قال كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة وكذلك قال عبادة بن الصامت لما قيل له ان أبا محمد يقول الوتر واجب فقال كذب أبو محمد وكذلك ابن عباس لما قيل له ان نوفا يقول ان موسى بنى اسرائيل ليس هو موسى الخضر فقال كذب نوف وأيضاً من أخبر الناس خبراً طلب أن يصدقوه فيه وقد نهوا عن تصديقه الا ببينة فانه أيضاً كاذب كما قال تعالى في القرآن (لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء فاذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون)وقال في القاذفين (فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا فان الله غفور رحيم) وكذلك أن القاذف وان كان قد رأى الفاحشة بعينه لكنه اذا أخبر بها الناس فهو يطلب منهم أن يصدقوه بمجرد خبره وليس لهم ذلك بل ليس لهم أن يصدقوه حتى يأتي بأربعة شهداء وهو لا يخبر الناس ليكذبوه بل يخبرهم ليعتقدوا ثبوت ما أخبرهم به ويعتقدوا أن المقذوف قد فعل الفاحشة وهم ليس لهم أن يقولوا ذلك الا بأربعة شهداء فاذا لم يأت بأربعة شهداء فهو عند الله كاذب لانه أخبر الناس بأن هذا فعل الفاحشة وقال خبراً طلب به تصديقهم وان يظهر أن هذا فعلها فحقيقة خبره أن هذا فعل فاحشة ظاهرة يرتب عليها هذا بل ان كان فعل شيئاً فقد فعله سراً لم يعلم به الناس وقد علم أن الذنب اذا كتم لم يضر الا صاحبه ولكن

اذا أعلن فلم ينكر ضر الناس وهذا لم يعلنه وأكثر المسلمين اذا فعل أحدهم فاحشة باطنة تاب منها ومن اعلانها يتشبه الناس بعضهم ببعض في ذلك فلهذا نهى الله عن فعلها وعن التكلم بها صدقا وغير صدق فانها اذا فعلت وكتمت خف أمرها واذا أظهرت كان فيها مفاسد كثيرة قال النبي صلى الله عليه وسلم من ابتلى من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله فان من يبدلنا صفحته نقم عليه كتاب الله وقال كل أمتى معافي الا المجاهرين وان من المجاهرة أن يبيت الرجل على الذنب قد ستره الله فيصبح يقول يا فلان فعلت البارحة كذا وكذا فقد نهى الله تعالى صاحبها أن يظهرها ويعلنها فكيف القاذف بخلاف ما اذا أقر بها عند ولى أمر ليقيم عليه الحد أو يشهد بها نصاب تام لاقامة الحد فذلك فيه منفعة وصلاح وقد يخبر بها بعض الناس سراً لمن يعلمه كيف يتوب ويستفتيه ويستشيره فيما يفعل فعلى ذلك المفتى والمشير أن يكتم عليه ذلك ولا يشيع الفاحشة وبسط هذا له موضع آخر (والمقصود هنا) أن الناس في من قال انى رسول قسمان اما مصدق واما غير مصدق فمن ليس بمصدق لا يمكنه أن يأتى بمثل آيات الانبياء سواء قال انه كاذب أو توقف في التصديق والتكذيب وكذلك المؤمنون أتباع الانبياء اذا أتوا بآية كانت دليلا على نبوة النبي الذى اتبعوه فلا يمكن من لا يصدق النبى أن يعارضهم ومتى عارضهم لم يكن من آيات الانبياء ولهذا كان أبو مسلم لما قال له الاسود العنسى أتشهد أنى رسول الله قال ما أسمع قال أتشهد أن محمداً رسول قال نعم فألقاه في النار فصارت عليه برداً وسلاماً فكرامات الصالحين هي مستلزمة لصدقهم في قولهم ان محمداً رسول ولثبوت نبوته فهى من جملة آيات الانبياء وآياتهم وما خصم الله به لا يكون لغير الانبياء واذا قال القائل معجزات الانبياء وآياتهم وما خصهم الله به فهذا كلام مجمل فانه لا ريب أن الله خص الانبياء بخصائص لا توجد لغيرهم ولا ريب ان من آياتهم ما لا يقدر ان يأتى به غير الانبياء بل النبى الواحد له آيات لم يأت بها غيره من الانبياء كالعصا واليد لموسى وفرق البحر فان هذا لم يكن لغير موسى وكانشقاق القمر والقرآن وتفجير الماء من بين الاصابع وغير ذلك من الآيات التى لم تكن لغير محمد من الانبياء وكالناقة التى لصالح فان تلك الآية لم تكن مثلها لغيره وهو خروج ناقة من الارض بخلاف احياء الموتى فانه اشترك فيه كثيرا من الانبياء بل ومن الصالحين وملك سليمان لم يكن لغيره كما قال (رب اغفرلى

وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى) فطاعة الجن والطير وتسخير الريح تحمله من مكان الى مكان له ولمن معه لم يكن مثل هذه الآية لغير سليمان. وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «ما من نبى من الانبياء الا وقد اوتى من الآيات ما من على مثله البشر وانما كان الذى اوتيته وحيا اوحاه الله الى فارجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» وهو من حين اتى بالقرآن وهو بمكة يقرأ على الناس (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) فقد ظهر ان من آيات الانبياء ما يختص به النبى ومنها ما يأتى به عدد من الانبياء ومنها ما يشترك فيه الانبياء كلهم ويختصون به وهو الاخبار عن الله بغيبه الذى لا يعلمه الا الله قال عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم ان قد ابلغوا رسالات ربهم واحاط بما لديهم واحصى كل شىء عدداً لكن ما يظهر على المؤمنين بهم من الآيات بسبب الايمان بهم فيه قولان قال طائفة ليس ذلك من آياتهم وهذا قول من يقول من شرط المعجزة أن تقارن دعوى النبوة لا يتقدم عليها ولا يتأخر عنها كما قاله هؤلاء الذين يجعلون خاصة المعجزة التحدى بالمثل وعدم المعارضة ولا يكون الا مع الدعوى كما تقدم وهو قول قد عرف فساده من وجوه . والقول الثانى وهو القول الصحيح ان آيات الاولياء هي من جملة آيات الانبياء فانها مستلزمة لنبوتهم ولصدق الخبر بنبوتهم فانه لولا ذلك لما كان هؤلاء أولياء ولم تكن لهم كرامات لكن يحتاج أن يفرق بين كرامات الاولياء. وبين خوارق السحرة والكهان وما يكون للكفار والفساق وأهل الضلال والغى باعانة الشياطين لهم كما يفرق بين ذلك وبين آيات الانبياء والفروق بين ذلك كثيرة كما قد بسط في غير هذا الموضع ☆

فصل

فقد تبين أن من آيات الانبياء ما يظهر مثله على أتباعهم ويكون ما يظهر على أتباعهم من آياتهم فان ذلك مختص بمن يشهد بنبوتهم فهو مستلزم له لا تكون تلك الآيات الا لمن أخبر بنبوتهم واذا لم يخبر بنبوتهم لم تكن له تلك الآيات وهذا حد

الدليل وهو أن يكون مستلزماً للمدلول عليه فاذا وجد الدليل وجد المدلول عليه واذا عدم المدلول عليه عدم الدليل ولهذا من السلف من يأتي بالآيات دلالة على صحة الاسلام وصدق الرسول كما ذكر أن خالد بن الوليد شرب السم لما طلب منه آية ولم يضره ✡

فصل

في معنى خرق العادة وأن الاعتبار أن تكون خارقة لعادة غير الانبياء مطلقاً بحيث تختص بالانبياء فلا توجد الا مع الاخبار بنبوتهم وأما اخبار الكهان ببعض الامور الغائبة لاخبار الشياطين لهم بذلك وسحر السحرة بحيث يموت الانسان من السحر أو يمرض ويمنع من النكاح ونحو ذلك مما هو باعانة الشياطين فهذا أمر موجود في العالم كثير معتاد يعرفه الناس ليس هذا من خرق العادة بل هو من العجائب الغريبة التي يختص بها بعض الناس كما يختص قوم بخفة اليد والشعبذة وقوم بالسباحة الغريبة حتى يضطجع أحدهم على الماء وكما يختص قوم بالقيافة[١] حتى يباينوا بها غيرهم وكما يختص قوم بالعيافة [٢] ونحو ذلك مما هو موجود ولهذا كان مكذبو الرسل يجعلون آياتهم من جنس السحر وهذا مستقر في نفوسهم أن الساحر ليس برسول ولا نبي كما في قصة موسى لما قالوا [ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون] قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون) وهذا لحيرتهم وضلالتهم تارة ينسبون الى الجنون وعدم العقل وتارة الى الحذق والخبرة التي ينال بها السحر فان السحر لا يقدر عليه ولا يحسنه كل أحد لكن العجائب والخوارق المقدورة للناس منها ما سببه من الناس بحذقهم في ذلك الفن كما يحذق الرجل في صناعة من الصناعات وكما يحذق الشاعر والخطيب في شعره وخطابته وعلمه وكما يحذق بعض الناس في رمى النشاب وعمل الرمح وركوب الخيل فهذه كلها قد يأتى

---

[١] القيافة معناها تتبع الآثار والاشباه والاستدلال بها كما في الانساب ينظر القائف في الولد المختلف في نسبه فينظر في شبهه وسحنته فيلحقه بمن يدعيه أو ينفيه عنه ✡

[٢] العيافة معناها زجر الطير وازعاجها عن أماكنها ليتفاءلوا بمطارها يميناً أو شمالا ونحو ذلك ✡

الشخص منها بما لا يقدر عليه أهل البلد بل أهل الاقليم لكنها مع ذلك مقدورة مكتسبة معتادة بدون النبوة قد فعل مثلها ناس آخرون قبلهم أو في مكان آخر فليست هي خارقة لعادة غير الانبياء مطلقاً بل توجد معتادة لطائفة من الناس وهم لا يقولون انهم أنبياء ولا يخبر أحد عنهم بأنهم أنبياء ومن هنا دخل الغلط على كثير من الناس فانهم لما رأوا آيات الانبياء خارقة للعادة لم يعتد الناس مثلها أخذوا مسمى خرق العادة ولم يميزوا بين ما يختص به الانبياء ومن أخبر بنبوتهم وبين ما يوجد معتاداً لغيرهم واضطربوا في مسمى هذا الاسم كما اضطربوا في مسمى المعجزات ولهذا لم يسمها الله في كتابه الا آيات وبراهين فان ذلك اسم يدل على مقصودها ويختص بها لا يقع على غيرها لم يسمها معجزة ولا خرق عادة وان كان ذلك من بعض صفاتها فهى لا تكون آية وبرهانا حتى تكون قد خرقت العادة وعجز الناس عن الاتيان بمثلها لكن هذا بعض صفاتها وشرط فيها وهو من لوازمها لكن شرط الشيء ولازمه قد يكون أعم منه وهؤلاء جعلوا مسمى المعجزة وخرق العادة هو الحد المطابق لها طرداً وعكساً كما أن بعض الناس يجعل اسمها انها عجائب وآيات الانبياء اذا وصفت بذلك فينبغى أن يقيد بما يختص بها فيقال العجائب التى أتت بها الانبياء وخوارق العادات والمعجزات التى ظهرت على أيديهم أو التى لا يقدر عليها البشر أو لا يقدر عليها الانس والجن أو لا يقدر عليها الا الله بمعنى أنه لا يقدر عليها أحد بحيلة وا كتساب كما يقدرون على السحر والكهانة فبذلك تتميز آياتهم عما ليس من آياتهم والا فلفظ العجائب قد يدخل فيه بعض الناس الشعبذة ونحوها والتعجب في اللغة يكون من أمر خرج عن نظائره وما خرج عن نظائره فقد خرق تلك العادة المعينة في نظائره فهو أيضاً خارق للعادة وهذا شرط في آيات الانبياء أن لا يكون لها نظير لغير الانبياء ومن يصدقهم فاذا وجد نظيرها من كل وجه لغير الانبياء ومن شهد لهم بالنبوة لم تكن تلك من آياتهم بل كانت مشتركة بين من يخبر بنبوتهم ومن لا يخبر بنبوتهم كما يشترك هؤلاء وهؤلاء في الطب والصناعات وأما السحر والكهانة فهو من اعانة الشياطين لبنى آدم فان الكاهن يخبره الجن وكذلك الساحر انما يقتل و يمرض ويصعد في الهواء ونحو ذلك باعانة الشياطين له فامورهم خارجة عما اعتاده الانس باعانة الشياطين لهم قال تعالى (ويوم نحشرهم جميعا يامعشر

الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الأنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله) فالجن والانس قد استمتع بعضهم ببعض فاستخدم هؤلاء هؤلاء وهؤلاء هؤلاء في أمور كثيرة كل منهم فعل للآخر ما هو غرضه ليعينه على غرضه والسحر والكهانة من هذا الباب وكذلك ما يوجد لعباد الكفار من المشركين وأهل الكتاب ولعباد المنافقين والملحدين من المظهرين للاسلام والمبتدعين منهم كلها باعانة الجن والشياطين لكن الشياطين تظهر عند كل قوم بما لا ينكرونه فاذا كان القوم كفاراً لا ينكرون السحر والكهانة كما كانت العرب وكالهند والترك المشركين ظهروا بهذا الوصف لان هذا معظم عند تلك الامة وان كان هذا مذموماً عند أولئك كما قد ظهر ذم هؤلاء عند أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى أظهرته الشياطين فيمن يظهر العبادة ولا يكون مخلصاً لله في عبادته متبعاً للانبياء بل يكون فيه شرك ونفاق وبدعة فتظهر له هذه الامور التى ظهرت للكهان والسحرة حتى يظن أولئك أن هذه من كرامات الصالحين وان ما هو عليه هذا الشخص من العبادة هو طريق أولياء الله وان كان مخالفا لطريق الانبياء حتى يعتقد من يعتقد أن لله طريقاً يسلكها اليه أولياؤه غير الايمان بالانبياء وتصديقهم وقد يعتقد بعض هؤلاء أن في هؤلاء من هو أفضل من الانبياء وحقيقة الامر أن هؤلاء عارضوا الانبياء كما كانت تعارضهم السحرة والكهان كما عارضت السحرة لموسى وكما كان كثير من المنافقين يتحاكمون الى بعض الكهان دون النبى صلى الله عليه وسلم ويجعلونه نظير النبى وكان في العرب عدة من هؤلاء وكان بالمدينة منهم أبو برزة الاسلمى قبل أن يسلم كان كاهناً وقد قيل ان الذى أنزل الله تعالى فيه ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما انزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً. وقد ذكر قصته غير واحد من المفسرين ولما كان الذين يعارضون آيات الانبياء من السحرة والكهان لا يأتون بمثل اياتهم بل يكون بينها شبه كشبه الشعر بالقرآن ولهذا قالوا في النبى أنه ساحر وكاهن وشاعر مجنون قال تعالى (أنظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا فجعلوا له مثلا لا يماثله بل بينهما شبه مع وجود الفارق المبين وهذا هو القياس الفاسد

فلما كان الشعر كلاما له فواصل ومقاطع والقرآن آيات له فواصل ومقاطع قالوا شاعر ولكن شتان وكذلك الكاهن يخبر ببعض المغيبات ولكن يكذب كثيراً وهو يخبر بذلك عن الشياطين وعليه من آثارهم مايدل على أنه أفاك أثيم كما قال تعالى [هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع واكثرهم كاذبون] ثم قال (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون) فذكر سبحانه الفرق بين النبي وبين الكاهن والشاعر وكذلك الساحر لما كان يتصرف في العقول والنفوس بما يغيرها وكان من سمع القرآن وكلام الرسول خضع له عقله ولبه وانقادت له نفسه وقلبه صاروا يقولون ساحر وشتان وكذلك مجنون لما كان المجنون يخالف عادات الكفار وغيرهم لكن بما فيه فساد لا صلاح والانبياء جاءوا بما يخالف عادات الكفار لكن بما فيه صلاح لا فساد قالوا مجنون قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون) فتارة يصفونه بغاية الحذق والخبرة والمعرفة فيقولون ساحر وتارة بغاية الجهل والغباوة والحمق فيقولون مجنون وقد ضلوا في هذا وهذا كما قال تعالى (انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) فهم بمنزلة السائر في الطريق وقد ضل عنها يأخذ يميناً وشمالا ولا يهتدى الى السبيل التى تسلك والسبيل التى يجب سلوكها قول الصدق والعمل بالعدل والكهانة والسحر يناقض النبوة فان هؤلاء تعينهم الشياطين تخبرهم وتعاونهم بتصرفات خارقة ومقصودهم الكفر والفسوق والعصيان والانبياء تعينهم الملائكة هم الذين يأتونهم فيخبرونهم بالغيب ويعاونونهم بتصرفات خارقة كما كانت الملائكة تعين النبي صلى الله عليه وسلم في مغازيه مثل يوم بدر امده الله بالف من الملائكة ويوم حنين قال (ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) وقال تعالى (ان لا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها) وقال تعالى (اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب)

وقد بين سبحانه ان الذى جاء بالقرآن ملك كريم ليس بشيطان فقال (انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين وماصاحبكم بمجنون ولقد رآه بالافق المبين وماهو على الغيب بظنين وماهو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون) ٭
ولما كانت الانبياء مؤيدة بالملائكة والسحرة والكهان تقترن بهم الشياطين كان من الفروق التى بينهم الفروق التى بين الملائكة والشياطين والمتفلسفة الذين لم يعرفوا الملائكة والجن كابن سينا وامثاله ظنوا أن هذه الخوارق من قوى النفس قالوا والفرق بين النبى والساحر أن النبى يأمر بالخير والساحر يأمر بالشر وجعلوا ما يحصل للممرور من هذا الجنس اذ لم يعرفوا صرع الجن للانسان وان الجنى يتكلم على لسان الانسان كما قد عرف ذلك الخاصة و العامة وعرفه علماء الامة وأئمتها كما قد بسط في غير هذا الموضع. والجهمية المجبرة الذين قالوا ان الله قد يفعل كل ممكن مقدور لا ينزهونه عن فعل شىء ويقولون انه يفعل بلا سبب ولا حكمة وهو الخالق لجميع الحوادث لم يفرقوا بين ما تأتى به الملائكة ولا ما تأتى به الشياطين بل الجميع يضيفونه الى الله على حد واحد ليس في ذلك حسن ولا قبيح عندهم حتى يأتى الرسول فقبل ثبوت الرسالة لا يميزون بين شىء من الخير والشر والحسن والقبيح فلهذا لم يفرقوا بين آيات الانبياء وخوارق السحرة والكهان بل قالوا ما يأتى به السحرة والكهان يجوز أن يكون من آيات الانبياء وما يأتى به الانبياء يجوز أن يظهر على أيدى السحرة والكهان لكن ان دل على انتفاء ذلك نص أو اجماع نفوه مع أنه جائز عندهم أن يفعله الله لكن بالخبر علموا أنه لم يفعله. فهؤلاء لما رأوا ما جاءت به الانبياء وعلموا أن آياتهم تدل على صدقهم وعلموا ذلك اما بضرورة واما بنظر واحتاجوا الى بيان دلائل النبوة على أصلهم كان غاية ما قالوا انه كل شىء يمكن أن يكون آية للنبى بشرط أن يقترن بدعواه وبشرط أن يتحدى بالاتيان بالمثل فلا يعارض ومعنى التحدى بالمثل أن يقول لمن دعاهم ائتوا بمثله وزعموا أنه اذا كان هناك سحرة وكهان وكانت معجزته من جنس ما يظهر على أيديهم من السحر والكهانة فان الله لابد أن يمنعهم عن مثل ما كانوا يفعلونه وان من ادعى منهم النبوة فانه يمنعه من تلك الخوارق أو يقيض له من يعارضه بمثلها فهذا غاية تحقيقهم وفيه من الفساد ما يطول وصفه وطاعة الجن والشياطين

لسليمان صلوات الله عليه لم تكن من جنس معاونتهم للسحرة والكهان والكفار وأهل الضلال والغى ولم تكن الآية والمعجزة والكرامة التى أكرمه الله بها هي ما كانوا يعتادونه مع الانس فان ذلك انما كان يكون في أمور معتادة مثل اخبارهم أحياناً ببعض الغائبات ومثل أمراضهم وقتلهم لبعض الانس كما أن الانس قد يمرض ويقتل غيره ثم هم انما يعاونون الانس على الاثم والعدوان اذا كانت الانسى من أهل الاثم والعدوان يفعلون ما تهواه الشياطين فتفعل الشياطين بعض ما يهوونه قال تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض)وأما التسخير الذى سخروه لسليمان فلم يكن لغيره من الانبياء فضلا عن من ليس بنبي وقد سأل ربه ملكا لا ينبغى لاحد من بعده فقال [رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى انك أنت الوهاب]قال تعالى [فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الاصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب]وقال تعالى (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره الى الارض التى باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين) وقال تعالى (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين) وكذلك ما ذكره من قول العفريت له[أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك]فهذه الطاعة من التسخير بغير اختيارهم في مثل هذه الاعمال الظاهرة العظيمة ليس مما فعلته بأحد من الانس وكان ذلك بغير أن يفعل شيئاً مما يهوونه من العزائم والاقسام والطلاسم الشركية كما يزعم الكفار أن سليمان سخرهم بهذا فنزهه الله من ذلك بقوله (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر)وأما طاعة الجن لنبينا وغيره من الرسل كموسى فهذا نوع آخر فان هذا طاعتهم فيما أمرهم الله به من عبادته وطاعته

كطاعة الانس لنبينا حيث أرسل الى الطائفتين فدعاهم الى عبادة الله وحده وطاعته ونهاهم عن معصيته التى بها يستحقون العذاب في الآخرة وكذلك الرسل دعوهم الى ذلك وسليمان منهم لكن هذا انما ينتفع به منهم من آمن طوعاً ومن لم يؤمن فانه يكون بحسب شريعة ذلك الرسول هل يترك حتى يكون الله هو الذى ينتقم منه أو يجاهد وسليمان كان على شريعة التوراة واستخدامه لمن لم يؤمن منهم هو مثل استخدام الاسير الكافر فحال نبينا مع الجن والانس أكمل من حال سليمان وغيره فان طاعتهم لسليمان كانت طاعة ملكية فيما يشاء وأما طاعتهم لمحمد فطاعة نبوة ورسالة فيما يأمرهم به من عبادة الله وطاعة الله واجتناب معصية الله فان سليمان ﷺ كان نبيا ملكا ومحمد كان عبدا رسولا مثل ابراهيم . وموسى وسليمان مثل داود ويوسف وغيرهما مع أن داود وسليمان ويوسف هم رسل أيضا دعوا الى توحيد الله وعبادته كما أخبر الله أن يوسف دعا أهل مصر لكن بغير معاداة لمن لم يؤمن ولا اظهار مناوأة بالذم والعيب والطعن لما هم عليه كما كان نبينا أول ما أنزل عليه الوحى وكانت قريش اذ ذاك تقره ولا ينكر عليه الى أن أظهر عيب آلهتهم ودينهم وعيب ما كانت عليه آباؤهم وسفه أحلامهم فهنالك عادوه وآذوه وكان ذلك جهاداً باللسان قبل أن يؤمر بجهاد اليد قال تعالى [ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً] وكذلك موسى مع فرعون أمره أن يؤمن بالله وأن يرسل معه بنى اسرائيل وان كره ذلك وجاهد فرعون بالزامه بذلك بالآيات التى كان الله يعاقبهم بها الى ان اهلكه الله وقومه على يديه ☆

فصل

فالذين سموا هذه الآيات خوارق للعادات وعجائب ومعجزات اذا جعلوا ذلك شرطاً فيها وصفة لازمة لها بحيث لا تكون الآيات الا كذلك فهذا صحيح وان كانت هذه الامور قد تجعل أمراً عاما فتكون متناولة لآيات الانبياء وغيرها كالحيوان الذى ينقسم الى انسان وغير انسان واما اذا جعلوا ذلك حدا لها وضابطا فلا بد أن يقيدوا كلامهم مثل ان يقولوا خوارق العادات التى تختص الانبياء او يقولوا خوارق عادات الناس كلهم غير الانبياء فان آياتهم لا بد

ان تخرق عادة كل امة من الامم وكل طائفة من الطوائف لا تختص آياتهم بخرق عادة بلد معين ولا من أرسلوا اليه بل تخرق عادة جميع الخلق الا الانبياء فانها اذا كانت معتادة للانبياء مثل الخبر الصادق بغيب الله تعالى الذى لا يعرف الا من جهتهم فما كان معتادا للانبياء دون غيرهم فهو من أعظم آياتهم وبراهينهم وان كان معتادا لهم فان الدليل هو ما يستلزم المدلول عليه فاذا لم يكن ذلك معتاداً الا لنبى كان مستلزما للنبوة وكان من اتى به لا يكون الا نبيا وهو المطلوب بل لو كان مستلزما للصدق ولا يأتى به الا صادق لكان المخبر عن نبوة نبى اما نبوة نفسه أو نبوة غيرها اذا كان كاذبا لم يحصل له مثل ذلك الدليل الذى هو مستلزم للصدق ولا يحصل أيضاً لمن كذب بنبوة نبى صادق اذ هو أيضاً كاذب وانما يحصل لمن اخبر بنبوة نبى صادق وحينئذ فيكون ذلك الدليل مستلزما للخبر الصادق بنبوة النبى وهذا هو المطلوب فان مدلول الآيات سواء سميت معجزات أو غيرها هو الخبر الصادق بنبوة النبى ومدلولها اخبار الله وشهادته بانه نبى وان الله أرسله فقول الله محمد رسول الله وقوله انى رسول اليكم وقول كل مؤمن انه رسول الله كل ذلك خبر عن رسالته وهذا هو مدلول الآيات وقد يكون مدلول الآيات نفس النبوة التى هي مخبر هذا الخبر ويكون الدليل مثل خبر من الاخبار وهذا من جنس الاول فما دل على نفس النبوة دل على صدق المخبر بها وما دل على صدق المخبر بها دل عليها وأما نفس اخبار الرب بالنبوة واعلامه بها وشهادته بها قولا وعملا فهو اخبار منه بها وهو الصادق في خبره فاخباره هو دليل عليها فانه لا يقول الا الحق ولا يخبر الا بالصدق وايضاً فهو الذى انشأ الرسالة وارساله بكلامه قد يكون انشاء للرسالة وقد يكون اخبارا عن ارساله كالذى يرسل رسولا من البشر قد يرسله والناس يسمعون فيقول له اذهب الى فلان فقل له كذا وكذا وقد يرسله بينه وبينه ثم يقول للناس انى قد أرسلته ويرسله بعلامات وآيات يعرف بها المرسل اليه صدقه وكذلك اذا وصفت بانها معجزات فلا بد ان يعجز كل من ليس بنبى ولم يشهد للنبى بالنبوة فيعجز جميع المكذبين للرسول والشاكين في نبوته من الجن والانس وكذلك اذا قيل هي عجائب والعجب ما خرج عن نظيره فلم يكن له نظير فلا بد ان يكون من العجائب التى لا نظير لها اصلا عند غير الانبياء

لا من الجن ولا من الانس فاذا كان ليس لها نظير في شيء آخر فهذا يؤيد انها من خصائص الانبياء ومن آياتهم فهذا الموضع من فهمه فهما جيداً تبين له الفرقان في هذا النوع فان كثيرا من الناس يصفها بانها خوارق ومعجزات وعجائب ونحو ذلك ولا يحقق الفرق بين من يجب ان يخرق عادته ومعجزه ومن لا يجب ان يكون في حقه كذلك فالواجب ان يخرق عادة كل من لم يقر بنبوة الانبياء فلا يكون لمكذب بنبوتهم ولا لشاك وقولنا يخرق عادتهم هو من باب العادة التى تثبت بمرة ليس من شرط فسادها ان تقع غير مرة مع انتفاء الشهادة بالنبوة بل متى وقعت مرة واحدة مع انتفاء الشهادة بالنبوة لم تكن مختصة بشهادة النبوة ولا بالنبوة فلا يجب ان تكون آية وقولنا ولا يجب ان تخرق عادات الانبياء ولم نقل ولا يجوز ان تخرق عادات الانبياء بل قد تكون خارقة ايضاً لعادات الانبياء وقد خص بها نبي واحد مثل اكثر آيات الانبياء فان كل نبي خص بآيات لكن لا يجب في آيات الانبياء ان تكون مختصة بنبي بل ولا يجب ان يختص ظهورها على يد النبي بل متى اختصت به وهي من خصائصه كانت آية له سواء وجدت قبل ولادته أو بعد موته أو على يد أحد من الشاهدين له بالنبوة فكل هذه من آيات الانبياء والذين قالوا من شرط الآيات ان تقارن دعوى النبوة غلطوا غلطا عظيما وسبب غلطهم انهم لم يعرفوا ما يخص بالآيات ولم يضبطوا خارق العادة بضابط يميز بينها وبين غيرها بل جعلوا ما للسحرة والكهان هو أيضا من آيات الانبياء اذا اقترن بدعوى النبوة ولم يعارضه معارض وجعلوا عدم المعارض هو الفارق بين النبي وغيره وجعلوا دعواه النبوة جزءاً من الآية فقالوا هذا الخارق ان وجد مع دعوى النبوة كان معجزة وان وجد بدون دعوى النبوة لم يكن معجزة فاحتاجوا لذلك ان يجعلوه مقارنا للدعوى قالوا والدليل على ذلك ان مثل آيات الانبياء يأتي في آخر الزمان اذا جاءت اشراط الساعة ومع ذلك ليس هو من آياتهم وكذلك قالوا في كرامات الاولياء وليس الامر كذلك بل اشراط الساعة هي من آيات الانبياء من وجوه منها انهم اخبروا بها قبل وقوعها فاذا جاءت كما اخبروا كان ذلك من آياتهم ومنها انهم اخبروا بالساعة فهذه الاشراط مصدقة لخبرهم بالساعة وكل من آمن بالساعة آمن بالانبياء وكل من كذب الانبياء كذب الساعة قال تعالى

(وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون) وقال تعالى[وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) فكل من آمن بالآخرة فقد آمن بالقرآن فاذا جاءت اشراط الساعة كانت دليلا على صدق خبرهم أن الساعه حق وان القرآن حق وكان هذا من الآيات الدالة على صدق ما جاء به الرسول من القرآن وهو المطلوب فلا يوجد خرق عادة لجميع الناس الا وهو من آيات الانبياء وكذلك الذى يقتله الدجال ثم يحييه فيقوم فيقول أنت الاعور الكذاب الذى أخبرنا به رسول الله ﷺ والله ما ازددت فيك الا بصيرة فيريد الدجال أن يقتله فلا يقدر على ذلك فهذا الرجل بعد أن قتل وقام يقول للدجال أنت الاعور الكذاب الذى أخبرنا به رسول الله ﷺ والله ما ازددت فيك بهذا القتل لا بصيرة ثم يريد الدجال أن يقتله فلا يقدر عليه فعجزه عن قتله ثانياً مع تكذيب الرجل له بعد أن قتله وشهادته للرسول محمد بالرسالة هو من خوارق العادات التى لا توجد الا لمن شهد للانبياء بالرسالة وهذا الرجل هو من خيار أهل الارض المسلمين فهذا الخارق الذى جرى فيه هو من خصائص من شهد لمحمد بالنبوة فهو من اعلام النبوة ودلائلها وكونه قتل أولا أبلغ في الدلالة فان ذلك لم يزغه ولم يؤثر فيه وعلم أنه لا يسلط عليه مرة ثانية فكان هذا اليقين والايمان مع عجزه عنه هو من خوارق الآيات ومعلوم أن قتله ممكن في العادة فعجزه عن قتله ثانيا هو الخارق للعادة ودل ذلك على أن احياء الله له لم يكن معجزة للدجال ولا ليبين بها صدقه لكن أحياه ليكذب الدجال وليبين أن محمداً رسول الله وان الدجال كذاب وانه هو الاعور الكذاب الذى أنذر به النبي ﷺ حيث قال «ما من نبى الا وقد أنذر امته الاعور الدجال وسأقول لكم فيه قولا لم يقله نبى لامته انه أعور وان الله ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن قارىء وغير قارىء» وفي بعض الاحاديث الصحيحة «واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت» فذكر لهم آيات ظاهرة يشترك فيها الناس تبين لهم كذبه فيما يدعيه من الربوبية اذ كان كثير من الناس يجوزون ظهور الاله في البشر

النصارى وغير النصارى وما يأتى به الدجال انما يحار فيه ويراه معارضاً لآيات الانبياء من لم يحكم الفرقان فقوم يكذبون ان يأتى بعجيب ويقولون مامعه الا التمويه كما قالوا في السحر والكهانة مثل كثير من المعتزلة والظاهرية كابن حزم وقوم يقولون لما ادعى الالهية كانت الدعوى معلومة البطلان فلم يظهر الخارق كما يقول ذلك القاضي أبو بكر وطائفة ويدعون أن النصارى اعتقدت في المسيح الالهية لكونه أتى بالخوارق مع اقراره بالعبودية فكيف بمن يدعى الالهية ولكن هذا الخارق الذى يظهره الله في هذا الرجل الصالح الذى طلب منه الدجال أن يؤمن به فلم يفعل بل كذبه وقال انت الاعور الدجال الذى اخبرنا به النبى ﷺ فقتله ثم احياه الله فقال له انت الاعور الدجال فكذبه قبل أن قتل وبعد ما احياه الله وأراد الدجال قتله ثانية فلم يمكن فعجزه عن قتله ثانيا من أعظم الخوارق مع تكذيبه واما احياؤه مع تكذيبه له أولا وعجزه ثانياً عن قتله فليس بخارق فهذا احياء معين معه دلائل معدودة تبين أنه من الآيات الدالة على صدق الرسول لا على صدق الدجال وتبين بذلك أن الآيات جميعها يدل على صدق الانبياء فان آيات الله مرة أو مرتين او ثلاثاً لا يشترط في ذلك تكرار بل شرطها أن لا يكون لها نظير في العالم لغير الانبياء ومن يشهد بالنبوة ولم يوجد لغيرهم كان هذا دليلا على أنها مختصة بالانبياء ومن أطلق خرق العادة ولم يفسره ويبينه فلم يعرف خاصتها بل ظن أن ما وجد من السحر والكهانة خرق عادة أوظن أن خرق العادة أن لايعارضها معارض من المرسل اليهم وكثير من المتنبئين الكذابين أتوا بخوارق من جنس خوارق السحرة والكهان ولم يكن من أولئك القوم من أتى بمثلها لكن قد علم أن في العالم مثلها في غير ذلك المكان أو في غير ذلك الزمان وانما الخارق كما قال (في القرآن (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) ولهذا قال في آيات التحدى (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) وقال في تلك الآية [فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أن ما أنزل بعلم الله وان لا اله الا هو] فلم يكتف بعجز المدعوين بل أمرهم أن يدعوا الى معاونتهم كل من استطاعوا أن يدعوه من دون الله وهذا تعجيز لجميع الخلق الانس والجن والملائكة وقال فى البقرة [وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم

صادقين) أى ادعوا كل من يشهد لكم فيوافقكم على أن هذا ليس من عند الله ادعوا كل من لم يقر بأن هذا منزل من الله فهذا تعجيز لكل من لم يؤمن به ومن آمن به وبقى في ريب بل قد علم أنه من عند الله وهذا التحدى في البقرة وهى مدنية بعد يونس وهود ولهذا قال [وان كنتم في ريب] وهناك قال [أم يقولون افتراه] فهذا تحدى لكل مرتاب وذاك تحدى لكل مثل مكذب ولهذا قيل في ذاك (من استطعتم) فانه أبلغ وقيل في هذا (شهداء كم) وقد قال بعض المفسرين شهداء كم آلهتكم وقال بعضهم من يشهد أن الذى جئتم به مثل القرآن والصواب أن شهداءهم الذين يشهدون لهم كما ذكره ابن اسحق باسناده المعروف عن ابن عباس قول شهداء كم من استطعتم من أعوانكم على ما أنتم عليه وقال السدى عن أبى مالك شهداء كم من دون الله أى شركاء كم فان هؤلاء هم الذين يتصور منهم المعارضة اذا كانوا في ريب منه أما من أيقن أنه من عند الله فانه يمتنع أن يقصد معارضته لعلمه بان الخلق عاجزون عن ذلك والله تعالى شهد لمحمد بما اظهره من الآيات فادعوا من يشهد لكم وهؤلاء يشهدون من دون الله لا يشهدون بما شهد الله به فتكون شهادتهم مضادة لشهادة الله كما قال [لكن الله يشهد بما انزل اليك انزله بعلمه والملائكة يشهدون] وقال [قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب] كما قال [شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم] وقد قلنا يجوز ان تكون آياتهم خارقة لعادة جميع الخلق الا للنبى لكن لا يجب هذا فيها (فان قيل) قد ذكرتم ان آيات الانبياء هي الخوارق التى تخرق عادة جميع الثقلين فلا تكون لغير الانبياء ولغير من شهد لهم بالنبوة وهذا كلام صحيح فصلتم به بين آيات الانبياء وغيرهم بفصل مطرد منعكس بخلاف من قال هي خرق العادة ولم يميز بينها وبين غيرها وتكلم في خرق العادة بكلام متناقض تارة يمنع وجود السحر والكهانة وتارة يجعل هذا الجنس من الآيات ولكن الفرق عدم المعارضة لكن لم يذكروا الفرق في نفس الامر ونفس كونها معجزة وخارقا وآية لماذا كان وما هو الوصف الذى امتازت به حتى صارت آية ودليلا دون غيرها فذكرتم الدليل لكن لم تذكروا الحقيقة التى بها صار الدليل دليلا قيل لا بد ان تكون مما يعجز عنها الانس والجن فان هذين الثقلين بعث اليهم الرسل كما قال تعالى [يامعشر الجن والانس الم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم

لقاءيومكم هذا قالوا شهدنا على انفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين]وقال تعالى [وقال لهم خزنتها الم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاءيومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين] والانس والجن منهم من آمن بالرسل ومنهم من كذبهم فلا بد ان يكون مما لا يقدر عليها جنس الانس والجن ثم الكرامات يخص بها المؤمنين من الطائفتين واما آيات الانبياء التى بها تثبت نبوتهم وبها وجب على الناس الايمان بهم فهى امر يخص الانبياء لا يكون للاولياء ولا لغيرهم بل يكون من المعجزات الخارقة للعادات الناقضة لعادات جميع الانس والجن غير الانبياء فما كان الانس أو الجن يقدرون عليه فلا يكون وحده آية للنبى أوما ما تقدر عليه الملائكة فذاك قد يكون من آياتهم لانهم لم يرسلوا الى الملائكة والملائكة لا تفعل شيئاً الا باذن الله فما تفعله الملائكة معهم فهو باذن الله وهو ما خص به الانبياء بخلاف الانس والجن وخاصتها التى تمتاز بها عن غيرها ان يكون آية ودليلا على نبوتهم فكل ما استلزم نبوتهم فهو آية لهم وما لا يستلزم نبوتهم فليس بآية وليست مختصة بجنس من الموجودات بل تكون في جنس العلم والاخبار بغيب الرب الذى اختص به وتكون في جنس القدرة والتصرف والتأثير في العالم وهي مقدورة للرب فله سبحانه ان يجعلها في اى جنس كان من المقدورات ولهذا تنوعت آيات الانبياء بل النبى الواحد تتنوع آياته فليس القرآن الذى هو قول الله وكلامه من جنس انشقاق القمر ولا هذا وهذا من جنس تكثير الطعام والشراب كنبع الماء من بين الاصابع وهذا كما أن آيات الرب الدالة على قدرته ومشيئته وحكمته وامره ونهيه لا تختص بنوع فكذلك آيات انبيائه فهذا مما ينبغى ان يعرف ولكن خاصتها انها لا تكون الا مستلزمة لصدق النبى وصدق الخبر بانه نبى فلا تكون لمن يكذبه قطولا يقدرأحدمن مكذبى الانبياء ان يأتى بمثل آيات الانبياء واما مصدقوهم فهم معترفون بان ما يأتون به هو من آيات الانبياء مع انه لا تصل آيات الاتباع الى مثل آيات المتبوع مطلقاً وان كانوا قد يشاركونه في بعضها كاحياء الموتى وتكثير الطعام والشراب فلا يشركونه في القرآن وفلق البحر وانشقاق القمر لان الله فضل الانبياء على غيرهم وفضل بعض النبيين على بعض فلا بد ان يمتاز الفاضل بما لا يقدر المفضول على مثله اذ لو أتى بمثل ما أتى لكان مثله لادونه ☆

فصل

وكثير من هؤلاء مضطربون في مسمى العادة التى تخرق والتحقيق أن العادة أمر اضافي فقد يعتاد قوم مالم يعتده غيرهم فهذه اذا خرقت فليست لصدق النبي لا توجد بدون صدقه والرب تعالى في الحقيقة لا ينقض عادته التى هي سنته التى قال فيها (سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وقال [فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا] وهي التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين فهو سبحانه اذا ميز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره ويختصه بها قرن بذلك من الامور ما يمتاز به عن غيره ويختص به ولاريب أن النبوة يمتاز بها الانبياء ويختصون بها والله تعالى يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس وهو أعلم حيث يجعل رسالته فمن خصه بذلك كان له من الخصائص التى لا تكون لغيره ما يناسب ذلك فيستدل بتلك الخصائص على أنه من أهل الاختصاص بالنبوة وتلك سنته وعادته في أمثاله يميزهم بخصائص يمتازون بها عن غيرهم ويعلم أن أصحابها من ذلك الصنف المخصوص الذين هم الانبياء مثلا ولم تكن له سبحانه عادة بأن يجعل مثل آيات الانبياء لغيرهم حتى يقال انه خرق عادته ونقضها بل عادته وسنته المطردة ان تلك الآيات لا تكون الا مع النبوة والاخبار بها لا مع التكذيب بها أو الشك فيها كما أن سنته وعادته أن محبته ورضاه وثوابه لا يكون الا لمن عبده وأطاعه وان سنته وعادته أن يجعل العاقبة للمتقين وسنته وعادته أنه ينصر رسله والذين آمنوا كما قال تعالى (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وكل ما يظن أنه خرقه من العادات فله أسباب انخرقت فيها تلك العادات فعادته وسنته لا تتبدل اذ أفعاله جارية على وجه الحكمة والعدل هذا قول الجمهور وأما من لا يثبت سبباً ولا حكمة ولا عدلا فانهم يقولون انه يخرق عادات لا لسبب ولا لحكمة ويجوزون أن يقلب الجبل ياقوتاً والبحر لبناً والحجارة آدميين ونحو ذلك مع بقاء العالم على حاله ثم يقولون مع هذا ولكن نعلم

بالضرورة أنه لم يفعل ذلك ويقولون العقل هو علوم ضرورية كالعلوم بجارى العادات وهذا تناقض بين فانهم اذا جوزوا هذا ولم يعلموا فرقاً بين ما يقع منه ومالا يقع كان الجزم بوقوع هذا دون هذا جهلا وغاية ماعندهم أن قالوا يخلق في قلوبنا علم ضرورى بأن هذا لم يقع ويخلق في قلوبنا علم ضرورى بأن الله خرق العادة لتصديق هذا النبى فيقال اذا كان قد جعل الله في قلوبكم علما ضرورياً كما جعله في قلوب أمثالكم فأنتم صادقون فيما تخبرون به عن أنفسكم من العلم الضرورى لكن خطأكم اعتقادكم أن العادات قد ينقضه الله بلا سبب ولا لحكمة فهذا ليس معلوما لكم بالضرورة وخطأكم من حيث جوزتم أن يكون شيئان متساويان من كل وجه ثم يعلم بضرورة أو نظر ثبوت أحدهما وانتفاء الآخر فان هذا تفريق بين المتماثلين وهذا قدح في البديهيات فان أصل العلوم العقلية النظرية اعتبار الشيء بمثله وان حكمه حكم مثله فاذا جوزتم أن يكون الشيئان متماثلين من كل وجه وأن العقل يجزم بثبوت أحدهما وانتفاء الآخر كان هذا قدحا في أصل كل علم وعقل واذا قلتم ان العادات جميعها سواء وأن الله يفعل ما يفعل بلا سبب ولا حكمة بل محض المشيئة مع القدرة رجحت هذا على هذا وقلتم لا فرق بين قلب الجبال يواقيت والبحار لبناً وبين غير ذلك من العادات وجوزتم ان يجعل الله الحجارة آدميين علماء من غير سبب تغير به المخلوقات كان هذا قدحاً في العقل فلا أنتم عرفتم سنة الله المعتادة في خلقه ولا عرفتم خاصة العقل وهو التسوية بين المتماثلين فانه سبحانه قط لم يخرق عادة الا لسبب يناسب ذلك مثل فلق البحر لموسى وغير ذلك من الآيات التى بعث بها فان ذلك خلقه ليكون آية وعلامة وكان ذلك بسبب نبوة موسى وانجائه قومه وبسبب تكذيب فرعون ومن جوز أن ذلك البحر أو غيره ينفلق كما انفلق لموسى من غير أن يكون هناك سبب الهى يناسب ذلك فهو مصاب في عقله ولهذا اضطرب أصحاب هذا القول ولم يكن عندهم ما يفرقون بين دلائل النبوة وغيرها وكانت آيات الانبياء والعلم بأنها آيات ان حققوها على وجهها فسدت أصولهم وان طردوا أصولهم كذبوا العقل والسمع ولم يمكنهم لا تصديق الانبياء ولا العلم بغير ذلك من أفعال الله تعالى التى يفعلها بأسباب وحكم كما قد بسط هذا في موضع آخر ☆

فصل

ودليل الشيء مشروط بتصور المدلول عليه فلا يعرف آيات الانبياء الا من عرف ما اختص به الانبياء وامتازوا به عما سواهم والنبوة مشتقة من الانباء والنبي فعيل وفعيل قد يكون بمعنى فاعل أى منبى وبمعنى مفعول أى منبأ وهاهنا متلازمان فالنبي الذى ينبئ بما أنبأه الله به والنبي الذى نبأه الله وهو منبأ بما أنبأه الله به وما أنبأه الله به لايكون كذبا وما أنبأ به النبي عن الله لايكون يطابق كذبا لا خطأ ولا عمداً فلابد أن يكون صادقا فيما يخبر به عن الله يطابق خبره مخبره لاتكون فيه مخالفة لا عمداً ولا خطأ وهذا معنى قول من قال هم معصومون فيما يبلغونه عن الله لكن لفظ الصادق وان النبي صادق مصدوق نطق به القرآن وهو مدلول الآيات والبراهين ولفظ العصمة في القرآن جاء في قوله (والله يعصمك من الناس) أى من أذاهم فمعنى هذا اللفظ في القرآن هو الذى يحفظه الله عن الكذب خطأ وعمداً والتعبير عن حقائق الايمان بعبارات القرآن أولى من التعبير عنها بغيرها فان الفاظ القرآن يجب الايمان بها وهي تنزيل من حكيم حميد والامة متفقة عليها ويجب الاقرار بمضمونها قبل أن تفهم وفيها من الحكم والمعانى مالا تنقضى عجائبه والالفاظ المحدثة فيها اجمال واشتباه ونزاع ثم قد يجعل اللفظ حجة بمجرده وليس هو قول الرسول الصادق المصدوق وقد يضطرب في معناه وهذا أمر يعرفه من جربه من كلام الناس فالاعتصام بحبل الله يكون بالاعتصام بالقرآن والاسلام كما قال تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا) ومتى ذكرت الفاظ القرآن والحديث وبين معناها بيانا شافيا فانها لا تنظم جميع مايقوله الناس من المعانى الصحيحة وفيها زيادات عظيمة لايوجد في كلام الناس وهي محفوظة مما دخل في كلام الناس من الباطل كما قال (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) ☆ وقال تعالى [وانه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد] وقال تعالى [الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير] وقال (تلك آيات الكتاب الحكيم) وفيه من دلائل الربوبية والنبوة والمعاد ما لا يوجد في كلام أحد من العباد ففيه أصول الدين المفيدة لليقين وهو أصول دين الله ورسوله لا أصول دين محدث ورأى مبتدع وقد يكون معصوما على لغة القرآن بمعنى أن الله عصمه من

الشياطين شياطين الانس والجن وان يغيروا مابعث به أو يمنعوه عن تبليغه فلا يكتم ولا يكذب كما قال تعالى [عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا] فهو يسلك الوحى من بين يدى الرسول ومن خلفه وهذا في معنى عصمته من الناس فهو المؤيد المعصوم بما يحفظه الله من الانس والجن حتى يبلغ رسالات ربه كما أمر فلا يكون فيها كذب ولا كتمان ولفظ الانباء يتضمن معنى الاعلام والاخبار لكنه في عامة موارد استعماله أخص من مطلق الاخبار فهو يستعمل في الاخبار بالامور الغائبة المختصة دون المشاهده المشتركة كما قال(وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) وقال [فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير] وقال[قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون] وقال(عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون) وقال [وان يأت الاحزاب يودوا لو انهم بادون في الاعراب يسألون عن انبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا] وقال [ولتعلمن نبأه بعد حين] وقال[لكل نبأ مستقر]وقال [أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين]الى قوله(قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) وقوله (يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم قل لا تعتذروا قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) فهذا في خطاب المنافقين ولم يقل والمؤمنون لأنهم لم يكونوا يطلعون المؤمنين على مافي بطونهم وهذا بخلاف قوله (يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها) فانها أمور مشهودة يعرفها الناس لكن العجب كون الارض تخبر بذلك فالعجب في المخبر لا في الخبر كشهادة الاعضاء وقال(قل آلذكرين حرم ام الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين نبئوني بعلم ان كنتم صادقين) ☆ وجمع النبى أنبياء مثل ولى وأولياء ووصى وأوصياء وقوى وأقوياء ويشبهه حبيب وأحباء كما قال تعالى(وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله واحباؤه) ففعيل اذا كان معتلا أو مضاعفاً جمع على أفعلاء بخلاف حكيم وحكماء وعليم وعلماء وهو من النبأ وأصله الهمزة وقد قرئ به وهى قراءة نافع يقرأ النبىء لكن لما كثر استعماله لينت همزته كما فعل مثل ذلك في الذرية وفي البرية وقد قيل هو من النبوة وهو العلو فمعنى النبى المعلى الرفيع المنزلة

والتحقيق ان هذا المعنى داخل في الاول فمن أنبأه الله وجعله منبئا عنه فلا يكون الا رفيع القدر علياً واما لفظ العلو والرفعة فلا يدل على خصوص النبوة اذ كان هذا يوصف به من ليس بنبي بل يوصف بأنه الاعلى كما قال (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون) وقراءة الهمز قاطعة بأنه مهموز وما روى عن النبي ﷺ انه قال « أنا نبي الله ولست بنبيء الله » فما رأيت له اسناداً لا مسنداً ولا مرسلا ولا رأيته في شيء من كتب الحديث ولا السير المعروفة ومثل هذا لا يعتمد عليه واللفظان مشتركان في الاشتقاق الاكبر فكلاهما فيه النون والباء وفي هذا الهمزة وفي هذا الحرف المعتل لكن الهمزة أشرف فانها أقوى . قال سيبويه هى نبوة من الحلق تشبه التهوع فالمعنى الذى يدل عليه ويمكن أن تلين فتصير حرفا معتلا فيعبر عنه باللفظين بخلاف المعتل فانه لا يجعل همزة فلو كان أصله نبى مثل على ووصى وولى لم يجز أن يقال بالهمز كما لا يقال علىء ووصىء وولىء بالهمز واذا كان أصله الهمز جاز تليين الهمزة وان لم يكثر استعماله كما في لفظ خبيء وخبئة وأيضا فان تصريفه أنبأ ونبأ ينبيء وينبيء بالهمزة ولم يستعمل فيه نبا ينبو وانما يقال هذا ينبو عنه والماء ينبو عن القدم اذا كان يجفو عنها ويقال النبوة وفي فلان نبوة عنا أى مجانبة فيجب القطع بأن النبى مأخوذ من الانباء لا من النبوة والله أعلم ☆

فصل

قد تقدم أن للناس في وجه دلالة المعجزات وهي آيات الانبياء على نبوتهم طرقا متعددة منهم من قال دلالتها على التصديق تعلم بالضرورة ومنهم من قال تعلم بالنظر والاستدلال وكلا القولين صحيح فان كثيراً من العلوم في هذا الباب كدلالة الاخبار المتواترة فانه قد يحصل بالخبر علم ضرورى وقد يحصل العلم بالاستدلال وطائفة منهم الكعبي وأبو الحسين البصرى وأبو الخطاب أنه نظرى والتحقيق أن كلا القولين حق فانه يحصل بها علم ضرورى والادلة النظرية توافق ذلك وكذلك كثير من الادلة والعلامات والآيات من الناس من يعرف استلزامها للوازمها بالضرورة ويكون اللزوم عنده بينا لا يحتاج فيه الى وسط ودليل ومنهم من يفتقر الى دليل ووسط

تبين له أن هذا الدليل مستلزم لهذا الحكم وهـذا الحكم لازم له ومن تأمل معارف الناس وجد أكثرها من هذا الضرب فقد يجيء المخـبر اليهم بخبر فيعرف كثير منهم صدقه أو كذبه بالضرورة لامور تقترن بخبره وآخرون يشكون في هذا ثم قد يتبين لبعضهم بأدلة وقد لا يتبين وكثير من الناس يعلم صدق المخبر بلا آية البتة بل اذا أخبره وهو خبير بحاله أو بحال ذلك المخبر به أو بهما علم بالضرورة اما صدقه واما كذبه وموسى بن عمران لما جاء الى مصر فقال لهرون وغيره أن الله أرسلنى علموا صدقه قبل أن يظهر لهم الآيات ولما قال لهرون ان الله قد أمرك أن تؤازرنى صدقه هرون في هذا لما يعلم من حاله قديما ولما رأى من تغير حاله الدال على صدقه وكذلك النبى صلى الله عليه وسلم لما ذكر حاله لخديجة وغيرها وذهبت به الى ورقة بن نوفل وكان عالما بالكتاب الاول فذكر له النبى صلى الله عليه وسلم ما يأتيه علم أنه صادق وقال هذا هو الناموس الذى كان يأتى موسى ياليتنى فيها جذعا ياليتنى أكون حياً حين يخرجك قومك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مخرجى هم قال نعم لم يأت أحد بمثل ماجئت به الا عودى وان يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزرا . وكذلك النجاشى لما سمع القرآن قال ان هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة وكذلك أبو بكر وزيد بن حارثة وغيرهما علموا صدقه علماً ضرورياً لما أخبرهم بما جاء به وقرأ عليهم ما أنزل عليه وبقى القرآن الذى قرأه آية وما يعرفون من صدقه وأمانته مع غير ذلك من القرائن يوجب علما ضرورياً بأنه صادق وخبر الواحد المجهول من آحاد الناس قد تقترن به قرائن يعرف بها صدقه بالضرورة فكيف بمن عرف صدقه وامانته واخبر بمثل هذا الامر الذى لا يقوله الا من هو من اصدق الناس أو من اكذبهم وهم يعلمون انه من الصنف الاول دون الثانى فاذا كان العلم بصدقه بلا آية قد يكون علما ضروريا فكيف بالعلم بكون الآية علامة على صدقه وجميع الادلة لا بد ان تعرف دلالتها بالضرورة فان الادلة النظرية لابد ان تنتهى الى مقدمات ضرورية واكثر الخلق اذا علموا ما جاء به موسى والمسيح ومحمد علموا صدقهم بالضرورة ولهـذا لا يوجد احد قدح في نبوتهم الا أحـد رجلين اما رجل جاهل لم يعرف احوالهم واما رجل معاند متبع لهواه وعامة من كذبهم في حياتهم كان معاندا فالرؤساء كذبوهم لئلا تزول رئاستهم أو مأكلتهم والاتباع طاعة لكبرائهم كما اخبر الله بمثل ذلك

في غير موضع من القرآن لم يكن التكذيب لقيام حجة تدل على الكذب فانه يمتنع قيام دليل يدل على الكذب فالمكذب مفتر متكلم بلا علم ولا دليل قطعاً وكذلك كل من كذب بشيء من الحق أو صدق بشيء من الباطل يمتنع ان يكون عليه دليل صحيح فان الدليل الصحيح يستلزم مدلوله فاذا كان المدلول منتفيا امتنع ان يكون عليه دليل صحيح وكثير من الناس قد يكون شاكا لعدم طلبه العلم واعراضه عنه فالمكذب متكلم بلا علم قطعا والشاك معرض عن طلب العلم مقصر مفرط ولو طلب العلم تبين له الحق اذا كان متمكناً من معرفة ادلة الحق واما من لم يصل اليه الدليل ولا يتمكن من الوصول اليه فهذا عاجز واما الذين سلكوا طريق الحكمة فلهم ايضاً مسالك مثل ان يقال ان الله سبحانه وتعالى اذا بعث رسولا امر الناس بتصديقه وطاعته فلا بد ان ينصب لهم دليلا يدلهم على صدقه فان ارسال رسول بدون علامة وآية تعرف المرسل اليهم انه رسول قبيح وسفه في صرائح العقول وهو نقص في جميع الفطر وهو سبحانه منزه عن النقائص والعيوب ولهذا ينكر على المشركين انهم يصفونه بما هو عندهم عيب ونقص لا يرضونه لانفسهم مثل كون مملوك احدهم شريكه يساويه فان هذا من النقائص والعيوب التى ينزهون انفسهم عنها ويعيبون ذلك على من فعله من الناس فاذا كان هذا عيبا ونقصا لا يرضاه الخلق لانفسهم لمنافاته الحكمة والعدل فان الحكمة والعدل تقتضى وضع كل شيء موضعه الذى يليق به ويصلح به فلا تكون العين كالرجل ولا الامام الذى يؤتم به في الدين والدنيا في آخر المراتب والسفلة من اتباعه في أعلى المراتب فكذلك المالك لا يكون مملوكه مساويا له فان ذلك يناقض كون احدهما مالكا والآخر مملوكا ولهذا جاءت الشريعة بان المرأة لا تتزوج عبدها لتناقض الاحكام فان الزوج سيد المرأة وحاكم عليها والمالك سيد المملوك وحاكم عليه فاذا جعل مملوكها زوجها الذى هو سيدها تناقضت الاحكام فهذا وامثاله مما يبين ان هذه القضية مستقرة في فطر العقلاء ولهذا قال تعالى [ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم فانتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم] اى كما يخاف بعضكم بعضا ر كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون بل اتبع الذين ظلموا اهواءهم بغير علم فمن يهدى من اضل الله وماهم من ناصرين) وكذلك كل احد يعلم بفطرته ان الذكر افضل من الانثى

وكانت العرب أشد كراهية للبنات من غيرهم حتى كان منهم من يئد البنات ويدفن البنت وهي حية حتى قال تعالى (واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) وقال تعالى [واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب] وكانوا لا يورثون الاناث وقد قالت ام مريم وليس الذكر كالانثى وكان من الكفار من جعل له الاناث اولادا وشركاء قال تعالى (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى ان هى الا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم] وقال تعالى [ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملايكة تسمية الانثى وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئاً] وقال تعالى (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون ام يدسه في التراب الا ساء ما يحكمون) يعنى ساء الحكم حكمهم اى بئس الحكم حكمهم كما يقال بئسما فعل وبئسما حكم حيث حكموا بان لله البنات ولهم ما يشتهون فهذا حكم جائر كما ان تلك القسمة قسمة جائرة عوجا فهذا حكمهم بينهم وبين ربهم وهذا قسمهم يجعلون لانفسهم افضل النوعين ولربهم ادنى النوعين وهو مثل السوء ولله المثل الاعلى فالواجب ان يكون افضل الانواع واكملها لله ومافيها نقص وعيب فالمخلوق احق بها من الخالق اذ كان كل كمال في المخلوق فهو من خالقه فيمتنع ان يكون الانقص خلق الاكمل والفلاسفة يقولون بعبارتهم كل كمال في المعلول فهو من العلة وايضا فالموجود الواجب اكمل من الممكن والقديم اكمل من المحدث والغنى اكمل من الفقير فيمتنع اتصاف الاكمل بالنقائص واتصاف الانقص بالكمالات ولهذا يوصف سبحانه بانه الاكرم والاكبر والاعلى وانه ارحم الراحمين وخير الحاكمين وخير الغافرين واحسن الخالقين فلا يوصف قط الا بما يوجب اختصاصه بالكمالات والممادح والمحاسن التى لا يساويه فيها غيره فضلا عن ان يكون لغيره النوع الفاضل وله النوع المفضول ولهذا عاب الله المشركين بان جعلوا لله مماذرأ من الحرث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركايهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء مايحكمون فبئس الحكم حكمهم في هذا كما انه بئس الحكم حكمهم في جعل

الذكور لهم والاناث له وساء بمعنى بئس كقوله ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا اى بئس مثلا مثلهم ولهذا قالوا في قوله ساء ما يحكمون بئسما يقضون وقال تعالى [افاصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما] وقال تعالى (وجعلوا له من عباده جزءا ان الانسان لكفور مبين ام اتخذ مما يخلق بنات واصفاكم بالبنين واذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم او من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون)فهذه الطريقة وهو ان ما يستحقه المخلوق من الكمال الذي لا نقص فيه فالخالق اولى به وما ينزه عنه المخلوق من العيوب المذمومة فالخالق تعالى اولى بتنزيهه عن كل عيب وذم وهو سبحانه القدوس السلام الحميد المجيد من ابلغ[١] الطرق البرهانية وهي مستعملة في القرآن في غير موضع فلذلك يقال الواحد من الناس قادر على ارسال رسول وعلى ان يرسل نشابة وعلامة يعرفه المرسل اليهم بها صدقه فكيف لا يقدر الرب على ذلك ثم اذا ارسله اليهم وامرهم بتصديقه وطاعته ولم يعرفهم انه رسوله كان هذا من اقبح الامور فكيف يجوز مثل هذا على الله ولو بعثه بعلامة لاتدلهم على صدقه كان ذلك عيباً مذموما فكل ما ترك من لوازم الرسالة اما ان يكون لعدم القدرة واما ان يكون للجهل والسفه وعدم الحكمة والرب احق بالتنزيه عن هذا وهذا من المخلوق فاذا أرسل رسولا فلا بد ان يعرفهم انه رسوله ويبين ذلك وما جعله آية وعلامة ودليلا على صدقه امتنع ان يوجد بدون الصدق فامتنع ان يكون للكاذب المتنبي فان ذلك يقدح في الدلالة فهذا ونحوه مما يعرف به دلالة الآيات من جهة حكمة الرب فكيف اذا انضم الى ذلك ان هذه سنته وعادته وان هذا مقتضى عدله وكل ذلك عند التصور التام يوجب علما ضروريا بصدق الرسول الصادق وانه لا يجوز ان يسوى بين الصادق والكاذب فيكون ما يظهره النبى من الآيات يظهر مثله على يد الكاذب اذ لو فعل هذا لتعذر على الخلق التمييز بين الصادق والكاذب وحينئذ فلا يجوز ان يؤمروا بتصديق الصادق ولا يذموا على ترك تصديقه وطاعته اذ الامر بذلك بدون دليله تكليف ما لا يطاق وهذا لا يجوز في عدله وحكمته ولو قدر انه جائز عقلا فانه غير واقع ☆

---

(١) قوله من ابلغ خبر قوله سابقاً فهذه الطريقه

فصل

وقد دل القرآن على انه سبحانه لا يؤيد الكذاب عليه بل لا بد أن يظهر كذبه وان ينتقم منه فقال تعالى [ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين] ذكر هذا بعد قوله [فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين] ثم قال [ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من احد عنه حاجزين] هذا بتقدير أن يتقول بعض الاقاويل فكيف بمن يتقول الرسالة كلها وقوله [لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين] الوتين عرق في الباطن يقال هو نياط القلب اذا قطع مات الانسان عاجلا وذلك يتضمن هلاكه لو تقول على الله وقوله [لاخذنا منه باليمين] قيل لأخذنا بيمينه كما يفعل بمن يهان عند القتل فيقال خذ بيده فيجر بيده ثم يقتل فهذا هلاك بعزة وقدرة من الفاعل واهانة وتعجيل هلاك للمتقول وقيل لاخذنا منه باليمين اى بالقوة والقدرة فان الميامن اقوى ممن يأخذ بشماله كما قال [فاخذناهم اخذ عزيز مقتدر] وكما قال [ان بطش ربك لشديد] لكنه قال [اخذنا منه] ولم يقل لاخذناه فهذا يقوى القول الاول وقال تعالى [ام يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبه] ثم قال [ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته] فقوله [ويمحو الله الباطل] عطف جملة على جملة قالوا وليس من جواب الشرط لانه قال ويحق الحق بالضم وهو معطوف على قوله [ويمحو الله الباطل] فمحوه للباطل واحقاقه الحق خبر منه لا بد ان يفعله فقد بين انه لابد ان يمحو الباطل ويحق الحق بكلماته فانه اذا انزل كلماته دل بها على انه نبي صادق اذ كانت آية له وبين بها الحق من الباطل وهو أيضا يحق الحق ويبطل الباطل بكلماته فانه اذا انزل كلماته دل بها على انه نبي صادق إذ كانت آية له وبين بها الحق من الباطل وهو أيضا يحق الحق ويبطل الباطل بكلماته التي تكون بها الاشياء فيحق الحق بما يظهره من الآيات وما ينصر به أهل الحق

كما تقدمت كلمته بذلك كما قال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون) وقال (وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا) وقال (وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) وقال تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وأمره يتضمن ما يأمر به وهو الكائن بكلماته وقال تعالى [انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون] وكلماته صدق وعدل والعدل وضع الاشياء مواضعها فمن عدله ان يجعل الصادق عليه المبلغ لرسالته حيث يصلح من كرامته ونصره وان يجعل الكاذب عليه حيث يليق به من اهانته وذله قال تعالى [ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين] قال أبو قلابة هي لكل مفتر الى يوم القيامة ومن أعظم الافتراء عليه دعوى النبوة والرسالة كذبا كما قال تعالى [ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شيء] ومن قال [سأنزل مثل ما أنزل الله] وذكر في هذا الكلام جميع اصناف الكاذبين الذين يعارضون رسله الصادقين كما ذكر فيما قبله حال الكاذبين في قوله [وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون] ثم قال (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أوقال أوحى الى ولم يوح اليه شيء) الآية فان الكاذب اما أن يقول ان غيرى أنزل على واما أن يقول أنا أصنف مثل هذا القرآن واذا قال غيرى أنزل على فأما أن يعينه فيقول ان الله أنزله على وأما ان يقول أوحى ولا يعين من أوحاه فذكر الاصناف الثلاثة فقال (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شيء) فهذان نوعان من جنس ثم قال ومن ولم يقل أوقال اذ كان هذا معارضاً لايدعى أنه رسول فقال ومن قال سأنزل مثل ماأنزل الله وهؤلاء المعارضون قد تحداهم في غير موضع وقال [قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً] والرسول أخبر بهذا خبراً تاما في أول الامر وهذا لايمكن الا مع قطعه أنه على الحق والى الآن لم يوجد أحد أنزل مثل ما أنزل الله وقوله ومن قال

سأنزل ولم يقل أقدر أن أنزل فان قوله سأنزل هو وعد بالفعل وبه يحصل المقصود بخلاف قوله أقدر فانه لا يحصل به غرض المعارض وانما يحصل اذا فعل فمن وعد بانزال مثل ما أنزل كان من أظلم الناس وأكذبهم اذ كان قد تبين عجز جميع الثقلين الانس والجن عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن وقوله مثل ما أنزل الله يقتضى أن كل ما أنزله الله على أوليائه فهو معجز لا يقدر عليه الا الله كالتوراة والانجيل والزبور وهذا حق فان في ذلك من أنباء الغيب ما لا يعلمه الا الله وفيه أيضاً من تأييد الرسل بذلك ما لا يقدر على أن يرسل تلك الرسالة الا الله فلا يقدر أحد أن ينزل مثل ما أنزل الله على نبيه فيكون به مثل الرسول ولا أن يرسل به غيره ☆

فصـــل

والاستدلال بالحكمة أن يعرف أولا حكمته ثم يعرف أن من حكمته أنه لا يسوى بين الصادق بما يظهر به صدقه وبان ينصره ويعزه ويجعل له العاقبة ويجعل له لسان صدق في العالمين والكاذب عليه يبين كذبه ويخذله ويذله ويجعل عاقبته عاقبة سوء ويجعل له لسان الذم واللعنة في العالمين كما قد وقع فهذا هو الواقع لكن المقصود أن نبين أن ما وقع منه فهو واجب الوقوع في حكمته لا يجوز أن يقع منه ضد ذلك فهذا استدلال ببيان أنه يجب أن يقع منه ما يقع ويمتنع أن يقع منه ضده وذلك ببيان أنه حكيم وأن حكمته توجب أن يبين صدق الانبياء وينصرهم ويبين كذب الكاذبين ويذلهم وكذلك يفعل باتباع النبيين وبأعدائهم كما أخبر بذلك في كتابه وبين أن هذا حق عليه يجب أن يفعله ويمتنع أن يفعل ضده كما قال تعالى (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وكما قال (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله لقوى عزيز) وقوله «لأغلبن» قسم أقسم الله عليه فهو جواب قسم تقديره والله لاغلبن أنا ورسلي وهذا يتضمن اخباره بوقوع ذلك وانه كتب على نفسه ذلك وأمر به نفسه وأوجبه على نفسه فان صيغة القسم يتضمن التزام ما حلف عليه اما حضا عليه وأمرا به واما منعا منه ونهيا عنه ولهذا كان في شرع من قبلنا يجب الوفاء بذلك ولا كفارة فيه وكذلك كان في أول الاسلام ولهذا كان أبو بكر لا يحنث في يمين

حتى أنزل الله كفارة اليمين كما ذكرت ذلك عائشة ولهذا أمر أيوب أن يأخذ بيده ضغثاً فيضرب به ولا يحنث فان ذلك صار واجباً باليمين كوجوب المنذور الواجب بالنذر يحتذى به حذو الواجب بالشرع والضرب بالضغث يجوز في الحدود اذا كان المضروب لا يحتمل التفريق كما جاء في الحديث ولو كان في شرعهم كفارة لاغنت عن الضرب مطلقاً لكن الانسان قد يلتزم مالا يعلم عاقبته ثم يندم عليه والرب تعالى عالم بعواقب الامور فلا يحلف على أمر ليفعلنه الا وهو يعلم عاقبته واليمين موجبة ولهذا قال تعالى (كتب الله لاغلبن) وكتب مثل كتب في قوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) فهى كتابة تتضمن خبراً وايجاباً ومنه قوله تعالى (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها] وفي الحديث الصحيح الالهى «ياعبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا» وقد بسط هذ الاصل في مواضع مثل الكلام في مسألة القادر المختار ومسألة العدل والظلم وغير ذلك فان كثيراً من المتكلمين يقول ان القادر المختار لا يفعل الا بوصف الجواز فيفعل الفعل في حال تردده بين أن يفعل وان لا يفعل ومنهم من يقول يفعله مع رجحان أن يفعل رجحاناً لا ينتهى الى حد الوجوب وهو قول محمد بن الهيضم الكرامى ومحمود الخوارزمى المعتزلى وبهذا استطال عليهم الفلاسفة فقالوا الرب موجب لان الممكن لا يقع حتى يحصل المؤثر التام الموجب له والتحقيق ان الرب يخلق بمشيئته وقدرته وهو موجب لكل ما يخلقه بمشيئته وقدرته ليس موجباً بمجرد الذات ولا موجباً بمعنى أن موجبه يقارنه فان هذا ممتنع فهذان معنيان باطلان وهو قادر يفعل بمشيئته فماشاء كان وما لم يشأ لم يكن فما شاءه وجب كونه وما لم يشأه امتنع كونه ولهذا قال كثير من النظار ان الارادة موجبة للمراد وعلى هذا فقولنا يجوز أن يكون ويجوز أن لا يكون انما هو جواز الشىء بمعنى الشك في أيهما هو الواقع والا ففى نفس الامر أحدهما هو الواقع ليس في نفس الامر ظنياً متردداً بين الوقوع وعدم الوقوع والامكان الذهنى قد يراد به عدم العلم بالامتناع وقد يراد به الشك في الواقع وكلا النوعين عدم علم والامكان الخارجى يراد به أن وجوده في الخارج ممكن لا ممتنع كولادة النساء ونبات الارض وأما الجزم بالوقوع وعدمه فيحتاج الى دليل وفي نفس الامر ما ثم الا ما يقع أو لا يقع والواقع لا بد من وقوعه ووقوعه واجب لازم وما لا يقع

فوقوعه ممتنع لكن واجب بغيره وممتنع لغيره وهو واجب من جهات من جهة علم الرب من وجهين ومن جهة ارادته من وجهين ومن جهة كلامه من وجهين ومن جهة كتابته من وجهين ومن جهة رحمته ومن جهة عدله أما علمه فما علم انه سيكون فلابد أن يكون وما علم أنه لايكون فلا يكون وهذا مما يعترف به جميع الطوائف الا من ينكر العلم السابق كغلاة القدرية الذين تبرأ منهم الصحابة ومن جهة أنه يعلم مافي ذلك الفعل من الحكمة فيدعوه علمه الى فعله أو ما فيه من الفساد فيدعوه الى تركه وهذا يعرفه من يقر بأن العلم داع ومن يقر بالحكمة ومن جهة ارادته فانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ومن جهة حكمته وهي الغاية المرادة لنفسها التي يفعل لاجلها فاذا كان مريداً للغاية المطلوبة لزم أن يريد ما يوجب حصولها ومن جهة كلامه من وجهين من جهة أنه أخبر به وخبره مطابق لعلمه ومن جهة أنه أوجبه على نفسه واقسم ليفعلنه وهذا من جهة ايجابه على نفسه والتزامه أن يفعله ومن جهة كتابته اياه في اللوح وهو يكتب ما علم أن سيكون وقد يكتب ايجابه والتزامه كما قال (كتب الله لاغلبن أنا ورسلى) وقال (كتب ربكم على نفسه الرحمة] فهذه عشرة أوجه (١) تقتضى الجزم بوقوع ما سيكون وان ذلك واجب حتم لابد منه فما في نفس الامر جواز يستوى فيه الطرفان الوجود والعدم وانما هذا في ذهن الانسان لعدم علمه بما هو الواقع ثم من علم بعض تلك الاسباب علم الواقع فتارة يعلم لانه أخبر بعلمه وهو ما أخبرت به الانبياء بوقوعه كالقيامة والجزاء وتارة يعلم من جهة لمشيئة لانه جرت به سنته الشاملة التى لاتتبدل وتارة يعلم من جهة حكمته كما قد بسط في غير هذا الموضع والحكمة والعدل و الرحمه والعادة تعلم بالعقل كما قد عرف من حكمة لرب وعدله وسنته ويستدل بذلك على العلم والخبر والكتاب كما أن العلم والخبر والكتاب تعلم بأخبار الانبياء ويستدل بذلك على العدل والحكمة والرحمة . والجهمية المجبرة لاتجزم بثبوت ولا انتفاء الا من جهة الخبر أو العادة اذ كانوا لا يثبتون الحكمة والعدل والرحمة

---

(١) قوله فهذه عشرة أوجه أجملها أولا فذكر أن في العلم وجهين وفي الارادة وجهين وفي الكلام وجهين وفي الكتابة وجهين ووجها في الرحمة وآخر في العدل ثم أخذ يبين الاربعة الاولى ويشرح الوجهين في كل منها وترك الاخيرين لظهورها فالجملة عشرة ☆

في الحقيقة كما قد بسط في غير موضع .وحكى عن الجهم انه كان يخرج فينظر الجذمى(١)
ثم يقول أرحم الراحمين يفعل هذا يقول انه يفعل لمحض المشيئة ولو كان يفعل بالرحمة
لما فعل هذا وهـذا من جهله لم يعرف ما في الابتلاء من الحكمة والرحمة والمصلحة
والمجبرة المثبتة للقدر متبعون لجهم والقدرية النفاة مناقضون لهم كما قد بسط الكلام على
ذلك في غير موضع ومازال العقلاء يستدلون بما علموه من صفات الرب على ما يفعله
كقول خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم لما قال لها « لقـد خشيت على نفسي فقالت كلا والله
لا يخزيك الله ابدا انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتصدق الحديث
وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق »فاستدلت بما فيه من مكارم الاخلاق ومحاسن
الاعمال على أن الله لا يخزيه ومنه قوله تعالى [قل هل أنبئكم على من تنزل الشياطين
تنزل على كل افاك أثيم]فان الشيطان انما ينزل على ما يناسبه ويطلبه وهو يريد الكذب
والاثم فينزل على من يكون كذلك وبسط هذا له موضع آخر.والكلام في النبوة فرع
على اثبات الحكمة التى يوجب فعل ما تقتضيه الحكمة ويمتنع فعل ما تنفيه فنقول هو
سبحانه وتعالى حكيم يضع كل شيء في موضعه المناسب له فلا يجوز عليه ان يسوى
بين جنس الصادق والكاذب والعادل والظالم والعالم والجاهل والمصلح والمفسد بل يفرق بين
هذه الانواع بما يناسب الصادق العادل العالم المصلح من الكرامة وما يناسب الكاذب الظالم
الجاهل المفسد من الهوان كما قال تعالى [أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في
الارض ام نجعل المتقين كالفجار]وقال[فنجعل المسلمين كالمجرمين] وهذا استفهام انكار على
من ظن ذلك وهو يتضمن تقرير المخاطبين واعترافهم بان هذا لا يجوز عليه وان ذلك
بين معروف يجب اعترافهم به واقرارهم به كما يقال لمن ادعى امرا ممتنعا مثل نعم كثيرة
في موضع صغير فيقال له أههنـا كانت هذه النعم أى هذا ممتنع فاعترف بالحق واذا
ادعى على من هو معروف بالصدق والامانة أنه نقب داره وأخذ ماله قيل له أهذا فعل
هذا ومنه قوله[ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله]
وقوله تعالى[ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون]ونظائره
كثيرة وكذلك قوله[أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا

(١) الجذمى جمع أجذم مثل زمى وقتلى وجرحى

السيئات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) فان هذا استفهام انكار على من حسب أنه يسوى بين هؤلاء وهؤلاء. فبين أن هذا الحساب باطل وأن التسوية ممتنعة في حقه لا يجوز أن يظن به بل من ظن ذلك فقد ظن بربه ظن السوء وذلك ظن أهل الجاهلية الذين يظنون بالله ظن السوء فمن جوز ذلك على الله فقد ظن بربه ظن السوء وقوله تعالى فيما جرى يوم أحد (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) فسره ابن عباس وغيره بأنهم ظنوا أن الله لم يقدر ماجرى وأنه لا ينصر رسوله فكما أن القدر يجب الايمان به ويعلم أن كل ما كان فقد سبق به علم الرب فكذلك يعلم أنه لابد أن ينصر رسله والذين آمنوا وكما أنه لا يجوز أن يقع خلاف المقدر فلا يجوز أن لا ينصر رسله والذين آمنوا ومثله قوله تعالى فيما أنزله عام الحديبية لما ظن ظانون أن الرسول واتباعه لا ينصرون فقال تعالى (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) وهذا يدل على أن هذا ظن سوء بالله لا يجوز أن يظن به أنه يفعل ذلك ومن ينفى الحكمة يقول يجوز عليه فعل كل شيء وليس عنده ظن سوء بالله وان قيل لما أخبر أنه ينصره كان ضد ذلك ظن سوء لان خبره لا يقع بخلاف مخبره قيل عن هذا جوابان أحدهما أن هؤلاء يلزمهم تجويز اخلاف الوعد عليه لان هذا من باب الافعال المقدورة وهم يجوزون كل مقدور واذا قيل اخلاف الوعد قبيح فهم ليس عندهم شيء قبيح ينزهون الرب عنه. الثانى أنه اذا علم أنه يفعله ولو بالعلم الضرورى فانما ذاك لانه واقع ولو قدر أن رجلا ظن أن الله لا يفعل ماسيفعله مما ليس فيه ذم مثل أن يظن أنه يموت بعد شهر لم يقل ان هذا ظن سوء وانما يكون ظن سوء اذا كان المظنون عيباً قبيحاً لا يجوز أن يضاف الى المظنون به ومنه قوله تعالى [اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر ويظنون بالله الظنون] فهذا ذم لمن ظن بالله الظنونا ومن ذلك قوله تعالى [افنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون] وهذا يقتضى أن هذا ممتنع عليه ومن حكم بجوازه فقد حكم حكما باطلا جائراً ممتنعاً كالذين جوزوا أن تكون له بنات وهم يكرهون أن تكون لهم بنات فيجوز على الله ما هو قبيح عندهم قال تعالى [ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون واذا بشر أحدهم

بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون] ومما يبين حكمته ان تقول افعاله المحكمة المتقنة دلت على علمه وهذا مما وقع الاتفاق عليه من هؤلاء فانهم يسلمون أن الاحكام والاتقان يدل على علم الفاعل وهذا أمر ضروري عندهم وعند غيرهم وهو من أعظم الادلة العقلية التي يجب ثبوت مدلولها والاحكام والاتقان انما هو ان يضع كل شيء في محله المناسب لتحصل به الحكمة المقصودة منه مثل الذي يخيط قميصا فيجعل الطوق على قدر العنق والكمين على قدر اليدين وكذلك الذي يبني الدار يجعل الحيطان متماثلة ليعتدل السقف والذي يصنع الابريق يوسع ما يدخل منه الماء ويضيق ما يخرج منه وحكمة الرب في جميع المخلوقات باهرة قد بهرت العقلاء واعترف بها جميع الطوائف والفلاسفة من أعظم الناس اثباتا لها وهم يثبتون العناية والحكمة الغائية وان كان فيهم من قصر في أمر الارادة والعلم وكذلك المتكلمون كلهم متفقون على اثبات الحكمة في مخلوقاته وان كانوا في الارادة وفعله لغاية متنازعين وذلك مثلما في خلق الانسان وأدنى ذلك ان العين والفم والاذن فيها مياه ورطوبة فماء العين ملح وماء الفم عذب وماء الاذن مر فان العين شحمة والملوحة تحفظها ان تذوب وهذه ايضا حكمة تمليح ماء البحر فان له سببا وحكمة فسببه سبوخة ارضه وملوحتها فهي توجب ملوحة مائه وحكمتها انها تمنع نتن الماء بما يموت فيه من الحيتان العظيمة فانه لولا ملوحة مائه لانتن ولو أنتن لفسد الهواء لملاقاته له فهلك الناس بفساده واذا وقع احيانا قتل خلق كثير فانه يفسد الهواء حتى يموت بسبب ذلك خلق كثير وماء الاذن مر ليمنع دخول الهوام الى الاذن وماء الفم عذب ليطيب به ما يأكله فلو جعل الله ماء الفم مرا لفسد الطعام على اكلته ولو جعل ماء الاذن عذبا لدخل الذباب في الدماغ ونظائر هذا كثيرة فلا يجوز ان يفعل بخلاف ذلك مثل ان يجعل العينين في القدمين ويجعل الوجه خشنا غليظا كالقدمين فانه كان يفسد مصلحة النظر والمشي بل من الحكمة أنه جعل العينين في أعلى البدن في مقدمه ليرى بها ما أمامه فيدرى أين يمشي وجعل الرجل خشنة تصبر على ما تلاقيه من التراب وغيره والعين لطيفة يفسدها أدنى شيء فجعل لها أجفانا تغطيها وأهدابا فتقول هذا ومثله من مخلوقات الرب دل على أنه قد أحكم ما خلقه وأتقنه

ووضع كل شيء بالموضع المناسب له وهذا يوجب العلم الضروري انه عالم فيميز بين
هذا وبين هذا حتى خص هذا بهذا وهذا بهذا وهو أيضاً يوجب العلم الضروري بانه
أراد تخصيص هذا بهذا وهذا بهذا فدل على علمه وارادته وهـذا مما يسلمونه فتقول
ودل ايضاً على انه جعل هذا لهذا فجعل ماء العين والبحر ملحا للحكمة المذكورة وجعل
العين في أعلى البدن وجعل لها أجفانا للحكمة المذكورة وكذلك اذا أنزل المطر وقت
الحاجة اليه علم أنه أنزله ليحيي به الارض وكذلك اذا دعاه النـاس مضطرين فانزل
المطر علم أنه أنزله ليحيي الأرض لاجابة دعائهم فلا يتصور ان يعلم انه أراد هذا لهذا
ولا يتصور الاحكام والاتقان الا اذا فعل هذا للحكمة المطلوبة فكان ما علم من أحكامه
واتقانه دليلا على علمه وعلى حكمته ايضا وانه يفعل لحكمة والذين استدلوا بالاحكام
على علمه ولم يثبتوا الحكمة وانه يفعل هذا لهذا متناقضون عند عامة العقلاء وحذاقهم
معترفون بتناقضهم فانه لا معنى للاحكام الا الفعل لحكمة مقصودة فاذا انتفت الحكمة
ولم يكن فعله لحكمة انتفى الاحكام واذا انتفى الاحكام انتفى دليل العلم واذا كان الاحكام
معلوما بالضرورة ودلالته على العلم معلومة بالضرورة علم ان حكمته ثابتة بالضرورة
وهو المطلوب وأيضا فاذا ثبت انه عالم فنفس العلم يوجب انه لا يفعل قبيحا ولا يجوز ان
يفعل القبيح الا من هو جاهل كما قد بسط في غـير هـذا الموضع . وبين ان العالم يعلم
ما الذي يصلح أن يفعل وان فعل هذا اولى من فعل هذا واذا كان مريداً للفعل وقد
علم أن الفعل على هذا الوجه هو الاصلح امتنع أن يريد الوجه الآخر والانسان لا يريد
القبيح الا لنقص علمه اما ان يفعل بلا علم بل لمجرد الشهوة أو يظن خطأ فيظن أن
هذا الفعل يصلح وهو لا يصلح فانما يقع القبيح في فعله لفعله مع الجهل البسيط أو
المركب والرب منزه عن هذا وهذا فيمتنع أن يفعل القبيح وأيضاً فانه قد ثبت أنه مريد
وان الارادة تخصص المراد عن غيره وهذا انما يكون اذا كان التخصيص لرجحان
المراد اما لكونه احب الى المريد وافضل عنده فاما اذا ساوى غيره من كل وجه امتنع
ترجيح الارادة له فكان اثبات الارادة مستلزما اثبات الحكمة والا لم تكن الارادة
فقد تبين ثبوت حكمته من جهة علمه ومن جهة نفس أفعاله المتقنة المحكمة التى تدل
على علمه بالاتفاق وهذه أصول عظيمة من تصورها تصوراً جيداً انكشف له حقائق

هذا الموضع الشريف واذا ثبت أنه حكيم و أن حكمته لازمة لعلمه ولازمة لارادته وهما لازمان لذاته كانت حكمته من لوازم ذاته فيمتنع أن يفعل الا الحكمة وبحكمة ويمتنع أن يفعل على خلاف الحكمة ومعلوم بصريح العقل ان العلم خير من الجهل والصدق خير من الكذب والعدل خير من الظلم والاصلاح خير من الافساد ولهذا وجب اتصافه تعالى بالرحمة والعلم والصدق والعدل والاصلاح دون نقيض ذلك وهذا ثابت في خلقه وأمره فكما انه في خلقه عادل حكيم رحيم فكذلك هو في أمره وما شرعه من الدين فانه لا يكون الا عدلا وحكمة ورحمة ليس هو كما تقول الجهمية المجبرة ومن اتبعهم من أهل الكلام والرأى انه يأمر العباد بما لا مصلحة لهم فيه اذا فعلوه وان ما أمر به لا يجب أن يفعل على حكمة وينكرون تعليل الاحكام أو يقولون ان علل الشرع أمارات محضة فهذا كله باطل كما قد بسط في مواضع .بل ما يأمر به مصلحة لا مفسدة وحسن لا قبيح وخير لا فساد وحكمة وعدل ورحمة والحمد لله رب العالمين فاذا قدر رجلان ادعيا على الرب الرسالة أو توليا على الناس أو كانا من عرض الناس أحدهما عالم صادق عادل مصلح والآخر جاهل ظالم كاذب مفسد ثم قدر أن ذلك العالم العادل عوقب في الدنيا والآخرة فاذل في الدنيا وقهر وأهلك وجعل في الآخرة في جهنم وذلك الظالم الكاذب الجاهل اكرم في الدنيا والآخرة وجعل في الدرجات العلى كان معلوما بالاضطرار ان هذا نقيض الحكمة والعدل وهو اعظم سفهاً وظلما من تعذيب ماء البحر وماء العين فان هذا غايته موت شخص أو النوع وهذا اقل فساداً من اهلاك خيار الخلق وتعذيبهم واكرام شرار الخلق واهانتهم واذا كان هذا أعظم مناقضة للحكمة والعدل من غيره وتبين بالبراهين اليقينية أن الرب لا يجوز عليه خلاف الحكمة والعدل علم بالاضطرار أن الرب سبحانه لا يسوى بين هؤلاء وهؤلاء فضلا عن أن يفضل الاشرار على الاخيار وهو سبحانه أنكر التسوية فقال (أم حسب الذين اجترحو السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما كانوا يعملون وقال تعالى (أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون) وقد جعل من جوز أن الله لا ينصر رسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة ويعذبهم في الآخرة في جهنم وان الفراعنة يكرمهم في الدنيا والآخرة والمنازع عنده لا فرق بين هذا وهذا بالنسبة

الى الرب والى ارادته وحكمته وعلمه بل انما علم وقوع أحدهما بمجرد الخبر لا لامتناع أحدهما ووجوب الآخر والخبر انما هو خبر الانبياء وذلك موقوف على العلم بصدقهم وهو يستلزم صدقهم وعلى أصله يمتنع العلم بصدقهم فانه يجوز أن يسوى الله بين الصادق والكاذب على أصله اذ كان يجوز عليه عنده كل مقدور وعنده لا يجوز أن يفعل فعلا لحكمة فلايجوز على أصله أن يخلق الله آية ليدل بها على صدقهم واذا قال تجويز ذلك يقتضى انه لا يقدر على خلق ما به يبين صدق الصادق فلذلك منعت من ذلك لانه يفضى الى تعجيزه قيل له انما يفضى الى عجزه اذا كان خلق دليل الصدق ممكنا وعلى أصلك لا يمكن اقامة الدليل على امكانه فان الدليل يستلزم المدلول ويمتنع ثبوته مع عدمه وأى شيء قدرته جاز أن يخلقه على أصلك على يد الكاذب وانت لا تنزهه عن فعل ممكن واذا قلت انزهه عن فعل ممكن يستلزم عجزه كان هذا تناقضا فان فعل الممكن لا يستلزم العجز بل امتناع الممكن يستلزم العجز وبيان ذلك أن يقال ما خلقه على يد الصادق هو قادر على أن يخلقه على يد الكاذب أم لا (فان قلت) ليس بقادر فقد أثبت عجزه وان قلت هو قادر على ذلك فالمقدور عندك لا ينزه عن شيء منه وان قلت هذا المقدور أنزهه عنه لئلا يلزم عجزه كان حقيقة قولك أثبت عجزه لانفى عجزه فجعلته عاجزاً لئلا تجعله عاجزاً فجمعت بين النقيضين بين اثبات العجز ونفيه وانما لزمه هذا لانه لاينزه الرب عن فعل مقدور فاستوت المقدورات كلها في الجواز عليه عنده ولم يحكم بثبوت مقدور الا بالعادة أو الخبر والعادة يجوز انتقاضها عنده والخبر موقوف على العلم بصدق المخبر ولا طريق له الى ذلك فتبين أن كل من لم ينزه الرب عن السوء والسفه ويصفه بالحكمة والعدل لم يمكنه أن يعلم نبوة نبي ولا المعاد ولا صدق الرب في شيء من الاخبار فهذه طريقة من يجعل وجه دلالة المعجز على صدق الانبياء لئلا يلزم العجز واما الطريق الثانية وهي أجود وهى التى اختارها أبو المعالى وأمثاله فهو ان دلالة المعجز على التصديق معلوم بالاضطرار وهذه طريقة صحيحة لمن اعتقد أن يفعل لحكمة وأما اذا قيل انه لا يفعل لحكمة انتفى العلم الاضطرارى والامثلة التى يذكرونها كالملك الذى جعل آية لرسوله أمراً خارجا عن عادته انما دلت للعلم بأن الملك يفعل شيئاً لشيء فاذا انفوا هذا بطلت الدلالة وكذلك دليل القدرة هو دليل صحيح لكن مع اثبات الحكمة فانه سبحانه وتعالى قادر على أن يميز بين الصادق والكاذب اذ

كان قادرا على ان يهدى عباده الى ما هوادق من هذا فهداهم لى اسهل لكن هـذا يستلزم اثبات حكمته ورحمته فمن لم يثبت له حكمة ورحمة امتنع عليه العلم بشىء من افعاله الغائبة وايضا فايات الانبياء تصديق بالفعل فهى تدل اذا علم ان من صـدقه الرب فهو صادق وذلك يتضمن تنزيهه عن الكذب وعلى اصلهم لا يعلم ذلك فان ما يخلقه من الحروف والاصوات عندهم هو مخلوق من المخلوقات فيجوز ان يتكلم كلاما يدل على شىء وقد أراد به شيئا آخر فان هذا من باب المفعولات عندهم والكلام النفسى لا سبيل لاحد الى العلم به فعلى اصلهم يجوز الكذب في الكلام المخلوق العربى وهو الذى يستدل به الناس فلا يبقى طريق الى العلم بأنه صادق فيما يخلقه من الكلام ولهذا تجد حذاقهم في السمعيات أنما يفرون الى ما علم بالاضطرار من قصد الرسول لا الى الاستدلال بالقرآن فالقاضى أبو بكر عمدته ان يقول هذا مما وقفنا عليه الرسول وعلمنا قصده بالاضطرار كما يقول مثل ذلك في تخليد أهل النار وفيما علمه من الاحكام اذ كانوا لا يعتمدون على القول المسموع لا خبرا ولا امرا فهم لا طريق عندهم الى التمييز بين ما يقع وما لا يقع مثل التمييز بين كونه يثيب المحسن ويعاقب المسىء أو لا يفعله ففى الجملة جميع أفعاله من أرسال الانبياء ومجازاة العباد وقيام القيامة لا طريق لهم الى العلم بذلك الامن جهـة الخبر وطريق الخبر على أصلهم مسدود وهم يعلمون صدق الرسول وصدق خبره معلوم في انفهسم لكن يناقض أصولهم لكن مع هذا هم واقفة فيما اخبرت به الرسل من الوعيد فضعف علمهم بما اخبرت به الرسـل فصاروا في نقص عظيم في علمهم وايمانهم بما اخبرت به الرسل وما امرت به وفي أصل ثبوت الرسالة هذه السمعيات واما العقليات فمدارها على حدوث الجسم وقد عرف فساد أصلهم فيها فهذه أصولهم العقلية والسمعية وهم لا يعلمون أيضاً ما يفعله الرب من غير الخبر الا من جهة العادة والعادة يجوز عندهم نقضها بلا سبب ولا لحكمة ويجوزون ان تصبح الجبال يواقيت والبحار زيبقا فاذا احتجوا بالعادات فقيل لهم عندكم يجوز نقضها بلا سبب ولا حكمة اجابوا بان الشىء قديعلم جوازه ويعلم بالضرورة انه لا يقع وهـذا أيضا جمع بين النقيضين وهم يقولون العقل هو العلم بجواز الجائزات وامتناع الممتنعات ووجوب الواجبات كالعلم بان الجبل لم ينقلب ياقوتا ثم يجعلون هذا من الجائز

على أصلهم ليس في الافعال لا واجب ولا ممتنع بل كل مقدور فانه جائز الوجود وجائز العدم لا يعلم احد الطرفين الا بخبر أوعادة لا بسبب يقتضيه ولا حكمة تستلزمه كما ان المرجح لهعندهم مجرد الارادة لا بسببولا حكمةواذا علم جواز الشيء وعدمه ولم يعلم ما يوجب احدهما أمتنع ان يعلم بالضرورة ثبوت احدهما والناس انما يعلمون ان الجبال لم تنقلب يواقيت لعلمهم بان هذا ممتنع وان الله اذا أراد قلبها يواقيت أحدث أسبابا تقتضى ذلك فاما انقلاب العادة بلا سبب فهذا ممتنع عند العقلاء وجميع ما خرق الله به العادة كان لاسباب تقتضيه ولحكم فعل لاجلها لم يكن ترجيحاً بلا مرجح كما يقوله هؤلاء فهذا هذا ولاحول ولا قوة الا بالله ولو لم يتعلق هذا بالايمان بالرسول وبما أخبر به الرسول واحتجنا الى أن نميز بين الصحيح والفاسد في الادلة والاصول لما ورد على ما قاله هؤلاء من هذه السؤالات لم تكن بنا حاجة الى كشف الاسرار لكن لما تكلموا في اثبات النبوة صاروا يوردون عليها إسئلة في غاية القوة والظهور ولايجيبون عنها الا بأجوبةضعيفة كما ذكرنا كلامهم فصار طالب العلم والايمان والهدى من عندهم لا سيما اذا اعتقد أنهم أنصار الاسلام ونظاره والقائمون ببراهينه وأدلته اذا عرف حقيقة ما عندهم لم يجد ما ذكروه يدل على ثبوت نبوة الانبياء بل وجده يقدح في الانبياء ويورث الشك فيها أو الطعن وانها حجة تقدح في الانبياء وتورث الشك فيها أو الطعن فيها وأنها حجة لمكذب الانبياء أعظم مما هي حجة لمصدق الانبياء فانسد طريق الايمان والعلم وانفتح طريق النفاق والجهل لا سيما على من لم يعرف الا ما قالوه والذى يفهمماقالوه لا يكون الا فاضلا قد قطع درجة الفقهاء ودرجة من قلد المتكلمين فيصير هؤلاء أمامنافقينوامافي قلوبهم مرض ويظن الظان أنه ليس فى الامر على نبوة الانبياء براهين قطعية ولا يعلم أن هذا انما هو لجهلهؤلاء وأصولهم الفاسدة التى بنوا عليها الاستدلال وقدحهمفي الالهية وانهم لم ينزهوا الرب عن فعل شيء من الشر ولا أثبتوا له حكمة ولا عدلا فكان (١) ما جهلوه من آيات الانبياء اذ كان العلم با يات الله وما قصه لخلقه من الدلائل والبراهين مستلزماً لثبوت علمه وحكمته وحمته وعدله فاذا انتفى اللازم انتفى الملزوم وهمفي الاصل انما قصدوا الرد على القدرية الذين قالوا ان الله لم يشأ كل شيء ولم يخلق أفعال العباد

(١) قوله فكان الخ. كان هنا تامة ولا يصح أن تكون ناقصة

وهو مقصود صحيح لكن ظنوا أن هذا لايتم الا بجحد حكمته وعدله ورحمته فغلطوا في ذلك كما ان المعتزلة أيضاً غلطوا من جهات كثيرة وظنوا أنه لا تثبت حكمته وعدله ورحمته ان لم يجحد خلقه لكل شئ وانه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ويجحد اتصافه بالكلام والارادة وغير ذلك من أقوال المعتزلة التى هي من أقوال هؤلاء فان هؤلاء في الصفات خير من المعتزلة وفي الافعال من بعض الوجوه ولهذا لما ظهر للغزالى ونحوه ضعف طريق لاستدلال بالمعجزات الذى سلكه شيوخه وهو لا يعرف غيره أعرض عنها وذكر انه نما علم ثبوت النبوة بقرائن تعجز عنهـا العبارة وهي علوم ضرورية حصلت له على الطول وجعل الدليل على النبوة هو العلم بأن ما جاء به حق من غير جهته وهـذه طريق صحيحة قد سلك الجاحظ نحوا منها ولكن النبوة التى علمها أبو حامد هي النبوة التى تثبتها الفلاسفة وهي من جنس المنامات ولهـذا استدل على جوازها بمبدأ الطب والهندسة ونحو ذلك وأمر النبوة أعظم من هذا بكثير وتلك النبوة موجودة لخلق من الناس فلهذا لا يوجد للنبوة عندهم ماتستحقه من التصديق والاحترام ولا يعتمدون عليها في استفادة شئ من العلم الخبرى وهي الانباء بالغيب وهي خاصة النبوة والرازى كلامه في النبوة متردد بين نبوة الفلاسفة ونبوة أصحابه هؤلاء كما ترى وليس في واحد من الطريقين اثبات النبوة التى خص الله بها أنبياءه فلهذا ضعفت معرفة هؤلاء بالانبياء وضعف أخذ العلم من طريقهم لا سيما وقد عارضوا كثيراً مما جاء عنهم بالعقليات ودخلوا فيما هو أبعد عن الهدى والعلم من العقليات والذوقيات التى من سلكها ضل ضلالا بعيداً وانما ينجو من سلك منها شيئاً اذا لطف الله فعرفه السلوك خلف طريق الانبياء فمن لم يهتد بما جاءت به الانبياء فهو أبعد الناس عن الهدى (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب اليم واذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزؤا أولئك لهم عذاب مهين واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ويل يومئذ للمكذبين فبأى حديث بعده يؤمنون) وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم ولهذا اعترف الرازى بهذا في آخر مصنفاته حيث قال ولقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية

فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الاثبات [اليه يصعد الكلم الطيب الرحمن على العرش استوى]واقرأ في النفى [ليس كمثله شيء ولا يحيطون به علما] ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى. واكثر الانتفاع بكلام هؤلاء هو فيما يثبتونه من فساد أقوال سائر الطوائف وتناقضها وكذلك كلام عامة طوائف المتكلمين ينتفع بكلام كل طائفة في بيان فساد قول الطائفة الاخرى لا في معرفة ما جاء به الرسول فليس في طوائف أهل الاهواء والبدع من يعرف حقيقة ما جاء به الرسول ولكن يعرف كل طائفة منه ما يعرفه فليسوا كفارا جاحدين له وليسوا عارفين به ☆

فلقد عرفت وما عرفت حقيقة ☆ ولقد جهلت وما جهلت حمولا (١)

وبسط هذه الامور له موضع آخر ولكن نبهنا هنا على طريق الحكمة ☆

فصل

واذا عرفت حكمة الرب وعدله تبين انه انما يرسل من اصطفاه لرسالته واختاره لها كما قال (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) وكما قال لموسى [وانا اخترتك فاستمع لما يوحى) وانه اذا ابلغ الرسالة وقام بالواجب وصبر على تكذيب المكذبين وأذاهم كما مضت به سنته في الرسل قال [كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أومجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون)وقال تعالى(مايقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب اليم)وقال تعالى (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمودوالذين من بعدهم لا يعلمهم الاالله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا ايديهم في أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم

---

(١) لعلها فضولا

بآية الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ومالنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت ومن ورائه عذاب غليظ) الى سائر ما أخبر به من أحوال الرسل والرسل صادقون مصدقون على الله يخبرون بالحق ويأمرون بالعدل ويدعون الى عبادة الله وحده لا شريك له وأهل الكذب المدعون للنبوة ضد هؤلاء كاذبون تأتيهم الشياطين الكاذبون يأمرون بما نهى الله عنه وينهون عما أمر الله به فانهم لابد أن يأمروا بتصديقهم واعتقاد نبوتهم وطاعتهم وذلك مما نهى الله عنه ولابد أن ينهوا عن متابعة من يكذبهم ويعاديهم وذلك مما أمر الله به فانه يمتنع في حكمة الرب وعدله أن يسوى بين هؤلاء خيار الخلق وبين هؤلاء شرار الخلق لا في سلطان العلم وبراهينه وأدلته ولا في سلطان النصر والتأييد بل يجب في حكمته أن يظهر الآيات والبراهين الدالة على صدق هؤلاء وينصرهم ويؤيدهم ويعزهم ويبقى لهم سلطان الصدق ويفعل ذلك بمن اتبعهم وأن يظهر الآيات المبينة لكذب أولئك ويذلهم ويخزيهم ويفعل ذلك بمن اتبعهم كما قد وقع في هؤلاء وهؤلاء وقد دل القرآن على الاستدلال بهذا في غير موضع والادلة والبراهين كما تقدم نوعان نوع يدل بمجرده بحيث يمتنع وجوده غير دال كدلالة حدوث الحادث على محدث فهذا يدل بمجرده وان قدر أن أحداً لم يقصد الدلالة به لكن الرب بكل شيء عليم وهو مريد لخلق ما خلقه ولصفاته لكن لا يشترط في الاستدلال بهذا أن يعلم أن دالا قصد أن يدل به . والنوع الثاني ماهو دليل بقصد الدال وجعله فهذا لولا القصد وجعله دليلا لم يكن دليلا فهو انما قصد به الدلالة فهذا مقصوده مجرد الدلالة وذلك بمجرده هو الدليل وهذا كالكلام الذي يدل بقصد المتكلم وغير ذلك مثل الاشارة بالرأس والعين والحاجب واليد ومثل الكتابة ومثل العقد ومثل الاعلام التي نصبت على الطرق وجعلت علامة على حدود الارض وغير ذلك ومن ذلك العلامات التي يبعثها الشخص مع رسوله ووكيله

الى أهله سواءكان قد تواطأ معهم عليها مثل أن يقول علامته أن يضع يده على ترقوته أو يضع خنصره في خنصره ونحو ذلك أو كانت علامة قصد بها الاعلام من غير تقدم مواطأة مثل اعطائه عمامته ونعليه كما أعطى النبى صلى الله عليه وسلم عمامته علامة على ولاية قيس ابن سعد وعزل أبيه سعد عن الامارة يوم الفتح وكما أعطى أبا هريرة نعليه علامة علامة على ما أرسله به وكما يعطى الرجل لرسوله خاتمه ونحو ذلك فهذه الدلائل دلت بالقصد والجعل وقد كان يمكن أن لا تجعل دليلا فاذا كانت آيات الانبياء من هذا الجنس فهى انما تدل مع قصد الرب الى جعلها دليلا وجعله لها دليلا بأن يجعل المدلول لازماً لها فكل من ظهرت على يده كان نبياً صادقاً فان الدليل لا يكون دليلا الا مع كونه مستلزماً المدلول فيمتنع أن يكون دليلا اذا وجد معه عدم المدلول أو وجد ضد المدلول فآيات الانبياء الدالة على صدقهم يمتنع وجودها بدون صدق النبى ووجودها مع مدعى النبوة كاذباً أعظم استحالة فانها اذا كانت ممتنعة مع عدم نبوة صادقة وان لم تكن هناك نبوة كاذبة فمع الكاذبة أشد امتناعاً فهى مستلزمة للنبوة لا تكون مع عدم النبوة البتة والكاذب قد عدمت في حقه النبوة ووجد في حقه ضدها وهو الكذب في دعواها يمتنع كونه نبياً صادقاً فيمتنع أن يخلق الرب ما يدل على صدق الانبياء بدون صدقهم لامتناع وجود الملزوم دون لازمه ومع كذبهم لامتناع وجود الشيء مع ضده والكذب ضد الصدق فيمتنع أن يكون قوله أنا نبى صدقاً وكذبا فاذا استلزمت الصدق امتنع وجود الكذب وخلق دليل الصدق مع عدم الصدق ممتنع غير مقدور لكن الممكن المقدور ان ما جعله دليلا على الصدق يخلقه بدون الصدق فيكون قد خلقه وليس بدليل حينئذ ويمكن أن يخلق على يد الكاذب مايدل أنه دليل على صدقه وليس بدليل مثل خوارق السحرة والكهان كما كان يجرى لمسيلمة والعنسى وغيرهما لكن هذه ليست دليلا على النبوة لوجودها معتادة لغير الانبياء وليست خارقة لعادة غير الانبياء بل هي معتادة للسحرة والكهان فالتفريط ممن ظنها دليلا لا سيما ولابد أن تكون دليلا على كذب صاحبها فان الشياطين لا تقترن الا بكاذب كما قال تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم) ولا يجوز أن يظهر الرب ما جعله دليلا

للنبوة مع عدم النبوة كما أنه لا يجوز أن يتكلم بالكلام الذى جعله لبيان معان بدون ارادة تلك المعانى بل ذلك ممتنع من وجوه: من وجه حكمته، ومن جهة عادته، ومن جهة عدله ورحمته، ومن جهة علمه واعلامه وغير ذلك كما قد بسط في مواضع. ومن جهة قدرته أيضاً فانه قادر على هدى عباده وتعريفهم وذلك انما يكون بتخصيص الصادق بما يستلزم صدقه فاذا ما سوى بين الصادق والكاذب فانه يمتنع التعريف والممتنع ليس بمقدور، فقدرته تقتضى خلق الفرق وقد يقال هو قادر لكن لا يفعل مقدوره فيقال فعله له ممكن ولا يمكن الا على هذا الوجه فيكون قادرا على هذا الوجه، فان قيل هو قادر ولكن لا يفعله قيل ان أريد أنه يمتنع فهذا باطل، وان أريد أنه يمكن فعله ولكن لا يفعله لم يكن على هذا النفى دليل بل وجوده يدل على أنه فعله. وأيضا فافعال الرب اما واجبة واما ممتنعة واذا لم يكن ممتنعا تعين أنه واجب وأنه قد فعله وهذا قد فعله وهذا مبسوط في غير هذا الموضع (والمقصود هنا) أن هذا كله يستلزم أن الرب منزه عن أن يفعل بعض الامور الممكنة المقدورة لكون ذلك يستلزم أمراً يناقض حكمته ولكون فعل الشيء لا يكون الا مع لوازمه وانتفاء اضداده فيمتنع فعله بدون لوازمه أو مع ضده كما يمتنع جعل الدليل دليلا مع وجوده بلا مدلول أو مع وجود ضد المدلول معه والذين قالوا يجوز منه فعل كل شيء ولا ينزه عن شيء يتعذر على أصلهم وجود دليل جعلى قصدى لا الكلام ولا الفعال فيمتنع على أصلهم كون كلام الرب يدل على مراده أو كون آياته التى قصد بها الدلالة على صدق الانبياء أو غيرهم تدل لانه يقدر أن يفعل ذلك وغير ذلك كما يقدر ان يظهر على يد الكاذب ما أظهره على يد الصادق وهم يقولون المعجزة هي الخارق المقرون بالتحدى بالمثل وعدم المعارضة؛ وهذا يقدر على اظهاره على يد الصادق فمن سوى بين جميع الامور وجعل ارادته لها سواء لم يفرق بين هذا وهذا فقالوا نحن نستدل على أنه لم يظهرها على يد الكاذب بانه لو فعل ذلك لبطلت قدرته على تصديق الصادقين بالآيات فانه انما يستدل على صدقهم بالآيات فلو أظهرها على يد الكاذب لم يبق قادراً هذه عمدة أكثرهم وعليها اعتمد القاضى أبو بكر في كتاب المعجزات فيقال لهم هذا لا يبطل قدرته على ذلك ولكن هذا يوجب أنه لم يفعل المقدور فيلزم من ذلك أنه سوى بين الصادق والكاذب ولم يبين صدقه وهذا مقدور ممكن وكل مقدور ممكن فهو

عندكم جائز عليه فلم يكن اللازم رفع قدرته بل اللازم أنه لم يفعل مقدوره وهذا جائز عندكم ومما يوضح هذا ان يقال هو قادر على اظهار ذلك على يد الكاذب أم لا فان قلتم ليس بقادر أبطلتم قدرته وان قلتم هو قادر فثبت أنه قادر على اظهار ذلك على يد الصادق والكاذب فبقي مشتركا لايخص احدهما فلايكون حينئذ دليلا فمجرد القدرة لم يوجب اختصاص الصادق به وان قلتم لايقدر على اظهاره على يد الكاذب فقد رفعتم القدرة ؛ فانتم بين أمرين ان أثبتم القدرة العامة فلا اختصاص لها وان نفيتم القدرة على أحدهما بطل استدلالكم بشمول القدرة وأيضا فالقدرة انما تكون على ممكن وعلى أصلكم لا يمكن تصديق الصادق فهم استدلوا بمقدمتين وكلاهما باطلة قالوا لولم يكن دليلا رفع القدرة وهذا باطل بل يلزم انه لم يفعل المقدور وهذا جائز عندهم فلا يجب عندهم شيء من الافعال ثم قالوا وهو قادر على ذلك وعلى أصلهم ليس هو بقادر على ذلك فانهم قالوا يمكنه تصديق الانبياء بالفعل كما يمكنه التصديق بالقول فيقال لهم كلاهما يدل بالقصد والجعل وهذا انما يكون ممن يقصد ان يفعل الشيء ليدل وعندكم هو لا يفعل شيئاً لشيء فيلزم على أصلكم ان لايفعل شيئاً لاجل انه يدل به عباده لافعلا ولا كلاما اذ كان هذا عندكم ممتنعا وهو فعل شيء لمقصود آخر غير فعله ؛ واذا كان هذا ممتنعا عندكم لم يكن مقدورا فلا يقدر على أصلكم ان ينصب لعباده دليلا ليدلهم به على شيء ؛ بل هذا عندهم فعل لغرض وهو ممتنع عليه وان قلتم هو وان لم يقصد ان يفعل شيئاً لحكمة لكن قد يفعل الشيئين المتلازمين فيستدل باحدهما على الآخر قيل هذا انما يكون بعد ان يثبت التلازم ، وان أحدهما مستلزم للآخر وهذا معلوم فيما يدل بمجرده فانه يمتنع وجوده بدون لازمه أما مايدل بالجعل والقصد فيمكن وجوده بدون ماجعل مدلولا له واللزوم انما يكون بالقصد وهو عندكم يمتنع ان يفعل شيئاً لاجل شيء فبطلت الادلة القصدية على أصلكم وهي أخص بالدلالة من غيرها ؛ ولهذا لايكادون يستدلون بكلام الله بل يعتمدون في السمعيات اما على ماعلم بالضرورة أو الاجماع ؛ وحقيقة الامر ان الادلة الجعلية القصدية لابد فيها من ارادة الرب ومشيئته ان تكون أدلة فلابد ان يريد ان يجعل هذا الفعل ليدلهم وهم لا يجوزون ان يريد شيئاً لشيء ؛ بل كل مخلوق هو عندهم مراد من نفسه لم يرد لغيره ، فامتنع ان يكون يريد الرب جعل شيء دليلا على أصلهم

فتبين انه على أصلهم غير قادر على نصب مايقصد به دلالة العباد وهدايتهم واعلامهم لاقول ولا فعل فبطلت المقدمة الكبرى وبتقدير ان يكون قادرا على ذلك فهو اذا أظهر على يد الكاذب مايظهر على يد الصادق كان لم يفعل هذا المقدور ولم يجعل ذلك دليلا على الصدق لايلزم ان لايكون قادرا فهم اعتمدوا على هذه الحجة وقالوا هذا هذا وهذا هذا، فقد تبين ان من لم يثبت حكمة الرب يلزمه نفى ارادته ومشيئته كما تقدم، ويلزمه أيضا نفى قدرته على ان يفعل شيئا لشيء فلا يمكنه ان ينصب دليلا ليدل به عباده على صدق صادق ولا كذب كاذب ؛ وهم يقولون من فعل شيئا لحكمة دليل على حاجته ونقصه لانه فعل لغرض والغرض هو الشهوة وذلك يتضمن الحاجة وهذا بعينه يقال في الارادة ان من أراد فانما يريد لغرض وشهوة فقولهم بنفى الحكمة يتضمن نفى الارادة ونفى القدرة وقد بسط هذا في غير هذا الموضع وبين ان من نفى الحكمة يلزمه نفى الارادة ومن نفى الارادة يلزمه نفى فعل الرب ونفى الاحداث ومن نفى ذلك يلزمه امتناع حدوث حادث في الوجود وان اثبات الحكمة لازم لكل طائفة على اى قول قالوه كما قد بسط في غير هذا الموضع اذ المقصود التنبيه على ان اثبات آيات الانبياء والاستدلال بكلام الله وآياته التى أراد ان يدل بها عباده بدون اثبات حكمته ممتنع، ولهذا اضطرب كلام من نفى حكمته في آيات الانبياء ،وفي كلام الرب سبحانه وهي الآيات التى بعثت بها الانبياء القولية والفعلية واضطربوا في الاستدلال على ما جاءت به الانبياء كما قد نبه عليه،والله سبحانه وتعالى اعلم ✡

فصل

واما الاستدلال بسنته وعادته فهو أيضا طريق برهانى ظاهر لجميع الخلق وهم متفقون عليه من يقول بالحكمة ومن يقول بمجرد المشيئة فانه قد علم عادته سبحانه في طلوع الشمس والقمر والكواكب والشهور والاعوام وعادته في خلق الانسان وغيره من المخلوقات وعادته فيما عرفه الناس من المطاعم والمشارب والاغذية والادوية ولغات الامم كالعلم بنحو كلام العرب وتصريفه والعلم بالطب وغير ذلك كذلك سنته تعالى في الانبياء الصادقين واتباعهم وفيمن كذبهم أو كذب عليهم فاولئك ينصرهم

ويعزهم ويجعل لهم العاقبة المحمودة والآخرون يهلكهم ويذلهم ويجعل لهم العاقبة المذمومة كما فعل بقوم نوح وبعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وفرعون وقومه وكما فعل بمن كذب محمداً من قومه قريش ومن سائر العرب وسائر الامم غير العرب وكما فعل من نصر أنبياءه وأتباعهم قال تعالى [ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون) وقال (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) وقال تعالى (تلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب) وقال تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط واصحاب مدين وكذب موسى فامليت للكافرين ثم اخذتهم فكيف كان نكير] وقال تعالى (أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها اكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون] وقال تعالى [أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الارض فاخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بانهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله انه قوى شديد العقاب] وقال تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فاخذتهم فكيف كان عقاب) وقال تعالى [أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الارض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا يستهزئون فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون) وقال تعالى [ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار ثم لايجدون وليا ولا نصيرا سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وقال تعالى (واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى

الامم فلما جاءهم نذير مازادهم الا نفورا استكبارا في الارض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء الا بأهله فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) وقال تعالى (وان كانوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذاً لا يلبثون خلافك الا قليلا) وقال تعال(وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا اذاً لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً] وقد قيل آيه الحاقة وآية الشورى تبين أنه لوافترى عليه لعاقبه فهذه سنته في الكاذبين وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشيء بنظيره وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين وهو الاعتبار المأمور به في القرآن كقوله تعالى [قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار] وقال تعالى [هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله فاتاهم من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا ياأولى الابصار] وقال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب) وانما تكون العبرة به بالقياس والتمثيل كما قال ابن عباس في دية الاصابع هن سواء واعتبروها بدية الاسنان فاذا عرفت قصص الانبياء ومن اتبعهم ومن كذبهم وان متبعيهم كان لهم النجاة والعافية والنصر والسعادة ولمكذبيهم الهلاك والبوار جعل الامر في المستقبل مثلما كان في الماضى فعلم أن من صدقهم كان سعيداً ومن كذبهم كان شقيا وهذه سنة الله وعادته ولهذا يقول سبحانه في تحقيق عادته وسنته وانه لاينقضها ولايبدلها [اكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر] يقول فاذا لم يكونوا خيراً منهم فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهم لهم هذا بطريق الاعتبار والقياس ثم قال (أم لكم براءة في الزبر) أى معكم خبر من الله بأنه لا يعذبكم فنفى الدليلين العقلى والسمعى ثم ذكر قولهم نحن جميع منتصر وانا نغلب من يغالبنا فقال تعالى سيهزم الجمع ويولون الدبر) وهذا مما أنبأه من الغيب في حال ضعف الاسلام واستبعاد عامة الناس ذلك ثم كان كما أخبر وقد قال للمؤمنين في تحقيق سنته وعادته (أم حسبتم

أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب] وقال لمحمد [ما يقال لك الا ماقد قيل للرسل من قبلك] وقال [كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون] وقال تعالى (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم) وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى قال نعم» وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي ﷺ انه قال « ليأخذن أمتي ما أخذ الامم قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع قالوا يارسول الله فارس والروم قال ومن الناس الا هؤلاء » وفي السنن لما قال له بعض أصحابه« اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط قال الله أكبر قلتم كما قال قوم موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ثم قال انه السنن لتركبن سنن من كان قبلكم» وقال تعالى [قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين] ولهذا احتج من احتج بسنة الله وعادته في مكذبي الرسل كقول شعيب [ياقوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) وقال مؤمن آل فرعون (ياقوم اني أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد) وقال تعالى [كدأب آل فرعون والذين من قبلهم) والدأب العادة في ثلاثة مواضع قال تعالى (ان الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب) قال ابن قتيبة وغيره الدأب العادة ومعناه كعادة آل فرعون يريد كفر اليهود (١) كل فريق بنبيهم وقال الزجاج هو

[١] قوله كفر اليهود خطأ من الناسخ ومعناه غير صحيح لان كفر اليهود انما كان بعد هلاك آل فرعون بمصر وقيام دولتهم بفلسطين بعد وفاة موسى عليه السلام ولعل أصل الصواب في العبارة كان هكذا كعادة آل فرعون والذين من قبلهم يريد كفر الامم السابقة كل فريق الخ ☆

الاجتهاد معناه أى دأب هؤلاء وهو اجتهادهم في كفرهم وتظاهرهم على النبى كتظاهر آل فرعون على موسى .وقال عطاء والكسائى وأبو عبيدة كسنة آل فرعون وقال النضر بن شميل كعادة آل فرعون يريد عادة هؤلاء الكفار في تكذيب الرسل وجحود الحق كعادة آل فرعون وقال طائفة نظم الآية ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النقمة والعقوبة مثل آل فرعون وكفار الامم الخالية أخذناهم فلن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم . وفي تفسير أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس كدأب آل فرعون قال كصنيع آل فرعون قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد والضحاك وأبى مالك وعكرمة نحو ذلك قال وروى عن الربيع بن أنس كشبه آل فرعون وعن السدى قال ذكر الذين كفروا كمثل الذين من قبلهم في التكذيب والجحود (قلت) فهؤلاء جعلوا الشبيه في العمل فان لفظ الدأب يدل عليه قال الجوهرى دأب فلان في عمله أى جد وتعب دأبا ودؤوبا فهو دئب وأدأبته أنا والدائبان الليل والنهار قال والدأب يعنى بالتسكين العادة والشأن وقد يحرك قال الفراء أصله من دأبت الأن العرب حولت معناه الى الشأن قلت الزجاج جعل ما في القرآن من الدأب الذى هو الاجتهاد والصواب ما قاله الجمهور أن الدأب بالتسكين هو العادة وهو غير الدأب بالتحريك اذا زاد اللفظ زاد المعنى والذى في القرآن مسكن ما علمنا أحداً قرأه بالتحريك وهذا معروف في اللغة يقال فلان دأبه كذا وكذا أى هذا عادته وعمله الملازم له وان لم يكن في ذلك تعب واجتهاد ومنه قوله تعالى (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) والدائب نظير الدائم والباء والميم متقاربتان ومنه اللازب واللازم قال ابن عطية دائبين أى متماديين ومنه قول النبى ﷺ لصاحب الجمل الذى بكى واجهش اليه «ان هذا الجمل شكى الى أنك تجيعه وتدئبه» أى تديمه في العمل له والخدمة قال وظاهر الآية أن معناه دائبين في الطلوع والغروب وما بينهما من المنافع للناس التى لا تحصى كثيرة قال وحكى الطبرى عن مقاتل بن حيان يرفعه الى ابن عباس أنه قال معناه دائبين في طاعة الله قال وهذا قول ان كان يراد به أن الطاعة انقياد هما للتسخير فذلك موجود في طاعة قوله وسخر وان كان يراد انها طاعة مقدورة كطاعة العبادة من البشر فهذا بعيد قلت ليس هذا ببعيد بل عليه دلت الادلة الكثيرة كما هو مذكور في

مواضع وقالت طائفة منهم البغوى وهذا لفظه دائبين يجريان فيما يعود الى مصالح عباد الله لا يفتران . قال ابن عباس دؤوبهما في طاعة الله ولفظ أبي الفرج دائبين في اصلاح مايصلحانه من النبات وغيره لايفتران قال ومعنى الدؤوب مرور الشيء على عادة جارية فيه قلت واذا كان دأبهم هوعادتهم وعملهم الذى كانوا مصرين عليه فالمقصود أن هؤلاء أشبهوهم في العمل فيشبهونهم في الجزاء فيحيق بهم ما حاق بأولئك هذا هو المقصود ليس المقصود التشبيه في الجزاء كقوله [ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب] أى فهؤلاء لا تدفع عنهم أموالهم وأولادهم عذاب الله اذ جاءهم كدأب آل فرعون ✡ وكذلك قوله [ولو ترى اذ يتوفي الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد] الى قوله (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فاهلكناهم بذنوبهم واغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين) فهذا كله يقتضى التشبيه في العذاب وأما الطائفة الاخرى فجعلوا الدأب نفس فعل الرب بهم وعقوبته لهم قال مكى بن أبى طالب الكاف في كدأب في مواضع نصب نعت لمحذوف تقديره غيرناهم كما غيروا تغييراً مثل عادتنا في آل فرعون ومثلها الآية الاولى الا أن الاولى للعادة في العذاب تقديره فعلنا بهم ذلك فعلا مثل عادتنا في آل فرعون وقد جمع بعضهم بين المعنيين فقال أبو الفرج كدأب آل فرعون أى كعادتهم والمعنى كذب أولئك فنزل بهم العذاب كما نزل بأولئك قلت الدأب العادة وهو مصدر يضاف الى الفاعل تارة والى المفعول أخرى فاذا أضيف الى الفاعل كان المعنى كفعل آل فرعون واذا أضيف الى المفعول كان المعنى كعادتهم في العذاب والمصائب التى نزلت بهم يقال هذه عادة هؤلاء لما فعلوه ولما يصيبهم وهي عادة الرب وسنته فيهم والتحقيق ان اللفظ يتناول الامرين جميعا وقد تقدم عن الفراء والجوهرى ان الدأب العادة والشأن وهذا كقوله (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) روى ابن أبى حاتم بالاسناد المعروف عن مجاهد قد خلت من قبلكم سنن من الكفار والمؤمنين في الخير والشر وعن أبى اسحاق أى قد مضت

منى وقائع نقمة في أهل التكذيب لرسلى والشرك بى عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين فروا مثلات قد مضت منى فيهم فقد فسرت السنن باعمالهم وبجزائهم قال البغوى معنى الآية قد مضت وسلفت منى فيمن كان قبلكم من الامم الماضية الكافرة بامهالى واستدراجى اياهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلى الذى أجلته لاهلاكهم وادالة أنبيائى فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين أى آخر المكذبين منهم قال وهذا في حزب واحد يقول فانا أمهلهم واستدرجهم حتى يبلغ اجلى الذى أجلت من نصرة النبى وأوليائه وهلاك أعدائه قلت ونظير هذا قوله تعالى (أولم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى في الصدور) وقوله (أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن أنفسهم يظلمون)وقوله في الآية الاخرى [كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الارض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون] فهذا كله يبين ان سنة الله وعادته مطردة لا تنتقض في اكرام مصدقى الرسل واهانة مكذبيهم ☆

فصل

آيات الانبياء كما قد عرف هي مستلزمة لثبوت النبوة وصدق المخبر بها والشاهد بها فيلزم من وجودها وجود النبوة وصدق المخبر بها ويمتنع ان تكون مع التكذيب بها وكذب المخبر بها فلا يجوز وجودها لمن كذب الانبياء ولا لمن أقر بنبوة كذاب سواء كان هو نفسه المدعى للنبوة أو ادعى نبوة غيره وهذان الصنفان هما المذكوران في قوله [ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا او قال أوحى الى ولم يوح اليه شيء] ومن قال (سأنزل مثل ما أنزل الله وهؤلاء كلهم من اظلم الكاذبين) كما قال (فمن اظلم

ممن كذب على الله وكذب بالصدق اذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين] ثم قال والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون] فالمخبر بالنبوة مع ثبوتها هو الذى جاء بالصدق وصدق به والمخبر بها مع انتفائها هو الذى كذب على الله والمكذب بها مع ثبوتها هو الذى كذب بالحق لما جاءه فدلائل النبوة هي مستلزمة لصدق من اثبت نبوة هي نبوة حق يمتنع ان تكون لمن نفى هذه أو اثبت نبوة ليست بنبوة وكذلك كل دليل دل على اثبات الصانع دل على صدق المؤمنين به المخبرين بما دل عليه الدليل وعلى كذب من نفى ذلك ويمتنع ان تكون تلك الادلة دالة على نفى ذلك أو على صدق الخبر بنفى ذلك أو على صدق من جعل صفات الرب ثابتة لغيره وما دل على ان هذه الدار ملك لزيد يدل على صدق المخبر بذلك وكذب النافي له ويمتنع ان يدل مع انتفاء الملك وما دل على علم شخص وعدله فانه مستلزم لذلك ولصدق المخبر به وكذلك النافي له يمتنع ان يدل على صدق النافي أو يدل مع انتفاء العلم والعدل فان ما استلزم ثبوت شيء وصدقه استلزم كذب نقيضه وكان عدم اللازم مستلزما لعدم الملزوم فما كان مستلزما لثبوت النبوة وصدق المخبر بها كان مستلزما لكذب من نفاها فامتنع ان يكون موجودا مع من نفاها وامتنع ان يكون موجودا مع انتفائها فان ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين فدليل كل مدلول عليه يمتنع ثبوته مع عدم المدلول عليه فانه مستلزم لثبوته فلو وجد مع عدمه للزم الجمع بين النقيضين فما كان دليلا على نبوة شخص فهو دليل على جنس النبوة فان نبوة الشخص لا تثبت الا مع ثبوت جنس النبوة فيمتنع وجود ذلك الدليل مع عدم النبوة وثبوت أحد النقيضين مستلزم لنفى الآخر فثبوت صدق المخبر بثبوتها مستلزم لكذب المخبر بانتفائها فهذا امر عقلى مقطوع به معلوم بالبديهة بعد تصوره في جميع الادلة ادلة النبوة وغيرها فلا يجوز ان يكون ما دل على النبوة وعلى صدق المخبر بها وكذب المكذب بها دليلا للمكذب بها ولا دليلا مع انتفائها كالمتنبى الذى يدعى النبوة ولا نبوة معه فلا يتصور ان يكون معه ولا مع المصدق بنبوته شيء من دلائل النبوة واما كون دليل من دلائل النبوة مع المصدق بها كائناً من كان فهذا حق بل هذا هو الواجب فمن صدق بها بلا دليل كان متكلما بلا علم فكل من صدق بالنبوة بعلم فمعه دليل من أدلتها واخبار أهل التواتر

بما جاءت به الانبياء من الآيات هو من أدلة ثبوتها فكل من آمن بالرسول عن بصيرة فلابد أن يكون في قلبه علم بأنه نبي حق اما علم ضروري أو علم نظري بدليل من الادلة والعلوم النظرية مع أدلتها تبقى ضرورية وقد تكون في نفس الامر علوم ضرورية ولا يمكنه التعبير عما يدل عليها كالذي يجده الانسان في نفسه ويعلمه من العلوم البديهية والضرورية وغير ذلك فان كثيراً من الناس لا يمكنهم بيان الادلة لغيرهم على وجود ذلك عندهم واذا عرف هذا فقولنا دلائل النبوة مختصة بالانبياء لا تكون لغيرهم له معنيان: أحدهما أنه لا يشاركهم فيها من يكذب بنبوتهم ولا من يدعى نبوة كاذبة وهذا ظاهر بين فان الدليل على الشيء لا يكون دليلا على وجوده وعلى عدمه فلا يكون مايدل على النبوة أو غيرها وعلى صدق المخبر بذلك دليلا على كذب المخبر بذلك ولا دليلا على النبوة مع انتفاء النبوة والمعنى الثاني أنها لا توجد الا مع النبي فهذا ان أريد به أنها لا توجد الا والنبوة ثابتة فهو صحيح وان كانت مع ذلك دليلا على نبي فلا يمتنع أن يكون الشيء الواحد دليلا على أمور كثيرة لكن يمتنع أن يوجد مع انتفاء مدلوله فما دل على النبوة قد يدل على أمور أخرى من أمور الرب تبارك وتعالى لكن لا يمكن أن يدل مع انتفاء النبوة أى مع كون النبوة المدلول عليها باطلة لا حقيقة لها ولكن قد يدل مع موت النبي ومع غيبته فان موته وغيبته لا ينفي نبوته وليس من شرط دليل النبي أن يكون موجوداً في محل المدلول عليه ولا في مكانه ولا زمانه وقول من اشترط في آيات الانبياء أن تكون مقترنة بالدعوى في غاية الفساد والتناقض كما قد بسط لا سيما والآيات قد تكون مخلوقة نائية عن النبي وعن مكانه وكذلك سائر الادلة لا سيما ما يجرى مجرى الخبر فالاخبار الدالة على وجود المخبر به لا يجب أن تكون مقارنة للمخبر به لا في محله ولا زمانه ولا مكانه وآيات الانبياء هي شهادة من الله واخبار منه بنبوتهم فلا تجب ان تكون في محل النبوة ولا زمانها ولا مكانها لكن يجوز ذلك فلا يمتنع ان يكون الدليل في محل المدلول عليه أو في زمانه أو في مكانه لكن يجوز ذلك فيه فالانسان قد تقوم به أمور تدل على بعض الامور التي فيه وقد تعلم أموره بخبر غيره وببعض آثاره المنفصلة عنه فاذا اريد بان آيات الانبياء مختصة بهم وأنها لا تكون لغيرهم أنها لا تكون مع انتفاء النبوة المدلول عليها فهذا صحيح لانه يستلزم الجمع بين النقيضين وأما اذا أريد أنها لا توجد الا في ذات النبي أو مقترنة بخبره عن نبوته أو

في المكان الذي كان فيه أو في الزمان فهذا كله غلط وخطأ ممن ظنه وجهل بين بحقائق الادلة وان كان من الادلة وآيات النبوة ما يكون في ذات النبي ويكون مقترنا بقوله اني رسول الله ويكون في المكان الذي هو فيه وفي زمانه فهذا يمكن وهو الواقع [١] فان النبي صلى الله عليه وسلم بل وغيره من الانبياء كان في نفس أقوالهم وأفعالهم وصفاتهم وأخلاقهم وسيرهم امور كثيرة تدل على نبوتهم وكذلك لما قال اني رسول الله أتى مع ذلك بآيات دلت على صدقه وكذلك في مكانه وزمانه ظهر من انشقاق القمر وغيره مادل على نبوته لكن آيات الانبياء أعم من ذلك كما ان دليل كل شيء اعم من ان يختص بمعنى المدلول (٢) وزمانه ومكانه وبهذا يظهر خطأ كثير من الناس في عدم معرفتهم بجنس آيات الانبياء لعدم تحقيقهم جنس الادلة والبراهين وان خاصة الدليل انه يلزم من تحققه تحقق المدلول عليه فقط سواء كان مقارنا للمدلول عليه أو كان حالا في محله أو مجاوزا لمحله أو لم يكن كذلك والنبوة قد قال طائفة من الناس انها صفة في النبي وقال طائفة ليست صفة ثبوتية في النبي بل هي مجرد تعلق الخطاب الالهي به يقول الرب اني ارسلتك فهي عندهم صفة اضافية كما يقولونه في الاحكام الشرعية انها صفات اضافية للافعال لا صفات حقيقية والصحيح ان النبوة تجمع هذا وهذا فهي تتضمن صفة ثبوتية في النبي وصفة اضافية هي مجرد تعلق الخطاب الالهي به يقول الرب اني أرسلتك فهي عندهم صفة اضافية كما يقولونه في الاحكام الشرعية انها صفات اضافية للافعال لا صفات حقيقية لكن على الاقوال الثلاثة (٣)

---

[١] قوله الواقع يتعين ذلك ليكون الخبر نكرة أما اذا كان معرفة والمبتدأ كذلك معرفة كانت الجملة معرفة الطرفين فتفيد الحصر وهو باطل هنا ينقض ماقرره كما ترى ☆

(٢) قوله بمعنى المدلول المراد بالعموم العموم المعى المقارن لا العموم البدلى والا فسدت دلالته وبطل كونه دليلا ومعنى ذلك ان دليل الشيء يجوز ان يدل على شيء آخر معه ولا يجب ان يكون بحيث لا يدل على شيء اصلا الا عليه بل دليل الشيء قد يدل على شيئين أو اكثر دلالة مصاحبة ومقارنة لا دلالة بدل والا لما كان دليلا فتدبر ☆

[٣] قوله لكن على الاقوال الثلاثة الخ) لم يذكر الا قولين فقط فلعل الثالث سقط من الناسخ ☆

ليس من شرط أدلتها ان تكون حالة في ذات النبى ولكن يجوز أن تكون لها أدلة قائمة بذات النبى كما كان في محمد صلى الله عليه وسلم عدة أدلة من دلائل النبوة كما هو مبسوط في دلائل نبوته اذ المقصود هنا الكلام على جنس آيات الانبياء لا على شيء معين لا دليل معين ولا نبى معين فاذا عرف ان دلائل النبوة يمتنع ثبوتها لشخص لا نبوة فيه اذا ادعاها أو ادعيت له كذبا ويمتنع ثبوتها مع المكذب بالنبوة الصادقة وانها لا توجد الا والنبوة ثابتة وانها دليل على صدق المخبر بالنبوة من جميع الخلق فكل من آمن ان محمداً رسول الله فقد اخبر عن نبوته كما اخبر هو عن نبوة نفسه بما أمره الله به حيث قال (قل ياأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا) فهذا الخبر وهو الشهادة بانه رسول الله الى الناس جميعاً سواء وجد منه أو من غيره هو مدلول عليه لجميع دلائل النبوة فاذا وجد هذا الخبر في غير النبي ووجد ما يدل على صدق هذا الخبر كان ذلك من دلائل النبوة كما وجد هذا في خلق كثير من المؤمنين ومن دلائل النبوة وجود العلم الضرورى بخبر أهل التواتر الذين أخبروا بالآيات فهذا العلم الضرورى هو بمنزلة المشاهدة للآيات وكذلك ما يوجد لاهل الايمان مما يستلزم صدق خبرهم بان محمداً رسول كما يوجد لامته من الآيات الكثيرة عند تحقيق أمره ونصره وطاعته والجهاد عن دينه والذب عنه وبيان ما أرسل به كما وجد امثال ذلك للصحابة والتابعين وسائر المؤمنين الى يوم القيامة ✡

فصل

فجميع ما يختص بالسحرة والكهان هو مناقض للنبوة فوجود ذلك يدل على ان صاحبه ليس بنبى ويمتنع ان يكون شيء من ذلك دليلا على النبوة فان ما استلزم عدم الشيء لا يستلزم وجوده وكذلك ما يأتى به أهل الطلاسم وعبادة الكواكب ومخاطبتها كل ذلك مناقض للنبوة فان النبى لا يكون الا مؤمنا وهؤلاء كفار فوجود ما يناقض الايمان هو مناقض للنبوة بطريق الاولى وهو آية ودليل وبرهان على عدم النبوة فيمتنع ان يكون دليلا على وجودها وجميع ما يختص بالسحرة والكهان وغيرهم ممن ليس بنبى لا يخرج عن مقدور الانس والجن واعنى بالمقدور ما يمكنهم التوصل

اليه بطريق من الطرق فان من الناس من يقول ان المقدور لا بد ان يكون في محل القدرة وليس هذا هو لغة العرب ولا غيرهم من الامم لا لغة القرآن والحديث ولا غيرهما وانما يدعون ذلك من جهة العقل وقولهم في ذلك باطل من جهة العقل لكن المقصود هنا التكلم باللغة المعروفة لغة العرب وغيرهم التى كان نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره يخاطب بها الناس كقوله في الحديث الصحيح لابى مسعود لما ضرب غلامه «اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود لله أقدر عليك منك على هذا» فجعل نفس المملوك مقدورا عليه لسيده كما يقول الناس القوة تعلى على الضعيف ضعف في القوة ويقولون فلان قادر على فلان وفلان عاجز عن فلان ويقولون فلان ناسج هذا الثوب وبنى هذه الدار ومنه قوله تعالى [ويصنع الفلك] فجعل الفلك مصنوعة لنوح ومنه قوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) اى والاصنام التى تعملونها وتنحتونها فجعل ما في الاصنام من التأليف معمولا لهم كما جعل تأليف السفينة مصنوعا لهم وهذا كثير (والمقصود هنا) أن ما أتى به السحرة والكهان ونحوهم هو مما يصنعه الانس والجن لا يخرج ذلك عنهم والانس والجن قد أرسلت اليهم الرسل فآيات الانبياء خارجة عن قدرة الانس والجن لا يقدر عليها لا الانس ولا الجن ولله الحمد والمنة، ومقدورات الجن هي من جنس مقدورات الانس لكن يختلف في المواضع فان الانسى يقدر على ان يضرب غيره حتى يمرض أو يموت بل يقدر ان يكلمه بكلام يمرض به أو يموت فما يقدر عليه الساحر من سحر بعض الناس حتى يمرض أو يموت هو من مقدور الجن وهو من جنس مقدور الانس ومنعه من الجماع هو من جنس المرض المانع له من ذلك والحب والبغض لبعض الناس كما يفعله الساحر هو من استعانته بالشياطين وهو من جنس مقدور الانس بل شياطين الانس قد يؤثرون من البغض والحب اعظم مما تؤثره شياطين الجن والجن تقدر على الطيران في الهواء وهو من الاعمال والطيور تطير فهو من جنس مقدور الانس لكن يختلف المحل بأن هؤلاء سيرهم في الهواء والانس سيرهم على الارض وكذلك المشى على الماء وطى الارض وهو قطع المسافة البعيدة في زمان قريب هو من هذا الجنس هو مما تفعله الجن وهو مما تفعله الجن ببعض الناس وقد اخبر الله عن العفريت انه قال لسليمان عن عرش بلقيس وهو باليمن وسليمان بالشام (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ولهذا



يوجد كثير من الكفار والفساق والجهال تطير بهم الجن في الهواء وتمشى بهم على الماء وتقطع بهم المسافة البعيدة في المدة القريبة وليس شيء من ذلك من آيات الانبياء ولله الحمد والمنة اذ كان مقدور الانس والجن والاخبار ببعض الامور الغائبة التى يأتى بها الكهان هو أيضاً من مقدور الجن فانهم تارة يرون الغائب فيخبرون به وتارة يسترقون السمع من السماء فيخبرون به وتارة يسترقون وهم يكذبون في ذلك كما اخبر النبى صلى الله عليه وسلم عنهم وما تخبر به الانبياء من الغيب لا يقدر عليه انس ولا جن ولا كذب فيه واخبار الكهان وغيرهم كذبها اكثر من صدقها وكذلك كل من تعود الاخبار عن الغائب فاخبار الجن لا بد ان تكذب فانه من طلب منهم الاخبار بالمغيب كان من جنس الكهان وكذبوه في بعض ما يخبرون به وان كانوا صادقين في البعض وقد ثبت في الصحيح «ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الكهان فقيل له ان منا قوماً يأتون الكهان قال فلا يأتوهم» وثبت عنه في الصحيح انه قال « من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوما» وفي السنن عنه انه قال «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد مازاد» والنبى صلى الله عليه وسلم لما اسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى لم يكن المقصود مجرد وصوله الى الاقصى بل المقصود ما ذكره الله بقوله (لنريه من آياتنا) كما قال في سورة النجم [ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصروما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى] وما رآه مختص بالانبياء لا يكون ذلك لمن خالفهم ولايريه الله تعالى ما أراه محمداً حين أسرى به وكذلك صلاته بالانبياء في المسجد الاقصى وركوبه على البراق هذا كله من خصائص الانبياء والذين تحملهم الجن وتطيربهم من مكان الى مكان أكثرهم لا يدرى كيف حمل بل يحمل الرجل الى عرفات ويرجع ومايدرى كيف حملته الشياطين ولا يدعونه يفعل ماأمرالله به كما أمرالله به بل قد يقف بعرفات من غير احرام ولا اتمام مناسك الحج وقد يذهبون به الى مكة ويطوف بالبيت من غير احرام اذا حاذى الميقات وذلك واجب في أحد قولى العلماء ومستحب في الآخر فيفوته المشروع أويوقعونه في الذنب ويغرونه بأن هذا من كرامات الصالحين وليس هو ممايكرم الله به وليه بل هو مما أضلته به الشياطين وأوهمته أن ما فعله قربة وطاعة أويكون صاحبه له عند الله منزلة عظيمة



وليس هو قربة وطاعة وصاحبه لايزداد بذلك منزلة عند الله فان التقرب الى الله انما يكون بواجب أومستحب وهذا ليس بواجب ولامستحب بل يضلون صاحبه ويصدونه عن تكميل مايحبه الله منه من عبادته وطاعته وطاعة رسوله ويوهمونه أن هذا من أفضل الكرامات حتى يبقى طالبا له عاملا عليه وهم بسبب اعانتهم له على ذلك قد استعملوه في بعض مايريدون مما ينقص قدره عند الله أو وقوعه في ذنوب وان لم يعرف أنها ذنوب فيكون ضالا ناقصاً وان غفر له ذلك لعدم علمه فانه نقص درجته وخفض منزلته بذلك الذى أوهموه أنه رفع درجته وأعلا منزلته وهذا من جنس ماتفعله السحرة فان الساحر قد يصعد في الهواء والناس ينظرونه وقد يركب شيئاً من الجمادات اما قصبة واما خابية واما مكنسة واما غير ذلك فيصعد به في الهواء وذلك أن الشياطين تحمله وتفعل الشياطين هذا ونحوه بكثير من العباد والضلال من عباد المشركين وأهل الكتاب والضلال من المسلمين فيحملهم من مكان الى مكان وقد يرى أحدهم بما يركبه امافرس واما غيره وهو شيطان تصور له في صورة مركوب وقد يرى أنه يمشى في الهواء من غير مركوب والشيطان قد حمله والحكايات في هذا كثيرة معروفة عند من يعرف هذا الباب ونحن نعرف من هذا أمورا يطول وصفها وكذلك المشى على الماء قد يجعل له الجن مايمشى عليه وهو يظن أنه يمشى على الماء وقد يخيلون اليه أنه التقى طرفا النهر ليعبر والنهر لم يتغير في نفسه ولكن خيلوا اليه ذلك وليس في هذا ولله الحمد شيء من جنس معجزات الانبياء وقد يمشى على الماء قوم بتأييد الله لهم واعانته اياهم بالملائكة كما يحكى عن المسيح وكما جرى للعلاء بن الحضرمى ولابى مسلم الخولانى في عبور الجيش وذلك اعانة على الجهاد في سبيل الله كما يؤيد الله المؤمنين بالملائكة ليس هو من فعل الشياطين والفرق بينهما من جهة السبب ومن جهة الغاية أما السبب فان الصالحين يسمون الله ويذكرونه ويفعلون ما يحبه الله من توحيده وطاعته فيسر لهم بذلك مايسره ومقصودهم به نصر الدين والاحسان الى المحتاجين وما تفعله الشياطين يحصل بسبب الشرك والكذب والفجور والمقصود به الاعانة على مثل ذلك والجن فيهم مسلم وكافر فالمسلمون منهم يعاونون الانس المسلمين كما يعاون المسلمون بعضهم بعضاً والكفار مع الكفار والجن الذين يطيعون الانس وتستخدمهم الانس ثلاثة أصناف أعلاها أن يأمروهم بما أمر الله به

ورسله فيأمرونهم بعبادة الله وحده وطاعة رسله فان الله أوجب على الجن طاعة الرسل كما أجب ذلك على الانس وقال تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ماشاء الله ان ربك حكيم عليم وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ولكل درجات مما عملوا وماربك بغافل عما يعملون) فالرسل تكون من الانس الى الثقلين والنذر من الجن باتفاق العلماء واختلفوا هل يكون في الجن رسل والا كثرون على أنه لا رسل فيهم كما قال تعالى [وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى] وعن الحسن البصرى قال لم يبعث الله نبيا من أهل البادية ولا من الجن ولا من النساء ذكره عنه طائفة منهم البغوى وابن الجوزى وقال قتادة ما نعلم ان الله ارسل رسولا قط الا من أهل القرى لانهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمور رواه ابن أبى حاتم وذكره طائفة ✡ ونبينا محمد ﷺ قد أرسل الى الثقلين وقد آمن به من آمن من جن نصيبين فسمعوا القرآن وولوا الى قومهم منذرين ثم أتوا فبايعوه على الاسلام بشعب معروف بمكة بين الابطح وبين جبل حراء وسألوه الطعام لهم ولدوابهم فقال لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه أوفر مايكون لحما وكل بعرة علف لدوابكم قال النبى ﷺ فلا تستنجوا بهما فانهما زاد اخوانكم من الجن والاحاديث بذلك كثيرة مشهورة في الصحيح والسنن والمسند وكتب التفسير والفقه وغيرها وقد روى الترمذى وغيره أنه قرأ عليهم سورة الرحمن وهي خطاب للثقلين وقد اتفق العلماء على ان كفارهم يدخلون النار كما أخبر الله بذلك في قوله [قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها] وقال الله تعالى (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وقال (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وأما مؤمنوهم فاكثر العلماء على أنهم يدخلون الجنة وقال طائفة بل يصيرون ترابا كالدواب والاول أصح وهو قول الاوزاعى وابن أبى ليلى وأبى يوسف ومحمد ونقل ذلك عن مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وهو قول أصحابهم

واحتج عليه الاوزاعى وغيره بقوله ولكل درجات مما عملوا بعد ذكره أهل الجنة وأهل النار من الجن والانس كما قال في سورة الانعام وفي الاحقاف ولكل درجات مما عملوا بعد ذكر أهل الجنة والنار قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم درجات أهل النار تذهب سفولا ودرجات أهل الجنة تذهب صعودا فنبينا صلى الله عليه وسلم هو مع الجن كما هو مع الانس والانس معه اما مؤمن به واما مسلم له واما مسالم له واما خائف منه كذلك الجن منهم المؤمن به ومنهم المسلم له مع نفاق ومنهم المعاهد المسالم لمؤمنى الجن ومنهم الحربى الخائف من المؤمنين وكان هذا أفضل مما أوتيه سليمان فان الله سخر الجن لسليمان تطيعه طاعة الملوك فان سليمان كان نبيا ملكا مثل داود ويوسف وأما محمد فهو عبد رسول مثل ابراهيم وموسى وعيسى وهؤلاء أفضل من أولئك فأولياء الله المتبعون لمحمد انما يستخدمون الجن كما يستخدمون الانس في عبادة الله وطاعته كما كان محمد صلى الله عليه وسلم يستعمل الانس والجن لا في غرض له غير ذلك ومن الناس من يستخدم من يستخدمه من الانس في أمور مباحة كذلك فيهم من يستخدم الجن في أمور مباحة لكن هؤلاء لا يخدمهم الانس والجن الا بعوض مثل أن يخدموهم كما يخدمونهم أو يعينونهم على بعض مقاصدهم والا فليس أحد من الانس والجن يفعل شيئاً الا لغرض والانس والجن اذا خدموا الرجل الصالح فى بعض أغراضه المباحة فاما أن يكونوا مخلصين يطلبون الاجر من الله والا طلبوه منه اما دعاؤه لهم واما نفعه لهم بجاهه أو غير ذلك ﴿والقسم الثالث﴾ أن يستخدم الجن في أمور محظورة أو بأسباب محظورة مثل قتل نفس وامراضها بغير حق ومثل منع شخص من الوطء ومثل تبغيض شخص الى شخص ومثل جلب من يهواه الشخص اليه فهذا من السحر وقد يقع مثله لكثير من الناس ولا يعرف السحر بل يكون موافقا للشياطين على بعض أغراضهم مثل شرك أو بدعة وضلالة أو ظلم أو فاحشة فيخدمونه ليفعل ما يهوونه وهذا كثير في عباد المشركين وأهل الكتاب وأهل الضلال من المسلمين وكثير من هؤلاء لا يعرف أن ذلك من الشياطين بل يظنه من كرامات الصالحين ومنهم من يعرف أنه من الشياطين ويرى أنه بذلك حصل له ملك وطاعة ونيل ما يشتهيه من الرياسة والشهوات وقتل عدوه فيدخل في ذلك كما تدخل الملوك الظلمة في أغراضهم وليس أحد من الناس تطيعه الجن طاعة مطلقة كما كانت تطيع سليمان بتسخير من الله وأمر منه من غير معاوضة كما أن الطير كانت تطيعه والريح قال

تعالى (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور) والجن والانس فيهم المؤمن المطيع والمسلم الجاهل أو المنافق أو العاصى وفيهم الكافر وكل ضرب يميل الى بنى جنسه والذى أعطاه الله تعالى لسليمان خارج عن قدرة الجن والانس فانه لايستطيع أحدا أن يسخر الجن مطلقاً لطاعته ولا يستخدم أحد منهم الا بمعاوضة اما عمل مذموم تحبه الجن واما قول تخضع له الشياطين كالاقسام والعزائم فان كل جنى فوقه من هو أعلى منه فقد يخدمون بعض الناس طاعة لمن فوقهم كما يخدم بعض الانس لمن أمرهم سلطانهم بخدمته لكتاب معه منه وهم كارهون طاعته وقد يأخذون منه ذلك الكتاب ولا يطيعونه وقد يقتلونه أو يمرضونه فكثير من الناس قتلته الجن كما يصرعونهم والصرع لاجل الزنا وتارة يقولون انه أذاهم اما بصب نجاسة عليهم واما بغير ذلك فيصرعونه صرع عقوبة وانتقام وتارة يفعلون ذلك عبثاً كما يعبث شياطين الانس بالناس والجن أعظم شيطنة وأقل عقلا وأكثر جهلا والجنى قد يحب الانسى كما يحب الانسى الانسى وكما يحب الرجل المرأة والمرأة الرجل ويغار عليه ويخدمه باشياء واذا صار مع غيره فقد يعاقبه بالقتل وغيره كل هذا واقع ثم الذى يخدمونه تارة يسرقون له شيئاً من أموال الناس مما لم يذكر اسم الله عليه ويأتونه اما بطعام واما شراب واما لباس واما نقد واما غير ذلك وتارة يأتونه في المفاوز بماء عذب وطعام وغير ذلك وليس شيء من ذلك من معجزات الانبياء ولا كرامات الصالحين فان ذلك انما يفعلونه بسبب شرك وظلم وفاحشة وهو لو كان مباحا لم يجز أن يفعل بهذا السبب فكيف اذا كان في نفسه ظلماً محرما لكونه من الظلم والفواحش ونحو ذلك وقد يخبرون بأمور غائبة مما رأوه وسمعوه ويدخلون في جوف الانسان قال النبى ﷺ «ان الشيطان يجرى من الانسان مجرى الدم» لكن انما سلطانهم كما قال الله (انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) ولما قال الشيطان (رب بما أغويتنى لازينن لهم في الارض ولاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين) قال الله تعالى (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان) ثم قال الآى لكن [من اتبعك من الغاوين وأن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم]

فأهل الاخلاص والايمان لا سلطان له عليهم ولهذا يهربون من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة ويهربون من قراءة آية الكرسى وآخر سورة البقرة وغير ذلك من قوارع القرآن ومن الجن من يخبر بأمور مستقبلة للكهان وغير الكهان مما يسرقونه من السمع والكهانة كانت ظاهرة كثيرة بأرض العرب فلما ظهر التوحيد هربت الشياطين وبطلت أو قلت ثم أنها تظهر في المواضع التى يخفى فيها أثر التوحيد وقد كان حول المدينة بعد أن هاجر النبى ﷺ كهان يتحاكمون اليهم وكان أبو بردة بن نيار كاهنا ثم أسلم بعد ذلك وهو من أسلم والاصنام لها شياطين كانت تتراآى للسدنة أحيانا وتكلمهم أحيانا قال أبى بن كعب مع كل صنم جنية وقال ابن عباس في كل صنم شيطان تتراآى للسدنة فتكلمهم والشياطين كما قال الله تقترن بما يجانسها بأهل الكذب والفجور قال تعالى [هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون] فكيف يجوز أن يقال ان مثل هذا يكون معجزة لنبى أو كرامة لولى وهذا يناقض الايمان ويضاده والانبياء والاولياء أعداء هؤلاء قال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وقال تعالى [ألم أعهد اليكم يابنى آدم ان لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون) وهذا يظهر الفرق بين اخبار الانبياء عن الغيب ما لا سبيل لمخلوق الى علمه الا منه كما قال تعالى [عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عدداً] فقوله على غيبه هو غيبه الذى اختص به وأما مايعلمه بعض المخلوقين فهو غيب عمن لم يعلمه وهو شهادة لمن علمه فهذا أيضاً تخبر منه الانبياء بما لا يمكن الشياطين ان تخبر به كما في أخبار المسيح بقوله [وأنبئكم بما تاكلون وماتدخرون في بيوتكم] فان الجن قد يخبرون بما يأكله بعض الناس وبما يدخرونه لكن الشياطين انما تتسلط على من لا يذكر اسم الله كالذى لا يذكر اسم الله اذا دخل فيدخلون معه وان لم يذكر اسم الله اذا أكل فانهم يأكلون معه وكذلك اذا ادخر شيئاً ولم يذكر اسم الله عليه عرفوا به وقد يسرقون بعضه كما جرى هذا لكثير من الناس وأما من يذكر اسم الله على طعامه وعلى ما يختاره فلا سلطان

لهم عليه لا يعرفون ذلك ولا يستطيعون أخذه. والمسيح عليه السلام كان يخبر المؤمنين بما يأكلون وما يدخرون مما ذكر اسم الله عليه والشياطين لا تعلم به ولهذا من يكون اخباره عن شياطين تخبره لا يكاشف أهل الايمان والتوحيد وأهل القلوب المنورة بنور الله بل يهرب منهم ويعترف أنه لا يكاشف هؤلاء وأمثالهم وتعترف الجن والانس الذين خوارقهم بمعاونة الجن لهم أنهم لا يمكنهم أن يظهروا هذه الخوارق بحضرة أهل الايمان والقرآن ويقولون أحوالنا لا تظهر قدام الشرع والكتاب والسنة وانما تظهر عند الكفار والفجار وهذا لان أولئك أولياء الشياطين ولهم شياطين يعاونون شياطين المخدومين ويتفقون على ما يفعلونه من الخوارق الشيطانية كدخول النار مع كونها لم تصر عليهم برداً وسلاما (فان الخليل لما ألقى في النار صارت عليه برداً وسلاما وكذلك أبو مسلم الخولانى لما قال له الاسود العنسى المتنبى أتشهد انى رسول الله قال ما أسمع قال أتشهد أن محمداً رسول الله قال نعم فأمر بنار فأوقدت له وألقى فيها فجاؤا اليه فوجدوه يصلى فيها وقد صارت عليه برداً وسلاما فقدم المدينة بعد موت النبى ﷺ وأخذه عمر فأجلسه بينه وبين أبي بكر وقال الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى في أمة محمد من فعل به كما فعل بابراهيم . وأما اخوان الشياطين فاذا دخلت فيهم الشياطين فقد يدخلون النار ولا تحرقهم كما يضرب أحدهم ألف سوط ولا يحس بذلك فان الشياطين تلتقى ذلك وهذا أمر كثير معروف قد رأينا من ذلك ما يطول وصفه وقد ضربنا نحن من الشياطين في الانس ما شاء الله حتى خرجوا من الانس ولم يعاودوه وفيهم من يخرج بالذكر والقرآن وفيهم من يخرج بالوعظ والتخويف وفيهم من لا يخرج الا بالعقوبة كالانس فهؤلاء الشياطين اذا كانوا مع جنسهم الذين لا يهابونهم فعلوا هذه الامور وأما اذا كانوا عند أهل ايمان وتوحيد وفي بيوت الله التى يذكر فيها سمه لم يجترئوا على ذلك بل يخافون الرجل الصالح أعظم مما تخافه فجار الانس ولهذا لا يمكنهم عمل سماع المكاء والتصدية في المساجد المعمورة بذكر الله ولا بين أهل الايمان والشريعة المتبعين للرسول انما يمكنهم ذلك في الاماكن التى تأتيها الشياطين كالمساجد المهجورة والمشاهد والمقابر والحمامات والمواخير فالمواضع التى نهى النبى ﷺ عن الصلاة فيها كالمقبرة واعطان الابل والحمام وغيرها فتكون حال هؤلاء

فيها أقوى لأنها مواضع الشياطين كالماخورة والمزبلة والحمام ونحو ذلك بخلاف الامكنة التى ظهر فيها الايمان والقرآن والتوحيد التى أثنى الله على أهلها وقال فيهم (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولاغربية يكاد زيتها يضىء ولولم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) فهذه أمكنة النور والصالحين والملائكة لا تتسلط عليها الشياطين بكل ماتريد بل كيدهم فيها ضعيف كما أن كيدهم في شهر رمضان ضعيف اذ كانوا فيه يسلسلون لكن لم يبطل فعلهم بالكلية بل ضعف فشرهم فيه على أهل الصوم قليل بخلاف أهل الشراب وأهل الظلمات فان الشياطين هنالك محالهم وهم يحبون الظلمة ويكرهون النور ولهذا ينتشرون بالليل كما جاء في الحديث الصحيح ولهذا أمر الله بالتعوذ من شر غاسق اذا وقب . وخوارق الجن كالاخبار ببعض الامور الغائبة وكالتصرفات الموافقة لاغراض بعض الانس كثيرة معروفة في جميع الامم فقد كانت في العرب كثيرة وكذلك في الهند وفي الترك والفرس والبربر وسائر الامم فهى أمور معتادة للجن والانس وآيات الانبياء كما تقدم خارجة عن مقدور الانس والجن فانهم مبعوثون الى الانس والجن فيمتنع أن تكون آياتهم أموراً معروفة فيمن بعثوا اليه اذ يقال هذه موجودة كثيراً للانس فلا تختص بها الانبياء بل هذه الخوارق هي آية وعلامة على فجور صاحبها وكذبه فهى ضد آيات الانبياء التى تستلزم صدق صاحبها وعدله ولهذا يكون كثير من الذين تخدمهم الشياطين من أهل الشياطين وهذا معروف لكثير ممن تخدمه الشياطين بل من طوائف المخدومين من يكونون كلهم من هذا الباب كالبوبى الذى للترك وأكثر المؤلهين من هذا الباب وهم يصعدون بهم في الهواء ويدخلون المدن والحصون بالليل والابواب مغلقة ويدخلون على كثير من رؤساء الناس ويظنون أن هؤلاء صالحون قدطاروا في الهواء ولا يعرف

أن الجن طارت بهم وهذه الاحوال الشيطانية تبطل أوتضعف اذا ذكر الله وتوحيده وقرئت قوارع القرآن لاسيما آية الكرسى فانها تبطل عامة هذه الخوارق الشيطانية وأما آيات الانبياء والاولياء فتقوى بذكر الله وتوحيده والجن المؤمنون قد يعينون المؤمنين بشىء من الخوارق كما يعين الانس المؤمنون للمؤمنين بما يمكنهم من الاعانة وما لايكون الامع الاقرار بنبوة الانبياء فهو من آياتهم فوجوده يؤيد آياتهم لايناقضها مع أن آيات الانبياء التى يدعون أعلى من هذا وأعلى من كرامات الاولياء فان تلك هي الآيات الكبرى والذين ذكر عنهم انكار كرامات الاولياء من المعتزلة وغيرهم كأبى اسحق الاسفرايني وأبى محمد بن أبى زيد وكما ذكر ذلك أبو محمد بن حزم لاينكرون الدعوات المجابه ولا ينكرون الرؤيا الصادقة فان هذا متفق عليه بين المسلمين وهو أن الله تعالى قد يخص بعض عباده باجابة دعائه أكثر من بعض ويخص بعضهم بما يريه من المبشرات وقد كان سعد بن أبى وقاص معروفا باجابة الدعاء فان النبى ﷺ قال « اللهم سدد رميته وأجب دعوته» وحكاياته في ذلك مشهورة وقد ثبت في الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « لم يبق بعدى من النبوة الا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح او ترى له» وثبت عنه في الصحيح أنه قال « ان من عباد الله من لو أقسم على الله لابره» ذكر ذلك لما أقسم أنس بن النضر انه لا تكسر ثنية الربيع فاستجاب الله ذلك وأيضا فان منهم البراء بن مالك اخو أنس بن مالك وكانوا اذا اشتد الحرب يقولون يا براء أقسم على ربك فيقسم على ربه فينصرون . والقسم قيل هو من جنس الدعاء لكن هو طلب مؤكد بالقسم فالسائل يخضع ويقول اعطنى والمقسم يقول عليك لتعطينى وهو خاضع سائل لكن من الناس من يدعى له من الكرامات ما لا يجوز ان يكون للانبياء كقول بعضهم ان لله عباداً لو شاءوا من الله ان لا يقيم القيامة لما أقامها . وقول بعضهم انه يعطى كن أى شىء أراده قال له كن فيكون وقول بعضهم لا يعزب عن قدرته ممكن كما لا يعزب عن قدرة ربه محال فانه لما كثر في الغلاة من يقول بالحلول والاتحاد والهية بعض البشر كما قاله النصارى في المسيح صاروا يجعلون ما هو من خصائص الربوبية لبعض البشر وهذا كفر وأيضا فان كثيراً من الناس لا يكون من أهل الصلاح وتكون له خوارق شيطانية كما لعباد المشركين وأهل الكتاب فتنجلى لهم على أنها كرامات فمن

الناس من يكذب بها ومنهم من يجعل أهلها من أولياء الله وذلك لان الطائفتين ظنت أن مثل هذه الخوارق لايكون الا لاولياء الله ولم يميزوا بين الخوارق الشيطانية التى هي جنس ما للسحرة والكهان ولعباد المشركين وأهل الكتاب وللمتنبئين الكذابين وبين الكرامات الرحمانية التى يكرم الله بها عباده الصالحين فلما لم يميزوا بين هذا وهذا وكان كثير من الكفار والفجار وأهل الضلال والبدع لهم خوارق شيطانية صار هؤلاء منهم حزبين حزبا قد شاهدوا ذلك وأخبرهم به من يعرفون صدقه فقالوا هؤلاء اولياء الله وحزبا رأوا ان أولئك خارجون عن الشريعة وعن طاعة الله ورسوله فقالوا ليس هؤلاء من الاولياء الذين لهم كرامات فكذبوا بوجود ما رآه أولئك وأولئك قد عاينوا ذلك أوتواتر عندهم فصار تكذيب هؤلاء مثل تكذيب من ينكر السحر والكهانة والجن وصرعهم للانس اذا كذب ذلك عند من رأى ذلك أو ثبت عنده ومن كذب بما تيقن غيره وجوده نقصت حرمته عند هذا المتيقن وكان عنده اما جاهلا واما معانداً فربما رد عليه كثيراً من الحق بسبب ذلك ولهذا صار كثير من المنتسبين الى زهد أوفقر أوتصوف أووله أوغير ذلك لايقبلون قولهم ولا يعبأون بخلافهم لانهم كذبوا بحق قد تيقنه هؤلاء وأنكروا وجوده وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وقد يدخلون انكار ذلك في الشرع كما ادخلت المعتزلة ونحوهم انكار كرامات الاولياء وانكار السحر والكهانة في الشرع بناء على أن ذلك يقدح في آيات الانبياء فجمعوا بين التكذيب بهذه الامور الموجودة وبين عدم العلم بآيات الانبياء والفرق بينها وبين غيرها حيث ظنوا أن هذه الخوارق الشيطانية من جنس آيات الانبياء وأنها نظير لها فلو وقعت لم يكن للانبياء ما يتميزون به والذين ردوا على هؤلاء من الاشعرية ونحوهم يشاركونهم في هذا فى التسوية بين الجنسين وأنه لا فرق لكن هؤلاء لما تيقنوا وجودها جعلوا الفرق ما ليس بفرق وهو اقترانها بالدعوى والتحدى بمثلها وعدم المعارضة وهم يقولون أنا نعلم بالضرورة ان الرب انما خلقها لتصديق النبى وهذا كلام صحيح لكنه يستلزم بطلان ما أصلوه من أنه لا يخلق شيئا لشيء وأيضا فاختصاصها بوجود العلم الضرورى عندها دون غيرها لابد أن يكون لامر أوجب التخصيص وهم يقولون بل قد تستوى الامور ويوجد العلم الضرورى ببعضها دون بعض كما قالوا مثل ذلك

في العادات أنه يجوز انخراقها كلها بلا سبب على أعظم الوجوه كجعل الجبال يواقيت لكن يعلم بالضرورة أن هذا لا يقع فكذلك قالوا في المعجزات يجوز أن يخلقها على يد كاذب (١) انما خلقها على يد الصادق بما ادعى من العلم الضرورى صحيح وأما قولهم ان المعلوم به يماثل غيره فغلط عظيم بل هم لم يعرفوا الفرق بمنزلة العامى الذى أوردت عليه شبهات السوفسطائية فهو يعلم بالضرورة أنها باطلة ولكن لا يعرف الفرق بينها وبين الحق ولكن العامى يقول فيها فساد لا أعرفه لا يقول دلائل الحق كدلائل الباطل وهؤلاء ادعوا الاستواء في نفس الامر فغلطوا غلطاً عظيما ولو قالوا بينهما فرق لكنه لم يتلخص لنا لكان قولهم حقا وكانوا قد ذكروا عدم العلم لا العلم بالعدم كما يقول ذلك كثير من الناس يقول ما أعرف الفرق بينهما وذلك أن العلم الضرورى يحصل ببعض الاخبار دون بعض وقد قيل انا نعلم أنه متواتر بحصول علمنا الضرورى به والتحقيق أنه اذا حصل له علم ضرورى كان قد حصل الخبر الذى يوجبه لهم وقد لا يحصل لغيرهم والعلم يحصل بعدد المخبرين وبصفاتهم وبأمور أخرى تنضم الى الخبر ومن جعل الاعتبار بمجرد العدد فقد غلط والاكثرون يقولون العلم الحاصل به ضرورى وقيل انه نظرى وهو اختيار الكعبي وأبى الحسين وأبى الخطاب والتحقيق أنه قد يكون ضرورياً وقد يكون نظرياً وقد يجتمع فيه الامران يكون ضرورياً ثم اذا نظر فيه وجد أنه يوجب العلم وكذلك العلم الحاصل عقب الآيات قد يكون ضروريا وقد يكون نظريا وكل نظرى فان منتهاه انه ضرورى ولهذا قال أبو المعالى المرتضى عندنا أن جميع العلوم ضرورية أى بعد حصول أسبابها ولابد من فرق في نفس الامر بين ما يوجب العلم وما لا يوجبه وأصل خطأ الطائفتين أنهم لم يعرفوا آيات الانبياء وما خصهم الله به ولم يقدروا قدر النبوة ولم يقدروا آيات الانبياء قدرها بل جعلوا هذه الخوارق الشيطانية من جنسها فاما ان يكذبوا بوجودها واما ان يسووا بينها ويدعوا فرقا لا حقيقة له ولهذا يوجد كثير ممن يكذب بهذه الخوارق الشيطانية أن تكون لبعض الاشخاص لما يراه من نقص دينه وعلمه فاذا عاينها بعد ذلك أوثبت عنده خضع لذلك الشخص الذى كان عنده اما كافرا واما

---

(١) بياض في الاصل مقدار نصف سطر ☆

ضالا واما مبتدعا جاهلا وذلك لانه انكر وجودها معتقدا انها لاتوجد الا للصالحين فلما تيقن وجودها جعلها دليلا على الصلاح وهو غالط في الاصل بل هذه من الشياطين من جنس ماللسحرة والكهان ومن جنس ما للكفار من المشركين وأهل الكتاب فان لمشركى الهند والترك وغيرهم ولعباد النصارى من هذه الخوارق الشيطانية أموراً كثيرة يطول وصفها أكثر وأعظم من اكثر مما يوجد منها لاهل الضلال والبدع من المسلمين وما يوجد منها للمنافقين فان الشياطين لا تتمكن من اغواء المسلمين وان كان فيهم جهل وظلم كما تتمكن من أغواء المشركين وأهل الكتاب ولهذا تنى في القرآن قصة موسى مع السحرة وذكر ما يقوله الكفار لانبيائهم فانه ماجاء نبى صادق قط الا قيل فيه انه ساحر أومجنون كماقال تعالى (كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول الاقالوا ساحر أومجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون) وذلك ان الرسول يأتى بمايخالف عاداتهم ويفعل مايرونه غير نافع ويترك ما يرونه نافعا وهذا فعل المجنون فان المجنون فاسد العلم والقصد ومن كان مبلغه من العلم ارادة الحياة الدنيا كان عنده من ترك ذلك وطلب ما لا يعلمه مجنونا ثم النبى مع هذا يأتى بأمور خارجة عن قدرة الناس من اعلام بالغيوب وأمور خارقة لعاداتهم فيقولون هو ساحر وهذا موجود في المنافقين الملحدين المتظاهرين بالاسلام من الفلاسفة ونحوهم يقولون ان ما أخبرت به الانبياء من الغيوب والجنة والنار هو من جنس قول المجانين وعندهم خوارقهم من جنس خوارق السحرة والممرورين المجانين كما ذكر ابن سينا وغيره لكن الفرق بينهما أن النبي حسن القصد بخلاف الساحر وانه يعلم ما يقول بخلاف المجنون لكن معجزات الانبياء عندهم قوى نفسانية ليس مع هذا ولا هذا شىء خارج عن قوة النفس والقاضيان أبو بكر وأبو يعلى ومن وافقهما متوقفون في وجود المخدوم الذى تخدمه الجن قالوا لا يقطع بوجوده وكذلك الكاهن ذكروا فيه القولين قول من يقول انه المتخرص وقول من يقول انه مخدوم وهم متوقفون فيه لا يقطعون بوجود مخدوم كاهن كما يقطعون بوجود الساحر لانه في زمانهم وجد الساحر والقرآن أخبرنا بالسحر في سورة البقرة بخلاف الكاهن فان القرآن ذكر اسمه ولو تدبروا لعلموا أن الكاهن هو المذكور في قوله (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وا كثرهم

كاذبون) وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قيل له « ان منا قوما يأتون الكهان قال فلا يأتوهم» وسئل عن الكهان وما يخبرون به فأخبر أن الجن تسترق السمع وتخبرهم به فالكتاب والسنة أثبتا وجود الكاهن وأحمد قد نص على أنه يقتل كالساحر لكن الكاهن انما عنده أخبار والساحر عنده تصرف بقتل وامراض وغير ذلك وهذا تطلبه النفوس أكثر وابن صياد كان كاهنا ولهذا قال له النبي صلى الله عليه وسلم « قد خبأت لك خبيا فقال الدخ فقال اخسأ فلن تعدو قدرك انما أنت من اخوان الكهان ولما قضى في الجنين بغرة قال حمل بن مالك أيودى من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل فمثل ذلك يطل فقال انما أنت من أخوان الكهان » من أجل سجعه الذى سجع فكانوا يسجعون أساجيع وقد رأيت من هؤلاء شيوخاً يسجعون أساجيع كأساجيع الكهان ويكون كثير منها صدقا ولهذا جمع الله بين الكاهن والشاعر في قوله (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين) وكذلك في الشعراء ذكر الكاهن والشاعر بعد قوله (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) الى قوله (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك اثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) والرسول فى آية الحاقة محمد وقال أيضاً [انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالافق المبين وماهو على الغيب بظنين وماهو بقول شيطان رجيم فاين تذهبون ان هو الا ذكر للعالمين] فلما أخبر به أنه قول رسول هو ملك من الملائكة نفى أن يكون قول شيطان ولما أخبر هناك أنه قول رسول من البشر نفى أن يكون قول شاعر أو كاهن فهذا تنزيه للقرآن نفسه ونزه الرسول أن يكون على الغيب بظنين أى متهم وان يكون بمجنون فالجنون فساد في العلم والتهمة فساد في القصد كما قالوا ساحر أو مجنون وقال في الطور (فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فانى معكم من المتربصين) وقد أخبر عن الانبياء قبله أنه ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون ولم يقولوا كاهن لان الكاهن عند العرب هو الذى يتكلم بكلام مسجوع وله قرين من الجن وهذا الاسم ليس بذم عند أهل الكتاب بل يسمون أكثر العلماء بهذا الاسم ويسمون هرون وأولاده الذين عندهم

التوراة بهذا الاسم والقدر المشترك العلم بالامور الغائبة والحكم بها فعلماء أهل الكتاب يخبرون بالغيب ويحكمون به من الوحى الذى أوحاه الله وكهان العرب كانت تفعل ذلك عن وحى الشياطين وتمتاز بانها تسجع الكلام بخلاف اسم الساحر فانه اسم معروف في جميع الامم وقد يدخل في ذلك عندهم المخدوم الذى تخبره الشياطين ببعض الامور الغائبة ولكون الساحر يأتى بالخوارق شبهوا النبى وقالوا ساحر فدل ذلك على قدر مشترك لكن الفرقان بينهما أعظم كالفرق بين الملائكة والشياطين وأهل الجنة وأهل النار وخيار الناس وشرارهم وهذا أعظم الفروق بين الحق والباطل والكفار قالوا عن الانبياء انهم مجانين وسحرة فكما يعلم بضرورة العقل من وجود أعظم الفرق بينهم وبين المجانين وانهم أعقل الناس وأبعدهم عن الجنون فكذلك يعلم بضرورة العقل أعظم الفرق بينهم وبين السحرة وانهم أفضل الناس وأبعدهم عن السحر فالساحر يفسد الادراك حتى يسمع الانسان الشىء ويراه ويتصور خلاف ما هو عليه والانبياء يصححون سمع الانسان وبصره وعقله والذين خالفوهم صم بكم عمى فهم لا يعقلون فالسحرة يزيدون الناس عمى وصما وبكما والانبياء يرفعون عماهم وصممهم وبكمهم كما في الصحيح عن عطاء بن يسار أنه سال عبد الله بن عمر وروى عبد الله بن سلام أنه قيل له أخبرنا ببعض صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال أنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن (يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشراً ونذيراً) وحرزا للاميين أنت عبدى سميتك المتوكل لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالاسواق ولا تجزى بالسيئة السيئة ولكن تجزى بالسيئة الحسنة وتعفو وتغفر ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فافتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا بان يقولوا لا اله الا الله وهذا مذكور عند أهل الكتاب في نبوة أشعيا ولفظ التوراة قد يراد به جميع الكتب التى نزلت قبل الانجيل فيقال التوراة والانجيل ويراد بالتوراة الكتاب الذى جاء به موسى وما بعده من نبوة الانبياء المتبعين لكتاب موسى قد يسمى هذا كله توراة فان التوراة تفسر بالشريعة فكل من دان بشريعة التوراة قيل لنبوته انها من التوراة وكثير مما يعزوه كعب الاحبار ونحوه الى التوراة هو من هذا الباب لا يختص ذلك بالكتاب المنزل على موسى كلفظ الشريعة عند المسلمين يتناول القرآن والاحاديث النبوية وما استخرج من ذلك

كما قد بسط هذا في موضع آخر (والمقصود هنا) أن الانبياء يفتحون الاعين العمى والآذان الصم والقلوب الغلف والسحرة يفسدون السمع والبصر والعقل حتى يخيل للانسان الاشياء بخلاف ما هى عليه فيتغير حسه وعقله قال في قصة موسى (سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم) وهذا يقتضى أن أعين الناس قد حصل فيها تغير ولهذا قال تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) فقد علموا أن السحر يغير الاحساس كما يوجب المرض والقتل وهذا كله من جنس مقدور الانس فان الانسان يقدر أن يفعل في غيره ما يفسد ادراكه وما يمرضه ويقتله فهذا مع كونه ظلماً وشراً هو من جنس مقدور البشر والجنى اذا أراد أن يرى قرينه أموراً غائبة سئل عنها مثلها له فاذا سئل عن المسروق أراه شكل ذلك المال واذا سئل عن شخص أراه صورته ونحو ذلك وقد يظن الرائى انه رأى عينه وانما رأى نظيره وقد يتمثل الجنى في صورة الانسى حتى يظن الظان أنه الانسى وهذا كثير كما تصور لقريش في صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان من أشراف بنى كنانة قال تعالى [واذا زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وأنى جار لكم] الآية فلما عاين الملائكة ولى هاربا ولما رجعوا ذكروا ذلك لسراقة فقال والله ما علمت بحربكم حتى بلغتنى هزيمتكم وهذا واقع كثيراً حتى أنه يتصور لمن يعظم شخصاً في صورته فاذا استغاث به أتاه فيظن ذلك الشخص أنه شيخه الميت وقد يقول له انه بعض الانبياء أو بعض الصحابة الاموات ويكون هو الشيطان وكثيراً من الناس أهل العبادة والزهد من يأتيه في اليقظة من يقول انه رسول الله ويظن ذلك حقا ومن يرى اذا زار بعض قبور الانبياء أو الصالحين أن صاحب القبر قد خرج اليه فيظن انه صاحب القبر ذلك النبى أو الرجل الصالح وانما هو شيطان أتى في صورته ان كان يعرفها والا أتى في صورة انسان وقال انه ذلك الميت وكذلك يأتى كثيراً من الناس في مواضع ويقول انه الخضر فاعتقد انه الخضر وانما كان جنياً من الجن ولهذا لم يجترىء الشيطان على أن يقول لاحد من الصحابة أنه الخضر ولا قال أحد من الصحابة انى رأيت

الخضر وانما وقع هذا بعد الصحابة وكلما تأخر الامر كثرحتى انه يأتى اليهود والنصارى ويقول انه الخضر ولليهود كنيسة معروفة بكنيسة الخضر وكثير من كنائس النصارى يقصدها هذا الخضر والخضر الذى يأتى هذا الشخص غير الخضر الذى يأتى هـذا ولهـذا يقول من يقول منهم لـكل ولى خضر وانما هو جنى معه والذين يدعون الكواكب تتنزل عليهم أشخاص يسمونها روحانية الكواكب وهو شيطان نزل عليه لما أشرك ليغويه كما تدخل الشياطين في الاصنام وتكلم أحياناً لبعض الناس وتتراآى للسدنة أحيانا ولغيرهم أيضاً وقد يستغيث المشرك لشيخ له غائب فيحكى الجنى صوته لذلك الشيخ حتى يظن أنه سمع صوت ذلك المريد مع بعد المسافةبينهما ثم ان الشيخ يجيبه فيحكى الجنى صـوت الشيخ للمريد حتى يظن أن شيخه سمع صوته وأجابه والا فصوت الانسان يمتنع أن يبلغ مسيرة يوم ويومين وأكثر وقد يحصل للمريد من يؤذيه فيدفعه الجنى ويخيل للمريد أن الشيخ هو دفعه وقد يضرب الرجل بحجر فيدفعه عنه الجنى ثم يصيب الشيخ بمثل ذلك حتى يقول انى اتقيت عنك الضرب وهذا أثره في وقد يكونون يأكلون طعاماً فيصور نظيره للشيخ ويجعل يده فيـه ويجعل الشيطان يده في طعام أولئك حتى يتوهم الشيخ وهم أن يد الشيخ امتدت من الشام الى مصر وصارت في ذلك الاناء وعمر بن الخطاب لما نادى ياسارية الجبل قال ان لله جنداً يبلغونهم صوتى فعلم ان صوته انما يبلغ بما ييسره الله من تبليغ بعض الملائكة أو صالحى الجن فيهتفون بمثل صوته كالذى ينادى ابنه أو غير ابنه وهو بعيد لا يسمع يافلان فيسمعه من يريد ابلاغه فينادى يافلان فيسمع ذلك الصوت وهو المقصود بصوت أبيه والا فصوت البشر ليس في قوته أن يبلغ مسافة أيام وقد قلنا ان آيات لانبياء التى اختصوا بها خارجة عن قدرة الجن والانس قال تعالى (قل لئن اجتمعت لانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً] واما اذا كانت مما تقدر عليه الملائكة فهذا مما يؤيدها فان الملائكة لا يطيعون من يكذب على الله ولا يؤيدونه بالخوارق فاذا أيد به كما أيد الله به نبيه والمؤمنين يوم بدر ويوم حنين كان هذا من اعلام صدقه وأنه صادق على الله في دعوى النبوة فانها لا تؤيد الكذب لكن الشياطين تؤيد الكذاب والملائكة تؤيد الصدق والتأييد

بحسب الايمان فمن كان ايمانه أقوى من غيره كان جنده من الملائكة أقوى وان كان ايمانه ضعيفاً كانت ملائكته بحسب ذلك كملك الانسان وشيطانه فانه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال «ما منكم من أحد الا وكل به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن قالوا وبك يارسول الله قال وبي لكن الله اعانني عليه فاسلم» وفي حديث آخر «فلا يأمرني الا بخير» وهو في صحيح مسلم من وجهين: من حديث ابن مسعود. ومن حديث عائشة وقال ابن مسعود «ان للقلب لمة من الملك ولمة من الشيطان فلمة الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق ولمة الشيطان ايعاد بالشر وتكذيب بالحق فاذا كانت حسنات الانسان أقوى ايد بالملائكة تأييدا يقهر به الشيطان وان كانت سيئاته أقوى كان جند الشيطان معه أقوى وقد يلتقي شيطان المؤمن بشيطان الكافر فشيطان المؤمن مهزول ضعيف وشيطان الكافر سمين قوي» فكما أن الانسان بفجوره يؤيد شيطانه على ملكه وبصلاحه يؤيد ملكه على شيطانه فكذلك الشخصان يغلب أحدهما الآخر لان الآخر لم يؤيد ملكه فلم يؤيده أو ضعف عنه لانه ليس معه ايمان يعينه كالرجل الصالح اذا كان ابنه فاجرا لم يمكنه الدفع عنه لفجوره وبسط هذه الامور له موضع آخر (والمقصود هنا) الكلام على الفرق بين آيات الانبياء وغيرهم وان من قال ان آيات الانبياء والسحر والكهانة والكرامات وغير ذلك من جنس واحد فقد غلط أيضاً والطائفتان لم يعرفوا قدر آيات الانبياء بل جعلوها من هذا الجنس فهؤلاء نفوه وهؤلاء أثبتوه وذكروا فرقا لا حقيقة له واذا قال القائل آيات الانبياء لا يقدر عليها الا الله أو أن الله يخترعها ويبتدئها بقدرته أو أنها من فعل الفاعل المختار ونحو ذلك قيل له هذا كلام مجمل فقد يقال عن كل مايكون آية لا يقدر عليه الا الله أو أن الله يخترعها ويبتدئها بقدرته أو أنها من فعل الفاعل المختار ونحو ذلك قيل له هذا كلام مجمل فقد يقال عن كل ما يكون أنه لا يقدر عليه الا الله فان الله خالق كل شيء وغيره لا يستقل باحداث شيء وعلى هذا فلافرق بين المعجزات وغيرها وقد يقال لا يقدر عليها الا الله أي هي خارجة عن مقدورات العباد فان مقدوراته على قسمين منها ما يفعله بواسطة قدرة العبد كافعال العباد ومايصنعونه ومنها ما يفعله بدون ذلك كانزال المطر فان أراد هذا القائل أنها خارجة عن مقدور

الانس بمعنى أنه لا يقع منهم لا باعانة الجن ولا بغير ذلك فهذا كلام صحيح وان أراد أنه
خارج عن مقدورهم فقط وان كان مقدوراً للجن فهذا ليس بصحيح فان الرسل أرسلوا
الى الانس والجن والسحر والكهانة وغير ذلك تقدر الجن على ايصالها الى الانس وهى
مناقضة لآيات الانبياء كما قال تعالى [هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل
أفاك أثيم]وان أراد أنها خارجة عن مقدور الملائكة والانس والجن أو أن الله يفعلها
بلا سبب فهذا أيضاً باطل فمن أين له أن الله يخلقها بلا سبب ومن أين له أنه لا يخلقها
بواسطة الملائكة الذين هم رسله في عامة ما يخلقه فمن أين له أن جبريل لم ينفخ في مريم
حتى حملت بالمسيح وقد أخبر الله بذلك وهو وأمه مما جعلها آية للعالمين قال تعالى
(وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين) وخلق المسيح بلا
أب من أعظم الآيات وكان بواسطة نفخ جبريل قال تعالى [فأرسلنا اليها روحنا فتمثل
لها بشرا سوياً قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً قال انما أنا رسول ربك
ليهب [١] لك غلاماً زكياً قالت أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً] وقال
تعالى [ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا] وكذلك طمس
أبصار قوم لوط كان بواسطة الملائكة والذى عنده علم من الكتاب لما قال عفريت من
الجن لسليمان [انا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين قال الذى
عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك] أتته به الملائكة كذلك
ذكره المفسرون عن ابن عباس وغيره أن الملائكة أتته به أسرع مما كان يأتى به العفريت
وقد أخبر الله تعالى أنه أيد محمداً صلى الله عليه وسلم بالملائكة وبالريح وقال تعالى [فأرسلنا عليهم
ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً] وقال تعالى يوم حنين [فأنزل الله
سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها] وقال تعالى يوم الغار [فأنزل
الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها] وقال تعالى [اذ يوحى ربك الى الملائكة انى
معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب] وقد ثبت في الصحيح
«أن الانسان يصوره ملك في الرحم باذن الله ويقول الملك أى رب نطفة أى رب علقة

---

[١] قوله ليهب بالياء وهى قراءة أبى عمرو وورش وقالون والباقون يقرؤنها
لأهب بالهمزة بدل الياء ☆

أى رب مضغة »فاذا كان الخلق المعتاد يكون بتوسط الملائكة وقال يقرر التوحيد بقوله تعالى [يا أيها الناس اعبدوا ربكم] الآيات ثم النبوة بقوله [وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا ثم المعاد] وكذلك الانعام يقرر التوحيد ثم النبوة في وسطها ثم يختمها باصول الشرائع والتوحيد أيضاً وهو ملة ابراهيم وهذا مبسوط في غير هذا الموضع ﴿ والمقصود ﴾ انه قد بين انفراده بالخلق والنفع والضر والاتيان بالا يات وغير ذلك وان ذلك لا يقدر عليه غيره قال تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق)وقال تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السموات والارض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ وكذلك نفصل الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون اتبع ما أوحى اليك من ربك لا اله الا هو وأعرض عن المشركين ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله ومايشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) ففي هذه الآيات تقرير التوحيد حتى في انزال الآيات قال (انما الآيات عند الله) وكذلك قوله في العنكبوت (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السموات والارض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون] وقال أيضاً [وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل ان الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون] هذا بعد قوله [فان استطعت أن تبتغى نفقاً في الارض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) وهو أرسله بآيات بان بها الحق وقامت بها الحجة وكانوا يطلبون آيات تعنتا فيظن من

يظن أنهم يهتدون بها لكن لايحصل بها المقصود وقد تكون موجبة لعذاب الاستئصال فتكون ضرراً بلا نفع وبين سبحانه أنه قادر على انزال الآيات وانها ليست الا عنده وغير أفعال العباد قد اتفق الناس على أنه لا يخلقه الا الله وانما تنازعوا في أفعال العباد والصواب أنها أفعال لهم وهي مخلوقة لله لكن آيات الانبياء لا تكون مما يقدر عليه العبد كما قال [قل انما الآيات عند الله] والملائكة انما هي سبب من الاسباب كما في خلق المسيح من غير أب فجبريل انما كان مقدوره النفخ فيها وهذا لا يوجب الخلق بل هو بمنزلة الانزال في حق غير المسيح وكذلك المسيح لما خلق من الطين كهيئة الطير انما مقدوره تصوير الطين وانما حصول الحياة فيه فباذن الله فان الله يحيي ويميت وهذا من خصائصه ولهذا قال الخليل ربي الذي يحيي ويميت وفي القرآن في غير مواضع [يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وكنتم أمواتا فاحياكم ويحيي الارض بعد موتها والله يحيي ويميت) وما يتولد عن أفعال الملائكة وغيرهم ليسوا مستقلين به بل لهم فيه شركة كطمس أبصار اللوطية وقلب مدينتهم وكذلك النصر انما يقدرون على القتال كالانس والنصر هو من عند الله كما قال تعالى [وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله] والقرآن انما يقدرون على النزول به لا على احداثه ابتداء فهم يقدرون على الاتيان بمثله من عند الله واما الجن والانس فلا يقدرون على الاتيان بمثله لان الله لا يكلم بمثله الجن والانس ابتداء ولهذا قال [لايأتون بمثله] وقال تعالى (فأتوا بسورة من مثله) وقال (فأتوا بعشر سور مثله) وقال (فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) لم يكلفهم نفس الاحداث بل طالبهم بالاتيان بمثله اما احداثا واما تبليغا عن الله أو عن مخلوق ليظهر عجزهم عن جميع الجهات فقد يقال فنفس أفعال العباد ليست من الآيات اذ كانت مقدورة ومفعولة للعبد وان كان ذلك باقدار الله تعالى ولا نفس القدرة على ذلك الفعل فان المقصود من القدرة هو الفعل بل الآيات خارجة عن مقدور جميع العباد الملائكة والجن والانس وهي ايضا لا تنال بالاكتساب فان الانس والجن قد يقدرون باسباب مباينة لهم على أمور كما يقدرون على قتل من يقتلونه وامراضه ونحو ذلك وآيات الانبياء لا يقدر أحد أن يتوصل اليها بسبب والسحر والكهانة مما يمكن التوصل اليه بسبب كالذي يأتي باقوال وأفعال تحدثه بها الجن فالنبوة لا تنال بكسب العبد ولا آياتها تحصل بكسب العباد وهذا من الفروق بين آيات الانبياء

وبين السحر والكهانة وبينهما فروق كثيرة أكثر من عشرة ﴿ احدها ﴾ ان ما تخبر به الانبياء لا يكون الا صدقا واما ما يخبر به من خالفهم من السحرة والكهان وعباد المشركين وأهل الكتاب واهل البدع والفجور من المسلمين فانه لابد فيه من الكذب ﴿الثانى﴾ أن الانبياء لاتأمر الا بالعدل ولا تفعل الا العدل وهؤلاء المخالفون لهم لا بد لهم من الظلم فان ما خالف العدل لا يكون الا ظلما فيدخلون في العدوان على الخلق وفعل الفواحش والشرك والقول على الله بلا علم وهى المحرمات التى حرمها الله مطلقا كما قال تعالى [قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون] ﴿الثالث﴾ ان ما يأتى به من يخالفهم معتاد لغير الانبياء كما هو معتاد للسحرة والكهان وعباد المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والفجور وآيات الانبياء هي معتادة انها تدل على خبر الله وامره على علمه وحكمه فتدل على انهم انبياء وعلى صدق من اخبر بنبوتهم سواء كانوا هم المخبرين أو غيرهم وكرامات الاولياء هي من هذا فانهم يخبرون بنبوة الانبياء وكذلك اشراط الساعة هي أيضاً تدل على صدق الانبياء اذ كانوا قد اخبروا بها فالذى جعله اولئك من كرامات الاولياء واشراط الساعة ناقضا لآيات الانبياء اذ هو من جنسها ولا يدل عليها فاولئك كذبوا بالموجود وهؤلاء سووا بين الآيات وغيرها فلم تكن في الحقيقة عندهم آية وكانت الآيات عند أولئك منتقضة وأولئك نصروا جهلهم بالتكذيب بالحق وهؤلاء نصروا جهلهم أيضاً بقول الباطل فقالوا ان الآية هي المقرونة بالدعوى التى لا تعارض وزعموا انه لا يمكن معارضة السحر والكهانة اذا جعل آية وانه اذا لم يعارض كان آية وهو تكذيب بالحق أيضاً فانه قد ادعاه غير نبى ولم يعارض فالطائفتان ادخلت في الآيات ماليس منها واخرجت منها ما هو منها فكرامات الاولياء واشراط الساعة من آيات الانبياء واخرجوها والسحر والكهانة ليس من آياتهم وادخلوها أو سووا بينها وبين الآيات بل ونوابها (١) ﴿ الرابع ﴾ ان آيات الانبياء والنبوة لو قدر انها تنال بالاكتساب فهى انما تنال بعبادة الله وطاعته فانه لا يقول عاقل ان احداً يصير نبيا بالكذب والظلم بل بالصدق والعدل سواء قال ان النبوة جزاء على العمل أو قال انه اذا زكى نفسه فاض عليه ما

---

[١] هكذا الاصل ولعله بل قدموها

يفيض على الانبياء فعلى القولين هي مستلزمة لالتزام الصدق والعدل وحينئذ فيمتنع ان صاحبها يكذب على الله فان ذلك يفسدها بخلاف من خالف الانبياء من السحرة والكهان وعباد المشركين وأهل البدع والفجور من أهل الملل أهل الكتاب والمسلمين فان هؤلاء تحصل لهم الخوارق مع الكذب والاثم بل خوارقهم مع ذلك أشد لانهم يخالفون الانبياء وما ناقض الصدق والعدل لم يكن الا كذبا وظلما فكل من خالف طريق الانبياء لا بد له من الكذب والظلم اما عمدا واما جهلا وقوله تعالى (تنزل على كل افاك اثيم) ليس من شرطه ان يتعمد الكذب بل من كان جاهلا يتكلم بلا علم فيكذب فان الشياطين تنزل عليه أيضاً اذ من أخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه من غير اجتهاد يعذر به فهو كذاب ولهذا يصف الله المشركين بالكذب وكثير منهم لا يتعمد ذلك وكذلك قال النبي ﷺ لما افتى أبو السنابل « بان المتوفي عنها الحامل لا تحل بوضع الحمل بل تعتد ابعد الاجلين » فقال كذب أبو السنابل اى في قوله بان المتوفي عنها الحامل لا تحل بوضع الحمل بل تعتد أبعد الاجلين وكذلك لما قال بعضهم ابن الاكوع حبط عمله قال النبي صلى الله عليه وسلم كذب من قالها انه لجاهد مجاهد ونظائره كثيرة فالانبياء لايقع في أخبارهم عن الله كذب لاعمداً ولاخطأ وكل من خالفهم لابد أن يقع في خبره عن الله كذب ضرورة فان خبره اذا لم يكن مطابقاً لخبرهم كان مخالفا له فيكون كذبا فالذى تنزل عليه الشياطين اذا ظن واعتقد أنهم جاؤا من عند الله وأخبر بذلك كان كاذبا وكذلك اذا قال عما أوحوه اليه ان الله أوحاه اليه كان كاذبا قال تعالى [ان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم] ولما شاع خبر المختار بن أبي عبيد وهو أول من ظهر في الاسلام بالكذب في هذا وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « يكون في ثقيف كذاب ومبير » فكان الكذاب هو المختار بن أبي عبيد وكان يتشيع لعلى ولهذا يوجد الكذب في الشيعة أكثر مما يوجد في جميع الطوائف والمبير هو الحجاج بن يوسف وكان ظالماً معتديا وكان يتشيع لعثمان والمختار يتشيع لعلى فذكر لابن عمر وابن عباس أمر المختار وقيل لاحدهما أنه يزعم أنه يوحى اليه فقال صدق وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم وقيل للآخر أنه يزعم أنه ينزل عليه فقال صدق (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل

على كل أفاك أثيم] (الخامس) أن ماتأتى به السحرة والكهان والمشركون وأهل البدع من أهل الملل لايخرج عن كونه مقدوراً للانس والجن وآيات الانبياء لايقدر على مثلها لاالانس ولاالجن كما قال تعالى [قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً] (السادس) أن مايأتى به السحرة والكهان وكل مخالف للرسل تمكن معارضته بمثله وأقوى منه كما هو الواقع لمن عرف هذا الباب وآيات الانبياء لايمكن أحداً أن يعارضها لا بمثلها ولا بأقوى منها وكذلك كرامات الصالحين لاتعارض لا بمثلها ولا بأقوى منها بل قد يكون بعض آيات أكبر من بعض وكذلك آيات الصالحين لكنها متصادقة متعاونة على مطلوب واحد وهو عبادة الله وتصديق رسله فهى آيات ودلائل وبراهين متعاضدة على مطلوب واحد والادلة بعضها أدل وأقوى من بعض ولهذا كان المشايخ الذين يتحاسدون ويتعادون ويقهر بعضهم بعضا بخوارقه اما بقتل وامراض واما بسلب حاله وعزله عن مرتبته واما غير ذلك خوارقهم شيطانية ليست من آيات الانبياء والاولياء وكثير من هؤلاء يكون في الباطن كافراً منافقاً وكثير منهم يموت على غير الاسلام وكثير منهم يكون مسلماً مع ظلم يعرف أنه ظلم ومنهم من يكون جاهلا يحسب أن ماهوعليه مما أمر الله به ورسوله وهذا كما يقع للملوك المتنازعين على الملك من قهر بعضهم لبعض فهـذا خارج عن سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين (السابع) أن آيات الانبياء هي الخارقة للعادات عادات الانس والجن بخلاف خوارق مخالفيهم فان كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الانبياء وآيات الانبياء ليست معتادة لغير الذين يصدقون على الله ويصدقون من صـدق على الله وهم الذين جاءوا بالصدق وصدقوا وتلك معتادة لمن يفترى الكذب على الله أو يكذب بالحق لما جاءه فتلك آيات على كذب أصحابها وآيات الانبياء آيات على صدق أصحابها فان الله سبحانه لايخلى الصادق مما يدل على صدقه ولايخلى الكاذب مما يدل على كذبه اذ من نعته ما أخبر به في قوله [أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك] ثم قال خبراً مبتديا (ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته) فهو سبحانه لابد أن يمحق الباطل ويحق الحق بكلماته وقال تعالى (وماخلقنا السماء والارض ومابينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما

تصفون) كما أخبر في موضع أنه لم يخلق الخلق عبثاً ولا سدى وانما خلقهم بالحق وللحق فلا بد أن يجزى هؤلاء وهؤلاء باظهار صدق هؤلاء واظهار كذب هؤلاء كما قال (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) (الثامن) ان هـذه لا يقدر عليها مخلوق فلا تكون مقدورة للملائكة ولا للجن ولا للانس وان كانت الملائكة قد يكون لهم فيها سبب بخلاف تلك فانها اما مقدورة للانس أو للجن أو مما يمكنهم التوصل اليها بسبب وأما كرامات الصالحين فهى من آيات الانبياء كما تقدم ولكن ليست من آياتهم الكبرى ولا يتوقف اثبات النبوة عليها وليست خارقة لعادة الصالحين بل هي معتادة في الصالحين من أهل الملل في أهل الكتاب والمسلمين وآيات الانبياء التى يختصون بها خارقة لعادة الصالحين (التاسع) ان خوارق غير الانبياء الصالحين والسحرة والكهان وأهل الشرك والبدع تنال بافعالهم كعباداتهم ودعائهم وشركهم وفجورهم ونحو ذلك وأما آيات الانبياء فلا تحصل بشىء من ذلك بل الله يفعلها آية وعلامة لهم وقـد يكرمهم بمثل كرامات الصالحين وأعظم من ذلك مما يقصد به اكرامهم لكن هذا النوع [١] يقصد به الاكرام والدلالة بخلاف الآيات المجردة كانشقاق القمر وقلب العصا حية واخراج يده بيضاء والاتيان بالقرآن والاخبار بالغيب الذى يختص الله به فامر الآيات الى الله لا الى اختيار المخلوق والله يأتى بها بحسب علمه وحكمته وعدله ومشيئته ورحمته كما ينزل ماينزله من آيات القرآن وكما يخلق من يشاء من المخلوقات بخلاف ماحصل باختيار العبد اما لكونه يفعل مايوجبه أو يدعو الله به فيجيبه فالخوارق التى ليست آيات تارة تكون بدعاء العبـد والله تعالى يجيب دعوة المضطر وان كان كافراً لكن للمؤمنين من اجابة الدعاء ما ليس لغيرهم وتارة تكون بسعيه في أسبابها مثـل توجهه بنفسه وأعوانه وبمن يطيعه من الجن والانس في حصولها وأما آيات الانبياء فلا تحصل بشىء من ذلك (العاشر) أن النبى قد خلت من قبله أنبياء يعتبر بهم فلا يأمر الا بما أمرت به الانبياء من عبادة الله وحده والعمل بطاعته والتصديق باليوم الآخر والايمان بجميع الكتب والرسل فلا يمكن خروجه عما اتفقت عليه الانبياء وأما السحرة والكهان والمشركون وأهل البدع من أهل الملل فانهم يخرجون عما اتفقت عليـه الانبياء فكلهم يشركون مع تنوعهم ويكذبون

---

(١) لكن هذا النوع الخ يعنى بذلك مثل النصر على الاعداء وكشف الكربات ونوال الرغبات فهذا النوع فيه الاكرام والدلالة بخلاف الثانى فانه للدلالة فقط ✡

ببعض ما جاء به الانبياء والانبياء كلهم منزهون عن الشرك وعن التكذيب بشيء من الحق الذى بعث الله به نبيا قال تعالى [واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون]وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا يوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون) وقال تعالى [ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة] وقال تعالى [آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله]وقال تعالى(قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق) وقال تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) وقال تعالى [ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرن حقاً] وقال تعالى [واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين] وقال تعالى [شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب] وقال تعالى [يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً انى بما تعملون عليم وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون] ثم قال [فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون) وقال تعالى لما ذكر الانبياء (ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل الينا راجعون فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون) وقال تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فالانبياء يصدق متأخرهم متقدمهم ويبشر متقدمهم

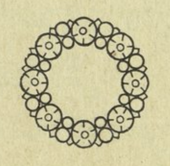
بمتأخرهم كما بشر المسيح ومن قبله بمحمد وكما صدق محمد جميع النبيين قبله ولهذا يقول (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزل مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) وقال [نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وانزل الفرقان ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد] وقال (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) والانبياء وأتباعهم كلهم مؤمنون مسلمون يعبدون الله وحده بما أمر ويصدقون بجميع ما جاءت به الانبياء ومن خالفهم لا يكون الا مشركا ومكذباً ببعض ما أنزل الله وبين الطائفتين فروق كثيرة غير خوارق العادات

(الحادى عشر) ان النبى هو وسائر المؤمنين لا يخبرون الا بحق ولا يأمرون الا بعدل فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعاد لا يأمرون بالفواحش ولا الظلم ولا الشرك ولا القول بغير علم فهم بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتبديلها وتغييرها فلا يأمرون الا بما يوافق المعروف في العقول الذى تتلقاه القلوب السليمة بالقبول فكما أنهم هم لا يختلفون فلا يناقض بعضهم بعضاً بل دينهم وملتهم واحد وان تنوعت الشرائع فهم أيضاً موافقون لموجب الفطرة التى فطر الله عليها عباده موافقون للادلة العقلية لا يناقضونها قط بل الادلة العقلية الصحيحة كلها توافق الانبياء لا تخالفهم وآيات الله السمعية والعقلية العيانية والسماعية كلها متوافقة متصادقة متعاضدة لايناقض بعضها بعضاً كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع والذين يخالفون الانبياء من أهل الكفر وأهل البدع كالسحرة والكهان وسائر أنواع الكفار وكالمبتدعين من أهل الملل أهل العلم وأهل العبادة فهؤلاء مخالفون للادلة السمعية والعقلية للسماعية والعيانية مخالفون لصريح المعقول وصحيح المنقول كما أخبر الله عنهم بقوله (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير) الآية فهؤلاء يخالفون أقوال الانبياء اما بالتكذيب واما بالتحريف من التأويل واما بالاعراض عنها وكتمانها فاما أن لا يذكروها أو يذكروا الفاظها ويقولون ليس لها معنى يعرفه مخلوق كما أخبر الله عن أهل الكتاب أن منهم من يكذب في اللفظ ومنهم من يحرف الكلم في المعنى ومنهم جهال لا يفقهون مايقرأون قال تعالى [أفتطمعون أن يؤمنوا لكم] الى قوله (فويل لهم مما كتبت أيديهم

وويل لهم مما يكسبون) وكذلك هم مخالفون للادلة العقلية فالانبياء كملوا الفطرة وبصروا الخلق كما تقدم في صفة محمد ﷺ أن الله يفتح به أعينا عميا وآذاناً صما وقلوبا غلفا ومخالفوهم يفسدون الحس والعقل كما أفسدوا الادلة السمعية والحس والعقل بهما تعرف الادلة والطرق ثلاثة الحس والعقل والخبر فخالفوا الانبياء أفسدوا هذا وهذا وهذا أما افسادهم لما جاء عن الانبياء فظاهر واما افسادهم للحس والعقل فانهم قسمان قسم أصحاب خوارق حسية كالسحرة والكهان وضلال العباد وقسم أصحاب كلام واستدلال بالقياس والمعقول وكل منهما يفسد الحس والعقل أما أصحاب الحال الشيطاني فقد عرف ان السحر يغير الحس والعقل حتى يخيل الى الانسان الشيء بخلاف ما هو وكذلك سائر الخوارق الشيطانية لاتأتى الا مع نوع فساد في الحس أو العقل كالمؤلهين الذين لا تأتيهم الا مع زوال عقولهم وآخرين لا تأتيهم الا في الظلام وآخرين تتمثل لهم الجن في صورة الانس فيظنون أنهم انس أو يرونهم مثال الشيء فيظنون أن الذى رأوه هو الشيء نفسه أو يسمعونهم صوتاً يشبه صوت من يعرفونه فيظنون أنه صوت ذلك المعروف عندهم وهذا كثير موجود في أهل العبادات البدعية التى فيها نوع من الشرك ومخالفة للشريعة وأما أصحاب الكلام والمقال البهتانى فانهم بنوا أصولهم العقلية وأصول دينهم الذى ابتدعوه على مخالفة الحس والعقل فأهل الكلام أصل كلامهم في الجواهر والاعراض مبنى على مخالفة الحس والعقل فانهم يقولون انا لا نشهد بل ولا نعلم في زماننا حدوث شيء من الاعيان القائمة بنفسها بل كل ما نشهد حدوثه بل كل ماحدث من قبل أن يخلق آدم انما تحدث أعراض في الجواهر التى هي باقية لا تستحيل قط بل تجتمع وتتفرق والخلق عندهم الموجود في زماننا وقبل زماننا انما هو جمع وتفريق لا ابتداع عين وجوهر قائم بنفسه ولا خلق لشيء قائم بنفسه لا انسان ولا غيره وانما يخلق أعراضاً ويقولون ان كل ما نشاهده من الاعيان فانها مركبة من جواهر كل جوهر منها لا يتميز يمينه عن شماله وهذا مخالفة للحس والعقل كالاول ويقول كثير منهم أن الاعراض لاتبقى زمانين ويقولون انه لا يفنى ويعدم في زماننا شئ من الاعيان بل كما لايحدث شئ من الاعيان لا يفنى شئ من الاعيان فهذا أصل علمهم ودينهم ومعقولهم الذى بنوا عليه حدوث العالم واثبات الصانع وهو مخالف للحس والعقل ويقول

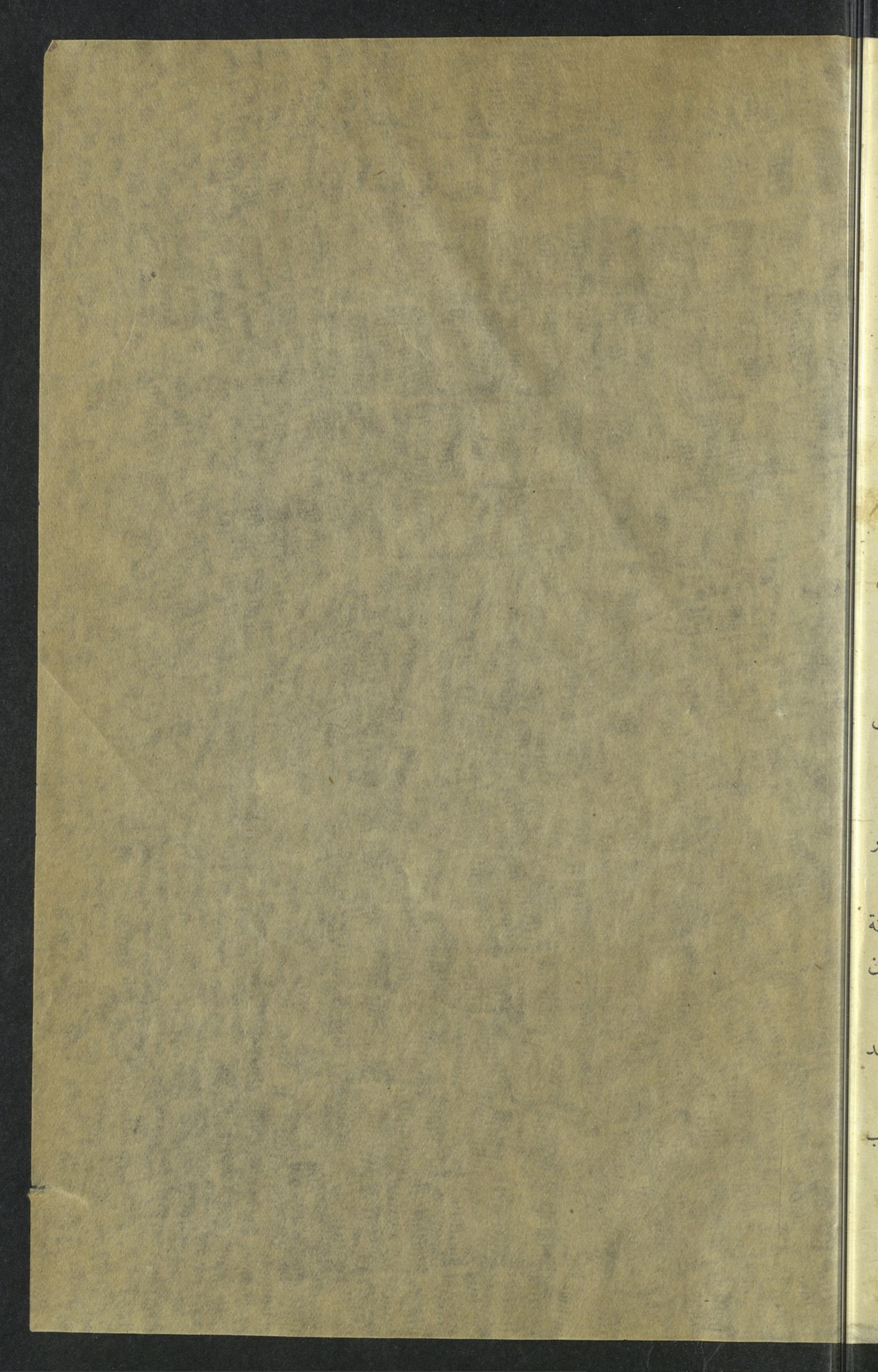
الذين يثبتون الجوهر الفرد ان الفلك والرحاء وغيرها يتفكك كلما استدار ويقول كثير منهم أن كل شئ فانه يمكن رؤيته وسمعه ولمسه الى غير ذلك من الامور التى جعلوها أصول علمهم ودينهم وهي مكابرة للحس والعقل والمتفلسفة أضل من هؤلاء فانهم يجعلون ما في الذهن ثابتاً في الخارج فيدعون أن ما يتصوره العقل من المعانى الغائبة الكلية موجودة في الجواهر قائمة بأنفسها اما مجردة عن الاعيان واما مقترنة بها وكذلك العدد والمقدار والخلاء والدهر والمادة يدعون وجود ذلك في الخارج وكذلك مايثبتونه من العقول والعلة الاولى الذى يسميه متأخروهم واجب الوجود وعامة ما يثبتونه من العقليات انما يوجد في الذهن فالذى لا ريب في وجوده نفس الانسان وما يقوم بها ثم ظنوا ما يقوم بها من العقليات موجوداً في الخارج فكان افسادهم للعقل أعظم كما أن افساد المتكلمين للحس أعظم مع أن هؤلاء المتفلسفة عمدتهم هى العلوم العقلية والعقليات عندهم أصح من الحسيات وأولئك المتكلمون أصول علمهم هى الحسيات ثم يستدلون بها على العقليات وبسط هذه الامور له موضع آخر والمقصود هنا التنبيه على أن من خالف الانبياء فانه كأنه مكذب لما جاءو به من النبوة والسمع فهو مخالف للحس والعقل فقد فسد عليه الادلة العقليه والنقلية والله سبحانه وتعالى أعلم ☆

تم والحمد لله طبع كتاب النبوات للعلامة تقى الدين بن تيمية وذلك بعد عرضه على أصله وتصحيحه وذلك سنة ١٣٤٦ هجرية على صاحبها أفضل صلاة وأكمل تحية ☆

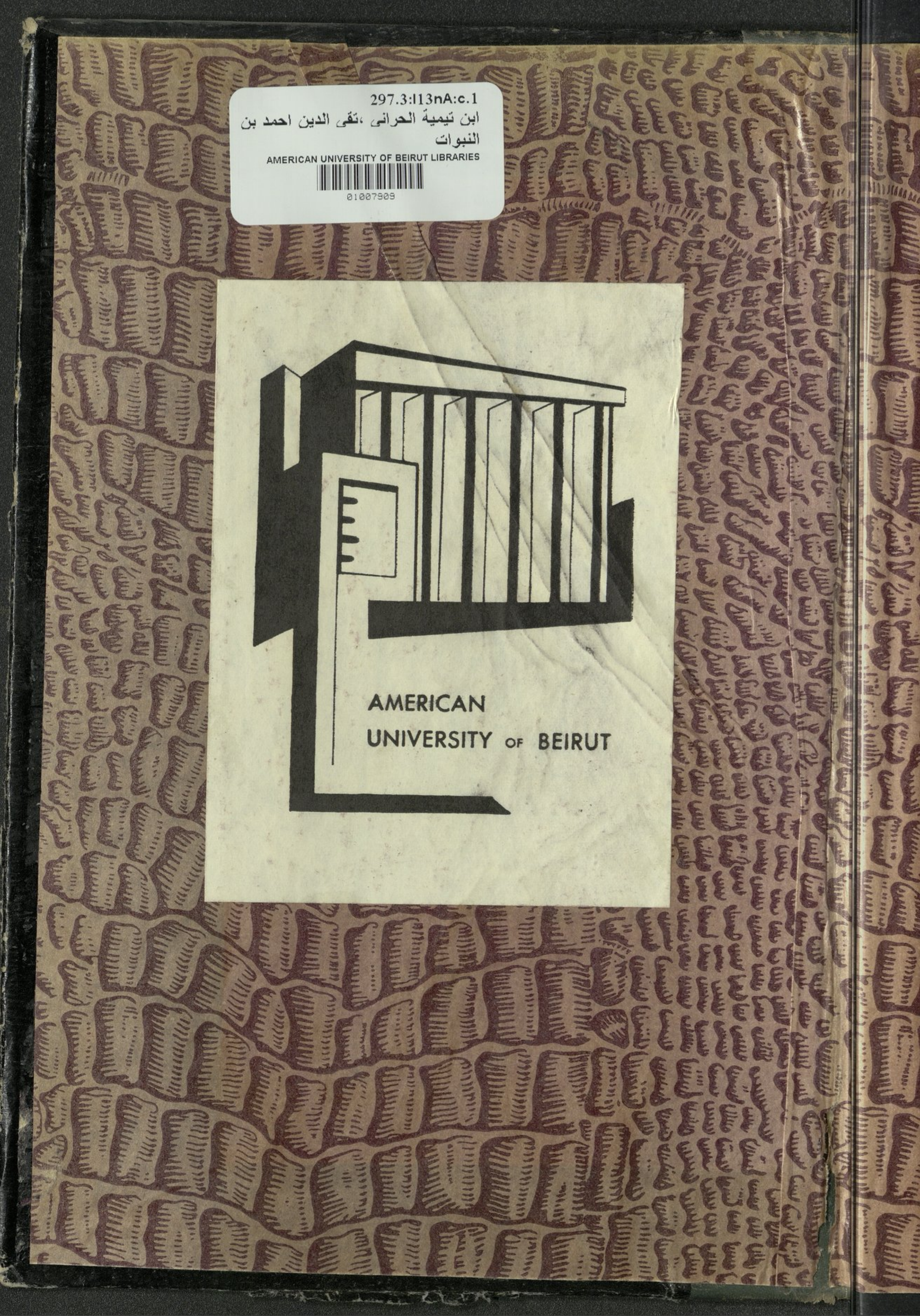


فهرست

كتاب النبوات للعلامة ابن تيمية






AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT